أشرف العشماوي

السرعة القصوى صفر

"مستوحاة من بعض أحداث حقيقية"

رواية

الدار المصرية اللبنانية

«رواية الحياة تبدأ قبل أن نولد،

تصل حياتنا للنهاية.. وتستمر الرواية»

أشرف العشماوي

تنويه

جميع مقاطع الراديو التي تتصدَّر بدايات الفصول منقولة من النص الأصلي الذي أُذيعت به دون أي تدخل من المؤلف، ومصادرها مجلة الراديو المصري، ومجلة الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية، وأرشيف مكتبة الموسيقار محمد عفيفي، وأرشيف مؤسسة دار الهلال، والجريدة السينمائية، وجريدة مصر الناطقة، وجريدة الإذاعة المصرية.

«إن هذا اليوم خالد في تاريخ مصر، فمنذ الصباح احتل

الناخبون أماكنهم أمام اللجان.. دليل على الروح

الديمقراطية دون وعيدٍ أو إغراءٍ، وباشروا حقوقهم

في حريةٍ أشاد بها العالم كله، ثم وصل الرئيس جمال عبد الناصر

إلى لجنته الانتخابية لمباشرة حقه كمواطن يؤدي واجباته ويعرف حقوقه، وفي مساء اليوم أعلن البكباشي زكريا محيي الدين وزير الداخلية فوز جمال عبد الناصر فوزًا ساحقًا برئاسة الجمهورية بنسبة 99.9% من إجمالي عدد الناخبين، كما وُوفِق على الدستور الجديد بنسبة 99.8% فأثبت الشعب للعالم بأسره رغبته في حياة ديمقراطية سليمة، وما إن أُعلنت النتيجة حتى احتشدت الجماهير لتهنئ الرئيس جمال عبد الناصر أول رئيس للجمهورية، بطل الجلاء، وزعيم الحرية، الذي أعاد لنا العزة والكرامة»

فهمي تاج الدين - 1

ذاكرتي مشوشة، كل ما أذكره أن جرس الباب ظل يدق بلا توقف، كنت عاريًا تمامًا أتأهب للاستحمام، ترددت للحظةٍ بين الماء الدافئ والبخار الباعث على الاسترخاء، وبين قلقي الذي تضاعف عندما طاف بخاطري أن شكري هو الذي يدق الجرس مصحوبًا بطرقات عصبية كعادته. لم يكن هناك أحد سواي بالسراي، والطَّرقات تعلو والدقات تتزايد، حسمت ترددي وانحزت لقلقي، ارتديت روبًا لأستر جسدي وذهبت لاستطلاع الأمر، وجدت رجلين يرتديان حلتين سوداوين، تفوَّه أحدهما بكلماتٍ قليلة، فهمت منها أنهما يأمراني بالذهاب معهما لتناول فنجان من القهوة، الوقت متأخر والدعوة مريبة، لكنني لا أملك المقدرة على السؤال أو رفاهية الاعتذار. سمحا لي بارتداء بعض ملابسي واصطحباني لمكانٍ لا أعلمه، وضعا فوق عينَيّ عصابة سوداء من قماش خشن، وعندما رفعاها وجدت نفسي في حجرةٍ واسعة، أمامي رجل بدين بشارب رفيع سألني عن المكان الذي يختبئ فيه شكري، ولمَّا لم تكن عندي إجابة، انهالت عليَّ الصفعات والركلات، فلم أهتم سوى بحماية رأسي، ثم دخلت في إغماءةٍ قصيرة، وعندما أفقت دعوت ربي أن يكون ما حدث مجرد كابوس، لكني اكتشفت يومها أن واقعي أثقل من كوابيسي كلها.

ذاكرتي ما زالت مشوشة، لا أتذكر تفاصيل التحقيقات معي ولا وجوه المحققين فيها، ليتني حتى أعرف تهمتي كي أدافع عن نفسي. اعتصرت ذهني ثم انتبهت على صوتٍ أعرفه آتيًا من بعيد، فأرهفت السمع.

- بونجور فهمي.

استغرق الأمر وقتًا لأدرك أنني أهذي فأسمع أصواتًا وعباراتٍ لا وجود لها إلا بمخيلتي، هذا ليس صوت أنيسة، ولا أنا في سريري بسراي جاردن سيتي، والحقيقة أن لا أحد هنا يُلقي تحية الصباح على أي مخلوق.

الليلة الأولى هي الأسوأ على الإطلاق، تسمع وترى وتشعر بكل شيء، دبيب الأقدام وصرير الأبواب، الشخير وخرير ماء الصنبور، ورائحة المساجين النتنة، حتى الألم له صوت من شدة الأنين وفرط الوجع. غابت مشاهد جلسات المحاكمة من عقلي أمام ما رأيته بيومي الأول في سجن الفيوم، أو المعسكر الغربي كما يُطلقون عليه، ليتبقى في قاع ذاكرتي الكثير من المهانة . في هذا النهار الحزين وقفت السيارة التي تُقلنا على مسافةٍ بعيدةٍ من البوابة، نزل كل ثلاثة منّا بعد فك الكلابشات من أيادينا، أمرونا بالجري فهرولنا يدفعنا خوف من المجهول، يركض خلفنا عساكر السجن بخيولهم،

يُلهبون أجسامنا بعصي رفيعة حتى بوابة المعسكر ليعودوا بعدها إلى غيرنا. اجتزنا باب الدخول وظهورنا مشتعلة ألمًا ونزفًا نتلمس طريقًا للنجاة، وجدنا فناءً رمليًا، في نهايته مظلة كبيرة يجلس تحتها اللواء هِمَّت قائد المعسكر، انتفض لمّا وقعت عيناه علينا كأننا أعداؤه، وراح عبر مكبر صوت ضخم يأمر كل واحد منّا بخلع ملابسه، ثم الجلوس في وضع القرفصاء مُطرقين، وعندما اكتملت صفوفنا بدأ الحلاق يمر من خلفنا، ممسكًا بماكينة حلاقة كبيرة كأنها آلة قص الحشائش، عندما شعرت بأنفاسه خلفي التفت التفاتة قصيرة، وجدته كريه المنظر والرائحة، يزيد فلج أسنانه ملامحه شرًّا، ويبتسم مثل ضبع هاجمك من الخلف وراح يتلذذ بضعفك وقلة حيلتك، جزَّ شعورنا بضربة ماكينة واحدة خلّفت لدى كثيرين جروحًا، كان نصيبي مجرد خدشٍ في مقدمة رأسي، لكنه نزف ببطء، ولمّا تحسسته نلت ضربة سوط فتوقفت عن الألم والأنين معًا، بعدها صاح فينا الصول مطاوع لدخول عنبر سبعة، تلقفنا صفان من العساكر بجريد النخل والأحزمة ذات القطعة المعدنية، ظلوا يضربوننا حتى تكدسنا كأشولة قطن ممزقة غلب عليها اللون الأحمر.

العنبر بالدور الأرضي، في نهايته نافذة عالية لا نستطيع النظر منها، ربما تطل على فناء السجن، المكان يتسع لعشرة

أشخاص، لكني أحصيت ثلاثين من المساجين، ثم توقفت عن العد بسبب رائحة خراء تفوح من ركن أقصى اليسار، حتى التصقت بأنفي وجسدي كله. طوال الليل أسمع أنَّات مكتومة لا يمكنني تحديد مصدرها، جمدت على وضعي وسط عشرات الأجساد فوقي وتحتي وبجواري، كأننا في مقبرة جماعية، ظللت أبكي في صمت حتى الصباح، لم يتبقَّ بذاكرتي إلا محاولاتي لستر عورتي، بعد إصرارهم على كشفها والعبث بجسدي، وكلما تذكرتها زادتني ألمًا وحسرة على حالي.

على مدار الأيام التالية ظلت الأحداث تمر أمام عيني بإلحاحٍ غريبٍ من عقلي، لتستجيب دموعي بغزارة لعلي أغسل جراحي. ذات ليلة، وربما قرب الفجر بعد ما فقدت إحساسي بالوقت، رحت أضرب رأسي في الحائط صارخًا، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا ملقى على سرير معدني، وبجواري شخص يخيط جرحي بإبرة غليظة، أما السلك فقد اكتشفت بعد قليل أنه مأخوذ من فيشة الكهرباء، فصرخت من الهلع. عُدت لزنزانتي واستلقيت محملقًا في السقف، همس نزيل يرقد بجواري أن الليلة ليلة عاشوراء.. لا أدري لماذا أخبرني وما الذي يتوجب عليَّ فعله، لكني في هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة في حياتي، لم يكن طعمه سيئًا كما

توقعت، وربما لم أعرف له طعمًا، فمن فرط الظمأ شربت وشعرت بارتواء، حاولت النوم في وضعي فلم أستطع، حتى طلع النهار ليتكرر اليوم بحذافيره وكأنني أدور في ساقية، أضخ المزيد من الأنين والألم، لكني في مرتبةٍ أقل من البهائم، فقد كنت أرى كل ما يحدث أمامي، الموت عشَّش في زنزانتي، كل أسبوع نفقد نزيلًا لم يتحمل التعذيب، عشرات الجثث نُقلت من العنابر لمكانٍ لا أعرفه، لكني شعرت بكل آلامهم حتى رحلوا، وانتابني لوهلةٍ إحساس مريب، أنني أحسدهم على الموت، و صرت أتمناه لنفسي كل ليلة لكنه لا يجيء.

***

مرَّت مائة يوم من الحبس بالزنازين حتى هَلَّ علينا صباح مشمس فأخرجونا منها، تفاءلنا عندما تركونا في الفناء لوقتٍ طويل، تجاوز المدة المقررة للفُسحة التي نمارسها لأول مرة، ارتفع سقف الأمل ببعضنا فتصور أن الأمور تبدلت والأحوال تغيرت، وقال آخرون في ثقةٍ إن قراراتٍ بالإفراج تنتظر التوقيع. كان اليوم جمعة وعلا الأذان، فطلبوا منَّا التوجُّه للمسجد، عرف بعض الخبثاء أن اللواء همَّت سيؤدي الصلاة معنا، ربما لأول مرة، بمناسبة ترقيته رئيسًا لمصلحة السجون،

لكن سقف التوقعات ارتفع والشائعات زادت، حتى تهامس البعض باسم الرئيس جمال عبد الناصر، تهلل وجهي ووجدتها فرصة لأن يتذكرني ويُخلي سبيلي من هنا، وربما أعود معه في سيارته إلى جاردن سيتي.

جلسنا نستمع للخطبة، مرَّت نصف ساعة والخطيب ينظر كل حين ناحية الصول مطاوع في أقصى القاعة ، فيُشير له بالاستمرار، بعد ساعتين شعرنا بتعبٍ رغم تغيير وضعية جلوسنا عشرات المرات، نام بعضنا على جنوبهم رغمًا عنهم، وغفا آخرون وهم جالسون مثل بوذا، وتثاءب الباقون، ثم لاحظنا اختفاء الصول مطاوع، وطال غيابه حتى اضطر الخطيب محبطًا لإقامة الصلاة.

دبَّت فينا الروح وساوينا الصفوف واستقمنا وكبَّرنا، وعلى ذكر الضالين بالفاتحة زعق صوت جهوري:

- السيد اللواء وزير الحربية.

التفت الإمام مفزوعًا، وهرع ناحية الميكروفون وهو يكاد يتعثر في جلبابه الطويل صارخًا فينا:

- كما كُنت.

جلسنا نتلفت حولنا، لمحت الوزير ومن خلفه اللواء همَّت

رئيس المصلحة وكبار الضباط، اختاروا الصف الأخير، وأراحوا ظهورهم على الجدار، ربما تعبًا من الجلوس بالسيارات التي أقلتهم إلى هنا، تحدث الخطيب لخمس دقائق حتى أشار له الصول مطاوع بعد عودته لمكانه، فأقام الإمام الصلاة مرة ثانية على الفور، ولم تستغرق هذه المرة سوى دقيقة.

خرج الوزير وهو يلوح لنا مودعًا، صفق بعضنا وراح آخرون يدعون له بالنصر على الأعداء. مضى الركب مخلفًا وراءه الكثير من الغبار، وما إن انقشع حتى ظهر الحراس بالأحزمة ليعيدونا إلى الزنازين، مجلودين محطمين بعد ما صرنا جميعًا بقايا بشر، ولو كُتب لي الخروج يومًا ما من هنا، سأتمنى الموت على الحياة بنصف عقل وقلب منكسر وجسد عليل.

***

«السيدات والسادة.. نذكركم بأهم عناوين الأخبار الواردة

في هذه النشرة الإذاعية، بدء برنامج الجمهورية العربية المتحدة

لغزو الفضاء، المفاعل الذري العربي بدأ العمل منذ أيام، سباق بين الجمهورية العربية وفرنسا ودول غرب أوروبا لإطلاق قمر صناعي، مصر ثالث دولة في العالم بعد الاتحاد السوفييتي وأمريكا تصنع

صواريخها بنفسها، الصاروخان القاهر والظافر يطوفان

شوارع العاصمة في موكب مهيب، وأخيرًا إنشاء جهاز مركزي

لمحاسبة المسئولين في القطاع العام ومراقبة تنفيذ المشروعات»

شكري تاج الدين - 1

بدا الأمر لوهلةٍ أشبه بقفزةٍ كبيرةٍ في الظلام، قطعنا بالسيارة مسافة طويلة قدرتها بعشرين دقيقة داخل دروب صحراوية ملتوية، أخذوا ساعتي عندما ركبت العربة، ولأنها عزيزة عليّ وأول هدية من زوجتي أوصيتهم بالحفاظ عليها، وضعوا عصابة من القماش على عينَي معتذرين، ومع أنني معتاد التعامل مع مجرمين، ولطالما ضبطت صبيان عصابة الوالي، لكن انتابني شعور غريب، كأنني ألتقي خارجين عن القانون لأول مرة في حياتي، وعندما هبطت من العربة ونزعوا العصابة من فوق عينَي وجدت نفسي في مكان أشبه بوادٍ بين جبلين صغيرين، وبعد أقل من ساعة وسط رجال الوالي أحسست بشعورٍ أغرب، أنني صرت الآن واحدًا منهم.

ربما كان فهمي محقًّا في قلقه، رغم اختياري مكان اختفائي بعد دراسة وتشاور مع المقربين مني، اعتمدت على مصادري في التواصل مع رجال عبد الكبير الوالي، حتى توصلنا لاتفاق بإيوائي، لم نخبر الوسيط بيننا وبينهم بحقيقة شخصيتي، كل ما يعرفونه أنني محامٍ يُدعى رشيد عبد القادر وأصولي من الصعيد، هارب من حكم بعشر سنوات في جناية تزوير ظُلمت فيها، وسأقيم عنده فترة طويلة حتى أستطيع تدبير

أدلة براءتي عند إعادة محاكمتي.

أخرجني من شرودي صوت أحد رجال الوالي وهو يناديني:

- من هنا يا أفندي.. امشي ورا خيط النور.

سرت خلف صبي يحمل مصباحًا حتى وصلنا إلى خيمة أزاح بابها ودعاني للدخول، صغيرة لكنها مجهزة بفراشٍ نظيف، بجواره لمبة جاز مشتعلة بإضاءة كافية لتبين المكان، لمحت مصحفًا وبعض الكتب وأوراقًا وأقلامًا كطلبي. أمام المرتبة التي احتلت نصف الخيمة وجدت صينية مغطاة بمفرش شفاف، كانت رائحة الطعام كافية كي ألتهم نصفه بشهية مفتوحة، بعدها قررت إيقاف عقلي عن التفكير مؤقتًا ونمت، ومع أول خيط نور استيقظت، وجدت حارسًا مسلحًا يجلس على باب خيمتي فزادني قلقًا، حاولت الاستفهام منه عن سبب تواجده لكنه لم يُفدني بشيءٍ مفهوم، بدا كأنه يتحدث بلغةٍ غريبةٍ عني رغم كلماته العربية المبعثرة، وفشلت في إعادة ترتيبها لأخرج بجملة مفيدة، اغتسلت بإبريق صغير واصطحبني للقاء الوالي حسبما قيل لي أمس.

لمحت كل مائة متر تبّة صغيرة يعتليها رجل مسلح بمدفع له ماسورة طويلة، انحرفنا ناحية اليسار بعد مسيرة قصيرة

في طريقٍ مملوءٍ بالحصى المدببة، دلفنا إلى مغارة مضاءة بالشموع، تمكنت من حفظ مسارات الطريق بذاكرتي هذه المرة بعد ما تخلوا عن وضع العصابة فوق عيني.

في المغارة وجدت عشرات الدُّمى الخشبية، غالبيتها مكسوة بملابس إفرنجية وبلدية، مررت وسطها كأنها طابور شرف صامت ثم انحرفنا إلى أقصى اليمين، شعرت لوهلة بأننا ندور حول أنفسنا، لأجد نفسي وسط حلقة كبيرة، تتوسطها سيدة سمينة ذات حاجبين رفيعين وأنف بارز بصورة لافتة، عيناها غارقتان في الكحل، رمقتني بنظرةٍ لا تخلو من بجاحة، ووأدت ابتسامة حامت حول شفتيها لثوانٍ، أمامها طست كبير ممتلئ حتى حافته بالماء، تعوم على سطحه ورقة بيضاء، اختارت السيدة واحدًا من الصبيان كي يشق الورقة بموسى صغير، وإذا ما تحركت صفحة الماء أو ابتل سطح الورقة هوت على وجهه بصفعة هائلة تكومه على ظهره، بعدها تكيل له السباب أنواعًا، تعايره بأن يده ثقيلة ويحتاج لتدريب، وإذا فلح أحدهم غازلته بعبارات منزوعة الحياء أشعرتني ببعض الخجل.

هوت كف على كتفي، التفت فوجدت رجلًا طويلًا عريضًا شديد السمرة، عيناه جاحظتان، له شارب مبروم، وعضلات

ذراعيه منتفخة بصورة ملفتة، أشبه برمّانتَين، يحتل نصف وجهه أنف عجيب أقرب لخرطوم فيل وليد، بسط الرجل كفًّا أكبر من خُف الجمل وهو يُعرفني بنفسه:

- محسوبك أحمد الضبع.

- رشيد عبد القادر.

أكاد أكون نطقت اسمي المستعار همسًا من فرط ارتباكي، ابتلعَت كفُّه يدي وأخفتها، وبعد مقدمة قصيرة فهمت أن الضبع هو المساعد الأول لعبد الكبير الوالي، دعاني لتناول القهوة، استلقينا ممددين على وسائد رفيعة، ومن ثنايا حديثه الطويل أدركت أن سقفي ينتهي عنده ولا لقاء مع الوالي، وعندما ألححت على رؤيته أخبرني بأنه على سفر حاليًا، لكن نبرة صوته لم تُرحني وشعرت أنه يُخفي عني أمرًا.

كان «الضبع» هو المسئول عن التدريبات بالمغارة، ولمّا سألته عنها من باب فض المجالس وقتل الملل، اصطحبني في جولة امتدت لساعات، لأكتشف أنني في مدرسة كبيرة متخصصة في النشل، تعليم وتدريب وممارسة، مؤسسة لها قواعدها وأساليبها الصارمة المتفردة، كنت أعرف بعضها بحكم وظيفتي السابقة في البوليس، وأعلم أن المجرم

يحتاج لثلاثة أشهر على الأقل قبل التخرُّج وممارسة التدريب العملي، والذي يقضي فيه فترة مماثلة مع صبي قديم قبل أن يُصبح مسئولًا عن آخرين، فيذهب لدور السينما والبنوك والحدائق والمحلات العمومية، ثم تكون الدرجة التي تعادل الدبلومة هي المواصلات العامة، ربما لأنها صندوق مغلق متحرك، يصعب الهروب منه ويحتاج لمهارة استثنائية، لاحظت أن غالبية النشالين بمدرسة الوالي في مرحلة المواصلات من النساء، وظننت أن الرجال دورهم التقفيل عليهن وحمايتهن، لكن الضبع كان له تفسير وجيه لأتفهم دور النساء شديد الحساسية:

- ومين يا أفندي ما يحبش إن حتة طرية تريح جتتها عليه شوية في زحمة المواصلات؟!

في الأسبوع الأول من الشهر الثاني، ومن باب قتل الوقت، اقترح الضبع أن أمارس تدريبات على النشل، وافقت من فرط الملل، ولأنني أحظى بحماية خاصة وأدفع مبلغًا سنويًّا كبيرًا نظير إيوائي تولى الضبع بنفسه تدريبي، كنت أتسلى بعض الأحيان محاولًا فك رموز شفرة حديثهم، ورغم خبرتي فشلت في فهم كلمات كثيرة، لم أتخيل أن الساعة تُسمى «ترمسة»، وقلم الحبر «صُباع»، والضحية يسمونه «كروديا»،

سألت الضبع مبتسمًا عن اسم رجل البوليس فيما بينهم، ودهشت لمَّا علمت أن لقبي هو «اليازجي»، ولمَّا عرفوا أنني محامٍ قالوا على استحياء «أبو لسان طويل».

استمر التدريب اليومي لساعتين كل نهار، ورغم عدم توتري لم تكن تجربتي العملية سهلة، حاولت نشل حافظة جلدية بجيب سترة موضوعة فوق مانيكان، لكنهم وضعوا أجراسًا صغيرة مثبتة بالجيب تدق عند أي حركة طفيفة. ظلت الأجراس تعلن في كل مرة فشلي بصورة أزعجتني، حتى جاء يوم وبعد أن بلغ ضيقي مداه قررت النجاح، نشلت حافظة نقود الضبع نفسه من جيبه الخلفي.

اعترت وجهه ملامح غريبة، مزيج من ضيق ودهشة وكثير من الإعجاب بخفة يدي، فهتف:

- الإيد البطَّالة نجسة، من بكرة تنزل الشغل على خفيف، بعيد عن الترمواي ومحطة القطر.

لا أتذكر كل ما قلته له يومها، لكن عبارات السباب التي أفلتت مني لم تكن قليلة، استعدت شخصية الضابط وتعاملت بها مع الضبع، قرأت تراجعه وخوفه على ملامحه المندهشة ولعثمة لسانه وهو يحاول الاعتذار، انتهزت الفرصة وطلبت لقاء الوالي كرقصة بجعة أخيرة، رافضًا فكرة

كونه على سفر طوال الوقت التي يتحججون بها، ليس لديَّ ما أُهدد بفعله لو لم يستجب لي، لكني صممت على طلبي بعد ما غمرني شعور بأنه موجود بيننا، حسبما فهمت من أحاديث جانبية سمعتها بالصدفة بين الضبع وسيدة مليحة يعملون لها ألف حساب.

مرَّ أسبوع بعدها وأنا لا أبارح خيمتي، توقفت الزيارات الميدانية لمدرسة النشل، حتى الضبع لم أعُد أراه، فقط صبي صغير يحمل صينية الطعام ثلاث مرات كل يوم وتتغير الحراسة على الخيمة ولا شيء بعدها، أدركت بعد يومين أنني في حبس انفرادي، فهمت متأخرًا أنها عقوبة من تلك التي يوقعها الضبع على الصبيان المتمردين كل حين، زاد خوفي بسبب علمي أن العقوبة ترتفع أحيانًا إلى الطرد مع إبلاغ البوليس عن الخارجين من العزبة، ووقتها سأتعرى من الحماية. ظللت قلقًا، قليل النوم ، حتى أبلغني حارسي في صبيحة يوم مشمس بالاستعداد للذهاب إلى المغارة.

كانت عقارب الساعة تقترب ببطءٍ من السابعة، رأيت أمامي طابور الصباح كما يسمونه، وشاهدت نساءً كثيرات وبعض الرجال متوجهين إلى المواصلات العامة للحاق بركابها من الموظفين، وقفت عند باب مغارة تطل على وادٍ فسيحٍ أتابع

مراسم الخروج بعد انصراف حارسي، حتى ظهر الضبع وبصحبته شخص طويل هزيل يرتدي بدلة واسعة بصورة ملحوظة، يضع على عينيه نظارة طبية ذات عدسات سميكة، له شعر أشيب بلون القطن كثيف للغاية، تذكرت ملامح الرجل لكني نسيت اسمه، رأيته في كل تدريبات النشل تقريبًا وبكافة أنحاء المغارة، ممسكًا بدفتر صغير يدوِّن فيه ملاحظات قصيرة على مدار اليوم، يظهر قرب العصر ويختفي عند المغرب.

صافحني الضبع في تأدُّب لم أعتده منه، ونظر الرجل الهزيل في ساعته ونهض مستأذنًا في الانصراف لتأخره عن عمله بوزارة الأشغال، هَبَّ الضبع وهو يحييه باحترام بالغ، ابتسمت متعجبًا، لكن الهزيل فاجأني بصوتٍ مهيب:

- الليلة لنا قعدة طويلة، أنا اتقصيت عنك وعرفت حكايتك، تشرفنا يا حضرة البكباشي شكري.

تركني الرجل ملتصقًا بذهولي بعد ما عقد الصمت لساني، آخر مَن كنت أتخيله عبد الكبير الوالي هو هذا الرجل. ظللت جالسًا مكاني متوجسًا بعد كشف شخصيتي، وبينما كان الضبع يقدم لي سيجارة بكفه المهولة وهو يتمتم بعبارات اعتذار لجهله كوني ضابط بوليس، كانت يدي الممدودة

ترتعش، وعيني ترقب الوالي وهو يركب عربة موريس صغيرة قادها بنفسه حتى غاب عن بصري، ومن بعدها شعرت أنني فقدت القدرة على الكلام والتفكير والرؤية معًا.

***

«هنا القاهرة.. سيداتي وسادتي يسعدنا أن نقدم لكم أولى سهرات

إذاعة المملكة المصرية في أول يوم من بثها الإذاعي اللاسلكي

لمحطة الراديو، سهرة تُحييها الآنسة أم كلثوم في وصلة طرب جديدة،

ويُلقي حسين شوقي أفندي قصيدةً لأمير الشعراء أحمد شوقي بك،

ويُتحفنا الشاعر علي بك الجارم بقصيدةٍ تحية لملك البلاد

فؤاد الأول ملك مصر والسودان، كما نُقدم لكم بكل الفخر

فقرات فنية للمنولوجست محمد عبد القدوس،

وعزفًا بديعًا منفردًا لبعض المقطوعات العالمية للموسيقار

مدحت عاصم.. نتمنى لكم سهرة سعيدة»

فهمي تاج الدين - 2

«واحد.. اثنان.. ثلاثة».. رددتها في هذا المكان لسنوات عديدة، كنت أرفع كفي عن عيني قبل أن أصل إلى رقم عَشرة، وألتفتُ بحثًا عن شكري وأصدقائه، من بعيد ألمح أحدهم، أطارده ولا ألحق به، يظهر غيره أمامي ويمر ثالث من خلفي، يظهرون كأشباح فأقترب منهم، أكاد ألامسهم ولا أفلح في الإمساك بهم، كأنهم كانوا سرابًا، نجحوا كل مرة في الوصول قبلي إلى الباب الأخضر الذي نسميه «بيت الأمة»، حتى ظللت دومًا الخاسر الوحيد.

من بينهم جميعًا يُحيرني شكري، كان يبرع في الاختباء حتى النهاية، يكمُن تحت الأرض ثم يظهر فجأة مبتسمًا بلزوجة ليكسب الرهان، ويظل بعدها لأيام يتندر على بطء حركتي وتأخر رد فعلي بأن سرعتي القصوى صفر، ثم يضحك وحده على مقولته. لعبنا الغُميضة بشروطه لسنوات طويلة، حتى جاء يوم وسئمت اللعبة فهجرتها، بينما ظل هو يلعبها مع جيراننا أو مع أولاد الفلاحين بالعزبة، ربما ليدخر مزيدًا من المال، وكأن المئات من قروشي التي خسرتها لم تُغنِه بعد، ربما دفعني المال لممارستها في وقتٍ ما، مع أنني إلى الآن لم أنَلْ سوى شرف المحاولة.. إنْ كان هذا شرفًا.

اليوم الأحد الأول من مايو، عيد مولدنا، هذه المرة صادف يوم السباق بمنطقة هليوبوليس كما دوَّنته بدفتري الذي أكتب فيه يومياتي المهمة، تبهرني احتفالات سباقات الخيول، وأشعر مع بدايات الصباح بأنه سيكون يومًا مختلفًا، يسري حماس غريب بجسدي قبل أن أغادر فراشي مبكرًا، لأجد جدي سبقني لتناول الإفطار، أما شكري فيلحق بنا متثائبًا، وفي اللحظات الأخيرة قبل أن نعبر الحديقة إلى باب الخروج صحبتنا أمي محتفظة بابتسامتها العريضة، رغم أنها تخسر في كل مرة وتضحك على خسارتها.

دار جدي حول الإسطبلات في صمتٍ وقورٍ كمَن يؤدي طقوسًا مقدسة، وقف أمام لوحة التنسيق والتشبيه التي تصنف الخيل حسب السن والنوع والأصل، انتقل ببصره للوحة السباق وطابق ما بها على النوتة التي معه، بعدها دوَّن اسم ورقم الحصان الذي اختاره، والتفت ناحيتنا قائلًا جُملته الشهيرة:

- كل واحد له تذاكر بعشرة قروش.

في كل مرة أختار الفرس رهوان، يعجبني اسمه، ربما لأنني فزت به مرة وربحت جنيهًا، بينما يختار شكري حصانًا أسود بغير تمييز، لا يهمه الاسم ولا يتفاءل برقم، أشعر هذه المرة

أنه غير مكترث، يمشي بخطى ثقيلة ويتثاءب أغلب الوقت، ومع ذلك لا يُعيره جدي اهتمامًا، سلمه تذكرته ونبَّه عليه بعدم إضاعتها مثلما فعلها من قبل، هزَّ شكري رأسه وطلب شراء بعض السندوتشات وزجاجة سپاتس بينما انشغلت بمراقبة رواد السباق، الأرمن والشراكسة واليهود والإنجليز الذين يحضرون كل موسم، وزراء ووجهاء من أصدقاء أبي وصحفيين وقضاة أُحيلوا إلى المعاش من معارف جدي، لمحت الممثل المسرحي يوسف بك وهبي، لكني خجلت من السلام عليه بعد ما رأيت سيدات كثيرات حوله، على مقربة عشرات القبعات المختلطة بالطرابيش القانية أمامي في مشهد يستحق رسمه في لوحة، تسللت لأنفي رائحة الطعام رغم بُعد الكافيتريا عن المقصورة، جرى لعابي وظللني الندم على أنني لم أطلب مثل شكري بعض الطعام، فمؤكد لن يعطيني من نصيبه حتى الفتات، وسيتعمد إغاظتي لو عرف بحاجتي.

جلسنا على يسار مقصورة الملك فؤاد، لكنه لم يكن حاضرًا رغم انتشار عساكر الحرس الملكي، دقَّ النفير عاليًا وبدأ السباق، لم أجلس لثانيةٍ واحدة، ظل جدي يتابع الخيول بالمنظار المقرب، في حين استرخى شكري كسولًا في مقعده، استمر يلعب بإصبعه في أنفه حتى نهرته أمي التي لم تكف

عن الثرثرة مع صديقاتها. قبل أن تقترب الخيول من خط النهاية أدركت أن حصاني خسر، وتأكدت عندما رأيته يعبر الخط ثالثًا أو رابعًا، أنزل جدي منظاره من فوق عينيه وهو يتأفف، في حين حافظت أمي على ابتسامتها العريضة، لم تنفعل للحظة مع مكسب شوط أو خسارة دورة سباق، وربما لا تتذكر رقم الحصان الذي راهنت عليه.

«السادة الزوار.. رجاء الانتباه، فاز بالمركز الأول الحصان سيف رقم 7».

قبل انتهاء المذيع الداخلي من إعلان النتيجة بالفرنسية، انتفض شكري حتى حسبته طار من فوق مقعده، كاد يرقص رافعًا بيديه تذكرة حصانه الفائز، تركنا وذهب مع جدي لاستلام النقود التي ربحها لأنه دون السن القانونية، وفي طريقه لم ينسَ أن يُخرج لي لسانه.. فتوعدته.

عند عودتنا كنت أجلس عكس اتجاه السير بجوار جدي على الأريكة الخلفية، تبهرني سيارته الرولز رويس ذات الأريكتين المتقابلتين كأنه صالون صغير، أمامي شكري وأمي، أغلقت الحاجز الزجاجي الذي يفصلنا عن السائق، تعمدت إحراج أخي الذي يرقد بجيبه جنيهان حصيلة مكسب السباق، قُلت بصوتٍ عالٍ:

- إنت قُلت لي إن سباقات الخيل حرام، ولازم توزع المكسب علينا علشان ما تاخدش ذنوب.

غابت الابتسامة عن وجه أمي، وسأله جدي في انزعاجٍ عن سبب تحريمه سباقات الخيول وعن هوية المخبول الذي ملأ رأسه بهذا الكلام الفارغ، اصفرَّ وجه شكري وابتسم بلزوجةٍ قائلًا:

- فهمي بيفهم غلط، أنا قُلت حرام لو كسبت إني أصرف الفلوس لوحدي، ولازم أوزع نُصها على الغلابة.

قالها وهو ينظر نحوي في تحدٍّ، تبدَّدت غيوم الغضب من وجه أمي وربتت ساق أخي، في حين بدا جدي ممتعضًا، لكنه لاذ بالصمت، ربما غير مقتنع بكذبة شكري الذي باغتنا والتفت دون مقدمات فاتحًا الحاجز الزجاجي الذي يفصلنا عن السائق، علا صوته واعدًا إيَّاه بمكافأةٍ كبيرة، بعدها أدار مقبض النافذة ليستنشق بعض الهواء وهو يرمقني بنصف عينٍ متوعدًا.

دخلت السراي متكاسلًا حتى جذبتني رائحة الطعام، هرولت صوب المطبخ لأُشبع جوعًا مؤقتًا في الخفاء قبل أن تنهرني أمي لزيادة وزني، دائمًا تقارنني بشكري الذي يأكل بالكاد، لا أتوقف أمام ما تقوله، يغطي صوت عصافير

بطني على صياحها إذا ما رأتني آكل في غير مواعيد الطعام المقدسة عندنا، الثالثة تمامًا نجلس حول طاولة السُّفرة التي تتصدرها جدتي أنيسة وفي مواجهتها جدي، وبينما أجلس كل مرة في مكانٍ مختلفٍ يكون شكري دائمًا الأقرب لأبيه، لا يناله عقاب مثل عقابي، ولا تُرى أخطاؤه بعدسة مكبرة، وأحيانًا يتم التغافل عنها وكأن شيئًا لم يكن. أدرك شكري نقطة الضعف مبكرًا واستثمرها لصالحه، حتى صار ملاكًا أغلب الوقت في نظر أبيه، وإذا ما أخطأ فإن خطأه من عمل الشيطان، الذي غالبًا هو أنا.

منذ سنوات نترك مقعدًا خاليًا بسفرتنا يخص شقيقتي نزولًا على رغبة أمي، على يسار أنيسة تجلس السِّت شفيقة جليستها متراجعة للوراء قليلًا، هي الوحيدة المسموح لها بتدليك قدمَي جدتي، لكن أهميتها في رأيي تنبع من حيازتها لمفتاح الكرار الذي يحوي أشولة الدقيق وشكائر الأرز وزجاجات الزيت الطويلة وصفائح السمن البلدي والجبن البراميلي. هي وزير التموين كما يُسميها أخي، تكرمها جدتي بتناول الطعام على سفرتنا بتشجيع من جدي، رغم همهمات شكري وصمت الرفض المرتسم على ملامح أبي وحياد أمي ولا مبالاتي بالأمر، مع ذلك تشي جلسة شفيقة المتراجعة للوراء بأنها للمساعدة والمناولة لا إكرامًا لها بتناول الطعام

معنا، ربما يكفيها شرف المحاولة مثلي.

اخترقت البهو صاعدًا لغرفتي المطلة على الحديقة، مررت بجدتي أنيسة التي لها من اسمها نصيب، كانت تضع ساقًا فوق أخرى في كبرياء وتستمع للراديو، جذبتني من يدي فاستسلمت راضيًا، زحزحت جسدي لأغرق في حضنها قبل أن يزاحمني أخي شكري، تفصلني عنه دقيقتان وبضع ثوانٍ كما روت أمي، خرج من بطنها قبلي، ملامحنا ليست متطابقة ولا حتى متشابهة رغم أننا توأم، أمر طبيعي كما قال الأطباء لأبي، الذي يجدني مسالمًا لدرجة التخاذل مع قليلٍ من الخبث، في حين يرى شكري جريئًا لحد الجنوح مع كثيرٍ من الطيبة، وقف أبي على مسافة واحدة من كلينا ليجذبنا نحوه ففشل، بينما ظلت أمي تروح وتجيء في المسافة الشاسعة التي تفصل بين صفاتنا لترضينا سويًا حتى كسبتنا معًا.

مسّدَت أنيسة شعري وبدأت تحكي لي قصة مكررة كعادتها، بِتُّ أحفظها وأكاد أعيدها بذات كلماتها، قصة عن أمي التي لم تعرف نوع توأمها قبل خروجنا للحياة، أخبرها الطبيب بأننا كنَّا متعانقين فاشترت ملابس بألوان محايدة تحسبًا للمفاجأة، انتقت أسماءً لأولاد وأخرى لبنات، راهنها أبي على أنهما ولد وبنت فاختار اسمين مختلفين، صرخت أمي فانزلق

شكري وخرج يستطلع الطريق إلى الدنيا، بعدما تركني برحمٍ مظلمٍ عشنا فيه لشهورٍ متعانقين، أسمع دقات قلبه في صدري كل يوم حتى تعلقت روحي به، وعندما خرجت وجدته يبكي بصوتٍ عالٍ، فغطى صياحه على محاولاتي لإثبات وجودي. ختمت جدتي قصتها ببطولة مطلقة كعادتها، هي الوحيدة التي كانت تعرف نوع المواليد، وهي مَن اختارت أسماءنا.

أخبرني جدي بأن القصة خرافة من خرافات أنيسة، لا أحد يعرف نوع المولود قبل الولادة ولا حتى كونهما توأم، لكني أحب حكاياتها. من بعيد لمحت أبي يهبط السلم الرخامي قادمًا نحونا، نهرني لجلستي المتراخية واتهم أنيسة بإفسادي، لكنها لا تُعير كلامه اهتمامًا وتتمادى في تدليلي. أعد لنفسه كأسًا من شرابٍ لونه وردي، وجلس بجوار البار متأففًا دافسًا وجهه في جريدة تبدو قديمة، كلما اجتمعت بأبي وجدت أسئلة بلا إجابات تغمر رأسي حتى تفيض على جبهتي وتُنبت بها علامات الاستفهام، لا أملَّ من سؤاله عن المكان الذي تبيت فيه الشمس كل يوم، وهل تلك مراسم الغروب؟ يُعجب أبي بالسؤال لكنه لا يُعطيني إجابة مقنعة، أسأله لماذا نكبر ونمرض لنموت؟ يُجيب أسئلتي في ضيق، ربما يراها ساذجة، يقول كلامًا كثيرًا مبهمًا ثم يبتر الحديث

بعبارته الأثيرة «هكذا تجري الأمور»، حتى توقفت الإجابات على أبواب السماء عندما سألته عن شجرة التين التي أقسم الله بها في القرآن، وقصَّت جدتي بعض آياتها عليَّ، استفسرت منه عن مدى علاقتها بالشجرة التي كان الحكيم بوذا يجلس تحتها، اعتدل أبي في جلسته وتقلبت ملامحه، فقذفت سؤالًا آخر بسرعة:

- هل كان بوذا رسولًا ممَّن لم يقصُص الله حكايتهم علينا؟

يُدرك أبي أن تلك أفكار جدي فلا يستطيع توبيخي عليها، يلجأ مضطرًّا للتسويف وبعدها يتجاهلني بأسئلتي كلها.

التفت أبي لشكري الذي راح يسأله بعد ما حشر نفسه بيني وبين جدتي، معتمدًا على قوته الجسدية وليونة جسمه وطيبة قلبها، أجاب أبي عن أسئلته المملة والسخيفة، كلها تدور حول الجنة والنار ومَن يدخلهما، وهل عمر بن عبد العزيز آخر الخلفاء الراشدين كما أخبرهم مدرس التاريخ، أم لا يزال الباب مفتوحًا لظهور خليفة جديد؟ يرى أبي أن سيدنا «علي» كان حُسن الختام فتوقف عنده، صمت فجأة حين علت الموسيقى المنبعثة من البيانو الضخم ووجدها فيما يبدو حُجة رائعة للصمت فلم يُجب عن بقية الأسئلة، تذمر شكري وأفرغ أبي بقية كأسه في جوفه دفعة واحدة،

أطفأت أنيسة الراديو، واعتدلتُ بجلستي. عندما تصدح الموسيقى نلتزم الصمت، تلك لحظة مقدسة أشبه بصلاة يومية، الفارق الوحيد أنها بلا مواقيت محددة.

***

«ولا يُنكر أحد التطور الذي أصاب تعليم البنات والتعليم الفني

ومشروعات الري والصرف وإنشاء بنك التسليف الزراعي والعقاري والاهتمام بالسياحة بدعوة الأجانب للتمتع بالجو الدافئ

والعناية بالصحة العامة، وإذ نذكر محاسن مولانا فؤاد الأول ملك البلاد وأياديه البيضاء على رعاياه، فإننا ندعو له في الوقت نفسه

بخالص الدعاء كي تمر الوعكة الصحية التي ألمَّت به

منذ أيام ثلاثة على غير رجعة، ويعود لقيادة البلاد والعباد»

شكري تاج الدين - 2

قذفت زجاج نافذة حجرتنا بحجر صغير وانتظرت، كلما خرجت للعب الكرة أو الغُميضة في شوارع جاردن سيتي، تجاوزت موعد عودتي الذي حدده أبي ولم يعُد يقبل التفاوض بشأنه، بعد قليل وجدت فهمي يفتح الباب الخلفي متأففًا، أعطيته قرشًا لأضمن سكوته ويظل متسترًا على غيابي، يخبرهم دومًا بأنني نائم، ويُغطي وسادة طويلة بلحاف الفراش، وعند عودتي ألجأ لطريقة الحجر المقذوق كما يصفها أخي في يومياته الرتيبة التي يحرص على تدوينها بدفتره.

- أبوكم يحب يعمل كل حاجة في النور.. إشهلوا شوية.

قالتها أمي بنبرةٍ آمرةٍ وهي توقظنا مبكرًا لنصل إلى العزبة قبل غروب الشمس، ثم كررتها ردًّا على برطمة فهمي عن سبب استعجالنا، لا يزال يتثاءب في فراشه مع أنه سبقني للنوم ليلة أمس، وضعت بعض الملابس في حقيبة صغيرة، في حين حمل فهمي حقيبة سفر ضخمة، لا يرتاح إلا إذا نقل متعلقاته إلى المكان الذي سيسافر إليه كأنه لن يعود منه.

طوال الطريق إلى العزبة ألححت على أذنيه كي نعاود

لعب الغُميضة لكنه رفض بعناد غريب، تجاوزنا الثالثة عشرة بشهورٍ وفهمي يتحجج بأننا كبرنا على اللعبة، ربما لأنني كسبت منه على مدار سنوات أكثر من تسعة جنيهات، وضعتها في حصالة خضراء كبيرة على شكل صندوق بريد، ونويت تقديم هدية له عندما تكتمل الجنيهات عشرين جنيهًا، سأبني له كشكًا خشبيًا في أقصى عزبتنا فوق تل صغير يطل على مساحة محدودة من الأرض، لأُحقق حلمه الذي رآه في سويسرا عندما سافرنا إليها وأعجبته الأكواخ الخشبية الكبيرة، حَلَم باقتناء واحدٍ عندما يكبر ليعيش فيه بقية حياته، لا أعرف سببًا لرغبته في العيش داخل كوخ وحيدًا، ربما من فرط مجالسته لجدي العجوز ظن أنه يمكنه العيش فيه بمفرده حتى يصبح في مثل عمره.

قبل انحرافنا من طريق الترعة في اتجاه السراي، همست لفهمي رافعًا قيمة الرهان لصالحه كي يوافق، برقت عيناه بانبهار عندما تخيل أن مائة قرش ستدخل ذمته المالية، لكنه لم يُعطني جوابًا شافيًا، لجأت لخطتي البديلة التي لا تخيب، كشفت عن نيتي بفضح سر تدخينه لأبي، أردت ضمان انصياعه لرغبتي في اللعب مع الاحتفاظ بوعدي بالجنيه كرهانٍ لو كسب، وخمسة قروش لصالحي إن خسر، لم يقبل ولم يرفض، ظلت ملامحه محايدة كمَن ارتدى قناعًا من

الجبس، حتى شعرت بقلق منه لأول مرة في حياتي.

توقفت العربة التي تقلنا بينما جدي وجدتي بالسيارة التي خلفنا، وراءها بمسافة سيارة ثالثة تقل الست شفيقة وبقية الخدم، انطلق فهمي من عربتنا باتجاه أبي واستوقفه قرب السلم، انتظر حتى ترجَّل جدي من سيارته وبات قريبًا منهما، مال فهمي على أذن أبي ورجع بعدها خطوة للوراء عاقدًا كفيه خلف ظهره، بدا أبي غاضبًا وهو يلوح بكفيه، تفوه بعباراتٍ لم أتبينها بعد ما خفض صوته احترامًا لجدي، عاد فهمي وعلى شفتيه ابتسامة قائد منتصر، جرَّدني من سلاحي بمنتهى السهولة وتخلص من حمولة تثقل كتفيه بإفشاء سره، آخر ما كنت أتوقعه منه هذه الجرأة وتلك الشجاعة، أسررتها في نفسي لحين تدبير سلاح آخر أهدده به، فهفواته كثيرة.

جذب فهمي حقيبته الكبيرة من الصندوق الخلفي رافضًا أن يحملها عنه السائق مثلي، سار بجواري عدة أمتار ثم توقف وأعطاني إياها وهو يقول بشماتةٍ واضحة:

- شيل يا أفندي وتعالى ورايا.. من النهارده اللعب بشروطي.

مضيت وراءه مذهولًا، فهمي المطيع الطيب الخجول صار متمردًا، وأول مَن يثور عليه هو أنا!

بعد نصف الساعة ناداني أبي ووبخني، اكتشفت أن فهمي أذكى ممّا تصورت وأنني أغبى ممّا أتوقع، لم يُخبر أبي بتدخينه السجائر، إنما أبلغه بأنني الذي أُدخن، اتهمني بسرقة سجائر أبي من وراء ظهره، ولكي يسبك قصته غافلني ووضع سيجارة بجيب قميصي فكانت دليلًا دامغًا على إدانتي، لم تفلح معه أيماناتي التي أقسمت بها، تعرضت لعقاب على فعل لم أرتكبه، لكني أرقدتها لفهمي، فغدًا لناظره قريب يا أخي العزيز.

قبل الغروب أعددت نفسي لمطاردة مثيرة أحصد في نهايتها قروش فهمي كالعادة، مؤمنًا أن المفاجأة تشل العدو وتربكه والقوة ترهبه، لكن فهمي أفسد متعة اللعب بجدارة، لم يعُد حتى يريد شرف المحاولة كما يقول، ولم يفلح المال في إغرائه كما كان، بات مثل الفريسة الميتة التي لا يُرجى منها لحم، وبدلًا من البحث عني وعن الفلاحين الذين أمرتهم باللعب معنا، أحضر كرسيًّا وأعوادًا من القصب وانشغل بمصِّها متناسيًا اللعبة كلها، بعد ما تركني لأكثر من نصف ساعة مختبئًا بلا معنى، صحيح كان يمكنني المرور من أمامه ولم يكن ليلحق بي بسبب بدانته، لكني كنت أريد مفاجأته، وفي الوقت ذاته لا أحبذ كشف مخابئي حتى لو كنّا سنتوقف عن اللعبة التي سئم منها الجميع، فربما يلعبها أولادي مع

أولاد فهمي يومًا ما، ووقتها سأخبرهم وحدهم بالسر حتى لا يكشفهم أحد.

***

غفوت لدقائق بعد ما اندمجت أمي في عزف مقطوعاتها الموسيقية، وصحوت على أصابع جدتي أنيسة وهي تعبث بخصلات شعري، ما إن رأت عينيَّ تُفتحان حتى انطلق لسانها بحكاية من حكاياتها المكررة، لم أفلح هذه المرة في الهرب منها والتظاهر بالنوم، حكت لي عن سعد باشا زغلول وبيته الذي كان ملاذًا للمصريين كلما حاول الإنجليز القبض عليهم، حتى أسموه بيت الأمة ومَن يصل إلى عتبته يكون آمنًا، ابتسمت ورويت لها أننا نسمي باب البدروم الأخضر بالاسم ذاته. لكنها لم تبادلني الابتسام.

- بيت جحا أسهل.

قالها فهمي في ضيقٍ وهو يلقي بحقيبة المدرسة جانبًا، جلس بجواري محاولًا الاقتراب من أنيسة فلم أُمكنه حتى بلغ ضيقه مداه، بعدها قررت أن أترك له المكان ذاهبًا لزيارة خالي، كاتمًا ضحكاتي من كلمات أخي التي يصف بها شوارع جاردن سيتي كلما عاد متأخرًا، ستة عشر عامًا عشناها هنا وهو لا يزال تائهًا. هُنا وُلِدتُ ونشأتُ، طفلًا وصبيًّا ومراهقًا

وشابًّا، وعلى الرغم من تعلُّقي بخالي لكني لا أشعر بنفس شعوره، أحب جاردن سيتي وشوارعها وبيوتها وقصورها، بينما يراها خالي متشابهة مع غيرها.. أشعر بكراهية خالي للحي كله، رغم أنه يسكن على أطرافه بشارع قصر العيني، يتندر على الطبقة الراقية التي تختبئ به مع أنه منها، يسخر من الحجرات العديدة التي يضمها كل بيت، ومن مساحة الشرفة الملحقة بكل غرفة كأنها تنافسها في الاتساع، يُعلن ضيقه من طبقية مجتمع يخصص سلمًا خلفيًا للخدم والطباخين والسائقين، ويترك لهم مساحة رحبة فوق السطوح لا يراهم أحد منها، يقول إنهم يثرثرون فيها ويتبادلون أخبار العائلات التي يعملون لديها، ربما في حدود ما تسمح به ضمائرهم كما أظن، لكنها نميمة مثلما يؤكد، يصف الخدم بالعبيد، وجاردن سيتي بأكبر سوق للجواري لأن معظم مَن يخدمون فيها يُجلبون من العِزَب والأبعديات التي يقتنيها الأرستقراطيون، أضطر للسكوت مجبرًا، جدتي تفعل كل ما يقوله حرفيًا، لكني تجاهلت كلامه عن البيوت وطعامنا والخدم، لن أكون سعيدًا لو ولدت فقيرًا، ولا أريد العيش زاهدًا مثله، مهما كان قدر محبتي له وتعلقي به، ربما أكثر من أبي، ومهما سكب من أفكار برأسي، لا يزال لديَّ أذنان، وأستطيع إخراج الكلام الذي لا يعجبني من واحدة.

التفت خالي ناحيتي قائلًا:

- إنت كبرت ولازم تفهم إن مصر مش جاردن سيتي وسباقات خيل ورهانات وحفلات وكلام فارغ، مصر موظفين وفلاحين العزبة والناس الغلابة اللي بيشتغلوا عندكم، الناس الشقيانة ومسلِّمة أمرها لله ومستنية الفرج وما بيجييش. عاوزك تدرك إن جاردن سيتي إلى زوال.. اخشوشن فالنعمة لا تدوم.

يضايقني هذا النوع من النصائح، لكني أشعر ببعض الصحة في كلامه عن تعلقنا بالأماكن، ربما حبي لجاردن سيتي سببه الأول أن أمينة تعيش فيها، ولو كانت من الزمالك لأحببتها هي وحي الزمالك كله، الحب وحده الذي يجعل للأماكن قيمة وذكرى، لكني لا أجرؤ على وصف شعوري ناحية أمينة لأحد، منذ عرفتها طفلة ومض بداخلي شعور لا أستطيع وصفه بدقة، أتضايق إذا ما لعبت مع أولاد غيري، وأفرح إذا ما أبدت اهتمامًا بي أو سمعت كلامي، لكني لا أبوح بسري لمخلوق، فأمينة تعيش في خيالي وحدي إلى الآن.

عُدت لبيتي بعد ساعة من الحديث اليومي مع خالي، وأخرجت صورة أمينة التي التقطها فهمي بآلة التصوير المملوكة لجدي، استطاع تصويرها صورتين واضحتين،

تذكرت أنه أعطاني واحدة بعد تحميض النيجاتيف، هززت رأسي مندهشًا ونويت سؤاله عن الثانية. تأملت صورتها، أمينة في مثل عمري، عرفتها عندما كنَّا في العاشرة، جميلة، هادئة، مطيعة، تنظر لعيني وكأنها تنتظر مني أمرًا ستنفذه حتمًا، لو قلت لها اقفزي في النيل ستفعل، هكذا أظن بعد ما مال قلبي نحوها منذ عام بشعور أكثر وضوحًا، لا أعرف مشاعرها نحوي لكني واثق أنها لي في النهاية، أنا قررت والمسألة مسألة وقت وكل شيءٍ يُنال بالصبر.

***

«هنا القاهرة.. سيداتي وسادتي وردت إلينا أنباء جديدة

مفادها أنه تم استدعاء ثماني أورطات من الجيش المصري

للاشتراك في جنازة مولانا جلالة الملك فؤاد الأول،

على أن يقوموا بالوقوف على جانبي الطريق لتأمينه، ووضعت لهم الكثير من الخيام بحديقة الأزبكية لتسهيل مهمتهم، وتم التأكيد على أن

الجنود البريطانيين لن يشاركوا بالجنازة إنما يشهدها فقط

كبار الضباط الإنجليز بصفتهم من الضيوف الممتازين في البلاد؛ لأن المملكة المصرية تعتبر الجنازة من الشئون المصرية وتنفر من اشتراك فصيلة بريطانية حتى لو أُرسلت كتحية من دولة حليفة عتيدة إلى المملكة المصرية»

فهمي تاج الدين - 3

«الوشوش الضاحكة» دوَّنت العبارة بدفتري واصفًا التماثيل التي أصنعها كل أسبوع، لكن بعد صيفٍ طويلٍ سئمت اللعبة وبدأت البحث عن غيرها، تعلمت العزف على البيانو مع أمي، وحاولت نبش أوراقٍ بيضاء عريضة لأرسم لوحة، لعبت الكرة مع شكري وأصدقائه، لكني فشلت فيها جميعًا، فعدت إلى وجوهي الضاحكة لعلها تؤنس وحدتي.

ذات صباح غائم تحداني شكري في تقليد تمثال، فتح كتابًا ضخمًا مليئًا بالصور من مكتبة جدي انتقاه بعناية، قبلت التحدي رغم أن كمية الصلصال التي بحوزتي لا تكفي إلا لصنع وجهٍ واحدٍ فقط، ولا بد من انتظار ذهاب جدي للسوق كي يشتريها لي مثل كل مرة، جلست بالحديقة حائرًا، مرَّت بجواري الست شفيقة واقتربت سائلة بلهفة:

- ما لك يا نور عيني؟ قاعد حزين ليه ومقرفص زي العجايز؟

أفضيت لها بمشكلة نفاد مخزوني ورهاني مع شكري، مدَّت كفها الكبيرة لتعاونني على النهوض واصطحبتني إلى المطبخ وهي تدندن بلحن لا أعرفه لكني تمايلت معه

طربًا. طلبت مني فتح شِوال الدقيق وملء كوبين ونصف في صحن كبير، سكبت فوقهما كوبًا من الملح وأضافت إليه نصف زجاجة من الماء البارد وكثيرًا من الطماطم المعصورة، أخبرتها في دهشة بأنني لا أشعر بالجوع فضحكت قائلة:

- ده علشان لون الصلصال يا نور عيني.

استكملت شفيقة عملها بجدية وأنا أُدوِّن بدفتري الصغير الخطوات أولًا بأول، لكن بعد أن وضعت النشا والكثير من مسحوق الصودا تاهت مني بقية المكونات، فانشغلت بمراقبة الخليط وهو يفور على نارٍ هادئة، بينما السِّت شفيقة تُقلبه بعصا خشبية طويلة، بعد أقل من ثلاث ساعات كنت في البدروم محاولًا نقش تفاصيل تمثال «دافيد» لمايكل أنجلو من كتاب جدي، استوقفني كونه عاريًا تمامًا ولا يضحك مثل بقية تماثيلي، ولم أفهم لماذا اختاره شكري دون غيره، لكن بعد يومين من العمل صنعت تمثالًا صغيرًا مقاربًا له إلى حدٍّ كبير، أعجبني ولم يعجب جدي، ووصفه بالمسخ.

- عفارم عليك كسبت الرهان.

قالها شكري وهو يتأمل التمثال بانبهار أشعرني بالغرور، أعطاني قرشًا وهَمَّ برفع التمثال فأمسكته صارخًا:

- لأ يا ناصح.. القرش ده خسارتك للرهان إنما التمثال بعشرة قروش.

تقلبت ملامح شكري وبدا عصبيًا كعادته، لكنه فجأة رسم ابتسامة خبيثة على شفتيه، ظلت تتسع حتى ظهر فلج أسنانه من بينها وانصرف. في صباح اليوم التالي اكتشفت اختفاء التمثال من البدروم رغم إغلاقي الباب جيدًا، تركزت شكوكي نحو شكري لكنه أنكر ببرود، اتهمته علانية بالسرقة إلا أنه رد ببرود أكثر من الذي سبقه:

- ياريت فهمي يقول لنا عمل تمثال شكله إيه.

شعرت ببعض الحرج وحاولت المداراة على وصف التمثال العاري بكلمات مبهمة، أشرت نحو شكري واصفًا إيَّاه باللص للمرة الثانية، شرحت أن تفاصيل التمثال لا تبرر سرقته، لكن أبي نهرني وسألني عن أوصافه منزعجًا، تجمَّدت الكلمات في حلقي فنطق بها شكري بدلًا مني وهو يضغط على حروفها قائلًا:

- تمثال لراجل عريان ملط وعلشان كده كسرته.

- مفيش حياء في الفن لكن زين ما عملت يا شكري، موش لأنه عريان يا جاهل لكن التمثال يقرف الكلب الحزين، ولو

مايكل أنجلو خرج من تربته وشافه كان دغدغه على دماغ أخوك.

قالها جدي وهو ينهض رامقًا أبي بنظرةٍ لا تعني سوى إنهاء الموضوع عند هذا الحد، أعرف أن أبي سيرضخ لجدي فهو عمه الكبير وحماه في الوقت ذاته، ربما نوى عقابي لكنه سيتراجع ويكتفي بتوبيخي، الحقيقة لم تشغلني غضبة أبي بقدر ما شغلني لشهور طويلة معرفة المكان الذي أخفى فيه شكري قطعتي الفنية، لا شك عندي أنه لم يُحطمها كما يدَّعي، لكني لم أعرف وقتها ولسنوات طويلة بعدها مصير تمثالي العاري.

***

«نستمع الآن للدانوب الأزرق»، يقولها شكري بصوتٍ رخيمٍ مقلدًا مذيع الراديو، نكتم ضحكاتنا سويًا بعد نظرة متوعدة من أبي لي وحدي، تلعب أمي مقطوعة موسيقية ليوهان شتراوس كل يوم، قبل أن تبدأ في عزف مقطوعات «شوبان» التي لا نحبها خصوصًا نينة أنيسة. هممت بالنهوض لكن جدتي أمسكت بيدي، أشارت بعينيها ناحية البهو، لمحت جدي متكئًا على عصاه قادمًا نحونا، يسير مُنكسًا مثلما تميل شجرة عجوز بأغصانها نحو العشب الندي ترجوه لينًا على

جذورها الملتوية تحت الأرض، وراءه بخطوات محسوبة تمضي الست شفيقة، رافعة رأسها كأنها انتصرت في معركة وأسرت سبايا، تجر خلفها طابورًا معوجًا من بنات ريفيات أحضرهن جدي من العزبة لتختار جدتي منهن واحدة كي تلتحق بخدمتها، أو تنول الشرف مثلما يقول شكري.

طقوس ثابتة تتكرر كل عامين تقريبًا، توقفت أمي عن العزف ووقفت وراء مقعد جدتي، تنتقي بعينيها وتقترح هامسة في أذن أنيسة صاحبة القرار الأخير، تراصت الجواري أمامنا لتفحصهن جدتي، تفضل اليتيمة وتختار المنكسرة، وفي الوقت ذاته تحرص على أن تكون عَفيَّة، تطلب من فتاة مُطرقة في خجل أن تتقدم نحوها، تأمرها بخلع الصندل، لتتفحص كعبيها، تُمسك بكفيها وتُقرب أصابعها من عينيها لتكشف عن نظافة أظافرها، تتحسس نعومة يديها لتعرف مدى شقائها في الغيطان، تلتفت لفتاة بدينة قصيرة ذات وجه بشوش، لكن عندما جذبت طرف طرحتها وتشممت رأسها، كشفت رائحة الجاز عن سابقة توغل القمل بها.. فاستُبعدت.

تثاءبت في ملل، يضايقني أن عدد مَن يخدمنا ضعف عددنا، لدينا خمسة من الخدم وسائقان وبستاني وطباخ

وسفرجي، الست شفيقة لا تُحتسب، رغم أن شكري يُصر على أنها خادمة مثلهن لكن كعبها أعلى ولا شيء آخر.

مِلت على أذن جدتي وطلبت منها اختيار فلاحة مستبعدة، رأيتها مليحة تداري وجهها بكفها خجلًا أو دلالًا لست أدري، لم تُجبني جدتي والتفتت ناحية شكري وسألته رأيه، أومأ بالإيجاب، عندها استبعدتها بإشارةٍ من عينيها لشفيقة، ربما رأت جدتي أننا على أعتاب البلوغ، ولا بد من وقوع المحظور كما سمعتها مرة من وراء باب وهي تتهامس مع أمي. ابتسمت وغمزت لشكري فبادلني الابتسامة بأخبث منها، أنهينا الثقافة منذ عامين وصرنا على مشارف الحصول على شهادة البكالوريا، تفصلنا عن إتمام السادسة عشرة من عمرنا أسابيع معدودات، والبلوغ صار ماضيًا وذكريات.

سار طابور المختارات والمستبعدات بقيادة شفيقة إلى المطبخ ليتناول الجميع لُقمة وتتلقى المختارتان التعليمات، ستعيشان مع بقية الخدم عندنا حتى يأتي لكل واحدة «عَدلها» كما تقول جدتي، وإلى أن يحدث النصيب ستفوز كل خادمة بكسوةٍ صيفيةٍ ومثلها في الشتاء، بالإضافة إلى قطعة مصاغ صغيرة كل عام، وفي يوم زفافها إلى عريسها تحصل على «كِرْدَان» من الذهب.

اقترب شكري من أذني ليُفرغ ما امتلأ به رأسه من زياراته إلى خالي، أعاد على مسامعي أن الناس طبقات، حيوانات وحشرات وطيور وزواحف وجوارح، والحياة مثل غابة، يردد كلمات الخال كالببغاء بعد ما زاد اقترابه منه مؤخرًا. قاطعته في ضيق وأنا أخفي وجهه بكفي:

- عارف قصصك كلها وحافظ كلامك صَم من قبل ما تقوله، وبالأمارة البقاء للأقوى.

رفع شكري سبابته وهو يبتسم بلزوجةٍ مقلدًا نبرة صوت خالي، مُصححًا كلامي :

- خطأ شائع يا عزيزي، البقاء للأسرع، للأذكى، الفيل أقوى من الأسد وأكبر لكن لمَن الغلبة؟ مَن ملك الغابة؟

أخبرنا جدي بأن الحياة التي نعيشها عبثية، فلا داعي لأخذها بمنتهى الجدية طوال الوقت، ربما لأنه سئم العيش فيها، لكن ما يقوله شكري عبثي أيضًا، ما الذي يجعل أسدًا يلتهم فيلًا لم يفكر يومًا في قتاله أو حتى تبادل حكم الغابة معه؟ كما أنني لا أرى الحياة أفيالًا وأسودًا، ولا جولة في معركة، أو حتى عبثية كما يقول جدي، فقط رحلة طويلة، ولأنها مملة تحتاج لتسلية في كل محطة قبل أن يصل القطار إلى النهاية كما تردد أنيسة دائمًا.

تركت شكري يثرثر وذهبت لأقرأ بمكتبة جدي، ساعتين كل يوم كما عودني، لكن مواء قطتنا بصورةٍ مفزعةٍ وما تبعه من نُباحٍ متواصلٍ للكلب الضخم الذي يُربيه شكري جعلنا ننتبه، جريت وراء أخي مهرولين لأقصى الحديقة. كان لدينا قط كبير شرس وقطة وديعة يعيشان سويًّا لكنهما لا يُنجبان، منذ فترةٍ مات القط ودفنته في حديقة الفيلا، وفي اليوم التالي اقترح شكري وضع أرنب كبير مكانه ليعيش مع القطة متسائلًا بدهشة العَالِم «ماذا لو تناسلا؟»

تراهنًا يومها على الإجابة، قال شكري إن القطة ستنفر منه وهو بدوره سيهتم بالطعام والشراب ليعيش، في حين اخترت هلاك الأرنب على مخالب القطة الوديعة حفاظًا على النوع وحماية للمكان. اليوم خسرنا الرهان سويًّا، وجدنا جثة القطة في نهاية الحديقة بعد ما تلبست الأرنب روح القط الشرس صاحب السلطة المهيمن على كل شيء، قتلها بدمٍ باردٍ عندما عارضت رغباته الشاذة فيما يبدو، بعد ما نالت عضة برقبتها أنهت حياتها كما شرح لي شكري.

لم أفهم كيف يقتل الأرنب قطًّا، ولا أعرف سببًا مقنعًا عندما قرر شكري إعدام الأرنب رميًا بالرصاص، همس لي بإحضار مسدس أبينا من خزانة مكتبه، وابتسم في لزوجةٍ وهو

يذكرني بكلمة السر.

- افتكر اسم أمك وحط حروفه بالمظبوط، آخره «ت» مفتوحة إوعى تربطها زي المرة اللي فاتت.

جبنت وتسمرت في مكاني، ما زلت أتذكر ما فعله شكري بالمدرسة السعيدية عندما أخرج فصله والفصل المجاور في مظاهرات مناوئة للحكومة، رفعه طالب على الأعناق وهتف العشرات وراءه لتشتعل الحماسة كالنار في صدورهم وتلهب حناجرهم، فجأة أخرج شكري مسدسًا من بين طيات ملابسه وأطلق أعيرة نارية في فناء المدرسة، مهددًا الإنجليز مطالبًا بالاستقلال، ولأن أبي كان وزيرًا سابقًا للمعارف العمومية، رأى الناظر الاتصال به أولًا قبل البوليس إكرامًا لخاطره. عندما تلقى أبي المكالمة كان شكري قد عاد للبيت وسلمني السلاح لإعادته إلى الخزانة هامسًا بكلمة السر، ودخل حجرته وراح في نومٍ عميق، ليلتها أنكر شكري الواقعة كلها عندما استجوبه أبي على العشاء، وألصق التهمة بزميلٍ له لا يحبه بسبب ميوله الشيوعية، أفلت من شهود العيان الذين رأوا المسدس عندما واجهه أبي بأقوالهم، قال ببرودٍ إنه مجرد مُحدثٍ للصوت مثل الذي كنَّا نلعب به ونحن صغار، وعندما طلب أبي شهادتي أوضحت متلعثمًا أنني عُدت مبكرًا من

مدرستي بسبب وعكة أصابتني في بطني ولم أكن كاذبًا، اخترت أن أكون شيطانًا أخرس بعد ما عرفت من أصدقاء شكري تفاصيل ما حدث، لكني جبنت عن نقلها لأبي كي لا يعاقب أخي.

اليوم يُعيد شكري القصة بمقدمة مختلفة، صمم على طلبه فرفضت، أصر فعاندت، ثم اقترحت ذبح الأرنب وأكله، لكنه هدد بخنقه أو حرقه باعتباره صار مسعورًا، ترددت لكني لم ألن بعد، اقترب مهددًا بكشف سِرِّي لأبي، سيُخبره بأنني أحب أمينة جارتنا، ارتبكت وسال عرقي، الكذبة التي فكر فيها واتهمني بها هي الحقيقة بعينها، لكن عندي وحدي، شعرت بأنني أقف عاريًا، سيغضب أبي عليّ وربما يقاطعني، أو أفقد أمينة بسبب تهور شكري. لم يطل تفكيري وتحركت قدماي مهرولًا، فغضبة أبي لعنة تُحيل حياتي إلى جحيمٍ لا يطاق.

توجهت لحجرة المكتب كالسائرين نيامًا، جذبت المسدس وعُدت لشكري، وجدته ربط الأرنب من قدميه وغطى عينيه بقماشة قديمة مهترئة بثقوب كبيرة، شككت في أن الأرنب يرانا من خلالها، تخيلته يرتجف ويرمقنا بنظرةٍ ترجونا ألا نفعل، حاولت إثناء أخي عن فعلته المجنونة، لكنه بجرأة حسدته عليها أطلق على الأرنب طلقة واحدة أصابت رأسه

وأردته قتيلًا، مرددًا أنها رصاصة رحمة، على أثرها هرع الخدم ومن خلفهم أبي، وظهرت جدتي بالشرفة مع شفيقة، القلق يظلل الجميع، وقفت بجوار شكري يغطيني الخوف، حائرًا فيما سيحدث لنا باعتباري شريكًا في الجريمة. تساءل أبي بعينيه عن مصدر الرصاص الذي اخترق أذنيه بعد ما لمح الجثة الراقدة خلفنا تنزف، أشار شكري نحوي متهمًا إيّاي بالجريمة وحدي، وقبل أن أدفع التهمة عن صفحتي البيضاء، كانت يد شكري تمتد لجيبي ويُخرج منه المسدس مثل ساحر يُبهر جمهوره بخفة يده، ظل واقفًا متحدثًا ببجاحة، يحاول التماس عشرات الأعذار لي أمام أبي والخدم، ألجمت المفاجأة لساني، وظلت يداي تلوحان بالنفي في الفراغ كمجذوب.

تلقيت العقاب بالحبس الانفرادي، أمضيت أسبوعًا لم أغادر فيه غرفتي، وانتقل أخي لغرفة أخرى صغيرة، حتى طعامي كنت أتناوله وحدي، في حين ظل شكري يزورني بانتظام كل ليلة قرب الفجر وهم نيام، يمدني بالسجائر المسروقة من علبة أبي، ومزيد من طعام وحلوى بتوصية من جدتي أنيسة، اعتذر شكري محاولًا إصلاح موقفه، فعاتبته على نذالته وهددت بمقاطعته إن كررها، لم أجرؤ على كشف مشاعري ناحية أمينة حتى لا يستغلها ضدي، ولم أستطع

سؤاله عن مشاعره ناحيتها كي لا يصيبني الإحباط، واجهته فقط بما أفضت لي به الست شفيقة، أن كلبه الشرس عقر القطة فقتلها، لمعت عينا شكري عندما صفحت عنه، وابتسم زهوًا بكلبه، بدا من ابتسامته الخبيثة أنه مَن حرَّضه، أعلن في حماسٍ أننا صرنا الآن أكثر جرأة، وما فعلناه بالأرنب كان ثورة على طفولتنا التي يظنونها بريئة، ظل يلوح بيديه ويرفع صوته وهو يروح ويجيء بالغرفة شارحًا فكرته التافهة برواية مختلقة، واختتم مرافعته قائلًا إن لكل ثورة ضحايا، وعلى الأقلية أن تتحمل التضحيات لمصلحة الأغلبية.

أشتم رائحة أفكار خالي تفوح من بين ثنايا كلمات شكري، لكن مالم يقُله أخي يومها أن حظي أسود، أنا أول ضحية لهذه الثورة، وربما أكون الوحيد.

***

«شعبي المحبوب.. أبعث إليكم عبر راديو المملكة المصرية

بأطيب التحية، وبودي لو استطعت مصافحة كل فرد
منكم لأُعرب لكم جميعًا عن عميق شكري ووافر حبي
وعظيم تقديري لكل ما أبديتموه

نحوي من خالص الحب وصادق الولاء، وإنه ليسرني وقد
باشرت

سلطتي الدستورية أن أُفضي إليكم بكل ما وطدت عليه
نفسي

من احترام الدستور وقوانين الأمة المصرية، والمحافظة
على

استقلال الوطن وسلامة أراضيه»

شكري تاج الدين - 3

قرب العصر يعلو خوار البقر طلبًا لمزيدٍ من البرسيم، ومن بعيد يرد عليها حمار وحيد بنهيق متقطع كي لا ينساه الكلاف، على مقربةٍ منه جواميس صامتة تصطف في طابور منتظم يربطها حبل واحد طويل متأهبة للعودة، صرت أحب أجواء العزبة خارج السراي أكثر من أي وقت مضى، زياراتي المتقطعة طوال العام مع خالي أضفت على المكان شعورًا مختلفًا، اختلفت علاقتي بالفلاحين مع الوقت، وبدأت أتفق مع مقولة خالي عن الأماكن وتأثير الأشخاص عليها حتى صدقتها.

أنهينا جولتنا بالعزب المجاورة لعزبتنا، ثم قطع خالي الرحلة فجأة، عاد للقاهرة لأمر هام كما وصفه، قبل سفره أعطاني ورقة مطوية، قرأتها وحفظت ما فيها، ثم أحرقتها كما علمني. دُرت حول المضيفة بالحصان حتى لمحت فهمي جالسًا ممسكًا بسيجارة ويقرأ بتركيز كعادته، تسحبت كي لا يشعر بخطواتي، قبل أن أفاجئه تراجعت، حييته فاكتفى بإيماءة من يده دون أن يرفع عينيه، نظرت نحوه بإشفاق حقيقي، وجدته غارقًا في الكتب التي اصطحبها معه للعزبة، قلبت عناوينها في ضيق.. «الدولة والثورة»، «البيان

الشيوعي».. لم أُكمل وسخرت منه بسبب استغراقه في قراءة ما ترجمه هنري كورييل، ومؤلفات لينين وكتب هيجل ونيتشه، ستُفسد هذه الأفكار رأسه أكثر، ربما كان خالي محقًّا عندما أكد لي أن قراءات فهمي تدفعه للوراء عامًا من بعد عام.

باغتُّه وأغلقت دفتي الكتاب الذي يقرأ فيه باهتمام وكأنه المصحف، قبل أن يغضب دعوته لمشاركتي في تحدٍّ جديد، رفعت قيمة الرهان لمائة وخمسين قرشًا كي أُغريه فاستسلم. ركبنا حصانين وهبطنا غيطًا بعيدًا عن السراي متسلحين ببنادق الخرطوش، ناديت على الخولي وتأكدت من إشرافه على جمع طيور الحمام ووضعها في أقفاص صغيرة وتجهيزها قبل وصولنا كما أمرته، وقفت بمحاذاة فهمي، شعرت بتوتره من أنفاسه العالية ويده المهتزة عندما أفهمته قواعد اللعبة، ابتسمت وشعرت بأنني ضمنت الرهان في جيبي من قبل خروج أول طلقة، أشرت للخولي بفتح قفص منهم، تركت فهمي يبدأ الجولة الأولى ليخسر وتهتز ثقته أكثر، لدهشتي أسقط حمامة وأفلتت منه الثانية عندما لم يُطلق النار عليها، في حين لم يسمح الخولي للثالثة بالطيران.

جرى فهمي نحو الحمامة الجريحة كأب مجزوع لإصابة ولده، تفحصها بيدٍ مرتعشة وهتف أن الروح لا تزال بها، بدا مرتبكًا وهو يحملها كجنين ينزف ببطءٍ قطرات داكنة من دماء لزجة، شعرت بأنه على وشك إفساد أجواء اللهو كعادته بكآبته ورومانسيته المفرطة، فأخرجت المطواة السويسرية التي أحتفظ بها وتضم أدوات وأنصالًا متعددة الأغراض بجانبيها، صرخ فهمي في وجهي وهو يحاول منعي:

- بتعمل إيه يا شكري؟

أشرت بإصبعي على فمي ثم قُلت:

- ما تخافش.. حخليها ترتاح.

ذبحت الحمامة في أقل من ثانية وألقيتها على مقربة منه، ثم أشرت للخولي بفتح القفص الثاني وإطلاق بقية الحمام. دوت الأعيرة متقطعة على مدار نصف الساعة حتى نفدت ذخيرتي، أسقطت غالبية الطيور التي تخصني عدا فرخًا أو اثنين، في حين لم يُسقط فهمي ريشة واحدة من طيوره والتي ابتعدت عنَّا بمسافة حتى غابت عن أنظارنا، تأملته لبرهة وهو ينظر للسماء في شرود غريب كمَن يحاول أن يطمئن عليها، ثم ابتسمت وربت كتفه في ود حقيقي، أدركت أنه تفادى إصابة الحمام بعد موت الأولى، وأراد إعطاءهم

فرصة للنجاة بعيدًا عن عيدان القفص ونيران لهونا، ماتت طيوري وتكومت فوق بعضها بحجم تلٍّ صغيرٍ ونجت مؤقتًا طيور فهمي، لكنها ستعود في النهاية للبرج وحتمًا ستُذبح، وربما يأكل فهمي من لحومها وهو لا يُدرك أنها تلك التي أعطاها قُبلة الحياة، متوهمًا أنها ستعيش أطول من عمره.

***

يقلقني غياب أمينة منذ أسبوع، لا تذهب لمدرستها «الميردي ديو» في موعدها ولا حتى متأخرة، مراقباتي الليلية والنهارية أكدت أنها مريضة، تردُّد السفرجي الذي يعمل عندهم على الأجزاخانة القريبة، وغياب كلبها عن حديقتها، لا يعنيان غير ذلك، كلفت فهمي بمراقبة شرفتها بمنظار مقرب يستخدمه جدي في سباقات الخيل، وانشغلت بالمراقبة الميدانية، لم تسفر مراقبات فهمي عن شيء، مع ذلك أمدني ببعض الأمل عندما أكد على ضرورة خروج الكلب في نزهة اليوم أو غدًا. أخرجت كلماته من أذني الثانية، فمَن يخاف الكلاب لا يكون خبيرًا بأحوالها.

صباح الغد صدقت توقعاته للأسف، وخرج الكلب مع السائق، وكان لا بد من وضع خطة محكمة كي تصل رسالتي لها. ركبنا دراجتينا ورحنا ندور حول سراي سعادة حتى

أعطيت أخي الإشارة المتفق عليها للهجوم، اقترب فهمي مسرعًا منهما ويده على الجرس، ارتبك السائق ونبح الكلب، لكن فهمي استكمل الخطة بمنتهى الإخلاص رغم خوفه الشديد من الكلاب، اصطدم بالرجل وأسقطه أرضًا وسقط فوقه، ساعدت السائق على النهوض، وجدت جرحًا بسيطًا بجبهته وخدوشًا بذراعيه، تبخر تركيز السائق بين عبارات الاعتذار والعتاب المتبادلة بيننا، وعلا نباح الكلب وهو يتقافز مكانه فرحًا باعتبارنا جيرانه، في وسط هذه الجلبة تمكن فهمي من وضع رسالة مطوية في طوق كلب أمينة بيدٍ مرتعشة من الخوف، سعل أخي مرتين بما يعني إنهاء المهمة، أخرجت خمسة قروش أعطيتها للسائق، وطيبت خاطره حتى لانت ملامحه مع استقرار النقود بجيبه.

اجتزنا الموقعة بنجاح وعدنا في طريقنا لبيتنا، قرب منتصف الطريق أوقفتنا قوة من البوليس الملكي، علمنا أن الملك سيلتقي المندوب السامي البريطاني بقصر الدوبارة فأغلقوا السكة لحين مروره، لم نعرف أيهما سيمر الآن فكلاهما مهم، عدنا لشارع الوالدة باشا، وجدناه مغلقًا أيضًا، اقترح فهمي أن نمسك بالدراجتين ونجرهما على الرصيف، من شارع البرجاس حتى شارع الطلمبات، لكن ضابط البوليس أصر على استيقافنا، بدأت أشعر بضيق واستدعيت

كراهية للملك كامنة بين ضلوعي، تأهبت للاشتباك مع الضابط برغبةٍ عارمةٍ في لكمه وكسر أنفه، لولا جذبني فهمي من ذراعي حتى لا يتطور الأمر من مشادة إلى مشاجرة بعد ما لاحظ عصبيتي في الحديث، لم أستدر عائدًا إلا عندما كسر الضابط عينه وابتعد بنظراته عنَّا. زفرت في ضيق لكني تركت ذراعي رهينة بقبضة فهمي لأطمئنه، ربما لا يُدرك أخي حجم غضبي وضيقي، إلى يومنا هذا أحلم بأنني أقود سيارة سوداء أمام قصر عابدين ذهابًا وإيابًا، حتى ألمح الملك يعبر الطريق على قدميه فأصدمه متعمدًا، وأعود لأمر فوق جسده بسيارتي عدة مرات، أكاد أسمع صوت عظامه وهي تتكسر أسفل إطارات العربة، لكن لا يكتمل الحلم، أصحو قبل رؤية جنازته والتأكد من موته مثلما تسبب في موت شقيقتي.

أخرجني فهمي من هواجسي عندما همس ببضع كلمات، لمحت سائق أمينة يقود سيارة بيضاء كبيرة منتظرًا السماح له بالمرور، غمز فهمي بعينه اليسرى عدة مرات، تضحكني طريقته المفضوحة في الغمز، عدنا مسرعين، درنا حول السور حتى لمحنا أمينة واقفة بالحديقة ممسكة بالكلب وبيدها الأخرى ورقة الخطاب، وجدناها تبتسم في خجل، لوحت لها من بعيد، شعرت بأنها قرأت الرسالة وأفرجت عن

مشاعرها بابتسامتها، فكرت في أن أقترب لأتحدث معها، وخُيل لي أنها تهيأت للحركة، لكن فهمي الواقف ورائي جذبني من ذراعي وهو يشير ناحية البوابة، رأيت أباها تاجر الأقطان الشهير محمود باشا سعادة عائدًا بعربته المكشوفة التي يحب قيادتها بنفسه، انسحبنا نجر خيبتنا وراءنا حتى دخلنا بها بيتنا، وفي طريقي لمحت سائق أبي منشغلًا بتلميع السيارة الكاديلاك بعناية فائقة، فومضت برأسي فكرة تركتها تختمر، فكل شيءٍ يُنال بالصبر.

***

«كما صدرت أوامر الحكومة بتنكيس الأعلام في دار مجلس الوزراء

وبقية الوزارات والمصالح الحكومية حدادًا على الملك، ورفعت المفوضيات الأجنبية وجميع البيوت المالية والمحال التجارية والبورصات الأعلام منكسة، وأقفرت المقاهي والمنتديات من روادها، وأغلقت

دور السينما أبوابها، وكتبت عليها حزنًا على وفاة صاحب الجلالة الملك تُلغى الحفلات هذا المساء. وبهذه المناسبة نذكركم بأن

الملك فؤاد الأول، رحمه الله، كان من أشد أنصار السينما، وكانت تُعرض بقصوره العامرة أهم أشرطة الأفلام العالمية وأحسنها»

فهمي تاج الدين - 4

لم يكن جدي مبالغًا عندما وصف زماننا بزمن الحمير ويكفينا شرف المحاولة، كلما ذهبت للعزبة صدمتني حقيقة كون أجرة الحمار ضعف يومية أي فلاح في أرضنا، ألمحهم من شرفة السراي يعملون بالغيط، ومن ورائهم الخولي متسلحًا بخيزرانة يهوي بها على مؤخراتهم، لا يجرؤ أيٌّ منهم على أخذ استراحة قصيرة لتعديل وضعية عموده الفقري الذي كاد يتقوس بعد انحناء نهار طويل نظير بضعة قروش. شكوت مرة من الوضع الأعوج لأخي، ومن قبله خالي، فاتهماني بالشيوعية، تراجعت خوفًا رغم يقيني أن شكري لا يعي ما يقوله، أفضيت بمخاوفي لجدي من التهمة التي ألصقاها بي، استاء منهما ولعنهما واختصَّ خالي بالنصيب الأكبر من اللعنات، باعتبار أن شكري مجرد حمار حصاوي كما يصفه. ربت جدي رأسي وأعطاني مزيدًا من الكتب، طمأنني أنني حتى لو صِرت شيوعيًا كما يُقال عني فلا يهم، المهم أن يكون هناك عدلٌ في الأرض، من أجل البسطاء الذين ولدوا وعاشوا بؤساء بلا سبب واضح، على الأقل إلى الآن، فاطمأن قلبي مؤقتًا.

قبيل مغادرتي الاستراحة التي أحب القراءة بها بعيدًا

عن السراي وضجيجها بسبب استقبال أبي لضيوفه طوال النهار بالمضيفة، وقعت عيني على صورة كبيرة بإطار ذهبي عريض تضم الملك فؤاد وبجواره وزراء حكومته ومن بينهم أبي، اندهشت لوجود الصورة في مكانها، وترحمت على شقيقتي، بينما القصة تتداعى لذاكرتي رغمًا عني. كنَّا في المصيف منذ سنوات لا أتذكر عددها، بيتنا يطل على الكورنيش، وعند مرور الموكب الملكي من المنتزه لرأس التين كنَّا نهبط إلى الطريق مع الست شفيقة لتحية الملك بالتصفيق ورفع الأعلام الخضراء، في اليوم المشئوم سبقتنا شقيقتي التي تكبرنا بعامين مع مربيتها السويسرية، لكنها أفلتت من يدها وقت مرور الموكب، فدهستها سيارة ملكية حمراء بينما هي مُمسكة بالعلم، لم يتوقف الملك ليطمئن على واحدة من رعاياه أو يحاول إنقاذها، ماتت أختي بعد ما روت الأسفلت بدمائها وأفلت فؤاد بفعلته، كل ما تفضَّل به جلالته إرسال تشريفاتي لبيتنا في المساء، قدَّم واجب العزاء لأبي، وبعدها بشهور تم تعيينه وزيرًا، وفي أقرب تعديل وزاري خرج أبي من الوزارة ليتشمَّس في حديقة بيتنا، أما أمي فلم تتحمل صدمة الخبر، وظلت شاردة أغلب الوقت أو مبتسمة بعينين حزينتين، وما بينهما وجوم غريب كأنها تعيش على هامش الحياة أو في كواليسها، ولا تريد الظهور

على المسرح مرة ثانية.

من يومها لم يعُد شكري يُطيق الإسكندرية، ولم يعُد يحب سماع سيرة الملك أو حتى رؤية وجهه بالجرائد، ومن قبلهما صورته مع أبي التي رُفعت من فوق كل جدران بيوتنا. اقتربت من الصورة وقبل أن أمد يدي لرفعها تهشم زجاجها وأحدث دويًا أفزعني، التفتُّ لأجد شكري ممسكًا بنبلة كبيرة صنعها من جذوع الشجر، استعان بحجر مدبب وأصاب رأس الملك من أول رمية. لا أعرف لماذا ابتسمت، ربما تذكرت مقولة جدي الشهيرة التي يلخص بها شخصية أخي «نظرة ثعلب وجرأة أسد.. وعقل حمار».

***

كنّا نسير بمحاذاة الترعة وقت العصاري عندما طرحت سؤالي بصيغة استنكارية، ومع ذلك أخذه شكري على محمل استفهامي، كانت معلوماتي أن الكلاب تبول في أي مكان، لكن أخي شرح أنها تتبول في نقاط وأركان معينة من الشارع أو الحديقة أو هنا بالغيطان إذا ما شعرت بوجود رائحة لكلاب أخرى، تفعلها لتخبرهم بأنها موجودة معهم في المكان ولها نصيب منه، الأمر أشبه بكارت تعارف سواء للزواج أو العراك، أو حتى مجرد إثبات للوجود وفرض السيطرة على

منطقة محددة. شردت فيما فعلته بالخطاب الذي أرسلناه لأمينة، ما زلت أشعر بتأنيب ضمير يقلق نومي كلما تذكرت موقعة الكلب كما أسميتها بدفتري، كتبت الخطاب بأسلوبي لا بكلماته التي أملاها عليّ، وأضفت عبارة صريحة عن مشاعري، كنت أشعر بغبن شديد كلما وقَّعت الخطاب باسمه وحده، فتركته هذه المرة بلا إمضاء، ورغم تأنيب ضميري إلا أن هاجسًا ظل يُخبرني بأنني فعلت الصواب، أمينة لم تُعلن حبها لشكري، ربما أحبت غيره، وربما غيره هذا هو أنا، فلماذا لا أترك الباب مواربًا لعلها تنتبه لوجودي؟ لكن تأنيب ضميري عاد يُلح عليّ عندما تذكرت أنني كنت ألوح لها معه، وأنا واقف وراءه أمام سور حديقتها، لم يرَني شكري لكن أمينة بالتأكيد لمحتني، ألح الهاجس على عقلي ليُسكت ضميري، يخبرني بأنها ربما كانت تلوح لي وحدي، لست أدري ولا شكري أيضًا.. لكن خطاب أمينة يوجع ضميري، أريد الاعتراف لأخي بمشاعري وأجبن كل مرة، وفي الوقت ذاته حبها تملك مني ولا أجرؤ على مفاتحتها، بيني وبينها جدار عالٍ هو أخي الذي يحبها. أمينة مميزة عن كل البنات، ممشوقة القوام، ساهمة الوجه، واسعة العينين، تحسبها خارجة لتوها من مسرحية لموليير أو رواية لشكسبير، قادمة نحوك بابتسامة لا تغيب، لتروي لك حكاية جديدة فلا تشتاق

لأحد غيرها، هكذا أراها ولهذا أحببتها.

ألقيت حجرًا صغيرًا بالترعة وانشغلت بمراقبة دوائر الماء وهي تتسع، أخبرني جدي بأن حجرًا واحدًا نلقيه في النهر يكفي لتهشيم صفحته الرائقة، كنت أجيبه بأن الحجر يخلق دوائر تتسع وتكبر وسرعان ما تختفي ليعود الماء كما كان، يبتسم ويشرح أن الدوائر رحلت لكنها ليست التي هشمت صفحة الماء، فقد حلت محلها مياه جديدة، بينما لا يزال الحجر الذي ألقيناه وأحدث التغييرات يرقد وحيدًا في قاع النهر، لكن لا أحد يخبرنا عنه شيئًا، يزعجني مصير الحجر وأرى نفسي في أحلامي راقدًا في قاع النهر وحيدًا، تتسع أمام عيني دوائر صفحة الماء التي أحدثتها ولا أحد يتذكر دوري.

انشغلت بقرص الشمس حتى غطس وراء الغيطان واختفى، قفز وجه أمينة لذاكرتي عندما انساب صوت عبد الوهاب من راديو المضيفة، دندنت بقية الأغنية معتمدًا على حفظي لقصيدة بشارة الخوري، رددت مرتين مقطع «إن عشقنا فعذرنا أن في وجهنا نظر»، ونهضت عائدًا على ضوء مصباح صغير حمله الخفير عوض الأعور، يُثير الرجل فضولي لأنه بعين واحدة، ولا أدري كيف يرى الدنيا بها،

وكيف يُعهد إليه بحراسة السراي كل هذه السنوات؟

- اركب ورا.. أنا حقعد جنب أسطى عبدون.

قالها شكري وأغلق باب العربة، طوال طريق العودة لجاردن سيتي كان شكري منشغلًا بمتابعة السائق وهو ينقل السرعات ويبدل قدميه على الدواسات، بينما تدور بمخيلتي أطياف وجوه الفلاحين الذين رأيتهم هذه المرة، غالبيتهم لا أعرفهم، والغريب أنهم يعرفون شكري ويدينون له بطاعةٍ وخنوعٍ لا أفهم لهما سببًا حتى إن بعضهم يكاد يُقبِّل يده، صحيح أنه مولع بحب السيطرة على الخدم والفلاحين، لكنه منذ شهور يبتعد عني بمسافة حتى أصبحت أراه بالكاد.

عند وصولنا مال على أذني وهو يسكب كلماته بحرصٍ وحذرٍ مريبين:

- محتاج منك معونة عاجلة، نُص جنيه.

- ليه.. ناوي تشتري خروف؟!

- ماتردش على سؤالي بسؤال. جاوب بأيوة أو لأ.

ضحكت فتأفف وبدا عصبيًا، بعدها ابتسم وقرر تبديد دهشتي، أفهمني أنه مفلس وبالكاد ادخر من مصروفه نصف الجنيه ويحتاج النصف الآخر لرشوة السائق عبدون

كي يترك له السيارة الكاديلاك ساعة واحدة ليقودها في نزهة مع أمينة، تحفزت وأردت المشاركة، ولأني لا أملك المبلغ الذي طلبه أشرت عليه بفتح الحصالة الخضراء التي تضم ثروتي المهدرة في رهانات الغُميضة التي عفا عليها الزمن، لكن شكري رفض اقتراحي مؤكدًا أن تلك النقود مخصصة لعمل خيري لا يحب الحديث عنه باعتباره صدقة مخفية، احترمت رغبته، وأسرتني طريقته رغم مسرحيتها، طلبت إمهالي أسبوعًا كي أتمكن من تدبير نصف الجنيه من مصروفي، فابتسم في خبث هامسًا بالحل، مغادرًا الفيلا عقب وصولنا إلى القاهرة، وبعدها غاب لساعات كعادته مؤخرًا.

***

منذ سنوات تظهر كل شهر على ناصية شارعنا سيدة عجوز سمراء، تلف شعرها الأبيض بقطعة قماش مثقوبة، راقبتها مرات فوجدتها تتنفس دائمًا بصعوبة، بعد ما انعقف صدرها الضئيل على جسدها الهزيل كغصن التوى بثمرة الحزن الثقيلة، يحوم على وجهها ذباب لا تكترث به فلا تهشه، بجوارها قُفة تضرب فيها كفها المأكولة بالتجاعيد وتقلب الودع بها، تنادي على المارة لتقرأ لهم الطالع، تتعامل الغالبية

معها كشحاذة، يوزعون عليها ما تيسر، سواء ابتسامة لطيفة أو عملات فضية قليلة، أما أهل جاردن سيتي فيستدعون لها البوليس كل مرة.

نهرتنا أمي عن التردد عليها، وأخبرتنا جدتي أنيسة في حزم بخُرمانية معرفة الطالع، اكتفيت بالمراقبة وتجاهلها شكري حتى قرر أن له رأيًا آخر، جذبني من يدي ذات يوم واصطحبني إليها، ألقى في حِجر السيدة العجوز قرشًا لينطلق لسانها ويحكي له عن حياة عامرة بالأطفال ملفوفة بالسعادة، ومهنة مرموقة تجعله يتحكم في العباد بلا حساب، انفرجت أساريره، واقترب منها هامسًا في أذنها بكلمات قليلة، وبعدما استمع لها طويلًا عاد خطوة للوراء متقلب الملامح، لكنه سرعان ما تدارك انفعالاته وبدَّل بها أخريات ساكنات وهو يحثني على قراءة طالعي.

مع إلحاح شكري وتطوعه بدفع قرش آخر كي تقرأ العجوز طالعي، وافقت من باب التسلية، قلبت العجوز ودعها وهي تزم شفتيها، ثم جمعته فجأة في عصبية وأودعته قفتها، وأعادت القرش لشكري مستعيذة بالله من الشيطان، اقترب منها فهمست له مرة ثانية بكلماتٍ لم أسمعها، وتركتنا غارقين في دهشتنا بعد ما سمرتنا المفاجأة مكاننا، قبل أن تبتعد

رفعت إصبعًا واحدة ناحية السماء ونظرت لأخي بتحدٍّ، لعنها شكري بصوتٍ عالٍ، وراح يبحث عن حَجر ليرميها به، انحنى والتقطه وقذفه ناحيتها كرصاصة، ولولا أنني جذبته من قميصه وقتها لأصابها.

عدنا للبيت ولم أفهم سببًا لغضبته منها بعد ما رفض مصارحتي بما أفضت به العجوز له وحده.

أقنعني شكري بالتحايل على جدي لأخذ السُّلفة المطلوبة نظير اصطحابي إلى نزهة السيارة مع أمينة.. ففعلت، يعرف أن جدي لا يرد لي طلبًا، حصل على مراده وأعطاني موعدًا كاذبًا للنزهة، لكن من سوء طالعه أن الست شفيقة سمعته وهو يتفق مع السائق، فأخبرتني حتى لا يتهور في القيادة، أعرف أن شفيقة تحبني أكثر، ربما لأن سُمعة شكري في السراي، كما بين أصدقائنا، ليست على ما يُرام، لكماته تسبق كلماته، أو كما تضيف جدتي أنيسة «ومسحوب من لسانه». غُلقت الأبواب وانطلق شكري بالكاديلاك البيضاء، بعد دقائق شعرت بزيادة سرعة السيارة، سبقت دقات قلقي قلبي فرفست بساقي عدة مرات، وضربت صندوق السيارة بكفي حتى توقف شكري، سمعت صوت بابه يُفتح فصرخت مناديًا، كاد يشتمني لولا أن أمينة هرعت من الناحية الأخرى

وانفجرت في الضحك فانخرس مجبرًا.

جلست بالأريكة الخلفية متلصصًا عليهما، قاد شكري السيارة في عصبية بالغة بكورنيش المعادي في اتجاه حلوان، طريق ضيق موازٍ للنيل، لا تفصلنا عنه حواجز لكنه ممهد، وكلما تهامست مع أمينة اقترب شكري من حافة الطريق باتجاه النهر ليخيفنا ويجذب انتباهنا، صرخت أمينة ورمقته أنا بنظرة غاضبة ليرتدع، لكنه أخرج لنا من بين شفتيه ابتسامة مبتورة مستنكرة لوجودي، كارهة لصوتي، وعلت ضحكاته بعدها بصورة مرعبة.

في طريق عودتنا لمحت السيدة التي تقرأ الطالع جالسة قرب كورنيش النيل هذه المرة، ربما طردها سكان الحي، أشرت نحوها وأشدت بقدراتها على قراءة طالعه، طمعًا في إثارة فضول أمينة كي أعرف طالعها، وبالمرة أعرف سبب هلع العجوز من طالعي، أعلن شكري رفضه، ونعتها بالدجالة والمخرفة، لكن محاولاته باءت بالفشل عندما تملكت الفكرة من عقل أمينة، وأرادت أن تروي ظمأ فضولها بحكايات السيدة العجوز. دار شكري بالسيارة مضطرًّا، لكنه هذه المرة ضغط على دواسة البنزين بغباوةٍ حتى اقترب من العجوز مسرعًا، أراد فيما يبدو أن يفزعها بالتوقف قبلها مباشرة

لكن التوقيت خانه وحدث ما لم يتوقعه، تحركت السيدة وهي خائفة إلى النقطة الخاوية التي نوى شكري التوقف عندها فأطاح بها، طارت مثل ورقة شجر جافة داهمتها رياح الخريف، شهقت أمينة في حين التفت أنا للوراء صارخًا، وجدت العجوز لا تزال تحرك إحدى ساقيها ببطء، راقدة على ظهرها وودعها منثور حولها كأنها في مشهد جنائزي أخير.

- الست عايشة ونقدر ننقذ حياتها.

صرخت في شكري ليتوقف، وشاركتني أمينة وهي ترجوه باكية جاذبة ذراعه اليمنى ليوقف السيارة، لكن شيطانًا أعمى وأطرش ركب رأسه، زاد من سرعة العربة وفجأة غيَّر من خط سيره وعرج لطرق جانبية لا أعرفها، وعندما اقتربنا من جاردن سيتي قادمين من ناحية مصر القديمة أوقف السيارة، وتكلم بنبرة رجل وقور مثبتًا نظره على عيني عبر مرآة السيارة:

- أنا مش معايا رُخصة ولو وقفت ونقلناها مستشفى حدخل السجن يا فهمي، محدش شافنا ومتنساش إنها الغلطانة، لو كانت قعدت مكانها من غير ما تتحرك كان زمانها في أمان.

اخترت الصمت وشاركتني أمينة مضطرة وزادت عليه

ببكاءٍ لم يتوقف، حتى توقفت سيارتنا بشارع جانبي أسفل بيت خالي، نزل شكري ليفحص آثار الحادث على السيارة، اختفى لدقائق وعاد بيده قطعة قماش مبللة راح يُزيل بها آثار دماء علقت بجسم العربة، ظهر خالي قلقًا لكنه لم يقترب منَّا، همس لشكري ببضع كلمات، وبعدها لوح لنا مودعًا، وعندما دخل شكري السيارة نطق بكلمتين:

- خالك حيتصرف.

على ناصية شارعنا وجدنا سائقنا يلطم خديه وهو يقف بالميدان الصغير الذي يتجمَّع به سائقو التاكسي المخصصون لخدمة أهل الحي، فهمنا منه بصعوبة سبب نحيبه، اتصل أبي بالميكانيكي وعرف أن السيارة خرجت من عنده منذ ساعتين، وقبل دخول عبدون للسراي أبلغته الست شفيقة بغضبة الباشا بعد ما تنصتت على المكالمة كعادتها واستنتجت توابعها، عاد السائق لينتظرنا ويفتش في رأسه عن حُجة كاذبة تليق بعقل أبي، ولمَّا لم يجد انسابت دموعه. انتظر شكري حتى فرغ عبدون من حكايته وأنقده الجنيه الذي وعده به، لم ينسَ أن يُذكِّره بأنه ربع ماهيته الشهرية، برقت عينا السائق وبدأ يشكر بامتنان، فأردف شكري بنبرة حادة هذه المرة:

- بالك لو الباشا عرف إننا خدنا الأوتومبيل من وراه، مش بس حتترفد، لكن كمان مش حرحمك وحخلي عيشتك سودا لون وشك، فاهم؟

أومأ عبدون وهو يُغمغم بكلماتٍ لم أسمعها، بعدها رَقَّ قلب شكري وقرر منحه حُجة غياب تُقنع الباشا.. «ابنه كان بصحبته وأصابته حُمَّى مفاجئة فذهب به لمستشفى قريب ممَّا استدعى تأخره»، انفرجت أسارير السائق وراح يدعو لنا بطول العمر، تذكرت العجوز التي قتلناها وكدت أنطق بما حدث لكن شكري أسكتني بنظرةٍ صارمة، انشغلت بمتابعة أمينة وهي عائدة لفيلتها تلملم خوفها وتتعثر في ارتباكها، وتمسح دموعها بكم فستانها الأخضر القصير كي لا يفتضح أمر فزعها، ركب شكري دراجته ببرودٍ يُحسد عليه وتركني أعود وحيدًا، عقابًا لي فيما يبدو، لوجودي شاهدًا على جريمته، وعندما وصلت للفيلا لم أجده، مرَّت ساعات حتى لمحته من نافذتي جالسًا في شرود بالحديقة فهبطت إليه سائلًا في قلق:

- هيَّ العرافة ماتت؟

التفت ناحيتي ببرود لا ينفد وهز رأسه بالنفي، سألته عن سبب غيابه كل هذه الساعات، أجابني باقتضاب أنه كان يزور

خالي ليطمئن منه على إنقاذ العرافة، ثم تركني وحيدًا في العتمة منصرفًا بعينين دامعتين.

منذ يوم مقتل السيدة العجوز كما أسميته في دفتر مذكراتي صار شكري يتغيب عن البيت كثيرًا، وكلما سألته عن مبررات غيابه لاوعني، بات قليل الكلام، كتومًا للأمور حتى المعلوم منها بالضرورة، أصبحت كل الموضوعات أسرارًا، ومع ذلك نما بداخلي شعور قوي بأنه يريد إخباري بسره، لكنه لا يقوى لسببٍ لا أعلمه، باغتُّه بسؤالي المكرر عن العرافة، فأجابني لأول مرة بتفاصيل جديدة، قائلًا إنها لا تزال على قيد الحياة، فقط أصابها عرج بسيط من جراء الحادث وانتقلت لتعيش مع ابنتها في حي شبرا كي تخدمها، لكنها عادت لممارسة مهنتها، طمأنني مرة ثانية وربما ثالثة مبتسمًا أن أحدًا لم يلتقط رقم السيارة، والسيدة لم تحرر محضرًا بالبوليس. صدقته مضطرًّا رغم أن العرافة من يوم الحادث لم تعُد تظهر بشوارع جاردن سيتي، ولا بكورنيش النيل الذي زرته مرّات ومرّات بدراجتي، ولمّا أعدت سؤاله عن مكانها قال بغير تفكير إنها تعمل في حي الزمالك، لمحت يومها ومضة عابرة بعينيه، بدت مثل بريق مخيف وكأنه يُحملني المسئولية كاملة وحدي.

***

حصلنا على البكالوريا ودخلت كلية الحقوق مثل أبي وخالي وجدي، نحن عائلة حقوقية، لكن شكري خرج عن النص واختار كلية البوليس الملكية، ورغم أنه لم يُصرِّح لنا يومًا برغبته تلك، لكنه أصر على دخولها وكأن ما دونها حرام، وافق أبي على مضض، ولأول مرة نفترق لأسابيع طويلة منذ ولادتنا.

شغلتني الدراسة وغاب شكري في فترة التدريب الأولى لمدة قاربت الشهرين قبل أن يسمحوا له بأول إجازة، لكنه لم يظهر في مساء اليوم المحدد ولا صبيحة اليوم التالي، أعدَّت له شفيقة صنوف الطعام التي يحبها، وجهزت أمي عشرات الأسئلة عن معيشته ونومته ومأكله وصحته ومزاجه، ونقبت أنيسة في ذاكرتها عن حكايات جديدة كي تحكيها له، بينما انشغل ذهن أبي بالتدريبات والدروس التي يتلقاها شكري، وهل ناسبته أم نفر منها بسرعة كعادته.

مع مرور الوقت كبرت علامات الاستفهام وزاحمتها أمارات التعجب لتأخر عودة شكري، شعر أبي بالقلق وحاول أن يكتمه ليُطمئن أمي، التي راحت تحثه على الاتصال بمعارفه بعد ما شعر قلبها بوقوع مكروه له، أما أنا فرغم قلقي لم

أشعر بوجع بعد في صدري، وهو ما طمأنني نوعًا ما، منذ طفولتنا كان كلما أصاب أحدنا مكروه تألم الآخر بوجع مماثل في اللحظة نفسها، ولولا نبهتنا أنيسة لهذا الأمر لما لاحظناه أبدًا.

في نهاية اليوم الثاني عرفنا أن شكري غادر مع المغادرين من طلبة كلية البوليس في إجازة لخمسة أيام، رمتني جدتي بنظرة سؤال عن وجعي فطمأنتها بأخرى تعرف معناها، علا رنين التليفون، وتلقى أبي اتصالًا أخبره محدثه فيه بأنه والد أحد زملاء شكري، وبعد التحيات والسلامات أفهمه أن أخي وبعض زملائه سافروا إلى الإسكندرية في رحلة لصيد الأسماك وسيعودون بعد يومين.

هدأت النفوس وتحول بعض ما فيها من قلق إلى غضب بسبب استهتار شكري. الوحيد بيننا الذي لم يشعر بالقلق من البداية كان جدي، معلنًا أن كل هذا هراء، وشكري يبيت بشقة خالي كي يعطيه التمام عن كلية البوليس، لكني عندما اتصلت بخالي أخبرني بأنه لم يرَه، وشعرت بأنه صادق فيما يقول، مع ذلك كذَّبه جدي، ولما سألته عن علاقة خالي بطلبة كلية البوليس لم يُجبني، فقط نظر لي نظرة أعرفها جيدًا، لها معنى وحيد.. أنني مغفل وكلهم كاذبون.

في تلك الليلة حدث أمر غريب، كانت أمي منذ الصباح تشكو ملاحظتها لفأر ضخم بالحديقة، وكبرت مخاوفها من احتمال دخوله الفيلا ونحن نيام، شكلت أنيسة فور علمها بالخبر كتيبة من السفرجية والخدم تحت إشراف الست شفيقة ليطاردوا الفأر وصرَّحت لهم بقتله، لكن الفأر اختبأ منهم واختفى، لم ينجذب لإغراء قطع الجُبن التي نُثرت بالحديقة وحول أبواب الفيلا، نمنا والمصابيح كلها مضاءة. وبينما كنت أتقلب بفراشي بدأت أوجاع صدري في الظهور، جلست أتنفس بصعوبة وسمعت صوتًا غريبًا آتيًا عبر النافذة، نهضت لاستطلاع الأمر فلم أجد شيئًا، لكن قبل إغلاق النافذة سمعت الصوت ذاته مرة ثانية بوضوح، هبطت الحديقة متسلحًا ببطارية صغيرة وعصا طويلة، لاحظت آثار أقدام على العشب الندي، تتبعتها حتى وصلت للبدروم، وجدت قفل باب «بيت الأمة» منزوعًا والباب يبدو مواربًا، أرهفت السمع فخُيل لي أن أشخاصًا يتحدثون همسًا من ورائه، وسمعت الصوت ذاته مرة ثالثة، أشبه بماكينة تدور بانتظام وفجأة تسكت. سَرَت بجسدي رجفة وتلفَّت حولي أتلمس عونًا من الخدم فلم أجد أحدًا، رغم أن جدتي نبهت عليهم بعدم النوم إلا بعد اصطياد الفأر، تمنيت لو أن شكري معي الآن، أغمضت عينَيَّ وزفرت مستجمعًا ما تبقى من قواي، متقمصًا

روح أخي ودفعت الباب مرة واحدة، فوجدت شكري أمامي وبصحبته ثلاثة آخرين، بجوارهم عشرات الأوراق، بعضها مرصوص بعناية، وبعضها مبعثر بعشوائية، وتتوسطهم مطبعة يدوية صغيرة.

رمقتني ثماني عيون فزعة بحذر، وظهرت ذراع ممدودة بمسدس صغير مصوب نحوي، بينما تأهب آخر لإخراج شيءٍ من جيبه، ظللت منغرسًا مكاني حتى شقَّ الذهول الذي لفَّني معهم صوت شكري، وهو يخبرهم بنبرة متوترة بأنني أخوه، هبطت الذراع التي تحمل السلاح، وشعرت في اللحظة ذاتها بأن قطرات بلَّلت سروالي.

تسللت تحت البطانية أُغطي ما بدا لي من جسدي، أنتفض وأتعرق، لا أملك السيطرة على ارتعاشاتي حتى دخل شكري حجرتي، طبع قبلة فوق جبهتي وألقى حقيبته بجوار سريري ورمى جسده على الأريكة، قرر لأول مرة أن ينام بغرفتي بعد ما استقل كل منَّا بحجرةٍ منذ شهور، وقبل أن يغفو في نومٍ عميقٍ لخص لي ما رأيته وكأنه أمر عادي فأذهلني، لقَّنني ما سأقوله في الصباح لأبي وأمي، كان بالإسكندرية في رحلة صيد، وبعدها ذهب يؤدي واجب عزاء في والد أحد زملائه وافته المنية فجأة وعاد في قطار الفجر، بمجرد ما أنهى

كذبته علا صوت شخيره.

نمت بنصف عقل، وجسد مرتجف، وقلب منقبض، لو لم يخبرني بالحقيقة لدارت برأسي عشرات الأفكار والاحتمالات، لكن آخرها أن أخي عضو بالإخوان المسلمين.

***

«هنا القاهرة.. نزف لكم البشرى السعيدة، بعد مرور عام كامل

ونحو ثلاثة أشهر تحقق المنتظر بانتقال السلطة إلى مولانا جلالة الملك فاروق، اليوم أتم فتى مصر المرجى وولي العهد الميمون ثماني عشرة سنة هلالية من عمره المقرون بالسعد والتوفيق، واليوم وقد بلغ

سن ولاية شئون المُلك يحلف اليمين أمام شيوخ الأمة ونوابها ليباشر

سلطاته الدستورية بعدها.. حفظ الله الملك.. حفظ الله الوطن»

شكري تاج الدين - 4

«والسر عدا اثنين منتشر».. يُشير خالي لشفتيه كلما ردَّد عبارته تلك، كلنا لدينا سر صغير، وكلما طال أمد احتفاظنا به رأينا هدفنا بوضوح، وإذا ما أفصحنا عنه للمقربين أفسدوا مسارنا بآرائهم المتناقضة.

كان لديَّ سري قبل أن يكشفه فهمي ويُصاب بالهلع، انضممت إلى الإخوان المسلمين عندما كان عمري ستة عشر عامًا، قبلها أعدَّني خالي نفسيًّا وبدنيًّا لمدة عام، ألحقني بفرقة الجوالة التابعة للجماعة، ولم يبذل جهدًا بعدها لإقناعي بالاستمرار، انجذبت منذ اليوم الأول لفكرة السيطرة والقيادة والانضباط، أن تنخرط في مجموعة تدين لها بالولاء والطاعة ولا شيء آخر بهدف طرد الإنجليز من البلاد، أن تنشر دينك عبر دعوة لا تعرف حدودًا ولا قيودًا فيزداد عدد المسلمين، أن تعود أيام الخلافة التي أُلغيت منذ أعوام قليلة حتى لا تُشرق شمس الإمبراطورية البريطانية علينا كل صباح، أن يعرف العالم كله قدر قوتنا ويهابنا، أن نسود لنحكم كما كنَّا، مثلما يقول خالي وأعجبني كلامه، حتى حفظته وصار دستوري في الحياة.

راقت لي الفكرة وصار الحلم واقعًا عندما رأيت بابه يُفتح

على مصراعيه وكنت على رأس كتيبة جوالة، البداية مع تنصيب فاروق ملكًا، يومها استعرضنا قدراتنا منذ الصباح المبكر، على يسارنا شباب الوفد يهتفون بالمئات للوطن، يرفعون لافتات كُتب عليها «الشعب مع النحّاس»، جاء لنا التكليف فورًا لنهتف «الله مع الملك»، غطى هتافنا على صياحهم، ابتلعناهم، زلزلنا الأرض بهدير أصواتنا ودبيب أقدامنا، كنت أكثر شباب جوالة الإخوان المسلمين حماسًا، هتفت حتى بح صوتي، لكن بعد العرض لم نعُد للاستعراضات الكبيرة، فقط تدريبات واستعراضات محدودة بالقاهرة والجيزة، ثم هدأ الأمر لشهور حتى فتر حماسي، ولم تفلح التدريبات الأسبوعية العادية في إذكائه.

كلفونا بعدها بحضور دروس دينية ثقيلة على قلبي، ورغم أن خالي لم يعُد يحضر معي الدروس التالية لالتحاقي بالجوالة مثلما فعل بأول درسين، لكن قيادات الجماعة ظلوا يولوني معاملة خاصة واهتمامًا كبيرًا أرضى غروري، لا يزال خالي عضوًا بمكتب الإرشاد ومُقربًا من الأستاذ البنا مرشد الجماعة، وقتها شعرت بقرب قيادتي لشُعبة القاهرة قسم الفتيان. رغم حماسي ظهرت بعض الأمور التي ضايقتني وظلت عالقة بروحي، أولها إخفائي عن عائلتي أنني عضوٌ بالجماعة، لم أشأ مضايقة جدي الذي يكره الإخوان كراهية

التحريم، ويلعن مرشدهم مع كل طلعة شمس إذا ما جاءت سيرته أو قرأ خبرًا عنه في جريدة، أخشى قلق أمي إذا ما أخبرتها بأنني أنوي محاربة الإنجليز، أما أبي فأعلم أنه سيرحب، فهو لا يرفض لي طلبًا ولا يناقش معي أمرًا، لكن انضمام خالي بات مثل رأس الذئب الطائر في مخيلتي، فجعلني أصمت ولا أُعلن انضمامي للجماعة، بعد ما صار منبوذًا من العائلة وعاش وحيدًا بعد دخوله الإخوان.

شكلت الدروس الدينية ومواعيدها الثابتة عبئًا عليّ، كأن جبلًا يكبر فوق صدري، وجدت نفسي فقط بمعسكرات الجوالة والتدريب البدني، لكن ما إن ننتهي ونتوضأ لنجلس في حلقة الدرس حتى يحاصرني الضيق ويظللني الملل، أما كلام خالي قبل انضمامي عن أننا سنحكم ونسود العالم فلم أسمعه في الدروس التي حضرتها، ولا أظن أن مَن يُلقنني الدرس قادر على حُكم شارع أو حتى قيادة حارة، مُعلمي في الشعبة هيئته مثل موظف حكومي بسيط، ولا يمكنه أن يكون قائدًا ولو بعد مائة عام.

راودني شعور لفترة أن خالي ضللني كي أنجذب للتيار وتصبح العودة صعبة إذا ما سبحت عكسه، خرج شيطاني من بين ضلوعي ووسوس لي كعادته، لم أعد ملتزمًا بطريق

الدعوة، أهملت الدروس حتى توقفت تقريبًا عن الحضور، بداخلي شعور بأنهم لن يوبخوني إكرامًا لخالي، لديَّ حُجة قوية وباب موارب للهروب إذا ما وبخني أحد، كلية البوليس لها مواعيد وقواعد صارمة لا تسمح برفاهية الانضمام للإخوان المسلمين حتى لو ضمنوا دخولي الجنة.

- حماسك فتر يا شكري وإيديك بقت ناعمة وياقة قميصك بيضا بتبرق.

تهرَّبت من الرد على كلمات خالي، واستفضت في شرح أمنياتي بمشاركة فهمي لي بعضوية الجماعة، تعمَّدت الانحراف بدفة الحديث حتى جرفت خالي معي، يرى أن فهمي يحمل أفكارًا بالية في رأسه، سكبها جدي ببطءٍ على مدار سنين حتى ترسبت بقاع جمجمته. أعدت ترديد كلمات فهمي على مسامع خالي، وتظاهرت بأنني صرت حائرًا.

سكت خالي كمَن يرتب كلماته ثم قال:

- فهمي غيرنا يا شكري، واقف على مسافة بعيدة عننا، شاب من غير طموح، إنما إنت مختلف وجريء.

يتقبل عقلي كلمات خالي، لكن قلبي ووجداني يفتقدان فهمي بجواري.

بعد شهر من التغيب عن حضور الدروس تلقيت اتصالًا من مسئول المنطقة، توقعت توبيخي، لكنه أخبرني بقبولي بالجماعة عضوًا تنظيميًا بعد مرحلة الجوالة، وحدد لي صباح الغد لأداء القَسَم.

وضعت السماعة وارتاحت ملامحي، لحظتها مَرَّ فهمي من أمامي مصادفة وسألني عن سر سعادتي، اكتفيت بابتسامة غامضة، ثم تعمَّدت إخراج صورة أمينة من حافظة نقودي وإعادتها ببطءٍ على مرأى من عينيه، تقلبت سحنته وأطلَّت نظرة صياد كسول من عينيه وهو يسألني بتردد مشوب بالقلق:

- خير؟ حصل حاجة لأمينة؟

أشفقت عليه من تعب السؤال لكني لم أُرحه بالجواب، وانصرفت محتفظًا بابتسامتي.

***

ضبطت طربوشي إلى اليمين قليلًا في المرآة وابتسمت، وتحت جناح السكوت تسللت، قبل أن أجتاز بوابة الحديقة سمعته مناديًا:

- استنى عندك.

نظرت لساعة يدي، وجدتها الثالثة إلا عشرين دقيقة، لم يعُد لديَّ وقت للجدال، ولا أريد اصطحابه معي، تركته حتى هبط الحديقة ولمَّا اقترب لنصف المسافة قلت وأنا أتوقع رده:

- أنا رايح لخالك علشان عامل ليلة ذِكر كبيرة وجايب مُنشد، ولازم أساعده في التوضيب.

تقلبت ملامح فهمي وأشاح بيسراه ممتعضًا وأولاني ظهره عائدًا، بدا محبطًا وهو يبرطم بكلمات لم أفهمها، درت نصف دورة حول سراي سعادة، وأطلقت صفارة متقطعة، ظهرت أمينة بعد قليل ترفل في فستان بلون السماء الصافية. قفزنا في أقرب تاكسي صادفنا وأنا أنظر في ساعتي كي لا أتأخر عن حفل الفالس الماتينيه الذي حجزت تذكرتيه منذ أسبوع، صحت في السائق:

- كازينو الأزبكية يا أوسطى بسرعة وحياة أبوك.

اندمجنا أنا وأمينة بعد ما خطفت الموسيقى أرواحنا، رحنا نتمايل في مكاننا، انسابت أنغام الفالس لتداعب مشاعرنا، موسيقى سابيه وباخ وشتراوس مثل التي تعزفها أمي كل يوم. اصطحبت أمينة إلى حلبة الرقص، أحطت خصرها بيد وبالأخرى أمسكت كفها الرقيقة، قربتها مني حتى شعرت

بأنفاسها ودقات قلبها، كانت ترتعش ثم بدأت تلين وتتمايل، ابتسمت نصف ابتسامة قلقة فهمست لها «وحشتيني»، توردت وجنتاها وبعدها أغمضت عينيها وتركت جسدها يتأرجح على لحن جديد بدأت الفرقة الموسيقية عزفه، رحنا ندور ونروح ونجيء، شعرت بأن المكان يتسع بنا ولنا بلا نهاية، في لحظة أحسست بأنني أكاد ألامس الأرض، على وشك التحليق، فتحت عيني، لمحت أمينة مبتسمة وهي لا تزال مغمضة كأنها حالمة.. همست مرة ثانية «وحشتيني أوي».

فتحت عينيها وفاجأتني بسؤال عن شقيقي فهمي.

ارتبكت لوهلةٍ ولم أُجبها على الفور، فأردفت:

- تصورت إنه جاي معاك الحفلة.

- تفتكري كان ممكن فهمي ييجي علشان يقعد لوحده يتفرج علينا؟

لم تُجبني بوضوح، لمَّحت فقط إلى أنها تفتقد وجوده، ثم اكتفت بصمتٍ مريبٍ أثار ظنوني من بعد غيرتي، أحيانًا ينتابني شعور بأنها تميل ناحية فهمي، وأغلب الأحيان أشعر بأنها فتاتي وحدي، ملكي، لا يحق لأي مخلوق مجرد النظر

إليها حتى لو كان أخي، تذكرت كلمات خالي عن تحريم الخمر لأنها تُحلي المرء بالجرأة فيُقدم على أعمال خطيرة، ذهبت للبار القريب مقتنعًا بنصف كلمات خالي، طلبت كأسين من المارتيني المخفوق بالتوت مع مكعبين من الثلج بكل كأس مثلما يفعل جدي قرب العصر، قدمت واحدة لأمينة لكنها اعتذرت وبدا عليها بعض الخوف، تجرعت كأسي دفعة واحدة لأتشجع وبعدها ارتشفت بعضًا من كأسها، جذبت يدها وغُدنا لحلبة الرقص، التصق صدري بصدرها الذي نبت مبكرًا واكتملت استدارته مثل ثمرتي خوخ، سَرَت بجسدي رعشة وشعرت بلذة طفيفة، وضعت كفي على خدها وقربتها مني كي أُقبلها، وانسابت كفي الأخرى نزولًا فوق ظهرها، قبل أن أبلغ نهايته تراجعت، بعينها نظرة غريبة، لم تكن غاضبة بقدر ما كانت مندهشة، ومع ذلك لم تنهرني عن فعلتي، مدَّت ذراعيها نحوي فالتقطت كفيها وعدنا للرقص على أنغام الدانوب الأزرق التي أعادوا عزفها لمرة رابعة، درنا في حلقات مع عشرات غيرنا، واندمجنا هذه المرة حتى نسينا مَن حولنا، وأولهم فهمي.

***

«مبارك يا أخ شكري». كلمات تهنئة قليلة كبيرة المعنى

قالها مسئول منطقة السيدة زينب، بعد ما أقسمت بالولاء أمامه عضوًا تنظيميًا بجماعة الإخوان، أو جمعية الإخوان المسلمين كما تسميها الحكومة لكنهم لا يحبذون الاسم الرسمي. أول تكليف من الجماعة كان تقدير موقف لطلبة كلية البوليس دون دعوة أحد منهم، فقط كتابة تقرير عن الذي أتوسم فيه الحس الوطني والقدرة على العمل السري وتحمل المسئولية، أنهيت التقرير في شهر لكنهم لم يهتموا به، ربما لأنني لم أستبعد طالبًا من الترشيح سوى ثلاثة من الأقباط كطلب الجماعة نفسها، رأيت الجميع وطنيين ولديهم القدرة على تحمل المسئولية حتى الأقباط الثلاثة، تلقيت تكليفًا ثانيًا بعدها بأسبوع، دراسة حالة عن شباب منطقة جاردن سيتي، فاكتشفت أن الغالبية لا تروق لهم شعارات الإخوان ولا اسم الجماعة ولا هيئة المرشد، وبعضهم لم يسمعوا عنه. قدمت مقترحًا عن سبل الوصول للطبقة الأرستقراطية من خلال التواجد بالنوادي الخاصة وبعض تراسات الفنادق التي يترددون عليها، أو حفلات الموسيقى والرقص. فكرتي باختصار، إذا لم تكن تعجبهم ملابسنا فلنتخفى في ملابسهم، ونجلس معهم لنملأ عقولهم الفارغة بأفكارنا بالتدريج كي لا ينفروا منّا، لكني لم أتلقَّ جوابًا، ولم تأتِ تكليفات جديدة، مع الوقت شعرت بإهمال متعمد لدوري

ومكانتي في الجماعة، لا أحد يهتم بتقاريري أو يناقش أفكاري.

فكرت في الابتعاد عنهم بسبب روتينية الدروس واللقاءات وإهمالهم لرأيي، بدأ الملل يتسرب بداخلي حتى غمرني، فطلبت الانفصال عن الجماعة، لكني فوجئت بمسئول منطقتي يلقنني درسًا في أن لا أحد ينضم لجماعة الإخوان ويتركها، اعتبرت كلامه تهديدًا، وطافت بخاطري فكرة الهروب والتحدي، لكنه لطّف من حديثه عندما وبخه خالي بعد ما شكوته إليه. تجاوزت الأمر مؤقتًا بعد ما شرح لي خالي مقصدهم، أوضح أن العضو حتى لو ترك الجماعة باختياره سيجد بعضًا من روحه متعلقًا بها مجبرًا، يظل محبًّا أو متعاطفًا أو على أقل تقدير يحترم بعضهم، صمت قليلًا وهو يداعب حبات مسبحته وأردف:

- كل مَن تركنا يفتش عن أخبارنا، يتابعها ويهتم بها، يحزن لانكساراتنا ويفرح لنصرنا ولو في سِرِّه.

سألته في تأفف:

- وتقاريري ومقترحاتي وجهودي؟

- المسألة مسألة وقت وكل شيء تنوله بالصبر.

رغم تشجيع خالي وكلماته المؤثرة إلا أن عقلي لم يتقبلها كلها، لا أريد الجهاد كما يقولون ولا أحبذ فكرة الموت الآن حتى لو اعتبروني شهيدًا، أيضًا لا أريد أن أكون درويشًا بمسبحة وسجادة صلاة وجلباب أغلب الوقت مثل خالي، أريد السلطة والقيادة، لا يهمني كثيرًا استعجال طرد الإنجليز لكني أتطلع لتولي مسئولية في الحكومة، أريد تغيير الناس والمجتمع ليطيعوني، ولا بأس بأن يكون ذلك عن طريق تطبيق الشريعة الإسلامية كما يقولون لنا، فالأمر لا يضايقني، المهم أن أكون في مركز يتيح لي السيطرة على الجميع، أما الكلمات التي يقولها خالي عن التقوى والصلاح والعبادات فتصلح كمقولات مأثورة، مطبوعة على ظهرية كراريس مدرسية، أو مقطع في مقال صحفي بأي جريدة، أو مفتتح لخطبة جمعة، لكن الجدال مع خالي ممنوع والطاعة واجبة، رغم أنه الوحيد الذي شجعني على الجدل والتفكير قبل انضمامي لجماعة الإخوان، لا بأس سأنتظر، وكلما طالت الغيوم اقتربت الشمس من الظهور. لكن هذه المرة لم أصبر طويلًا، نقل لي خالي البشارة بعد أسابيع قليلة، وافق مكتب الإرشاد على بعض تقاريري، وأبلغوني بوضعها موضع التنفيذ، يومها اعتبرتها أول قفزة لي على سلم الجماعة، رغم يقيني أن الدرج لا يزال عاليًا.

***

«كله سلف ودين»، قالها جدي وهو ينهض من رقدته القصيرة وقت القيلولة في طريقه لدورة المياه رافضًا مساعدتي، أعدت يدي الممدودة إلى جوار ساقي، وعيناي تتابعانه في قلق، الظهر منحنٍ والخطوات قصيرة والقدم تزحف والرأس منكس، ترتفع ساق عن الأرض بالكاد وتدق العصا لتنبه الأخرى قبل أن تدب بوهن، الكبر والحزن لوفاة خالي وابنه البكري نالا منه على التوالي، تركاه عظامًا مكسوة بطبقة رقيقة من لحم، لزوم الإعلان عن حياة توارت شمسها منذ زمن لكنها لم تغرُب بعد.

تركته وابتعدت لمّا لمحت فهمي يهرول نحونا، لا يعتبره حفيده إنما جليسه وأنيسه، ومنذ سنوات لا يتحدث تقريبًا مع أحد غيره. اليوم لا يريد الحديث مع أحد ولا حتى فهمي، كنت أظنه لن يحزن كل هذا الحزن بسبب خلافه الدائم مع خالي الذي ترك البيت منذ سنين بعيدة وعاش بمفرده، أو ربما لمرضه المزمن في صدره والذي تمكن منه ورحل بسببه، ممّا خفف من وقع رحيله علينا رغم أنه لم يبلغ الخمسين من عمره، لكن منذ عرف جدي بنبأ الوفاة حتى أصابه وجوم غريب زاد من قلقنا عليه، ونسينا خالي الذي توفي أمس ولم

يبرد جثمانه بعد.

ليلة العزاء أنستني أحزاني بصورة أدهشتني، في البداية ترنحت وتصورت لوهلة أنني فقدت بوصلتي لمَّا علمت بنبأ رحيل خالي، أظلمت الدنيا في وجهي حتى أتى الإخوان لسرايتنا، ما رأيته ليلتها أكد لي قوتنا، وأن أعدادنا في تزايد رهيب، شعرت بالونس، بعزوة حقيقية لأول مرة، حتى لو مات خالي سأعيش على سيرته التي هي أطول من عمره، ومن المؤكد أنني سأستفيد منها طوال عمري.

استقبلنا المعزين في بهو وصالونات الفيلا، ومع تزايد عددهم اضطر جدي لتخصيص الحديقة القبلية بالكامل لهم، وأرسل أبي سائقه الجديد لإحضار عشرات المقاعد من فراشة قريبة بالسيدة زينب، امتلأت الحديقة برجال مطربشين حتى اضطر المقرئ إلى قراءة آيات قصيرة كي ينصرف المعزون، صافحت بعض مَن تعرفت على وجوههم بإيماءة من رأسي، وتفاديت الجلوس مع مَن أعرفهم بنصيحةٍ من مسئول المنطقة كي لا ينكشف أمر انضمامي كما أمرني عند وصوله، ما زالوا يخشون رفض أبي للفكرة، وهو الوزير السابق الذي عارض المرشد حينما أصر على تدريس الشريعة الإسلامية في مناهج التعليم بالمدارس

فتصدى له أبي بحسم، ربما يعملون له حسابًا إذا ما عاد للوزارة كما قالوا، رغم أنني أكدت لهم أنه لا يعارض دخولي الجماعة.

تنقلت من مقعد لآخر، أتلقى العزاء وأشكر البعض على الحضور وأرحب بآخرين، حتى اقترب مني شاب ملتحٍ بلحيةٍ خفيفة، صافحني بحرارة وضمني لصدره بقوة هامسًا في أذني:

- نقلنا المطبعة والحمد لله.

قبل أن أنطق كان الشاب تبخر من أمامي واندس وسط المعزين، وبعدها اختلطت ملامحه عليّ.

منذ كشف فهمي أمري وهم يريدون نقل المطبعة، رغم تأكيدي أن أخي مأمون الجانب وكاتم لأسراري، إلا أنهم أصروا على ما فعلوا غير نادمين. عاتبت مسئول المنطقة في لين على تصرفه، لكنه صد عتابي قائلًا بصلف:

- الخطر لا يأتي إلا من مأمنك.

قالها وانصرف بغير مصافحة، تركني حائرًا لا أعرف كيف تمكنوا من تسريب المطبعة والمنشورات وسط هذا الزحام، وكيف دخلوا بيت الأمة الذي لديّ مفاتيحه وحدي؟ وفي

وسط حيرتي اقترب فهمي، سألني عن سبب استبدال سائق جديد بعبدون سائق أبي، أخبرته بأنني لا أعرف جوابًا وعليه سؤال أبيه بدلًا مني، تقلبت ملامحه وهمس بصوتٍ خفيضٍ سائلًا عن العرافة، هززت رأسي بلا معنى وتركته مبتعدًا، بينما علا صوت المقرئ وهو يتلو سورة التوبة.

***

«ونظرًا للتجاوزات الأخلاقية والأمنية من بعض الإذاعات الأهلية

واستعمالها في غير الأغراض المخصصة لها وجنوحها إلى أمور تتعلق بالدعارة غير المرخصة وتجارة الحشيش والأفيون، فقد تم إيقافها جميعًا وصدر المرسوم الملكي الذي حدد ضوابط العمل الإذاعي،

ومنها اشتراط الحصول على ترخيص من الحكومة، وتم التعاقد

مع شركة ماركوني العالمية على إدارة الإذاعة اللاسلكية للحكومة

المصرية مقابل حصة من حصيلة رخص الاستقبال»

فايز حبشي - 1

«الله أكبر ولله الحمد»، هتاف أسمعه لأول مرة، ظل يتكرر ويزلزل الشارع كأن يوم القيامة بعد قليل، أسرعت الخطى على أمل اللحاق بأتوبيس السيدة زينب قبل أن يُغرقني المطر، أحصيت ما بجيبي فوجدت خمسة ملاليم ولم أتناول عشائي بعد، هذا لا يعني إلا أمرًا واحدًا لا يهم غيري، سأعود لبيتي سيرًا على الأقدام بسبب توقف خطوط الترمواي للإضراب. نظرت للسماء أستعطفها لتؤجل دموعها الغزيرة لكنها لم تستجب.

علا الهتاف مرة أخرى، لمحت زحامًا بالقرب من بوابة فندق البرلمان، طوابير من بَشر تحتل ثلث الطريق، ورغم صياح الباعة الجائلين إلا أن الهتاف ظل مسموعًا بوضوح، انجذبت بدافع الفضول، أول ما خطر في بالي أنهم يكبرون لذبح خروف، وربما عجل لتوزيع لحومه على الفقراء، وأنا منهم بعد إلغاء ترخيص عملي اللاسلكي، نسيت السير على الأقدام وإضراب سائقي الترمواي، وأطبقت بكفي على الملاليم الراقدة في جيبي وهرولت ناحيتهم، وقفت في آخر صف، ورغم طول قامتي نسبيًا لم أرَ شيئًا، فقط مئات الرءوس العارية أو الطرابيش الحمراء القانية، علمت أن الحدث

بالطابق الرابع فصعدت مع الصاعدين.

اكتشفت بعد فك رموز لافتة باهتة أنني بمقر جمعية الإخوان المسلمين، كنت أسمع عنها كجمعية خيرية بحكم مهنتي، لكني لم أقترب منها ولا أعرف مؤسسيها، دخلت قاعة فسيحة مكتظة بالأفندية والمعممين، بالكاد أسمع صوت رجل يبدو أنه يقول كلامًا حماسيًا؛ لأنهم يقاطعونه بالهتاف في آنٍ واحدٍ «الله أكبر ولله الحمد».

مِلت على أذن رجل وقور أشيب سائلًا عن شخص الخطيب، ردَّ مندهشًا:

- يا عيب الشوم، ده الأستاذ حسن البنا يا بني، ادعي وراهم ربنا يكرمك.

لعنت جهلي ومحدثي معًا بعد ما فسر لي الماء بالماء، مَن يكون الأستاذ البنا هذا الذي يُلهب الحناجر لهذا الحد، ويجعل الرجال تتراص أمامه بالمئات؟ والله لو تحية كاريوكا هي التي تعتلي مسرح المكان لما وصل جمهورها لنصف هذا العدد. دفعني فضول الحصول على جواب لاختراق الصفوف، لجأت لحيلة قديمة علَّمتها لي أمي واستعملتها بالترمواي لضمان مكان بوسط العربة كي لا أسقط من الباب، اندفعت بين الصفوف ضامًّا كفَّي قرب منتصف بطني كأنني

أخفي شيئًا بينهما صائحًا بلا توقف:

- إوعى رجلك، إوعى الزيت يا أفندي، حاسب يا أستاذ على هدومك.

بعد أقل من نصف دقيقة كنت بالصف الأول، وجدت أمامي رجلًا متوسط الطول، أبيض البشرة، له لحية خفيفة منسقة، مبتسمًا في بشاشة، لاحظت أنه خفيف الخطى، سريع الحركة، دائم الكلام والابتسام، يرتدي طربوشًا وبدلة إفرنجية، ويتحدث عن السماحة وحُسن الخلق والتربية الصحيحة لأولادنا، علا صوته وهو يحدثنا عن مقاومة الجهل والحفاء والفقر، بدا كالأسد وهو يتحدث عن فساد الذمم والنفوس، الحقيقة لولا صلاته على النبي لظننته قبطيًا مؤمنًا طيبًا، فكلامه يُشبه كلام الأستاذ لمعي جاري وصديقي، بل يكاد يكون سمعه منه أولًا.

رفعت طربوشي بعد ربع الساعة وهرشت رأسي، لا أدري كيف انجذبت لحديث البنا وأنا الملول بطبعي، لم أقرأ كتابًا في حياتي من بعد المدرسة، لا تصافح عيناي سطورًا سوى كتيبات تشغيل الأجهزة والمعدات، أغلبها تحوي رسومًا وكلامًا بالإنجليزية أفهمه بالكاد، لكن هذا الرجل أسرني بحديثه.

ومضت في رأسي فكرة لا يجوز البيات عليها ليومٍ تالٍ، انتظرت حتى انتهى من كلامه وذهبت لأصافحه وأتحدث معه، استغرق الأمر وقتًا أطول ممَّا قضيته مستمعًا بسبب التفاف الناس حوله، كنَّا نقف على مسرح خشبي صغير، لمحت من مكاني مئات الأشخاص كانوا حاضرين، ما زالوا يرددون الهتاف ذاته والأعداد تتزايد رغم انتهاء الدرس، جريت نحو رجل يبدو من هيئته أنه موظف بالجمعية، يجلس على طاولة صغيرة وأمامه ورق وأقلام، طلبت منه قصاصة بيضاء دوَّنت بها بياناتي وكلمة مختصرة عن طبيعة عملي لعلها تجذبه، عُدت للأستاذ البنا وسلمتها له بصعوبة قائلًا بحماس:

- أنا تحت أمرك يا مولانا، اتصل بي أي وقت، أنا عاوز أخدم لله وللوطن.

قرأ الأستاذ كلماتي بسرعة وابتسم ابتسامة لم تُرحني، أعطى الورقة لرجلٍ من أتباعه ليدسها في جيبه بغير اهتمام، أطارت ابتسامة البنا المبتورة كل توقعاتي بنجاحي في جذب انتباهه، وغادرت منطفئًا بعد وأد ورقتي في جيب تابعه.

***

تقول أمي إن الغراب لن يُغرِّد إذا ما وقف على حافة

نافذتك في الصباح، وظهور ضابط المباحث وعساكره أمام دكاني أمر لا يدعو للطمأنينة ولا يبعث على الارتياح، صحيح اليوزباشي شكري تاج الدين ضابط المباحث يعرف ربنا كما يقولون عنه، لكنه عنيف بسبب وبدونه، في النهاية هو رجل بوليس ولن يأتي ليهنئ بالعيد.

- إنت فايز كامل حبشي؟

- حبشي اسم الشهرة يا حضرة اليوزباشي. أبويا كامل إسكندر ورخصة المحل باسمه.

قدمت أوراقي بثبات وثقة، لم أكن مندهشًا من كونه لا يتذكرني رغم ترديدي لاسمي ثلاثيًّا، عندما تركت سراي جاردن سيتي كان عمري خمسة عشر عامًا، وكان شكري نائمًا مع توأمه في اللفة، بعدها رأيته لمرة واحدة وهو طفل صغير لم يتجاوز الرابعة ربما، لم أكن خائفًا أيضًا من نظرته الثعلبية الحادة، فليس عندي ما أُخفيه عن الحكومة، لكن ذهني انشغل في إحصاء العساكر والمخبرين، كانوا خمسة بخلاف اليوزباشي شكري، الأمر يعني أن تفتيشًا سيجري بعد قليل بحثًا عن مسروقات، أو ربما بلاغ من زبون مهم، باشا من الباشوات لم يعجبه الشغل، وبالتالي سيقلبون المحل وسأحتاج يومين على الأقل لترتيبه.

يبدو أن صمتي طال فنهرني أحد مخبريه لأرد على السؤال، اكتفيت بإيماءةٍ وتمتمت بكلامٍ غير مفهوم، طرق اليوزباشي كفه بعصاه وأشار لرجاله بعينه، أحاط بي ثلاثة منهم وحملوني كالذبيحة نحو صندوق السيارة الخلفي، ولملم الباقون بضاعة من المحل لم أتبينها. بعد ربع الساعة كنت جالسًا في مكتب اليوزباشي شكري بقسم السيدة، سألني عن عدد قوالب السكر التي أريدها فبسطت كفي في وجهه، ما زالت الكلمات هاربة من فوق لساني، راح يقلب لي كوب الشاي بنفسه مبتسمًا في ودٍّ شديد، وقبل بلوغ دهشتي سقف الغرفة قال بهدوء:

- الأستاذ البنا مبسوط من فكرتك لمَّا شاف الورقة بتاعتك، اعذرني على الطريقة والمخبرين لكن لا بد نظهر للناس إنك مطلوب في القسم ونفتش المحل، أنا بتكلم معاك بصفة شخصية.. مفهوم طبعًا!

تمتمت بالإيجاب مع أني لا أفهم صلة شكري بالأستاذ البنا، حتى ولو كان كلامه جميلًا يدخل القلب، لكن هذا ضابط والآخر داعية كما يُعرِّف نفسه، إلا إذا كانت الداخلية قد افتتحت قسمًا شرعيًّا للحلال والحرام. مع ذلك وجدتها فرصة جيدة للاقتناص، وطلبت لقاء الأستاذ البنا لنبدأ

الشغل، سألت عن جدول مواعيده وأماكن زياراته كي أكون جاهزًا، تحدثت بثقة بعد ما أدركت اهتمام البنا بورقتي واحتياجه لخدماتي اللاسلكية.

ظل اليوزباشي شاردًا حتى شقَّ الصمت بسؤال:

- يا ترى نقدر نبث إذاعة لمديريات بحري والصعيد؟

قبل أن أُجيبه شرح فكرته، يُريدون الوصول إلى أكبر عدد من الناس والمريدين بالدلتا ووجه قبلي، تعجبت من تحدثه بصيغة الجمع، قاطعته موضحًا أن الإرسال كلما كان بعيدًا عن النقاط المركزية أصبح ضعيفًا، وإذاعتي أهلية بأجهزة بسيطة محدودة المدى، بالكاد تغطي مناطق في محافظة واحدة، والموجة الطويلة سهل التشويش عليها، أبلغته بأنني لا أمتلك ترخيصًا الآن، وأحتاج إليه مع كثير من المال ليسهل استخدامي لموجات قصيرة تصل لنقاط بعيدة، ابتسم رافعًا كفه في وجهي، طالبًا عدم تعجُّل أي شيءٍ لأن الأمور تُنال بالصبر، وأجرى اتصالًا هامسًا عبر الهاتف، ثم وضع السماعة وفاجأني بأن الأستاذ البنا سيلقاني الليلة في شقة بشارع الصليبة لأسمع الحلول منه.

بدا لي أن كل شيءٍ مرتب مسبقًا، لكني تظاهرت بالدهشة لأطمئنه، أمسك اليوزباشي شكري ورقة وقلمًا لكنه تراجع في

آخر لحظة سائلًا:

- إنت أكيد تعرف المنطقة كويس والعنوان ما يتوهش.

هززت رأسي بالإيجاب فمزق الورقة وأبلغني برقم البيت والطابق، كرر كلماته حتى تيقن أنني حفظت العنوان، بدا من جلسته المائلة للأمام أنه قرر إنهاء اللقاء فنهضت وصافحته مودعًا، قرب الباب فكرت لوهلة وقامرت بما لديَّ، استدرت مبتسمًا وسألته:

- حضرتك طبعًا عملت تحريات واتقصيت عني قبل ما تقرروا إنكم تتعاملوا معايا!

نظر لي باستخفاف وهز رأسه والغرور ينسكب من عينيه أنهارًا، فبادرته قائلًا:

- فاكر حضرتك الست شفيقة اللي كانت بتخدم في سراية جاردن سيتي عندكم؟

برقت عينا شكري لوهلة، وحام طيف حيرة مباغتة حول وجهه وهو يجيبني ببطء:

- طبعًا فاكرها الله يرحمها اتوفت من حوالي سنة، إنما إيه المناسبة؟

- أنا فايز ابنها الوحيد لا مؤاخذة.

خرجت وأنا مستمتع بعلامات التعجب والاستفهام والدهشة التي ارتسمت على ملامحه، شعرت بأنني أخذت بثأري منه عندما اختطفني من دكاني محملًا بالعلامات ذاتها، رددت له الصفعة وغادرت وأنا مشغول بالمهمة الجديدة. الصنارة غمزت، ربما الطُّعم مُغرٍ لكن مؤكد أن الصيد ثمين، ففركت كفَّي متلهفًا لما هو آتٍ، طوال طريقي للدكان لم أنتبه للمخبر الذي يسير ورائي منذ خروجي من القسم، حتى كشفته في مرآة دكان المزين الملاصق لدكاني، اتسعت ابتسامتي وزادت ثقتي بحاجتهم لخدماتي، رغم إشارات سخيفة من عقلي بأنني قد أكون الصيد الثمين.

***

«كما علم مراسل الراديو المصري أن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول سوف يُشرِّف بحضوره البهي الحفلة الأولى لفيلم

غرام وانتقام الذي لعبت بطولته فقيدة الفن السينمائي المطربة أسمهان، وذلك مساء الأحد العاشر من ديسمبر الجاري، وهي حفلة خيرية

مخصص إيرادها لمساعدة الفنانين من المحتاجين، وبعدها يُعرض الفيلم للجمهور من اليوم التالي على مدار أربع حفلات يوميًّا»

أمينة سعادة - 1

بعض البدايات صادقة لا رتوش فيها ولا زيف عالق بها، مثل بداياتي في سراي سعادة بجاردن سيتي، ولدت هنا وسافرت وأنا في الخامسة من عمري إلى باريس، وعندما تجاوزت العاشرة بشهور قليلة عدت وافتتح أبي محلجًا للأقطان بالقاهرة، خمس سنوات ابتعدت فيها عن مصر، لا شيء منها حُفر برأسي سوى عبارة يقولها أقارب وأصدقاء أبي كلما زارونا «عقبال ما تخاويها». من يومها قررت أن ألعب مع الأولاد طوال الوقت لاعتقادي أن أبي سيحبني أكثر، وحتى لا يخاويني ويأتي بالولد فيزاحمني في محبته، مع الوقت فشلت في أن أكون ولدًا، وخسرت البنت التي ولدت عليها، كبرت وخشيت أن تَصدُق مقولة أمي عني «جسم فتاة وعقل صبي».

غُدت من باريس لتقع عيني على جيراني ويتعلق قلبي بهما، أولاد تاج الدين كما أسمتهم جدتي، مع أنهما اثنان بعد ما رحلت عنَّا شقيقتهما في حادث مروع، كانت تكبرني بعامين على الأقل، صامتة وحزينة أغلب الوقت وكأنها تدرك موعدها مع القدر، ولا تريد ترك ذكريات جميلة لأهلها كي لا يبكوها بقية العمر. في البداية أحببت الأخين معًا، ذكرياتي

معهما بدأت من عزبة تاج الدين، ولو جاء يوم وكتبت عنهما كتابًا لاحترت في عنوانه، كلاهما يصلح بطلًا لقصة طفولتي وشبابي، لا يمكنني حذف مشهد لأحدهما، ولو فعلت لاهتزت الصورة ونقصت الحكاية، وربما ما عرفت أختار بينهما عندما كبرت، ففي النهاية واحد فقط سيدخل معي الجنة كما تقول أمي.

الغريب أنني عندما التقيتهما أول مرة ابتعدا عني، شعرت لفترة بأنهما يتهربان مني، يصران على لعب الكرة والغُميضة وركوب الدراجات والحمير، ارتديت بنطلونًا طويلًا لكنهما رفضا مشاركتي، تأفف شكري من وجودي وعاملني بصلافة، وتصرف فهمي بلا مبالاة كأنه لا يراني، شكوتهما، فأجبرهما أبوهما على اللعب معي، استجابا على مضض، لكن في السنة الثالثة من زياراتنا للعزبة تغير كل شيء، كبر الولدان وزاد خجلي منهما، تعمدا التقرب مني وأنا حائرة، وقفت في مساحتي الخاصة، لا أجرؤ على الاقتراب من منتصف المسافة التي تفصلني عنهما، وكلما ابتعدت خطوة اقتربا بجرأة خطوات، أحيانًا تربكني وكثيرًا ما تسعدني، ثم تملكني الخوف عندما نشب صراع مكتوم بينهما لا فائز فيه سوى أنا.

***

«قرية بساط تاج الدين». عندما تجاوزنا اللافتة في طريقي للسراي تذكرت أول مرة أتيت هنا، فتاة صغيرة تقرأ الكلمات بالعربية وترددها بالفرنسية، يُقلد شكري صوتي وطريقتي ويُخرج لي فهمي لسانه، فينهره أبوه وتبتسم أمهما، الوحيدة التي كانت تقف في صفي جدتهما أنيسة، وبينما تجلس أمي في مقاعد المتفرجين كان أبي يتصرف بطريقة عملية، يترك الولدين يضحكان ثم يتحداهما في لعبة الشطرنج، يهزمهما على التوالي وأنا جالسة بجواره على ذراع مقعده، يحتضنني ويضحك، يُشعرني بأنني التي فازت، لكني لم أكن سعيدة بهذا النصر، أريد هزيمتهما بنفسي، بطريقتي، وحيائي يمنعني.

اتسعت ابتسامتي بقدر ذكرياتي وأنا أغادر السيارة، حاول عوض الخفير رفع حقيبتي لكني أشفقت عليه وحملتها عنه، نال منه الزمن وأخذ سنين شبابه وكل حيويته، تركه عظامًا رفيعة بارزة تخترق جلبابه الذي يستر ما تبقى له من لحم، وضعت حقيبتي وهبطت الحديقة بعد ما غيرت حذائي وملابسي، وضعت الإيشارب وجذبته إلى مقدمة رأسي ليغطي شعري، تقول صديقتي نائلة إنني كبرت عشر سنين

فوق عمري وصرت أُشبه أمي، لكني ما زلت طفلة لم أتغير بعد، في قلبي بقايا طفولة وشذرات طيبة وكثير من براءة، مهما اتسعت الدنيا من حولي يبقى عالمي صغيرًا، لا يتعدى جدران حجرتي وبيتي وعرائسي. أقاوم بذكرياتي كوابيسي التي تتغذى على أحلامي كل ليلة، ما زلت طفلة أرى الدنيا بعيني أبي وأختبئ من نظرات أمي، يتسع الكون أمامي وتُفتح أبوابه، تأتي أمي وتغلق بعضها ليواربها أبي من وراء ظهرها، ويشير لي كي أخرج منها لأرى النور، قبل أن تطفئه أمي بسبب خوفها عليّ. احترت في معرفة سبب مخاوفها حتى كبرت وعلمت أنها عانت لسنوات قبل ولادتي، كلما أنجبت طفلًا خرج إلى النور ميتًا، كأن أطفالها لا يعيشون إلا في عتمة الأرحام، أخفتني أمي عن الناس لخمس سنوات، أبعدتني عن زميلاتي فلم أكوِّن صداقات، وأفلتت نائلة فقط لأن أمي أحبتها، حتى مربيتي كانت أمي تقف فوق كتفيها في كل مرة تلاحظني فيها، ولولا تدليل أبي لما رأيت بعض الدنيا بلونها الوردي، ولظللت أعتقد أن الأسود هو لون الحياة، مع أننا لا نرتديه إلا وقت الموت.

- ضفدعة..

صاحت نائلة فزعة وهززت رأسي في ضيق، من كل

ذكرياتي الجميلة في العزبة تبقى ذكرى حزينة بصدري، أتذكرها كلما سمعت صوت الضفادع، حتى كرهت المبيت هنا، ليتني ما وافقت يومها على مشاركتهما، كنَّا صغارًا، وذهبت مع الولدين أحمل جرابًا جلديًّا، ممسكة بجريدة نخل طويلة، يدفعني الحماس وأقفز من الفرحة، ضرب شكري ضفدعة على رأسها فانقلبت على ظهرها، وراحت تحرك ساقيها ببطء، تظاهر بوضعها في الجراب لكنه باغتني ودسها في ملابسي وأنا أسير أمامه بمحاذاة الترعة، تلوَّت الضفدعة خوفًا وراحت تمرح على ظهري محاولة الهرب، وأنا أقفز فزعًا وأصرخ حتى خلصني منها فهمي بطريقة غريبة، خلع عني بلوزتي فشهقت، بكيت بكاءً شديدًا يومًا وليلة، لم أجرؤ على رواية الحقيقة كاملة لأهلي أو النظر في عيني فهمي لفترة بعدها، اكتفيت بحكاية دخول الضفدعة وخروجها بعيدًا عمَّا فعله فهمي، عوقب الولدان رغم أن شكري أنكر فعلته، في حين كان فهمي صادقًا في إنكاره وتأكيده على مساعدتي، خفت يومها أن يحكي تفصيلات ما حدث ليُثبت براءته، لكنه لم يخذلني يومًا.

اتسعت ابتسامتي وأنا أحكي ذكرياتي لنائلة التي ترافقني لأول مرة بالعزبة وتلح على ذاكرتي بالأسئلة، يدفعها الفضول لمعرفة ما حدث بعد ما كبرنا، فلم تجذبها حكايات الطفولة،

ابتسمت لها في خجل ورويت تفاصيل السنة الأخيرة من زيارتنا للعزبة، كنت على مشارف السادسة عشرة، وكانت أول مرة أكذب على أهلي، أو ربما المرة الثانية لا أدري، لا أعرف سببًا لاصطحابي عروستي الضخمة يومها، ربما ظننت أنها ستؤانسني، سخر مني فهمي لمَّا رآها، واقترح بسبب كبر حجمها تركها في فراشي مغطاة حتى يظنني أهلي نائمة إذا ما قلقوا عليَّ أثناء نومهم، لكن ما إن اقتربنا من الردهة الرئيسية حتى لمحنا مصباحًا يُضاء، جذباني من يدي بسرعة ورحنا نسير للوراء على أطراف أصابعنا، حتى خرجنا للفراندة وقفزنا من فوق سورها المنخفض، جرينا لنختبئ في الحديقة، ورغم أن فهمي وشكري كانا هادئين إلا أنني لم أستطع منع دموعي، ولم يُسكتني ويُعيد ابتسامتي سوى أن كليهما ضغط على كفي في الوقت ذاته ليُطمئنني.

- وبعدين، احكي لي كل حاجة بالتفصيل بعد ما كل واحد فيهم مسك إيدك.

قالتها نائلة فرفعت حاجبي شاردة وأنا أقلب فنجان الشاي بهدوء، لكن قالب السكر يأبى الذوبان، قررت إثارة فضولها أكثر، أخبرتها بأن أمي بعدها وضعت تتر النهاية على ذهابي للعزبة؛ لأن ثلاثتنا من سن واحدة، واكتشفت أنني أمضيت

ساعات من الليل مع الولدين في الغيطان نشرب الشاي من المنقد مع الفلاحين، ونتدفأ بنار الراكية، أغلقت أمي صندوق ذكرياتي حتى لا يكتب فيه شكري أو فهمي صفحة جديدة، لكنها لم تكن تعرف أنه امتلأ عن آخره ولم يعُد يُسمح بالمزيد، وإلا سُكبت منه الفضيحة، أشرت ناحية عيدان الذرة الطويلة وابتسمت، غطت نائلة فمها بكفها وهي تؤرجح كفها الأخرى في الهواء قائلة:

- هنا.. وفي وسط الزرع؟! موش ممكن! ما يبانش عليه الشقاوة خالص، بس بذمتك بوسة واحدة بس؟

قالتها بخبث فنظرت لها بحِدة محاولة تصنُّع الغضب، ثم علا صوت الخفير عوض مناديًا:

- الحاجَّة لبيبة والهوانم وصلوا المضيفة يا ست أمينة.

أحصيت على ملامحه عشرات من علامات الاستفهام، تجاهلت دهشته وطلبت من نائلة أن تتبعني بعد إحضار المجلات والكتب الفرنسية من السيارة، لمحت بعينيها دهشة مماثلة لتلك التي ارتسمت على وجه عوض، وربما كانت تفوقها بكثير، لكني تركتها حائرة وهرولت للترحيب بالسيدة لبيبة وبقية الأخوات من جماعة الإخوان المسلمين. حان الآن وقت العمل ولا بد من تأجيل الذكريات، بعد ما عبس الواقع

في وجهها فأغمضت عينيها مُحبطة.

***

«وكان المئات من شباب جمعية الإخوان المسلمين قد كونوا

وفدًا شعبيًّا للذهاب إلى الملك، وتوافدوا على قصر عابدين رافعين شعارات مكتوبة لمبايعة الملك بيعة شرعية، داعين لإلغاء الأحزاب السياسية، كما أصدرت صحيفة «الإخوان المسلمون» عددها الأخير بغلافٍ

تصدرته صورة جلالة الملك فاروق الأول وفي يده مسبحة، وعلمنا أن

وفدًا آخر من قيادات الجمعية برئاسة المرشد العام حسن البنا توجّه لقصر عابدين للتشرف بمقابلة الملك وتقديم العدد التذكاري على

سبيل الهدية، وللتأكيد على خطواته الدينية باعتباره حامي المصحف،

وكيف مَلك قلوب رعيته بغيرته على الدين»

فهمي تاج الدين - 5

يُدهشني الفيل بحجمه المهول وأنيابه الطويلة وصمته المريب، ورغم أنه لا يأكل سوى العشب إلا أنني أخاف منه كلما تحرك يمينًا ويسارًا، ينتابني شعور غريب بأنه محبوس رغمًا عنه، ينتظر لحظة محددة حتمًا سيخرج فيها ويدهسنا جميعًا. عندما تجاوزت مرحلة طفولتي لم تتوقف زياراتي لحديقة حيوان الجيزة، ولم أتخلَّ عن عادتي بالبقاء أمام حيواني المفضل، ربما كان ذلك سببًا في ظهور كابوس متكرر في نومي، أرى نفسي حارسًا لبيت الفيل، الهدوء يلف الحديقة، وفجأة تنفتح أبواب الأقفاص، وفي غمرة اضطراب شديد وهرج ومرج عجيب تهرب الحيوانات لتهدد الزائرين، أبقى مكاني محاولًا منع الفيل من الخروج، لكنه يتغلب عليَّ ويدهسني، وفي كل كوابيسي أرى قرود الحديقة التي يطعمها شكري كل مرة لا تتوقف عن الصياح والتصفيق تأييدًا لما يدور حولها، وفي كل مرة أيضًا لا يقترب منها الفيل أبدًا، وخُيل لي أحيانًا أنه يُحييها بخرطومه الطويل مستحسنًا تصفيقها.

***

جلس شكري وراء مكتب جدي بالاستراحة ممسكًا بمنشة

ضخمة، يعبث في شاربه الذي نبت منذ عامين ويتفاخر به متعمدًا إغاظتي باعتباري أمرد، وضع ساقًا فوق أخرى متفرسًا في الخولي بنظرة فاحصة، أمره بالوقوف بعيدًا وتحصيل الإيجار من المستأجرين بالدور، يدخل الفلاح من باب ليدفع المعلوم ويخرج من باب آخر، إذا ما استجاب يمر الأمر بسلام، وإذا ما تعثر أو توسل إلى شكري لإمهاله وقتًا نال تقريعًا وتهديدًا، يخرج الفلاح من الباب مدحورًا ليجدني في انتظاره، أدس في جيبه قيمة الإيجار، منبهًا عليه بدفعه في اليوم التالي كي لا ينكشف أمري.

ضرب شكري الأرض بسوطه مرتين، ففهم الخولي وبقية الفلاحين أن عليهم الانصراف، هممت بالمغادرة بحماري الذي أفضله في الركوب، لكن أخي دار حوله ثم التفت ناحيتي قائلًا باستنكار:

- حتفضل طول عمرك عبيط وما تعرفش تحوش لك قرشين.

قالها وتركني لركوب حصانه، اندهشت من أنه يعلم أفعالي مع الفلاحين وكنت أظنني حويطًا، دار حولي دورتين وهو يكبح جماح فرسه بصعوبة، ربما كان الفرس محبوسًا منذ فترة ويريد أن ينطلق، فهمت منه أنه سيمر بالعزبة، سألني

إن كنت سأذهب معه لكن بنبرة مَن لا يرغب في وجودي، ودعته وأدرت له ظهري، فضلت تناول الشاي مع بعض الفلاحين على حصيرة بالغيط، أستمع لهم وأسمع حكاويهم ونوادرهم وأنقلها لجدي.

بعد مسيرة قصيرة سمعت أصواتًا غريبة من ورائي، التفت فوجدت ثلاثة من الحمير تلتقط عيدانًا من البرسيم فيما يبدو شبكها أخي في بردعة حماري، لكي يسخر مني الفلاحون إذا ما رأوني.

هبطت تاركًا حماري مع حمير شكري، سار وراءهم تاركًا مسافة معقولة بينه وبينهم، وترجَّلت أعبث بعصا صغيرة في الأرض، أخط خطوطًا متعرجة وأعود لأمسح بعضها بحذائي، من بعيد لمحت أبي ببدلته البيضاء متحررًا من رباط العنق، فوق رأسه قبعة من ذات اللون أحيانًا يخلعها ويمسكها بيده، وبالأخرى المنشَّة التي لا تفارقه، يلتف حوله بعض الفلاحين، أحدهم يمسك بكبش ضخم من قرونه، يطرحه أرضًا ويُكتف ساقيه الخلفيتين ويربطهما، هزَّ أبي رأسه في رضا، فيما يبدو مستحسنًا الوزن والحجم، أولاهم ظهره قبل مشهد الذبح وانشغل بإشعال سيجارة.

جذبني من ذراعي جدي القادم من جهة اليسار، استند

عليّ وعلى عصاه بعد ما صرف الفلاح الذي أتى به، أشرت له ناحية مذبح الخروف معلنًا أن الفلاحين سيأكلون اللحم، أشاح بوجهه وردد كلمته الشهيرة «طُز»، أتبعها بكلمات استنكارية مفادها أن أبي لو لم يقرر ذبح خروف لوليمة الليلة لما أكل الفقراء الضأن.

- كله بمشيئته.

رددها جدي عدة مرات في ضيق أو سخرية لا أعرف، فملامحه غائمة متجهمة أغلب الوقت، بدا لي أنه لا ينتظر ردًّا فآثرت الصمت وأغلقت بابه على قناعاتي، لمحت شكري ينطلق بحصانه، تفصلني عنه قناية عريضة، ووراءه عربة صغيرة يجرها حصانان تحاول اللحاق به، يتشبث بقوائمها شيخ الخفر وشيخ الجامع لزوم التهديد والوعظ مثلما بات يفعل مؤخرًا، بعدهما بمسافة عربة خشبية مسطحة يجرها بغل شبه مسلول، يعتليها بعض الفلاحين لزوم العزوة كما يقول شكري. جولة عقيمة لا يمل من تكرارها كل أسبوع، لا أفهم دوافعها بصورة واضحة، ربما لأنه يقلد المرحوم خالي مؤخرًا في كل شيءٍ حتى في مشيته، يمر على البيوت والغيطان، يلتقي الفلاحين، يحدثهم عن العمل والإيمان ورضا النفس والطاعة، يتندر عليه جدي ويصفه بأنه يريد

ضمان ولائهم كسياسي يستعد لدورة انتخابات مجلس النواب مثلما فعل خالي من قبل وفشل. مسح جدي بعضًا من ريقه عندما سال على جانب شفته وغمغم:

- كان الدرويش فلح قبله ونفع نفسه.

لا أفهم سببًا كي يُغرق شكري الفلاحين بوعود قائمة على غيبيات تنتهي بعبارة إن شاء الله، ربما يعلم أن النتيجة مضمونة حتى لو لم يشأ الله، سيكون قَدَّر وما شاء فعل، تلك العبارة التي بات يقولها باستمرار مؤخرًا، الغريب أن مريديه يتزايد عددهم كل مرة، والعشرات يصطفون كل أسبوع في انتظار طلته البهية وموكبه المهيب. هززت رأسي.. لا أدري أسفًا أم عجبًا، فشكري لديه باب خلفي للهروب لا يُغلق أبدًا، وربما لا مفتاح له.

***

«كما أدانت جمعية الإخوان المسلمين حصار قصر عابدين بالدبابات البريطانية ووصفته على لسان مرشدها بالعمل الآثم، وقال الأستاذ حسن البنا إن جمعيته تهدف إلى إصلاح كافة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها المملكة وتحريرها من الاحتلال الأجنبي، مؤكدًا أن

الأحزاب السياسية تتحمل مسئولية ما جرى، ومعلنًا ولاءه وجماعته

لملك مصر المسلم فاروق الأول حفظه الله»

أمينة سعادة - 2

أحب شرفتي أكثر من أي مكان بسراي سعادة، هنا جلست مع أبي وجدتي ومربيتي، وأحيانًا أمي وكثيرًا وحدي، وهنا قبعت بسريري الدانتيل الذي يشبه الأرجوحة، وبمقعد خشبي مرتفع مربوطة بحزام حول خصري، وجلست على أريكة كبيرة فوق حِجر جدتي لتصنع لي ضفيرتين وقت العصر، ثم فوق مقعد بمفردي واضعة ساقًا فوق أخرى، هنا استندت بظهري على السور أحيانًا واتكأت عليه بمرفقي كثيرًا، شاردة في الطريق.. من هذه الشرفة رأيت شكري وفهمي، استقبلتهما وودعتهما منها.. هنا بكيت وابتسمت وضحكت ولوحت بكفي مرارًا.. هنا قرأت ودندنت وسمعت الراديو.. ورسمت بعض لوحاتي.. وهنا لعبت مع جدتي وأبي اللعبة نفسها التي سألعبها مع أولادي.

تلك اللعبة التي ألفتها جدتي، يختار كل واحد منّا لون عربة، نحسب عدد العربات التي تمر أمامنا بالشارع، والفائز هو صاحب العدد الأكبر من الألوان التي اختارها. كنت أخسر كل مرة ولم يزد رصيدي على الصفر أبدًا، وسط ضحكات جدتي وأبي وهما يحاولان إثنائي مرات كثيرة عن اختيار اللون الأحمر، لكني تمسكت بعنادي، حتى كبرت وعرفت أنه

لون عربات الملك ولا أحد سواه.

فتحت عيني لأغلق صفحات ذكرياتي، التفتُّ ناحية أمي التي انتهت من تناول قهوتها وقلبت «التنوة» في حوض الزهور الصغير المعلق على سور الشرفة، قائلة بنبرة حزينة:

- عين وصابتك يا أمينة.

قالتها بوجهٍ باكٍ لعجزها عن فهم مشاعري كعادتها، في حين اختار أبي الصمت منتظرًا رأيي الذي لم أُعلنه بصورة واضحة، الجميع يرونني «مختلفة»، وأشعر بأن الكلمة تعبير مهذب عن اعوجاجي كما تصفني خالاتي، ربما بسبب تحرري من قيود العادات والتقاليد بتشجيع من أبي ذي الأصول الشامية، حتى أمي لم تستطع تغيير طريقته، ولم يتركها تتولى شئوني منفردة رغم حصارها لمراحل حياتي، هكذا رباني أبي، ولا أظن اليوم أنني أستطيع العودة من منتصف الطريق الذي مهده لي، أنا ابنة الحياة والحرية كما يصفني.

صعدت لغرفتي وأغلقت بابي، مددت يدي في درج الكومودينو، أخرجت العلبة الفضية التي أهداها لي في عيد ميلادي الأخير، أحتفظ فيها بكل الخطابات التي أُرسلت لي، تلك التي يكتبها فهمي، أعرف ذلك منذ الخطاب الأول وأبتسم، رأيته يومها من وراء النافذة وهو يدس الورقة في

طوق الكلب، وضحكت عندما لوحت لهما من الحديقة ورفع الاثنان كفيهما فرحًا، بعدها شعرت بندمٍ لأن كليهما يظن أمرًا، وفي النهاية سأختار واحدًا، واحدًا فقط سيدخل قلبي، لكنَّ الاثنين يتقاسمان عقلي إلى الآن.

اليوم مرَّت خمس سنوات على قصة حبي، ولا شيء تغير بداخلي، أفصح أبي عن نواياه مبكرًا، قال إن فهمي شاعرٌ ضلَّ طريقه حتى صار وكيلًا للنائب العمومي، لكن ستظل مشاعره تقوده، في حين يبدو شكري مثل سياسي طموح لكنه بلا سقف يظلله فضَلَّ عقله طريقه، ربما يكون وصف أبي لهما صحيحًا، لكني لا أفهم في السياسة ولا أهمية عندي لأن يكون فهمي شاعرًا، صحيح كلماته تمس القلب، لكن حديث شكري يسلب العقل والروح معًا، لا شيء يهم عند فهمي وكأن الحياة رحلة بلا معنى، بينما شكري يعتني بالتفاصيل الصغيرة كأنه سيعيش ألف عام، كلاهما طيب وحنون، يعرف كيف يحتوي مَن يحب بطريقته، لكنَّ شكري جذاب أكثر، ورغم خلافي مع أمي تعجبني كلماتها في التفرقة بينهما عندما تقول «فهمي عواطفه لا فرامل لها إذا أحب، وشكري فرامله بلا عواطف طوال الوقت». تظن أنها ستؤثر على رأيي بكلماتها لأختار فهمي عريسًا كما تتمنى، لكن ما لا تعرفه أمي وكل أهلي، بل فهمي نفسه، أنني أحببت

شكري منذ اللحظة الأولى التي وعيت فيها على مشاعري، كنت ألتقيه سرًّا قبل تقدمه لخطبتي، ولا أرى نفسي زوجة لرجل غيره، رغم شكوكي في صمود أبي بجانبي هذه المرة.

- أنا مش عاجبني الشاب اللي اسمه شكري ده يا أمينة، وشايفة فيه كل العِبَر وكمان بيقولوا عليه إخوانجي زي المرحوم خاله.. أنا قُلت لأبوكي يعيد نظر في موضوع جوازك.

حسمت أمي أمري وكأنه يخصها وحدها، شعرت بدوار وسقطت على الأرض، رفعتني مربيتي بصعوبة، لم أفقد وعيي بعد، تلاقت عيناي مع عينَي أمي كنظرة وداع أخير، بدا وجهها مضطربًا وهي تقترب لتحملني مع المربية، تتمتم بكلمات لا أسمعها بوضوح، تمددت على سريري كوسادة قديمة تنتظر إعلان عدم الحاجة إليها، ظللت مُحملة بالسؤال، منذورة للمجهول، مجبولة على العشق وما بيدي حيلة في الغرام، اهتزت كل الصور أمامي عدا صورته وحده وهو يبتسم، وسمعت أمي تكلمني وهي تبكي، ربما أعلنت موافقتها على شكري عريسًا لي كما تخيلت كي لا تفقدني، أغمضت عيني وأظن أن ملامحي كانت تميل للابتسام، لكن فؤادي لا يشعر بالراحة بعد.

***

في حياة كل منّا سر صغير يحتفظ به وحده، وكلما حافظ عليه ولم يفتح شفتيه، شعر بمتعة أكبر وهو يمارسه كما تقول جدتي، فتحت خزانة أسراري وأعدت قراءة الخطابات، أسمع كلماتها بصوت شكري وتروح صورة فهمي من مخيلتي بالتدريج، تبدو كطيف خفيف سرعان ما ينزوي، مثلها مثل الآلة الكاتبة التي بمكتب أبي، لا أحد يتذكرها وهو يقرأ كلماتها، مع أن دقاتها على كل حرف.

خرجت للشرفة أتلمس نسمة هواء جديدة تُنسيني ما حدث، ضربت الشمس عيني بقوة، منذ بدأت أُدرك ما حولي لاحظت أن حجرتي مُشمسة عن كل حجرات بيتنا، كأن الشمس تبيت في شرفتي كل ليلة كما يصفها فهمي في خطابات شكري، تساءلت عن السر حتى حكت لي جدتي أنه عند ولادتي كانت الأشجار تحيط بشرفتي، وتلقي بظلالها عليها، ثم سكنتها عشرات الغربان الرمادية والحِدآن البنية، كنت طفلة ضعيفة تستلقي داخل سرير هزاز من الدانتيل موضوع بالشرفة، طمعًا في شعاع متسلل من شمس النهار التي تجاهد لتخترق أغصان الكافور الكثيفة، وإذا بحِدَأة ضخمة تضرب السرير بجناحيها ليهتز فأغفو مطمئنة، مع

أن الحِدَأة كانت تتأهب لخطفي، ولولا صراخ أمي وهرولة مربيتي لأصبحت في عداد الأموات، بعدها طلب أبي من البلدية قطع الشجرة، فانسابت الشمس كل يوم لتُغطي كل شيءٍ حتى سريري. أشعر برجفة غريبة تنتابني كلما تذكرت حكاية جدتي، كأن مخالب الحدأة ما زالت مغروسة بجسدي وهي تحاول رفعي من سريري، احتضنت نفسي بذراعي، لمحت أبي في الحديقة يطوف بأركانها بجسده الرشيق وسيجاره الضخم يتدلى من بين شفتيه، يسكب قليلًا من الماء على الزهور التي يعتني بها، بدا مثل دمية خشبية كانفعالاته الباردة البطيئة التي لا يزول مفعولها. رغم تدليله لي كان يغضب مني أحيانًا وأنا صغيرة إذا عارضت بعض رغباته، لكنه يعاقبني بالصمت ويتركني أفعل ما أريد، لا يُحدثني ولا يُحييني، يُغالي أحيانًا فلا ينظر إلى وجهي، يبقى غاضبًا لأسابيع، تُذهلني قدرته على المعاندة، مع أني ابنته الوحيدة وروحه التي ترفرف كما يقول.. فكيف يخاصمها؟

تقول أمي إنني ورثت عنه العناد، تمزق أوصال أفكاري وهي تتلو مخاوفها على مسامعي إذا ما تزوجت شكري، تؤكد أن ما بداخلي ليس حبًا، تراها نزوة لن تصمد بعد الزواج، تتسارع نبضات قلبي من جديد، وتضيق أنفاسي كأن

جسدي يستعد لصدمة جديدة، تراجعت كل الشجاعة التي استحضرتها لمواجهة أمي إلى الصفوف الأخيرة، وتوارت وراء قلقي واضطرابي، لا أعرف لماذا أخشى افتضاح أمري إن أجبت أمي بنعم .. نعم أحب شكري لا فهمي، كل شيءٍ حولي وبداخلي يعلن في وضوح عن مشاعري.. سيعرفون من أحذيتي القديمة أنني كنت ألتقيه كل أسبوع في نزهة على كورنيش النيل حتى لا يرانا أحد، نسير لمدة ساعة سويًا تتشابك أصابعنا وتتعانق أرواحنا، سيكتشفون من عينَيّ أنه كان يخبئني من شقيقه وأمه وأبيه في بدروم الفيلا، وهناك تذوقت أول قُبلة منه، كل قطعة مني ستخبرهم بأننا رقصنا سويًا على موسيقى الفالس ببيت الأمة كما يسميه، وهناك احتضنني وقبلني، سيفتشون في دولاب ملابسي ويكتشفون سبب تمزق أحد فساتيني من فروع الشجرة العجوز بحديقة بيته، والتي كان يختبئ بين فروعها ولا أحد يراه مهما رفعوا رءوسهم، سيرون أول هدية شكري قدمها لي في عيد ميلادي الخامس عشر، تمثال لفتى عارٍ بحجم مسطرة المدرسة، وسيعرفون أنه صنعه من أجلي تقليدًا لتحفة مايكل أنجلو.

سأقول بصوتٍ عالٍ «نعم أحبه»، منذ ذهبت لحفلات الرقص بجنينة الأزبكية، وقبلها للسينما قبل أن يتقدم

لخطبتي، يومها خرجنا سويًا وشاهدنا فيلم «ذهب مع الريح» في سينما مترو بمناسبة افتتاحها، سأحكي كيف حصلت على أول قُبلة في الظلام، وكانت مثل التي نالتها «فيفيان لي».. كل قُبلة من شكري هي الأولى بالنسبة لي، وفي كل مرة أشعر بالشعور ذاته، حتى إنني لم أعُد أعرف متى كانت القُبلة الأولى، وما زلت أنهل من رحيقها.

هززت رأسي وانسابت دموع بطيئة بللت وجهي، البوح بأسراري مستحيل، لن أجرؤ على الكلام، لن أحكي لمخلوق إلا صديقتي نائلة. ابتسمت مُمسكة بتذكرة السينما التي أحتفظ بها، أتخيل نفسي مُعلنة في هيام أن قُبلة شكري كانت أحلى من قُبلة كلارك جيبل وأطول، وفي كل مرة كنت أبتعد بخطوات ضيقة محسوبة وابتسامة خجلة، أناجيه باسمه وأتراجع ليجذبني نحوه، ويهمس لي بحبه فأستسلم لمشاعري حتى تذوب مع مشاعره فلا أعرف أيًا منهما أكبر.

يدق قلبي كلما رأيته، دقات تغطي على صوت عقلي، أستمتع بكلمة «أحبك» وهو ينطقها بصوته المبحوح، بشفتيه المتلهفتين على تقبيلي دائمًا، ربما يحبني ضعف حبي له مع أنني مهووسة به. تلتصق نظراتي بكل حرف يقوله، بكل سكنة يقوم بها، بكل خطوة يخطوها ناحية حديقتي

وشرفتي.. لا.. لا.. أنا أحبه أكثر، قلتها واحتضنت مربيتي التي دخلت غرفتي تتسحب كقطة خائفة من رد فعلي، بعد ما رأت أمي تغادر غاضبة وهي ترطن بالفرنسية وتسبنا جميعًا كعادتها، لكني الآن هادئة. أطبقت على كفي مربيتي، رحنا نتراقص سويًا على أنغام الموسيقى المنبعثة من الراديو، استعدت ابتسامتي وبعدها تركت مربيتي فجأة، هوت على الأريكة عندما فقدت توازنها، وألقيت بجسدي على فراشي محتفظة بابتسامتي، أسقطت رأسي من الناحية الأخرى.. وغمغمت «أنا بحبك أوي».

ظللت راقدة ولم أدرِ بنفسي حتى نمت، ربما كنت أبتسم حتى اللحظة الأخيرة، لكني صحوت متقلبة المزاج، تقول أمي إنني لم أولد مثل معظم المواليد مُغمضة العينين، ربما لهذا السبب لا أنام بسهولة، ولو نمت تزورني الكوابيس بانتظام، الحلم ذاته يتكرر حتى بات مقررًا ليليًا، أرى نفسي بملابس بيضاء فضفاضة طويلة تغطي رأسي وجسدي، أشبه بالكفن، أضع يدي فوق صدري لتخرج من بين ضلوعي فتاة تشبهني لكنها ميتة، جسد ضئيل بلا روح، أرفل في جلبابي الأبيض، أسير حافية في طرق مظلمة تشبه شوارع جاردن سيتي الضيقة، تدور طيور بنية ضخمة فوق رأسي لكنها تهبط على الفتاة التي خرجت من جسدي، تنقرها وتُحدث

برأسها وقلبها ثقوبًا واسعة فأصرخ بدلًا منها، ثم أسمع صوت شكري يروي بقية القصة، لا أراه بوضوح ولا أدرك كل ما يقوله، ومع ذلك أطيعه طاعة عمياء، أشعر بآلامٍ في صدري، وأتحسس قلبي لأجده صغيرًا، لا يشي بأنه سيُبقيني على قيد الحياة طويلًا، بعدها تختفي كل زهور حديقتي التي زرعها أبي ورواها، يستحيل الأخضر إلى صفار كئيب، يظهر فهمي ولا يتوقف عن سكب الماء فوقها وهو يبتسم في شماتة، تتطاير ذرات رمال تلفح وجهي وتلسع قدمَيَّ العاريتين وأنا أهرول فوقها، أجد نفسي وحدي، تغيب الوجوه كلها وتضعف ذاكرتي عن تذكر كل ما حدث، أرى بوضوح وجهًا لامرأة ملامحها منكسرة رغم نظرة التحدي المطلة من عينيها، امرأة تشبه ملامحي لكنها ليست أنا، تبكي بدموع حمراء قانية أقرب للسواد، وبعدها أصحو لأنفجر في البكاء.

***

«دعني أحكِ لك حكاية لا أنساها أبدًا، قبل الحرب العُظمى الثانية بحوالي عامين انتهز الأستاذ البنا فرصة لقاء ضيفنا الملك عبد العزيز آل سعود

بقصر عابدين، فطلب منه الموافقة على إنشاء فرع لجمعية الإخوان المسلمين التي يترأسها في الحجاز، وكان جواب الملك دبلوماسيًا وذكيًا حين رفض بلباقةٍ طلب البنا قائلًا كلنا إخوان مسلمون. عظيم.. سيداتي وسادتي..

نشكر معالي وزير الداخلية فؤاد باشا سراج الدين على هذا الحديث الشيق. السادة المستمعون، وصلنا لنهاية البرنامج الإذاعي اليوم، نرجو أن تكونوا

قد قضيتم وقتًا مثمرًا معنا.. تصبحون على خير»

شكري تاج الدين - 5

في رأسي فاسق يأتي لي كل حين بأنباء كثيرة، وعليّ مراجعته للنظر إن كان من الكاذبين، تراودني الشكوك عامًا بعد عامٍ منذ كلفتني جماعة الإخوان بدخول كلية البوليس الملكية بدلًا من الحقوق، لا أعرف إلى الآن ماهية دوري الذي أخبروني بأنهم يجهزونني له، ولا أدري لماذا اختاروا لي هذه بدلًا من تلك؟

بعد تخرجي أرسلتني الحكومة بوساطة من بعض قيادات الجماعة في بعثة قصيرة إلى بلاد المغرب، لكنها تركت في نفسي آثارًا سيئة، بعد ثلاثة أشهر فقط في الدار البيضاء، وجدتني مضطرًا للعودة إلى مصر، إلى وظيفة سخيفة، مهمتي فحص الإيراد اليومي بديوان قسم العباسية، لكن من حسن الحظ أنني رقيت سريعًا معاونًا للمباحث، فهذا يلائم خططي أكثر، تعاملت مع صغار المجرمين وتابعت الخطرين منهم، خاصة عصابة عبد الكبير الوالي، رغم جهودي كنت لا أتلقى توجيهًا من الجماعة ولا حتى إشارة لتحقيق هدفٍ ما، شعرت بحسرة على السنوات التي أضعتها حتى صِرت ضابطًا على غير رغبتي. صبرت عامًا على التجاهل حتى حسمت أمري بعد ما استخرت ربي ووضعت خطتي، أبلغتهم

بقراري ترك الجماعة، وأمهلتهم أسبوعًا لمراجعة أنفسهم، من داخلي تمنيت ألا يستجيبوا كي لا يفسد مخططي، بدأت خطتي تؤتي ثمارها بالتدريج عندما حاول مسئول المنطقة إثنائي عن شيطاني كما وصفه، رفضت بعد ما لمست لينًا بجانبه. كنت أخطط للوصول إلى رأس الدعوة، مرشد الجماعة.. الأستاذ البنا، ووقتها سأعرف كيف أقنعه بقدراتي.

أحالني مندوب المنطقة لمسئول مكتب الإرشاد، ردَّد على مسامعي الكلام ذاته، ممَّا زاد من إصراري وعظم عنادي، تلقيت اتصالًا من أحد القادة قبل نهاية المهلة بساعات، ارتبكت لمَّا أخبرني باسمه وكنت أسمع عنه من المرحوم خالي، لم يسألني عن أسباب قراري، ولم يطلب مني العدول عنه، فقط قال بهدوء:

- فضيلة المرشد يحب يشوفك الليلة يا أخ شكري الساعة سبعة في جمعية الشبان المسلمين.

وصلت قبل موعدي بنصف الساعة، اصطحبت معي فهمي بعد إلحاح وشد وجذب بيننا، لم أشأ إبلاغه بأنهم طلبوا رؤيته كي لا يرفض، فالقيادي الذي حدثني أصر على وجوده معي. دخلنا مقر الجمعية بصعوبة، المكان أشبه بخلية نحل، لفت فهمي نظري بعد دقائق إلى كوننا غرباء، مئات البشر من

حولنا لكنهم لا يشبهوننا، لا في الهيئة ولا في الملبس ولا في طريقة الكلام. رفع المؤذن أذان العشاء، وتحجج فهمي بأنه غير متوضئ ولا يحب الوضوء خارج البيت، همست بأنني أيضًا غير متوضئ ولا مشكلة فنحن مضطران، لكنه تركني وراح يبحث عن مكان يدخن فيه، رمقته بنظرة عتاب وأنا في طريقي للصلاة محاولًا إثناءه عن قراره ليُصلي معنا، رفع كتفيه وهو يهمس بملامح منزعجة:

- أنا بقرف يا شكري من دخول تواليت عمومي.

عندما فرغت من الصلاة وجدته يضع ساقًا فوق أخرى، منشغلًا بقراءة جريدة بعد ما أشعل سيجارة، ونظرات اللوم من الإخوة تخترق سُحب الدخان التي تظلله، لكنه لا يبالي، أمرته بإطفائها فنهض وبدا مستعدًا للانصراف وقد ظن أننا فرغنا من مهمتنا، عاتبته قائلًا: «وكأنني أتيت إلى هنا كي أصلي العشاء في جماعة!» وبينما أحاول إقناعه بالبقاء وهو يجادلني كعادته، ألقى علينا السلام رجل ممتلئ يُشبه أهل الشام، عرّفنا باسمه فعرفت أنه الذي اتصل بي هاتفيًا، يتولى مسئولية النظام الخاص بجمعية الإخوان، وبصحبته شاب قصير، قدّمه لنا باعتباره مساعده ويُدعى عبد الرحمن السندي، أعرف أنه مُقرّب من الأستاذ البنا ويُلقّب بالرجل

القوي في الجماعة.

جلس معنا الاثنان قرابة نصف ساعة، استمعا أكثر ممَّا تكلما، اكتفى مسئول النظام الخاص ببضع أسئلة لنفيض شرحًا، وكأنه يضغط على زر بداخلنا لينطلق لسان كلٍّ منَّا بلا توقف، كان فهمي محافظًا أكثر مني خاصة عندما تحدث عن أفكاره، صحيح لم يُبدِ مسئول الجماعة ضيقًا لكنه لم يلتفت إليه بعدها، نهض وصافحني معتذرًا عن انشغال الأستاذ البنا في سفرة مفاجئة للصعيد من أجل الدعوة، وواعدًا بلقاءٍ قريب، لم يطلب مني أمرًا كما توقعت في نهاية اللقاء، فقط ربت كتفي وهو يتمتم «ما شاء الله»، ولم يزد.

قبل أن ينصرفا التفت ناحيتي عبد الرحمن السندي، وألقى جملة أقلقتني وهو يصافحني تاركًا كفه في يدي لبرهة:

- اللي بيمد دراعه في جُحر التعابين لازم يكون رفاعي يا أخ شكري.

عقب انصرافنا فسَّرها فهمي على أنها تهديدٌ، وطلب مني ترك الجماعة، في حين رأيتها عتابًا على تهديدي بتركهم، وإصراري على لقاء المرشد متجاوزًا كل القواعد، طوال طريق عودتنا انطلقت قذائف فهمي تقصف رأسي، لا يعجبه وجود تنظيم خاص بداخل الجماعة، وأن ينضم له ضابط

بوليس، أخبرته بأن الجماعة هدفها مقاومة الإنجليز، لوهلةٍ هدأ متشككًا، لكنه راح يبحث عن سبل أخرى ينفذ بها إلى عقلي، طمأنته أن حزب الوفد، وحزب مصر الفتاة، والسراي نفسها لديها أنظمة خاصة مثل الحرس الحديدي وأصحاب الياقات الزرقاء، والهدف منها التدريب العسكري لإنهاء الاحتلال البريطاني. هزَّ رأسه عدة مرات وكأنه يسكب كلامي منه، شرد قليلًا وبعدها تساءل:

- وبعد طرد الاحتلال، تتعاركوا على كرسي العرش؟

اندهشت من تفكيره الذي لم يخطر لي على بال، عاد يرجوني ترك الجماعة، مؤكدًا أنهم يهددوني صراحة ويتهموني بالجُبن، ولو مَرَّ الأمر بغير موقف قوي مني سأصبح طرطورًا، لم تعجبني الكلمة ودافعت عن نفسي، يكفيني حضور رئيس النظام الخاص ونائبه لرؤيتي ممَّا يعتبر تقديرًا لمكانتي، ولو لم أكن مهمًّا للجماعة لما اهتم بي أحد ولا حتى مسئول الأسرة بالسيدة زينب. ظل فهمي يُلح حتى مللت، ولكي أُسكته مؤقتًا طمأنته ونحن نتصافح أمام باب الحديقة أنني سأفعلها، لكنني أحتاج بعض الوقت لخروجٍ آمن، هدأت ملامحه بعد ما سكبت له وعودي خمرًا مع أنني أُسكر بها مخاوفي، وعلى ذمة الانتظار كنت أستجدي

الشجاعة والصبر. استدرت عائدًا لجناحي الذي أعيش فيه مع أمينة منذ زواجنا، وأدخله عبر باب مستقل من الحديقة القبلية، في طريقي وضعت يدي في جيبي وأخرجت قصاصة صغيرة مطوية بعناية في حجم عُقلة الإصبع، دسَّها عبد الرحمن السندي بكفي وهو يصافحني، قرأتها واطمأن قلبي، حفظت ما فيها وأحرقتها فور دخولي.

***

وصلت بعد الغروب بمفردي، استقبلني شاب بشوش بمدخل بيت قديم وأدخلني شقة بالطابق الأرضي، غرفة واسعة بسيطة الأثاث، حوائطها بالمصيص الأبيض، تحوي عددًا كبيرًا من المقاعد المزدوجة والمفردة، في المنتصف منضدة مستطيلة طويلة عليها أباريق حليب بارد وأكواب وأطباق صغيرة بها تمر جاف، يميل الطقس للحرارة في هذا الشهر من العام، لكن نسيم ليالي القاهرة يتسلل عبر النوافذ المواربة ليُلطفه، بداخلي شعور بالحرارة لم يبرده الحليب ولا نسائم الهواء المتسربة على استحياء بسبب الترقب المشحون بالتوتر الذي خيَّم على رأسي للقائي عبد الرحمن السندي منفردًا. منذ تلقيت قصاصته المطوية وبها العنوان والموعد وأنا في حالة ترقب، أنتظر لقاءً لا أعرف ما الذي

سيُقال لي فيه، ومع مَن، رجل التنظيم الخاص القوي ومحل ثقة المرشد العام كما صار الآن، بعد إزاحة المسئول السابق الذي قابلته منذ أيام وبغير مقدمات.

مضت دقائق طويلة من الصمت لا يقطعها كل حين إلا كلب يعوي بالطريق، أو امرأة تنادي شابًّا ليشتري لها خبزًا من فرن قريب. ثم انفتح باب جانبي من وراء ستار لم أكن رأيته عند دخولي، خرج السندي بصحبة ثلاثة رجال كأنهم شياطين خارجون من الجدار، بدا عليهم الإرهاق وقلة النوم، صافحني الثلاثة بودٍّ شديدٍ مع أني لا أعرفهم، قدمهم السندي في عجالة وباقتضاب.. السيد فايز، وإبراهيم الطيب، ومصطفى مشهور. بدا كأنه يصرفهم فانصرفوا بالفعل، بعدها سألني السندي بصورةٍ مباغتةٍ وكأننا كنّا نتحدث منذ أمدٍ طويل:

- أخوك فهمي حيكمل في النيابة والا ناوي يستقيل ويشتغل مع الباشا الوالد في مكتب المحاماة؟

بدا الارتباك فيما يبدو على ملامحي فتطوع السندي بالإجابة نيابة عني:

- أظن أخوك بيحب شغله وممكن يكمل فيه كام سنة قبل ما يفكر في الاستقالة والحرية بعيد عن الوظيفة، تركيبته بتقول كده، كل المطلوب منك إنك تطمنه بخصوص الجماعة،

بلاش تجيب سيرتنا قدامه ولا حتى بالخير، اتكلم معاه عن شغله وعن القضايا خصوصًا السياسية من غير ما تركز عليها، لكن في الوقت نفسه عاوز أعرف كل تفصيلة بتحصل هناك كأني وكيل نيابة زميله وقاعد معاه في نفس المكتب.

قبل أن أخبره باستحالة كل ما يطلبه لأني لست مُرشدًا كما يظن ولن أكون، وحتى لو ارتضيت ففهمي لا يتحدث مع مخلوق عن قضاياه طوال فترة التحقيق، ويعتبرها من الأسرار الحربية التي لا يجوز البوح بها؛ أردف السندي متحدثًا في موضوعٍ آخر دون انتظار إجابتي:

- نقلك لقليوب أمر مؤقت والتنفيذ بعد أسبوع، القرار اتأجل علشان في تكليفات لازم تعرفها، مهمتك هناك تقوية عناصر الجماعة، ماتردش لحد منهم طلب ولا مظلمة أيًّا كانت، اخدمهم قدر استطاعتك لأن المديرية دي ضعيفة شوية وعاوزين نقوي شوكتها، تعاملك حيكون معايا شخصيًّا، ومن النهارده مفيش تعليمات حتاخدها من حد غيري، إحنا بنثق فيك وأنا شخصيًّا عاجبني حماسك.

رمقني السندي بنظرةٍ مربكةٍ مستكملًا حديثه:

- بالمناسبة أنا قريت تقاريرك عن توسيع دائرة الجماعة بأوساط الأرستقراطية، فيها تطوير لشُغل الجماعة على

الأرض، وعلى حسب علمي كمان إنت بتعرف لغات أجنبية يا أخ شكري وتقدر تترجم للعربي والعكس، مظبوط والا أنا فهمت غلط؟

- أيوة مظبوط.. أنا بتكلم إنجليزي وفرنساوي وأقدر أترجم بسهولة للعربي.

«عظيم»، قالها ونهض وصافحني وظل واقفًا مكانه فأدركت حتمية الانصراف، خرجت محملًا بحيرتي كما جئت، لم أفرح لثقتهم وتقديرهم لتقاريري، ولم تعجبني المهام التي كلفني بها، لا يغريني تكوين النظام الخاص لأكون أحد أفراده في المستقبل القريب، وفي الوقت ذاته شعرت بأنهم أحرقوا سفني خلفي، ولا سبيل قريب للعودة والتراجع.

عُدت لبيتي سائرًا لأكثر من ساعة ونصف الساعة، لم أشعر بتعب إلا في رأسي، لُمت نفسي طوال الطريق لأنني لم أرد عليه وأرفض عرضه، لكني للأسف حتى لم أعترض كأنني مستخدم عنده يتلقى أمرًا واجب النفاذ، ربما أفلتت مني إيماءة عندما جاء ذكر الأستاذ البنا الذي تمنيت لقاءه فظنها موافقة ضمنية مني، شعرت بأنني مثل تلميذ خائب أمام السندي مع أنه في مثل عمري تقريبًا، طافت برأسي كلمة فهمي.. «طرطور»، هل أصبحت كذلك؟ هززت رأسي بقوة

وزفرت في ضيق، وددت لو صِحت في الناس من حولي أنني لست طرطورًا، وأنهم يرسلون أهم قياداتهم للقائي، لكني جبنت. ظل عقلي يدور حتى تجاوزت بيتنا بسبب شرودي، استدرت عائدًا، وقبل أن أهم بدخول جناحي رفعت رأسي ناحية اليسار، لمحت غرفة فهمي مُضاءة، لا يزال ساهرًا، ربما يقرأ بعض القضايا، تذكرت تكليف السندي لي، ترددت لوهلة.. ثم بسملت وتوكلت على الله.

***

«وفي الساعة الثامنة صباحًا خرج المستشار الخازندار من بيته في طريقه إلى محطة حلوان ليركب القطار إلى القاهرة، وبعد عدة خطوات أطلق عليه شخصان الرصاص فسقط قتيلًا، وقام الأهالي بتبليغ الأمر في الحال إلى قسم حلوان، وكان الضابط النوبتجي هو الكونستابل فتحي عبد الحليم

الذي توجَّه بسرعة إلى مكان الحادث للقبض على الجناة الذين طاردتهم الأهالي، فألقى أحد المجرمين قنبلة على المطاردين له ولكن من فضل الله لم تنفجر، وقد تكاثر الناس خلف المجرمَين اللذين لم يجدا مفرًّا من

الاتجاه إلى طريق الصحراء حتى وصل المجرمان إلى هضبةٍ عاليةٍ، وفى ذلك الوقت أحاط البوليس بالمكان وبدأ في إطلاق النار، ولم يرد المجرمان على النار بالمثل لعدم وجود رصاص معهما، فقبض البوليس عليهما

وعرضهما على الشهود الذين أكدوا أنهما اللذان أطلقا الرصاص على المرحوم الخازندار، وأصدر النائب العام قرارًا بحظر النشر عن هذه

القضية حتى انتهاء التحقيق»

فهمي تاج الدين - 6

«ولم يُسفر التفتيش عن العثور على أية أسلحة أو منشورات». صادفتني العبارة ذاتها في كل المحاضر التي حررها البوليس مؤخرًا عقب المظاهرات، كأنها «كليشيه» مطبوع مسبقًا بعد كل مرة أصدر فيها إذنًا بتفتيش بيوت عناصر جماعة الإخوان، خلعت نظارتي وفركت عينَيّ بشدة، لا أملك دليلًا على تقصير البوليس ولا أفهم سببًا للفشل، حتى طلب ضابط مباحث القسم الشاب لقائي بمكتبي، أفضى بشكوكه في تسريب المعلومات قبل الضبط، مؤكدًا أن سر الإذن بالتفتيش بيني وبينه لا يعلمه حتى العساكر الذين ينتقلون معه، وبدوري أكدت له أن السر عندي لا يتعدى الاثنين، أنا ورمضان كاتب التحقيق، وهو رجل مشهود له بالكفاءة والإخلاص.

زَمَّ الضابط شفتيه على ذكر سيرة رمضان، ولكي يطمئن قلبه أفهمته أن شقيقي الضابط شكري هو مَن رشَّحه للعمل معي، أشعلت سيجارة وأنا أستطرد بنبرة العارفين ببواطن الأمور أن رمضان كان مُخبرًا وعينًا من عيون البوليس ولا أظن أن له ميلًا أو هوى، أخفيت عن محدثي كون شكري لا يؤتمن جانبه، فقد طاف بخاطري أن يكون رمضان تابعًا

لجماعة الإخوان، لكني تنبهت مبكرًا وأخضعته لاختبارات عديدة لضمان ولائه، واجتازها بنجاح أدهشني قبل أن يطمئنني، مع ذلك غيم الضيق وجه الضابط، وساورني شك مريب لا أعرف خيوط بداياته ولا نهاياته، ألححت عليه كي يتكلم بعد ما شعرت أنه يُخفي عني أمرًا جللًا، فقال متفاديًا النظر لعيني مباشرة:

- رمضان من الأصل مخبر أهلي؛ لأن الصاغ شكري ماكنش بيطمن لمخبرين القسم الميري من أول خدمته في البوليس، وبيفضَّل إن مصادره تكون بمعرفته ويتولى تدريبها بنفسه.

قرأ ضابط المباحث أمارات الشك على ملامحي، فتجرأ مقترحًا إصدار إذنٍ بمراقبة هاتف رمضان وتفتيش بيته، أردف بأدب مصطنع «كي يطمئن قلبك». أفلح في إقناعي بعد ساعة من النقاش، حرر محضرًا بشكوكه ووضعها في قالب جنائي مختلف، افترض أن رمضان يتجر في الأفيون وطلب الإذن على هذا الأساس، ونسخ من الأوراق صورة بالكربون ليُقيدها برقم سري في دفاتر القسم، أصدرت الإذن وسلمته له وأنا أُتمتم بالدعاء لعل الله يخيب ظنوني.

تركني الضابط غارقًا في حيرتي، يمر أمام عيني شريط زيارات شكري لمكتبي، لاحت خيوط خفيفة من سوء الظن

لكنها لا تكفي لشروق شمس اليقين، أحاديثه كلها مؤخرًا عن القضايا والتحقيقات، وكلما جاءت سيرة جماعة الإخوان انحرف مبتعدًا بفراسخ، ولمَّا رسا على شاطئ الصمت الذي فرشته برمال تجاهل أسئلته أورثني رمضان كاتب التحقيق قبل انتقاله لقليوب. لعنت سذاجتي بالاختبارات التي حاولت إيقاع رمضان بها وهو مُدرب من شكري، وكبرت الشكوك بداخلي كبالون، لكنه لم ينفجر بالحقيقة بعد.

غادرت مقر عملي في ذلك اليوم مبكرًا، قرب البوابة لحقني رمضان ببعض الأوراق التي تحتاج توقيعي، ظللت أتفرس فيه، حتى تسرب الشك فيما يبدو للرجل من فرط تحديقي وكأنني أراه عاريًا، وقَّعت الأوراق بعد ما قرأتها عدة مرات وانتظرت حتى عاد لسراي النيابة أمام عيني. تركت سيارتي وسرت بشوارع وسط البلد لا ألوي على شيء، جلست على البار بصالون جروبي أتناول قهوتي شاردًا، أتأمل عبر الواجهة الزجاجية العريضة جموع الأفندية الذين تكتظ بهم شوارع القاهرة، هززت رأسي في ضيق، لا بد وأن حسن البنا طافت في رأسه الفكرة ذاتها وإلا ما جمع في هيئته بين ملامح الأفندية والشيوخ، فهو يرتدى البدلة والطربوش، لكنه أيضًا يجاري الشيوخ في إطلاق اللحية واحتراف مهنة الوعظ الديني، يعرف الذين يريد اصطيادهم، البدلة تختار صغار

الأفندية من الطلاب والموظفين، واللحية تجذب البسطاء من العمال والحرفيين والفلاحين، مؤكد أن البنا وجماعته راهنوا على امتلاكهم قوة ذاتية خطيرة إذا ما تحركوا ككتلة واحدة، وربما أدرك شكري ذلك مبكرًا عندما كثف نشاطه بالعزبة بإيعاز من خالي، ورغم كل ما قاله أخي عن تركه الجماعة وابتعاده عنها لا أصدقه، وأعلم علم اليقين أنه يتنفس كذبًا كعادته. شعرت بافتقاد معلمي ورائدي، الحكيم الذي أطمئن لرأيه وأستشيره في كل أموري، عُدت لسيارتي مسرعًا وذهبت إليه بغير تفكير.

- المظلومية.

قالها جدي وهو يسعل بشدة بعد ما سحب نفسًا من سيجارتي، أعادها لي بسرعة قبل أن تراه جدتي أنيسة، ألقيت بهواجسي كلها في حِجره، فتلقاها بابتسامة على غير عادته، راح يشكو من طول الحياة بعد ما حُرم من كل شيء.. الخروج والتمشية والقراءة وصنوف الطعام التي يحبها والتدخين والسهر، وبعدها ضحك وقال:

- لا أفهم لماذا لم يمنعني الأطباء من أنيسة أيضًا!

ضحكت وأخذت وضع الاستعداد لحوارات طويلة بعد ما انفتحت شهيته للكلام، استرسل في شرح المظلومية، وصفها

بكابوس الحياة لصغار الأفندية والعمال والفلاحين، الشكوى من الواقع هي أكثر ما يتردد على ألسنتهم فيحتاجون لمَن يُصبرهم بوعود في الدنيا والآخرة، فجأة أشار لي بيده أنه يشعر بتعب ولا يريد الحديث، رغم ضيقي من بتر الكلام تركت جدي لينام القيلولة، يرى أنها تجعل اليوم يومين مع أنه لا يفعل بالوقت شيئًا يُذكر.

استلقيت على سريري مجهدًا، أفكر في كلمات شكري عن جماعته وقت التحاقه بها، عن الحلم بظهور خليفة عادل يمتاز بالقوة ويتعامل مع الجميع بميزان عدل، هل يا ترى يرون حسن البنا الخليفة المنتظر؟ ربما كانت رسالة البنا الداعية لإعادة دولة الخلافة ساحرة بالنسبة لقوم غالبيتهم منغمسين في الدروشة، دخل إلى عقولهم منها أن القيمة ليست في العلم ولا في الثقافة، بل في إطلاق اللحية والتمسّح بالدين، والاستماع لتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، وتجييش غيرهم من الدراويش المغيبين وجذبهم إلى هذا العالم الجديد الذى يصنعه الشيخ المطربش، مرددين شعارات رنانة مثل التي يرددها أخي وإخوانه «عبادة وقيادة، حكم وطاعة، سيف ومصحف»، حتى صاروا مليونًا كما يدّعي شكري، تشككت دومًا في العدد رغم أن جدي كان يؤكده لي.

جافاني النوم فنهضت من رقدة مضطربة وأخرجت دفتري، دوَّنت ملخص ما دار بعقلي، تذكرت رسالة سعد باشا زغلول التي كانت أشد سحرًا من دعوة البنا، وربما كان أقدر منه على التأثير في الناس، حتى البسطاء منهم، بخطبه الرنانة وشعاراته الحماسية، لا لشيءٍ إلا لأنها حقيقية، خالصة للوطن، سعد باشا كان أسدًا الكل يتلهف لرؤيته، وحسن البنا عنكبوت استغل حاجة ما عند الغالبية فتشبثوا بخيوطه، والمؤكد عندي الآن أن تلك الحاجة التي رغبوا فيها ليست الحرية.

دوَّنت رءوس الموضوعات التي سأُجادل بها أخي وتنهدت مرتاح الخاطر. سمعت طرقتين على باب حجرتي وبعدها انفتح بقوة، وكأن شكري يقرأ أفكاري من وراء حجاب، وجدته أمامي مبتسمًا ابتسامته الخبيثة، فدفعت بأول ورقة من دفتري أمامه لعل عناوينها تجذبه وتفلح في إعادته لرشده.

جلس بهدوءٍ وراء المكتب وأمعن التدقيق في الورقة وبدأ يطوي أطرافها، تنفست الصعداء وانتابني شعور النصر المبكر بضربة قاضية بلا جدال، لكن شكري اندمج في طي الورقة حتى صارت طائرة ورقية، أمسكها بطرفي إصبعيه وقذف

بها في الهواء لتهوي في سلة القمامة القريبة.. وغادر غرفتي وهو يُصفر بلحنٍ سخيف.

ألقيت القلم وجلست حائرًا مغتاظًا، عدت لدفتري لأُدون رأيي في البنا، أراه داهية وليس داعية، لم ييأس مبكرًا مثل سعد باشا، وقرر النزول إلى الأرض والتلاحم مع الناس، نجح في تجييشهم وتحويلهم إلى نبوت ضخم يفرض به ما يريد على مَن يريد، استغل روح القطيع التي تحكمنا وتسيطر على سلوكياتنا، وربما الحكومة ليست بعيدة عن تفكير البنا وتحاول أن تفعل مثله، لكنه سبقها بخطوات، استطاع أن يمتلك قبلها الورقة التي يستطيع أي شخص أن يلاعب بها السلطة وهو مستريح الأعصاب.. ورقة الجماهير الغفيرة.

أغلقت دفتري، ورجعت إلى جدي لعل مزاجه يكون أفضل بعد القيلولة، لكن شخيره وصلني قبل بلوغي غرفته فعدت من حيث أتيت.. إلى حيرتي.

***

أخبرني معاون المباحث بسلبية تسجيلات هاتف رمضان وكذلك مراسلاته البريدية والبرقية، أيضًا تفتيش بيته لم يُسفر عن العثور على ورقة واحدة تخص جماعة الإخوان، اتهموه بالتجارة في الأفيون وفتشوا البيت بهذه الحُجة، ولمّا

لم يجدوا شيئًا أفرجوا عنه ولم يُحرروا محضرًا بالواقعة.

ظننت أن الأمور انتهت عند هذا الحد، لكن معاون المباحث العنيد صمَّم على تبديد فرحتي، أخبرني بأن المراقبة الشخصية لتحركات رمضان أسفرت عن تردده كل يومين أو ثلاثة في مواعيد محددة على شقة مستأجرة بشارع الصليبة، وضعت ساقًا فوق أخرى وأشعلت سيجارة سائلًا بضيق:

- وإيه علاقة الشقة بتسريب أخبار القضايا لجماعة لإخوان؟

- مُستأجِر الشقة من الباطن الصاغ شكري أخو سعادتك، طبعًا المعلومة غير رسمية لأن مقدرناش نوصل لعقد الإيجار الأصلي، لكن لازم معاليك تعرف وتاخد حذرك.

ألقى الضابط قنبلته وانصرف، تركني أختنق بدخانها وحدي، حمدت الله أنه لم يحرر محضرًا بشكوكه ليطلب تفتيش شقة شكري، لكني أدركت في الوقت ذاته أنه سيُخطر قياداته في إدارة تفتيش وزارة الداخلية، ولا بد من تنبيه أخي وإشباع فضولي بالحقيقة، أجريت اتصالًا بالبيت لكني لم أجده فيه، اتصلت بقسم البوليس فأبلغوني بخروجه إلى مأمورية غير معلومة، بعد ربع الساعة وجدت شكري

يتصل بي، طلبت منه الحضور لمكتبي في أمر هام لا يحتمل التأجيل أو الحديث عبر الهاتف، أجابني بنبرةٍ باردةٍ أنه يحدثني من شقة في السيدة زينب قريبة من سراي النيابة، وسيمر عليّ في المكتب بعد قليل.

وضعت السماعة وأنا أغمغم «يا بجاحتك يا أخي».

سمعت جلبة فعرفت أن شكري وصل إلى سراي النيابة، تفرست في ملامحه وهو يصافح كاتب التحقيق رمضان بودٍّ شديدٍ ويسأله عن أحواله، وعندما استراح بمقعده التفت نحوي سائلًا عن الموضوع الهام الذي لا يحتمل التأجيل، ألقيت بالقنبلة في وجهه مراقبًا رد فعله، ازدادت ابتسامته خبثًا، وأجابني بهدوءِ مَن يتوقع السؤال:

- بصراحة أنا متجوز في السر على أمينة، والشقة دي تخص العروسة الجديدة، ورمضان سكرتيرك بالمناسبة هو الوحيد اللي بثق فيه يجيب لها طلبات البيت، لكن أنا لي عتاب عليك.

تلعثمت وتشتت ذهني فقُلت في عجالة:

- عتاب إيه يا شكري؟ الموضوع كله حصل بالصدفة من تحريات عن موضوع تاني، وأكيد إنت فاهم إن ..

قاطعني بابتسامةٍ لزجةٍ قائلًا:

- احترم ذكائي يا فهمي، عيب لما ظابط مباحث صغير يستغفلك ويخليك تشك إن رمضان إخوانجي علشان يعمل نمرة عليك ويفتش بيته، ولمعلوماتك الظابط اللي عمل التحريات مغفل؛ لأن رمضان ابن ليل وبيحب النسوان، وله زيارة في شارع كلوت بيك كل أسبوع.. يعني مالوش في جماعة الإخوان ولا في غيرها.

سكت شكري لفترة تركني فيها أترنح، وقبل أن أسأل عن تفصيلات أخرى أسكتني دخول رمضان بالقهوة بدلًا من عامل البوفيه، تلاقت نظراته مع شكري في صمت، حوَّل رمضان بصره نحوي مستئذنًا في الانصراف بحجة زيارة قريبة له بمنطقة السيدة، أذنت له وأنا أكتم غيظي، بعد خروجه التفت لي شكري وهو يقول:

- كتر خيرك يا فهمي ما نتحرمش من جمايلك، أنا طلبت منه يقضي لي شوية مشاوير ويجيب طلبات للبيت.

تركت فمي مفتوحًا فيما يبدو وأنا في حالة ذهول ممَّا يجري حولي ليسبقني شكري هذه المرة أيضًا مردفًا:

- ما تستغربش، وطبعًا مش محتاج أقولك إن الموضوع ده

سر بينًا يا فهمي يا خويا، لو حد عرف الدنيا تخرب وأبوك وأمك ممكن يموتوا فيها، ده غير أمينة ممكن قلبها ينكسر، سلامو عليكم.

انصرف شكري فجأة كما حضر كأنه شيطان رجيم، تاركًا حكايته تتأرجح في عقلي بين الكذب والحقيقة، تركيبته تسمح بزواجٍ ثانٍ في السر، في حين كلماته وملامحه تشيان بأنه ينطق كذبًا، لكنه لجّم لساني بموقف أمينة، لم أشأ تعكير صفو حياتها، وقررت كتم السر لأجلها فقط، لا داعي لأن أكون غرابًا ينقل الخراب، طمأنت نفسي أن أمينة امرأة ناضجة وستعرف بالغريزة إذا ما كان شكري قد تزوج عليها أم لا.

***

منذ تزوجت أمينة من شكري وأقامت معنا وهي تقضي أغلب الوقت في مرسمها، ربما بسبب غيابه عن البيت لظروف عمله، ولأن أمينة كتومة ولا تتكلم إلا بفرشاتها، زاد عدد لوحاتها في السنين الأخيرة، هذا الصباح زرت المرسم قبل ذهابي إلى سراي النيابة، لم تكن زيارتي عابرة مثل كل مرة، من داخلي هاجس يدفعني لأن أخبرها بزواج شكري، السر يخنق أنفاسي كل يوم، لا أشعر بشماتة لكني متعاطف

معها، أريد لها أن تفيق من أوهام أشبه بخيط عنكبوت تمرح فيه وتتنقل فوقه بخفة، ولا تُدرك أنها أسيرة، لن ترى حريتها مرة ثانية ولا تملك من أمرها شيئًا.

عندما صافحت عيناي وجهها راحت الكلمات من لساني، تبخرت الفكرة من رأسي وعبثت مشاعري بعواطفي فأججتها، ارتبكت وصرت أقرب لمراهق لا يستطيع الإفصاح عن حبه لفتاته، أدرت لها ظهري، وشغلت عقلي بما تراه عيني، وقع بصري على لوحة تحمل شكل امرأة تخرج من صدرها فتاة مشوهة، دفعني فضولي لسؤالها عن السيدة المرسومة ومن أين استوحتها؟ لكن أمينة بددت هواجسي ببساطة عندما أشارت نحو اللوحة قائلة: «أنا».

غادرت أمينة باكية وتركت عينَيّ حائرتين بين دموع حبيسة وشفقة مكبوتة وشوق مفتقد، علا صوت مزعج من خلفي فالتفت ناحيته.

- النيابة يا سعادة فهمي بك.

أخرجني السفرجي من شجوني عندما دخل المرسم حاملًا التليفون في سلة الخوص، على الخط مدير نيابة حوادث مصر، أبلغني بنبأ القبض على عصابة كبيرة من النشالين في مولد السيدة زينب، وراح يستعجل حضوري لكثرة المتهمين.

عندما وصلت إلى مكتبي وجدت غالبيتهم من الأطفال والنساء، وفي وسط انشغالي بالتحقيق تلقيت اتصالًا من شكري، دعاني بغير مقدمات لأداء فريضة الحج مع أمينة وأبي وأمي، ارتبكت من كلامه ولم أجد ردًّا مناسبًا لمفاجآته المتتالية، وعندما لمس ترددي أطلق مزحة سخيفة عن ضرورة تطهري من ذنوبي والعودة لديني وتطليق الشيوعية بالثلاثة، وقبل أن يُنهي المكالمة أردف بسخرية:

- وبالمرة ربنا يغفر لك إنك ظلمتني أنا وسكرتيرك رمضان.

وضعت السماعة وشردت فيما يخطط له شكري، حتى فوجئت برئيس النيابة يقف أمامي بوجهٍ منزعجٍ وملامح مضطربة، طلب مني ترك ما في يدي والانتقال معه فورًا إلى حلوان، أبلغني بانتدابي للتحقيق مع آخرين في جريمة قتل شديدة الأهمية. في الطريق شرح لي رئيسي تفصيلات الحادث، ظل ذهني منشغلًا بأسئلة دون إجابة، هل فعلتها جماعة الإخوان؟ هل تورط شكري معهم؟ أم لا يزال بعيدًا ولم تتلوث يداه بالدم بعد؟

طاف بذاكرتي يوم قتله الأرنب بالرصاص ونحن صغار، لا أعرف ما الذي سيقوله هذه المرة ليتملص من مسئولية جريمة قتل راح ضحيتها قاضٍ، لا لشيءٍ إلا لكونه أدان

بالحق إخوانه في جرائم أخرى، أم إنه فعلها ونوى الحج ليتطهر من ذنوبه كلها؟ لست أدري، ولأول مرة لا أريد معرفة الحقيقة، لكن عندما وقفت بالمشرحة أمام جثة القاضي الخازندار، وتأملت فتحات الرصاصات بصدره، أقسمت سرًّا على الثأر من قاتليه حتى لو كان أخي أحدهم.

***

«كما تعلن صالة الست بديعة مصابني، أكبر وأرقى صالة للغناء بالقاهرة، لعشاق الطرب والرقص البديع الليلة وكل ثلاثاء حفلة خصوصية

ماتينيه للسيدات، الجمعة والأحد تبدأ الحفلات في السادسة والنصف مساءً، تغني وترقص الفاتنة الرشيقة بديعة مصابني، وتغني الآنسة ماري، وتقدم

وصلة رقص السيدتان شفيقة وليلى، ويُفتتح البروجرام برواية قشطة،

وهي أوبرا كوميك من تلحين الأستاذ أحمد شريف، فضلًا عن الاستعراض الفكاهي الغنائي خوازيق الحب، من تلحين الأستاذ عزت الجاهلي،

وتأليف أبو السعود الإبياري، جميع كراسي الصالة مُنمرة،

احجزوا محلاتكم باطمئنان»

أمينة سعادة - 3

لم أنتبه طوال عمري إلى أن اعوجاج الشارع الذي يوصل بيتي بفيلا تاج الدين يُشبه علامة استفهام، أحكمت ربط حزام الروب حول خصري وأعدت شعري للوراء، من بعيد رأيت صبية صغارًا يلعبون، أغمضت عيني لتتدافع الذكريات كموج البحر، صوت العصافير يُشكل موسيقى جميلة في خلفية ذهني، بينما مشاهد قصيرة لحياتي تمر أمامي، أحب اللحظات التي تخرجني من كآبتي. رأيت نفسي أتزلج بقباقيب الباتيناج بنادي الجزيرة، وأخرج مع صديقاتي في «بيكنيك» عند سفح الهرم، نركب الدراجات على كورنيش النيل وقت العصاري. تدافعت مشاهد سريعة لمسابقات الهولاهوب التي كنت أفوز بها، فجأة ظهر شكري ليملأ شاشة ذاكرتي وحده، نفس وقفته التي كانت تبهرني وهو يضع يديه حول خصره مشمرًا أكمام قميصه، يقف وسط أولاد جيراننا، كان أطول منهم، مختلفًا عنهم، ومن بعيد أرى فهمي يعتلي حجرًا ضخمًا، يُخرج سيجارة من علبة يخفيها في جوربه، يشعل عودًا من الكبريت ويفشل ليشعل آخر وينطفئ، يقترب منه شكري ويضع كفيه حول يدي فهمي فيشتعل العود، يدخن فهمي في هدوءٍ ولا يتحدث مع أحد، بينما يتكلم شكري في حِدَّةٍ مع الأولاد مُحددًا قواعد اللعب.

يأسرني بتلك الهيئة ولا يزال، ابتسمت عندما تذكرت لمّا كنّا نلعب لعبة «نَطّة الإنجليز» من فوق ظهور بعضنا، وعندما يأتي دور شكري يظل واقفًا في تحدٍّ، لا يحني ظهره للأولاد، يتضايقون ويطلبون منه الانحناء لاستكمال اللعبة، يقول اقفزوا من فوقى وأنا واقف إن استطعتم، عكس فهمي المنغلق، لا يفتح مجالًا لصداقات إلا بالكاد، وبالكاد أيضًا يشاركنا اللعب، مثل قوقعة في قاع بحر كما يقول عنه شكري.

قطع ذكرياتي صوت بائع الجيلاتي وجرسه الشهير، تدليت بنصفي العلوي من الشرفة لأراه، كبر الرجل وشاب شعره، لكن صوته لا يزال قويًا وهو ينادي نداءه الشهير «جرووووبي.. آيس كريم»، ثم يُعيدها معكوسة ويدق الجرس، ونحن صغار كان يصل إلى جاردن سيتي بعد العصر، موعد عودتنا من المدارس، يقود الدراجة نفسها ذات العجلات الثلاث وفوقها ثلاجة الآيس كريم، يصل صوته إلى أسماعنا حتى لو كنّا في الأدوار العليا، نتدافع شلالًا في مجموعات لنلحق به، فهو متعجل دومًا، ينتظر للحظات معدودة بكل شارع، أحيانًا يفوتني الدور، ويمضي البائع بعد ما باع كل ما معه وأنا لم أحصل على نصيبي، وفي أحد أيام عيد ميلادي كانت هدية شكري لي إنزال بائع الجيلاتي من فوق عربته، قادها

بدلًا منه ودخل بها حديقتنا، صرت وحدي أختار منها وأدق الجرس وأضحك. في كل مرة يدفع شكري ثمن الآيس كريم ثم نجلس نأكله، يظهر له شارب من الحليب فأشير له كي يمسحه فيضحك وهو ينبهني إلى ظهور شاربي، أخفيت عن أمي أن شكري يدعوني على الجيلاتي واحتفظت بقروشي، ومع الوقت ادخرتها، ولما صارحني بحبه اشتريت له بها أول هدية، ساعة يد بسيطة، لكنه لا يزال يرتديها إلى اليوم ويرفض تغييرها.

عدت أتأمل الطريق وعلامة الاستفهام لا تفارق مخيلتي، واضحة لدرجة مربكة، ربما يختلف شكلها من بيتي عن بيت شكري، وربما كنت أراها مقلوبة، خادعة، كعلامة تعجُّب بلا معنى أو عصية على الجواب.. لست أدري. دخلت مرسمي بعد ما قفزت فكرة إلى رأسي، بداخلي رغبة في الإمساك بشيءٍ معين أراه بخيالي، لكني أخشى عندما أرسمه أن يفلت مني، وأخشى أكثر أن يأتي يوم وأتوقف فيه عن الرسم.

***

«يا عريس انظر.. حلوة جميلة»، كلما وقعت عيني على صورة الفرح أدندن بكلمات الأغنية التي تم زفافي على أنغامها، هنا في سراي تاج الدين جرت المراسم كلها، هبطت

الزفة بنا من الطابق الثاني على السلالم الرخامية حتى البهو الفسيح الممتلئ بالمعازيم، استغرقنا أكثر من نصف الساعة بسبب عوالم شارع محمد علي اللاتي كُنَّ يتمايلن أمامنا ببطءٍ ودلال، انطلقت يومها عشرات الزغاريد، ونُثرت الزهور فوق رأسي وعلى كتفي شكري، حملت بنات عائلتي وعائلته الشموع أمامنا في طابور مزدوج، يرتدين الفساتين البيضاء، أما الأكبر سنًّا فتلونت فساتينهن بألوان الزهور كلها، الغريب والمدهش أن بقية ذكرياتي عن حفل زفافي مبهمة، غير واضحة المعالم، مثلما تهتز يدي وأنا أستخدم الكاميرا كل مرة، ويلومني شكري لأن ملامحه تظهر مهزوزة دائمًا.

رغم الذاكرة المشوشة ما زلت أذكر أن فهمي هو الوحيد الذي تخلف عن الحضور، حُجته كانت جاهزة، لديه تحقيق بالنيابة لا يمكنه تركه لغيره، لكني أعرف الحقيقة وأتفهم مشاعره وأعذره، مثلما تعاطفت معه نائلة صديقتي قائلة:

- مسكين.. لا يمكن يشوفك بالفستان الأبيض في بيتهم.

وقفت أمام صورة زفافي بعينين حزينتين وقلب حائر، وجهي في الصورة مبتسم، كنت أكثر نحافة وشكري كذلك، لا أعرف لماذا أصر يومها على ارتداء بدلة البوليس مع أنها لا تليق به، وكبرت دهشتي مع دعوته لبعض معارفه من جماعة

الإخوان، لم يرحب بهم أحد، ظلوا منبوذين في صالون صغير، وانصرفوا بعد كتب الكتاب مباشرة.

تضيق أمي بأمر انضمام شكري لجماعة الإخوان، رغم تأكيده لعائلتي وعائلته أنه مجرد ميل عاطفي، أخفى عنهم الحقيقة وجعل سر انضمامه بيننا، مركزه بالجماعة كبير وقريب من المرشد، ويومًا ما سوف يحكم مصر كلها، ابتسمت وقلت إنني أحب شكري زوجي، ولا يعنيني أن يحكم مصر أو السودان أو حتى الاثنين معًا.

عُدت إلى فراشي، لا يزال شكري نائمًا، يحافظ على ساعات نومه متصلة بنظام صارم سواء ليلًا أو بالقيلولة، لا أعرف كيف يفعلها، أحيانًا أظل يومًا كاملًا بلا نوم حتى أكاد أُجن. اقتربت منه، تغمرني وحشة لدفء جسده وعبق رائحته العطرة، تعودت شم مفرق رأسه وتحسس صدره، أشتاق إلى تقلباته على فراشي والتحامه بي، يباغتني كل مرة، لديه قدرة على التجدد تدهشني، في كل ليالي الأرق أجده يلتصق بي عندما يصحو، يحتويني ويطمئنني فأرتاح وأجفل وأروح في النوم بعمق، وبعدها يهرب النوم مني في أيام غيابه الطويلة، لا أعرف للسعادة طعمًا إلا معه، شعور باليُتم ينتابني كلما ابتعد عني، ولا يغادرني حتى يعود فأشعر بالأمان مع

روحه وجسده، ألوذ به وأذوب فيه.

عندما كبرت تمنيت أن أعود صغيرة، أنام في أي مكان بالبيت وأصحو لأجد نفسي في سريري، لكني الآن أحب وجوده بفراشي بعد ما صرت أكثر هشاشة، أحتاجه لترميم روحي باستمرار قبل أن تتقلب أحاسيسي وتتشتت مشاعري من الوحدة في ليالي غيابه الطويلة، أدرك عبء المسئولية الملقاة عليه الآن، وعواقب النهايات لو انكشف أمره، الكل يعاديه وأنا أُصبره كل مرة، فالأنبياء وحدهم مَن يمرون بالمحن حتى يؤمن برسالتهم بقية البشر كما تقول جدتي، وأنا كفرت بالكل وآمنت بشكري، ولم أفكر يومًا إذا ما كنت آمنت بنبوءة كاذبة أم دعوة صادقة.

تبللت وجنتي بدمعة خائبة، تبدو آتية من أعماق بعيدة نسيتها وظننت أنني ردمتها، وقبل أن تجر وراءها أخريات ملضومات بخيط الشجن، امتدت كف شكري الكبيرة الدافئة لتمسحها، طبع قبلة على جبهتي، احتضنني من الوراء، وراح يلف شالي فوق رأسي ورقبتي، وباليد الأخرى أمسك بمرآة لأرى فيها وجهي بعد ما حَجب شعر رأسي.

شعرت برجفة لكنه لف جسدي ناحيته واحتواني برفق، تخترقني عيناه بحدة فأجفل، همس:

- استعدي لرحلة عظيمة، حنسافر الحج مع فضيلة المرشد، وبالمرة ناخد بابا وماما وفهمي معانا.

تسمَّرت كتمثال لأكثر من نصف ساعة، تحسست رأسي ولم أقُل شيئًا، منذ أسابيع طويلة طلب مني شكري تغطية شعري لبضع ساعات، لم يطلب أن أتحجب، فقط اقترح وضع إيشارب حريري وارتداء فستان بأكمام عند لقائي بالأستاذ البنا في مناسبة زواج فوافقت، لم يُلح بعدها لتغطية شعري كما لاحظت على بعض زوجات أصدقائه من الإخوان مؤخرًا، أشعر بأنه لا يكترث لهذا الأمر، ولا لأمور أخرى أخافتني منها صديقتي نائلة وأمي، لكنها لم تحدث إلا في خيالهما، حتى إنني بعد لقاء الأستاذ البنا خلعت الإيشارب في السيارة، وذهبنا ليلتها للسينما أنا وشكري. مع ذلك شعرت بانقباض غريب على أثر كلامه، لست مستعدة لسفر طويل بالباخرة إلى الحجاز، ولا مهيأة لطقوس عديدة وأناس كثيرة من حولي، أجامل هذه وأهتم بتلك وأتحدث مع ثالثة وأرعى رابعة عجوزًا، وأنا حبلى في طفل جديد وفي شهوري الأولى، بدأت أرتجف وانتابني الشعور ذاته، الرغبة في الخروج من الواقع، وكأن له بابًا سأفتحه وأُحكم إغلاقه خلفي، وأجري لمستقبل وردي أتخيله في بعض لوحاتي كما يسخر مني شكري أحيانًا.

أريد العودة لأحلامي كي أختبئ فيها، أشتاق إلى الضحك بصوتٍ عالٍ بعد ما مللت البكاء في صمت، صرت أحيا بكلمة وأموت من كلمة، ربما أنا مثل غيري كما تقول جدتي، نحن معشر النساء لا يفهمنا رجل إلا إذا أحببناه أكثر ممَّا أحبَّنا، سيظن وقتها أنه فهمنا، لكن الحقيقة أننا تركناه يظن ما فهم.

لمحت شكري من النافذة مغادرًا، دبَّت الروح في جسدي، بعد عشر خطوات بالضبط سيلتفت ويلوح لي وهو في الحديقة، فعلها وابتسمت، لا أعرف كيف يضبطها كل مرة بهذه الدقة. غاب شكري داخل سيارته وبقيت شوارع جاردن سيتي شاهدة على ذكرياتي وطفولتي ودراجتي ذات السلة الكبيرة التي تتسع لكلبي، ومرسمي الصغير ولوحاتي التي يقولون عنها مبهمة، لمحت حدأة تحلق من بعيد لكنها لم تقترب. قبل أن أسترسل في حلب ذكرياتي، قفزت أمام عيني الفتاة التي تخرج ميتة من ضلوعي، رأيتها ممددة على ظهرها في الحديقة فأجفلت، داريت عينَي بكفَّي كي لا أراها، نظرت للسماء وردَّدت مقولة جدتي وأنا أنتحب «حِلَّها من عندك يا رب، أنا راضية بحلولك كلها».

وبعدها غلبتني الدموع، قبل أن تستدعي الصراخ في ذيلها مثل كل مرة.

***

«وأطلقت المدافع البريطانية نيرانها على الطائرة إلا أنها لم تُصبها وسقطت بسبب عطل فني أصاب محركها بالقرب من بلدة قليوب وسط مزارع البرتقال، وأعلن مجلس الوزراء منذ قليل عن مكافأة قدرها

ألف جنيه مصري لكل مَن يرشد أو يعاون أو يدلي بأي معلومات

أو بيانات تساعد في القبض على عزيز المصري أو اليوزباشي عبدالمنعم عبدالرؤوف أو الملازم حسين ذوالفقار صبري»

شكري تاج الدين - 6

اقتحم خفير الدرك مكتبي بغير استئذان، وقف يرتجف ناسيًا تأدية التحية العسكرية وقال كمَن مسَّه الجن:

- شقت السما وفلقت الغيط يا سعادة البيه.

بكلمات قليلة غير مفهومة أبلغني الخفير بسبب الصوت الذي سمعناه مدويًا، لكنها كانت كافية لتغيير مساري بجماعة الإخوان المسلمين.

تأكدت من وجود مسدسي في مكانه واصطحبت قوة مصغرة من عساكر البوليس، انتقلت بسيارتين إلى مكان سقوط الطائرة بسبب شعور غامض انتابني، سألني البلوكامين ونحن في الطريق عن ضرورة إخطار الحكمدار لكني أرجأت الأمر، من داخلي أشعر بأنه هو، لا أحد غيره قادر على فعلها، صحيح لا يوجد لديَّ سبب مقنع لصحة توقعاتي، لكنني أسير وراء حدسي في أحيان كثيرة ولم يخذلني أبدًا، على الأقل إلى الآن.

وجدت ما توقعت، هرب عزيز باشا المصري بواسطة طائرة صغيرة مسروقة من سلاح الطيران، يقودها اليوزباشى عبدالمنعم عبدالرؤوف وبصحبتهم ضابط ثالث. سمعت منذ

أيام قليلة أن عزيز المصري ينوي الهرب إلى بيروت، ومنها إلى بغداد لمساعدة حاكم العراق في ثورته ضد الإنجليز، لكن الطائرة سقطت بهم في قليوب قبل بلوغهم الإسكندرية.

أبعدت القوة المرافقة لي وأديت التحية العسكرية لعزيز باشا، كان مديرًا لكلية البوليس وقت دراستي، صافحته ومَن معه، رمقني الباشا بنظرة فاحصة وقال:

- أيًا كانت دوافعك فأنا أُحييك عليها، لكن هل لا بد من محضر رسمي؟

- لا بد يا أفندم.. لكن ممكن يكون ضد مجهول.

كان تحرير المحضر إلزاميًا، فسقوط طائرة ليس بحادث عابر نتجاهل وقوعه. أمرت بالتحفظ على الحطام وإجراء معاينة، وبنبرة حاسمة أعلنت للقوة المرافقة أن عزيز باشا وصحبه من البوليس الحربي، وأنهم سبقونا لمكان الحادث لكني أخفيت أسماءهم، كلفت ثلاثة من العساكر بالبحث في الغيطان المجاورة عن قائد الطائرة، مؤكدًا عليهم أنه لن يبتعد لإصابته وعليهم ألا يعودوا إلا به، واصطحبت عزيز باشا ورفيقيه في سيارتي متجهًا لمركز قليوب.

بداخل مكتبي دار حوار طويل تطرَّقنا فيه لجماعة

الإخوان، لمست من بين ثناياه حماسًا خافتًا من الباشا لفكرة الجماعة، ومجاهرة من اليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف تلامس حد الافتخار فأفصحت عن انتمائي، تحدثت عن مقاومة الإنجليز وعن رؤيتي للجلاء وضرورة إلغاء معاهدة 1936، أفضت في الكلام عن قوة الجماعة وتغلغلها في المجتمع، رسمت لهم هرمًا على ورقة كبيرة وظلَّلت غالبيته تاركًا قمته وجزءًا ضئيلًا أسفلها قائلًا:

- كل يوم عددنا بيزيد.. وبقينا أربعة آلاف شُعبة ولنا وجود في سوريا وفلسطين والله لم يتبقَّ لنا إلا خطوة.

أنهيت عبارتي وتبادلوا نظرات لم أفهمها، استأذن اليوزباشي عبد المنعم في إجراء مكالمة للقاهرة، بعد ثلاث محاولات نجح عامل التحويلة في التقاط الخط لشقة بالسيدة زينب كما فهمت من رقم الهاتف المطلوب، دارت مكاملة قصيرة لم أسمع منها سوى همسٍ، هز اليوزباشي رأسه بعدها، فأشار له الباشا بعينه إشارة كما الومضة لكني لمحتها. سألني عبد المنعم عبد الرؤوف:

- عندك عربية تنقلنا إلى السيدة زينب؟

- عندي، لكن أنا عارف إنكم في طريقكم للإسكندرية وممكن..

قاطعني بسرعة:

- لأ.. الباشا غيَّر الخطة، إحنا هبطنا اضطراري هنا للتمويه، ياريت ترتب عودتنا للقاهرة بسرعة.

ما زلت أذكر التاريخ جيدًا باليوم والشهر والسنة، 18 مارس 1942، تحمست وعرضت توصيل عزيز باشا وصحبه بسيارتي الخاصة كي لا يتم كشفهم في أكمنة الطريق، قُدت السيارة ببطءٍ آملًا في حديث أطول مع الباشا، لكنه استعجلني عدة مرات، أدار وجهه متطلعًا للغيطان من النافذة مستمتعًا بتدخين غليونه، أشرت له ناحية الفلاحين الذين التفوا حول طائرته الصغيرة وراحوا ينشرون بعض أجزائها ليتقاسموها بينهم، رغم أنني طلبت من البلوكامين التحفظ عليها، بدوا مثل جحافل نمل فوق كسرة خبز ضخمة، اكتفى الباشا بابتسامة غامضة ولم يُعلق، رغم غرابة رد فعله لم تتوقف أسئلته طوال الطريق عن طبيعة العمل بالريف ونوعية المحاضر وخلافات الأهالي، كنت أتحدث طوال الوقت وهو يكتفي بهز رأسه ونفث دخانه حتى وصلنا إلى السيدة زينب، بعد ساعة كنَّا نجتاز الميدان شبه الخالي من المارة في هذا التوقيت المبكر، تولى اليوزباشي عبد المنعم مهمة توجيه خط سيرنا حتى توقفنا أمام منزل من طابقين،

عرفت عندما صعدت معهم أنها شقة خاصة بعبد المنعم عبد الرؤوف.

في تلك الشقة التقيت الأستاذ حسن البنا لأول مرة، ورغم أن اللقاء لم يستغرق سوى نصف الساعة، إلا أنني فُتنت به وأحسب أنه أُعجب بي، وجدته داعية من طرازٍ فريدٍ، وصاحب فراسة لا تخيب، صوفيته صادقة، وزهده طبيعي، يلتحف بعباءة لا تكاد تُظهر منه شيئًا إلا بشاشة وجهه التي طغت على بقية ملامحه، أعجبني تواضعه وبهرتني رقة حديثه وسعة علمه، كنت أشعر بالفخر وأنا أجلس أمام زعيم شعبي لمليون مصري على الأقل إن لم يكن يزيد.

صارت لديَّ ذكريات في المكان حفرتها السنون بعقلي فلم تقوَ الذاكرة على نسيانها، حضرت اجتماعات ودروسًا كثيرة، التقيت كُتَّابًا ومفكرين وفنانين وشعراء وقضاة ومحامين، لكن أكثر مَن التصق بذاكرتي كان المستشار منير الدلة، والفنان محمود المليجي، الذي ترك الجماعة مبكرًا جدًّا، لمَّا اشتم رائحة حُرمانية التمثيل من بين ثنايا كلام بعض أعضائها المغفلين.

في شقة حي الصليبة التي كان يستأجرها قبلي اليوزباشي عبد المنعم نَمت جذوري مع الجماعة حتى صرت صاحب

مكان، بعدها نقلوا عقد الإيجار باسمي، في البداية كنت قلقًا لكوني ضابط بوليس، لكن وجود ضباط الجيش وبعض القضاة طمأنني وزاد من حماسي، بعد شهر واحد أصابني إحباط كبير، عندما علمت أن عزيز باشا لم يُعجب بالأستاذ البنا، وأبدى رأيًا مقاربًا لرأي فهمي شقيقي للأسف، هززت يومها رأسي متحيرًا، إذا كانت شخصية فهمي ومهنته تُلزمه بهذه الأفكار وهذا السلوك، فما عذر المغامر الأعظم والسياسي المحنك عزيز المصري؟

مع الوقت نسيت عزيز باشا، خاصة بعد القبض عليه وسجنه، حمدت الله أنه لم يذكر اسمي بتحقيقات قضية هروبه بطائرة عسكرية، شغلتني أمور جماعة الإخوان، وظلت فكرة التغيير والسيطرة تغزو عقلي حتى احتلت رأسي فلم أعُد أرى غيرها، ومع ذلك بقي فهمي في قاع تفكيري، يطفو كل حين بكلماته وأفكاره، يبتعد عني ليهبط للقاع مرة ثانية كلما فاتحته في أمر الانضمام. لا يدرك فهمي لذة المغامرة ولا حلاوة الاكتشاف، يفضل السير على خط مستقيم بين نقطتين واضحتين، يعيش أوهام الحكم القائم على أساس اشتراكي، أعرف أنها أفكار جدي التي ملأ بها نافوخ فهمي الفارغ، ولم يعُد لديّ شك في ميوله الشيوعية، لكنه لا يُفصح عنها مثلهم، ورغم أفكاره تلك لم يكن أخي

ثوريًا، ظلت حياته نمطية للغاية كأنما ولد موظفًا، مع أن مهنته تقتضي الكشف والاستقصاء والمراوغة.

حاولت كثيرًا إقناعه ليحضر بعض اجتماعاتنا، ويلتقي ولو لمرة بالأستاذ البنا، لكنه ظل يتهرب مني ويتهمني بالكذب بعد ما وعدته بترك الجماعة وخلفت الوعد وكأنني أجرمت. لن يفهم شعوري وأن الجماعة باتت تجذبني ولم أعُد أستطيع حتى مجرد التفكير في تركها. وأيضًا لم يخرج موضوع ضم فهمي للجماعة من رأسي بعد.

***

علت أنغام الموسيقى من البيانو وتمايلت أمي مندمجة في عزف مقطوعة لموزارت، سبقني فهمي للحديقة كي يدخن سيجارة بعد الغداء، فانسحبت بخفة حتى لا تلاحظني أمي، لحقت به كي نستكمل حوارنا الذي لا ينقطع حول فكرة الشورى، ألفيته منبعجًا كشوالٍ قديمٍ فوق أريكة فسألته:

- إيه الفرق بين الديمقراطية اللي صدعتنا بيها والشورى بتاعتنا؟

أجابني ببرود يفوق سماجة جلسته:

- الديمقراطية بتاعتكم إن المرشد بيسمعكم وبعدها يقرر

من دماغه، دي مش شورى دي شوطة وصابتكم بدروشة، والنبي بكرة يقلعوك البدلة الميري وتلبس جلابية وتربي دقنك.. بلا خيبة.

تركته بدون جواب بسبب نظرته السطحية لنا، وحكيت كل حواراتنا للمرشد، توقعت بعدها أنه سيُصر على لقائه وإقناعه كما يفعل مع غيره ممَّن ركبهم العند ولازمهم التعنت، ففاجأني:

- لا تفتح معه الموضوع مرة ثانية، هذا ليس منَّا ووجوده عبء علينا، مثله مثل الحمولة الزائدة سيُرهقنا حملها ولن نستفيد منها على قدر تعبنا معها.

عبث بلحيته وأردف بصوتٍ خفيض:

- ومَن لا يجدف يسهل عليه أرجحة القارب.

اندهشت لاستخدامه لمقولة جان بول سارتر الوجودي، لكني أحلت الأمر كله لموسوعية فضيلته الثقافية واطلاعه الواسع، ورغم رفضه دعوة أخي أصررت وقت سفرنا للحج على اصطحاب فهمي معنا، وألححت عليهما لقبول الفكرة، وجدت كليهما غير متحمس، لكني لم أيأس، فكل شيءٍ يُنال بالصبر.

عدت للقاهرة في أوائل شهر نوفمبر بعد أقل من عام بالخدمة في قليوب، خدمني القدر أو الواسطة كما أسماها فهمي، طلبت نقلي من أبي الذي عاد لوزارة المعارف بعد غيابٍ طويل، وبناء على نصيحة من الأستاذ البنا ليتدخل أبي بنفوذه لدى وزير الداخلية كي أعود لقسم السيدة زينب تحديدًا، كان عبد الرحمن السندي يريد إبعاد العيون عن شقة الصليبة التي يجتمع فيها مع التنظيم الخاص ويتولى فايز حبشي بث الإذاعة منها، خاصة أن معاون مباحث القسم الجديد ضابط شاب فشلنا في استمالته ناحيتنا فصار ضدنا، ووشى برمضان سكرتير أخي.

بحكم الترقية أصبحت على رأس قوة مباحث السيدة زينب، نجحت في إبعاد العيون عن الاجتماعات وتوفير الأمان للإخوان من الضباط والقضاة وغيرهم الذين يحضرون للشقة قلقين بسبب مناصبهم، استطعت كشف عيون القلم السياسي التي تتابع تحركات الأستاذ البنا، بعد ما علا نجمه وتوهج حتى صار عنوانًا للأمل في تغيير منتظر. وفي غمرة صعودي وانشغالي بالجماعة لم أنسَ في حركة التنقلات التالية أن أُقدم تقريرًا في الضابط الصغير معاون المباحث الذي وشى برمضان عين الجماعة، نُقل الضابط إلى الصعيد، لكنه بعد شهور قليلة تمكن من العودة.. لعن الله

الواسطة كما يقول فهمي.

طوال فترة وجود أبي بالوزارة ظللت أخدم بالسيدة زينب ولا أُنقل منها، أصبحت علامة من علامات الحي الشعبي، كوَّنت صداقات عديدة وكتيبة كبيرة من المرشدين والمخبرين، في عهدي افتتح المرشد مقرًّا لجمعية شباب الإخوان في المنطقة، ومكتبًا إداريًّا آخر ومستوصفًا صغيرًا. لكن رغم صعود نجمنا كانت المخاوف تعشش في صدري بسبب تخوف القصر منَّا، وإطلاق الملك لحيته في محاولة بائسة لمنافسة المرشد، لكن الأستاذ البنا طمأنني مؤكدًا أننا نفوقه شعبية، خاصة بعد تخاذله مع الإنجليز وضعفه أمام النحاس باشا الذي كان يعامله كصبي صغير، مع ذلك انسحب الأستاذ البنا من الترشح للانتخابات بالإسماعيلية، مقابل حصوله على وعد بالنظر في أمر الخمور والدعارة والسماح للجماعة بالتوسع في نشاطها وطباعة مطبوعات خاصة بها، أصبحت لنا قوة وبات يُعمل لنا حساب، لكن الحكومة لم تفِ بوعدها. حدث شقاق وفُرقة بين الصفوف ورأى التنظيم الخاص أن يقوم بعمليات جديدة ردًّا على سلبية الحكومة، لكني عارضت بقوة، ففي رأيي أننا الآن نعمل بالسياسة بصورة أكثر فاعلية ممَّا لو كنَّا ممثلين في البرلمان نفسه، وأكثر قوة من أن نكون حزبًا سياسيًّا، الآن نحن نمد ذراعًا

طويلة في كل بيت في مصر، ولأن الحكومة تكره الدين وتحارب المتدينين فمن السهل أن يستجيب لنا الشعب المتدين بطبعه.

صرنا موجودين في كل الوزارات والمديريات، في الجيش والبوليس وجامعة فؤاد الأول ومعظم المصالح الحكومية، ومن قبلها بغالبية القرى والنجوع. لدينا من الرجال والسلاح ما يكفي لمواجهة الإنجليز وطردهم وتشكيل الوزارة الجديدة. شعرت بأن الحلم الذي أردته وتمنيته يقترب، أكاد أراه في عين المرشد وحديثه وإيماءات جسده، يُشرق كل صباح مثل شمس جديدة لكنها لم تسطع بعد رغم أن خيوط النور حولت الدنيا كلها إلى نهار، حتى حدث آخر ما كنت أتوقعه، عندما دقّ السفرجي باب حجرتي قرب منتصف الليل بإلحاحٍ مريب، قفزت منزعجًا من فراشي، وجدته يخبرني بنبرة مرتجفة:

- تليفون مهم يا سعادة البيه، وصمموا أصحي معاليك من النوم.

وضعت السماعة على أذني وبعد كلمات قليلة من محدثي تمتمت بالشهادتين، انسابت دموعي وسكت كلامي، تخيلت المشهد كله أمام عيني، كأنني بجواره وهو يخرج من المقر

ويتأهب لركوب السيارة، فيُعاجله أحدهم بست رصاصات في صدره وبطنه، شعرت بأنني شاهد عيان على جريمة القتل، ولم يعُد ينقصني سوى كتابة كلمة النهاية.

***

«وبحسب ما نشر بصحيفة الأهرام بصدر صفحتها الأولى صباح اليوم أن الأستاذ حسن البنا أرسل منذ أيام خطابًا آخر إلى وزارة الداخلية

يعلن فيه اعتزامه تسليم محطة الإذاعة السرية والأسلحة وغير ذلك من أوراق ومستندات ممّا تحت يد جماعة الإخوان إلى السلطات المختصة

بغير قيدٍ ولا شرط، وأنه على أثر ذلك تلقى خطاب تهديد بالقتل إذا

ما أذاع أي سر من أسرار الجماعة»

فايز حبشي - 2

كل شيءٍ حدث بالصدفة عندما قرر مهندس أسترالي الاستقرار في القاهرة بعد الحرب العظمى الأولى، افتتح محطة إذاعة أهلية لبث نشرة أخبار بالإنجليزية، عبارة عن ملخص للصحف، كان يتردد على دكان أبي لإصلاح أجهزته فصارت صداقة بيننا، بعدها طلبني للعمل مساعدًا مقابل ريال كل أسبوع، ولأن المبلغ كان مغريًا وافقت بلا تفكير.

تعلمت كيفية تشغيل المحطة وإذاعة الأخبار عن طريق الموجات القصيرة للحصول على تردد أوسع، مع الوقت اكتسبت خبرة، ثم تزوج الأسترالي من سيدة سكندرية عاشت معه بالقاهرة بعد ما أعلن إسلامه، وعندما مات ورثت كراكيبه كما وصفتها، أرادت التخلص من المحطة الإذاعية قبل عودتها للإسكندرية فنقلت الترخيص باسمي.

ترددتُ على حوانيت التجار كي يعلنوا عن بضائعهم عندي مقابل قروش قليلة، وعندما بدأت الإذاعة المصرية البث رأت الحكومة أننا نشوش عليها بمحطاتنا، رفضوا تجديد التراخيص، فعُدت لدكان أبي لإصلاح الأجهزة المعطوبة.

أنهيت كلامي وبدأت أقشر ثمرة يوسفي أحتفظ بها في

جيبي طوال الشتاء كما عودتني أمي كي لا أُصاب بنزلة برد.

- ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قالها الأستاذ البنا عندما التقيته بشقة الصليبة وحكيت حكايتي، سألني وهو يمسد لحيته الخفيفة متفكرًا في إمكانية الانتشار عبر محطة الراديو الخاصة للوصول لأكبر عدد ممكن من المواطنين بالمديريات، أجبته بثقة أننا نستطيع تغطية مناطق كثيرة من القاهرة باعتبار أن العاصمة أهم، هزَّ رأسه وبدا غير مقتنع بكلامي، فأردفت بصوتٍ خفيضٍ على استحياء وأنا أشير ناحية شكري باعتباره ممثل الحكومة:

- المهم نضمن إعادة ترخيص محطتي مرة تانية يا أستاذنا وبعدها ممكن نروح المديريات كلها، ولكل بيت من بيوت أعضاء جمعية الإخوان لو تحب.

نجح بالون الاختبار الأول الذي أطلقته عندما أجاب الأستاذ البنا بسرعة كأنه يتوقع طلبي:

- سهل يا أخ حبشي نعمل لك ترخيص مؤقت من الداخلية.. سهل إن شاء الله.

سكت برهة ثم قال وهو يرمقني بنظرة صقر:

- جماعة الإخوان المسلمين لمصر كلها.. مش جمعية خيرية زي الجمعيات التانيين.

هززت رأسي موافقًا، ثم تشجعت وأطلقت البالون الثاني في ذيل الأول منتهزًا فورة حماس الأستاذ فقلت:

- كمان محتاجين إن الناس تدفع اشتراكات بانتظام علشان نضمن استمرارية التشغيل.

هذه المرة أجاب البنا بلا مبالاة أدهشتني:

- ما تشغلش بالك بالفلوس، مفيش أسهل منها، المهم النفوس يا أستاذ حبشي.

قالها ونظر لليوزباشي شكري نظرة طويلة، بدا ساهمًا كأنه شرد في شيء، لكن اليوزباشي ظل يهز رأسه بالموافقة مثلما فعلت منذ قليل.

***

«هُنا راديو حبشي».. غُدت أردد عبارتي الأثيرة بعد ما أعدت إطلاق إذاعتي الأهلية باسمها القديم مؤقتًا، قبل أن أخفيه مضطرًا بعدها بشهور حتى لا يتم كشفي، كانت هناك محطة شهيرة تحمل الاسم ذاته، تولى تشغيلها لسنوات طويلة المهندس جرجس حبشي، لكنها توقفت مبكرًا عني

عندما تم التنبيه من الحكومة بإيقاف الإذاعات الأهلية لصالح الراديو المصري، كانت فرصة لإدارة الأمر لصالحي، بنيت شهرتي على إرثه الإذاعي الكبير الملتصق بذاكرة المستمعين، مستغلًّا أن اسم شهرتي مثل اسمه الحقيقي، ورغم أنني لم أتسلم ترخيصًا بعد، لكن لم يضايقني أحد، طمأنني اليوزباشي شكري أن تجديد التراخيص سيستغرق وقتًا، وبعدها ردَّد عبارته التي لا تتغير كلما رآني.. «وكل شيء يُنال بالصبر».

رفعت قيمة الاشتراك فصار جنيهًا لكل أربعة أشهر، وبعد أقل من أسبوع تمكنت من التشويش على إذاعات أخرى خاصة بالجيش الإنجليزي، لم أُخبر أحدًا بالأمر سوى اليوزباشي شكري خوفًا من الوشاية، فالبعض كان يتعاون مع الإنجليز، كما أنني لا أعرف نوايا جماعة الإخوان، صحيح هم مَن مولوا محطتي، لكن الأمر كله عمل تجاري لا أكثر ولا أقل، بعد التشغيل بأسبوعين توصلت لتردد محطة الملك فاروق الخاصة التي كان يشوش بها على الإنجليز، ناصرته وساعدته في التشويش عليهم لصالح الألمان، لكنني أخفيت الأمر عن الجميع بمَن فيهم شكري، بعد ما سمعت أعضاء الجماعة يهاجمون الملك، وكانوا يطبعون منشورات ضده بسبب ضعفه أمام الإنجليز عندما حاصروا قصره بالدبابات في

فبراير من العام قبل الماضي، وكأنهم يذكرونه بالعار كل عام.

تنامت هوايتي القديمة في محاربة الإنجليز، واستعنت بجاري الأستاذ لمعي حنًّا مدرس اللغة الإنجليزية، صاحب الصوت الرخيم الفخيم ليُذيع بيانات مُضللة للإنجليز، كنَّا نخبرهم بغلق شوارع معينة ليذهبوا إلى غيرها، وهناك ينتظرهم شباب الإخوان، ليحصل عساكر ملك بريطانيا على طريحة ثقيلة بالشوم والنبابيت.

في الشهر الأول كان البث يتم من مخزن الدكان بالسيدة زينب، وبعدها من شقة بشارع الصليبة بتكليف من اليوزباشي شكري، سلمني مفتاحها وكنت أتردد عليها ثلاث مرات أسبوعيًّا مع شخص يُدعى رمضان يعمل كاتبًا بنيابة السيدة زينب.

صاحبة الشقة أو قاطنتها سيدة سمينة قصيرة، كنت أحيانًا أراها، تغطي رأسها ووجهها بصورة مريبة، ومشيتها تشبه طريقة الرجال، ولمَّا استفسرت عن سبب تواجدها نهروني عن السؤال، لم ألقِ بالًا، فالسيدة تحتل حجرة صغيرة ولا تبارحها تقريبًا طوال تواجدي، أحيانًا كنت أحمل أجهزتي على عربة كارُّو منطلقًا إلى الموسكي لقضاء يومين بشقة على سطوح بيت قديم مقابل ثلاثة جنيهات كاملة، يتم

دفعها لصاحب البيت مقدمًا وتولت الجماعة سدادها، ومن هناك أبث إعلانات عن بضاعة التجار طوال اليوم، وما بين الفقرات أقرأ نشرة أخبار قصيرة، أهاجم فيها الإنجليز بزجل شعبي، وأختتم بالدعاء للملك فاروق.

تحسنت أحوالي المادية بصورةٍ فاقت أحلامي، وشاركني تاجر كبير من وكالة البلح، فتمكنت من شراء أجهزة أخرى عبارة عن مخلفات جيوش الحرب الأولى. أدخلت فكرة خطابات المستمعين في إذاعتي فلاقت إقبالًا منقطع النظير، وابتكرت فقرة طلب الأغاني الخاصة بدلًا من إذاعة أغاني ثابتة، ممَّا جعل عدد المشتركين يتضاعف، كانت المطربتان أسمهان وأم كلثوم الأكثر طلبًا، فطرأت لي فكرة التعاقد مع إحداهن، رسا العرض على أم كلثوم لتحيي حفلة خاصة بإذاعة راديو حبشي، ووافقت نظير خمسين جنيهًا، في حين كانت أسمهان تطلب ضعفها ولا تُنقص قرشًا. يومها وصفني بعض الإخوان بالجنون، وأرسل لي اليوزباشي شكري رسالة يثنيني فيها عن هذا الحفل ويطلب الاهتمام بأمور الإذاعة العادية، لكني رأيتها دعاية عظيمة لمحطتي. نجحت الفكرة في جذب مئات التجار بعدها للتعاقد معي، ولم يتم كشفي ليلتها بعد ما اقتصر الحفل على ساعة واحدة فقط، صار راديو حبشي البريمو، ممَّا اضطرني للتوقف فترة

عن تلقي طلبات جديدة لضيق الوقت ومحدودية ساعات البث، أيضًا اليوزباشي شكري لم يسلمني الترخيص رغم مرور أكثر من ستة أشهر، صحيح تكفلت الجماعة بكل مصروفاتي ولم يشاركوني في الربح، لكن الأغرب أنهم لم يطلبوا ولو بالتلميح بث أي بيان لصالحهم بصورة صريحة، رغم اهتمامهم بتفاصيل الانتشار في البداية كما فهمت من كبيرهم الأستاذ البنا. مضيت في طريقي متخففًا من أحمال التفكير في جماعة الإخوان المسلمين تباعًا، وتمخض عقلي عن فكرة جديدة للدعاية في سوق الموسكي ووكالة البلح وروض الفرج، كنت أبدأ البث بالتحذير من قنبلة سوف تنفجر بعد قليل في شارع الموسكي، كنت أسكت بعدها لوهلةٍ أو أذيع أغنية قصيرة، لأعود وأخبرهم بأن القنبلة التي حذرنا منها هي قنبلة الأسعار والتنزيلات بمحلات راضي للعب الأطفال.

طلب مني تجار كثيرون تكرار هذه الدعاية، وبدأت أتلقى طلبات في مدن أخرى، سافرت إلى دمنهور والإسكندرية ودمياط، ومرة ذهبت إلى أسيوط، ذاع صيتي وانتشرت الإذاعة مرة أخرى، حتى إن بعض زبائني أكدوا لي أنهم يفضلونها على الإذاعة المصرية، وفي غمرة عملي نسيت جماعة الإخوان المسلمين ولم أغد ألتقي بهم بعد ما عينت

مساعدًا يتلقى منهم الاشتراكات كل شهر، حتى جاء يوم ووجدت قوة من قسم السيدة زينب يرأسها ضابط صغير الرتبة تقتحم الدكان وتقبض عليّ وتصادر أجهزة البث كلها. اصطحبوني في سيارة جيب صغيرة، وما إن ركبت وجلست بالصندوق الخلفي حتى قام أحدهم بلف قطعة قماش حول عيني. توقعت أن عدم وجود الترخيص هو سبب ضبطي، وأن القلم السياسي بالداخلية هم الذين قبضوا عليّ، هذه طريقتهم، لف القماش على العيون كما نسمع عنها مؤخرًا، ولا بد أنني شوشت على محطة فاروق الإذاعية بغير قصد عندما كنت أعلن عن بضائع التجار أمس بحي عابدين.

توقفت السيارة بنا لفترة قصيرة في مكان قريب نقلوني منه لسيارة أخرى، نهبت العربة الطريق لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة تقريبًا، حتى توقفت في جراج على ما يبدو من الصوت المكتوم، ساعدني شخص على النزول وأمسك بكتفي آخر، صعدنا درجات معدودات، انفتح باب ورُفعت العصابة عن عيني لأجد أمامي اليوزباشي شكري بملابس مدنية ومعه عشرات الرجال والشباب في صالون فيلا صغيرة.

فهمت بعد قليل من الحديث الدائر حولي أننا في منطقة

حلوان، اعتذر شكري عن إحضاري بهذه الطريقة هامسًا أنها لدواعي أمنية بسبب وجود خطر على حياة الأستاذ البنا. قبل أن يدفعني الفضول للسؤال عن طبيعة الخطر دخل علينا شخص سمين، قصير، له هيبة واضحة، يشبه في مشيته وصوته السيدة التي تعيش بشقة الصليبة وكأنه أخوها، هرعوا جميعًا نحوه، قدمه اليوزباشي شكري في عجالة بالأستاذ عبد الرحمن السندي نائب المرشد، وبحكم مسئوليته ومكانته في الجماعة راقب عملي وتأكد من جديته، بعد ما كلفوا العديد من التجار بالتعاون معي لاختبار كفاءتي، لكنه الآن يريد إجراء تجربة عملية أمام عينيه كي يطمئن قلبه لا أكثر، ورغم أنني لم أقتنع بما قاله شكري، لكني قُلت لنفسي لا بأس، هؤلاء مجموعة من الأغبياء ولا بد من مجاراتهم على قدر عقولهم، فقد كان من الممكن إجراء التجربة من دكاني دون اختطافي واحتجازي بهذه الصورة، وكانوا سيعرفون النتيجة أيضًا.

شعرت بثقة مؤقتة وطلبت فنجانًا من القهوة، بعد ما دعوني للجلوس حتى تصل سيارة أخرى كلفها شكري بإحضار أجهزتي من الدكان لفيلا حلوان، ما إن وصلت حتى بدأنا في تركيبها، وأملى عبد الرحمن السندي مضمون الخبر على مسامعي طالبًا إذاعته فورًا، أذعت البيان كما أملاه بعد

ما ضبطت أجهزتي على موجة تردد طويلة تغطي جنوب العاصمة، أعلنت أن حيوانًا غريبًا عبارة عن خليط بين الكلب والذئب انتشر في شوارع السيدة زينب، ونجح شباب جمعية الإخوان المسلمين في اصطياده وحماية أطفال المنطقة من شره.

جلست بين شكري والسندي بعد انتهاء بث الخبر ننتظر بجوار الراديو، وكما توقعت أذاعته الإذاعة المصرية بعد قليل لكنها لم تُشر لمصدره، وردوا الفضل في ضبط الحيوان لوزارة الداخلية، لطالما فعلوها معي وكنت أعرف كيف أضع لهم الطعم في السنارة كل مرة.

ضحك اليوزباشي شكري موجهًا حديثه نحوي قائلًا:

- متشكرين يا أخ حبشي.

ابتسم السندي ابتسامة صفراء، وداعب شكري بأنه محسوب الآن على الجماعة ونال ثواب الخبر المفبرك، ثم التفت ناحيتي بملامح جادة، مد يده بأوراق نقدية مطوية داخل ورقة أخرى بيضاء قائلًا:

- جه وقت الجد يا أخ حبشي، ده جدول الزيارات في طنطا وكفر الشيخ وإسكندرية لمدة أسبوع.. استعد وجهز نفسك،

أنا عاوز في ظرف أسبوعين بالكتير مفيش سيرة في الدلتا كلها إلا عن الأستاذ البنا وجماعة الإخوان.

ابتسمت في ثقة، بعد ما رقدت خمسون جنيهًا دفعة واحدة لأول مرة في جيبي، وهتفت:

- مش بس في مصر والسودان يا مولانا، وإنجلترا كمان لو تحب.

وضعت في جيبي الثروة التي هبطت عليَّ من السماء وشكرت ربنا، لمحتهم يتهامسون على مبعدة مني، لم أكترث، بداخلي سؤال أكبر يشغلني، كيف تهبط نقود كثيرة على مجموعة من الأغبياء محدودي التفكير؟ لم أجد إجابة، ومع الوقت لم أعُد أهتم بالبحث عنها. هممت بجمع سلوك محطتي وأدواتها وميكروفونها، لكن يد السندي هبطت على كتفي فالتفت لأجده وشكري يقفان ورائي مبتسمين بخبث.

أمسك شكري بذراعي وجذبني لأعلى كي أتوقف عن لملمة محطتي فامتثلت، سألني السندي وهو لا يكف عن توسعة ابتسامته الخبيثة قائلًا:

- يا ترى تدريب الإخوة على الإرسال والاستقبال ياخد منك وقت قد إيه هنا في حلوان يا باشمهندس؟

الآن أدركت الإجابة وسبب استدعائي بهذه الصورة، وأنني الغبي الوحيد في هذه الجماعة التي تحيط بي وتنتظر ردي، ولا بد أن يكون جوابي مناسبًا وإلا ظللت هنا بقية حياتي، وربما دُفنت بجوار محطتي بعد ما لمحت حقيبة ملابسي في أقصى الغرفة. بعد تفكير قليل ابتسمت متمتمًا: «في أسرع وقت يا مولانا»، بينما عيني لم تنزل عن حقيبتي التي رفعها أحد الإخوة في طريقه لحجرة جانبية، تحددت فيها إقامتي الإجبارية لفترة لا يعلمها إلا اليوزباشي شكري وحده.

***

«حيث تنكر اثنان منهم في زي كونستابل وسائق سيارة بوليس وتتبعا

عبد المجيد الذي ارتدى بدلة ضابط إلى داخل بهو الوزارة فلم يلفتوا الأنظار، وحين وصل دولة رئيس الوزراء بين حُراسه متجهًا نحو المصعد وصار على وشك ولوجه فاجأه المتهم عبد المجيد أحمد حسن بإطلاق ثلاث

رصاصات من مسدس برتا إيطالي، وكان ذلك بسرعة خاطفة، فسقط دولة النقراشي باشا على الأرض، وأُخذ رجال الحرس بما حدث، فلم

يستطع أحد منهم عمل شيءٍ قبل إطلاق المقذوفات الثلاثة»

فهمي تاج الدين - 7

«فضيلة الإمام حسن البنا».. قَدَّم شكري الرجل بحماس، فجأة اهتزت السفينة إثر موجة عالية، تأرجحت يد المرشد الممدودة لتصافح يدي المترددة، تباعد كفانا في الفراغ ولم تلتقيا. تفرست في وجهه، وجدته حاد الملامح، جبينه عريض، تتوسطه زبيبة صلاة كبيرة داكنة، عيناه هادئتان ورائقتان كبئر، لكن لو ألقيت بها حجرًا سيظل يتدحرج بغير قرار، لاحظت طيف ابتسامة مأزومة يحوم حول ملامحه ولا يحط عليها، ابتسامة عصية على الانفراج بأريحية، نظرته تنبئ عن ذئبٍ كامنٍ وراء الملابس الإفرنجية والطربوش القصير، فقط ينتظر الفرصة للانقضاض عليك.

ثبتُّ يدي لمَّا هدأت الموجة مصافحًا الرجل الملتحي بلحية منسقة، لم أنبهر عظيم الانبهار حسبما أنبأني شكري قبل اللقاء، لدرجة حسبت معها أن انبهاري سيسبق كف يدي، وأنا أصافح فضيلة الإمام المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، كما يحلو لهم أن يقدموه بتلك اللافتة العريضة.

مرَّت نصف ساعة وأنا أُنصت له، مستخدمًا أذني الثانية في تصفية غالبية ما يحاول سكبه برأسي. شعرت بعد دقائق من اللقاء الأول بيننا بأن لا شيء لديَّ كي أقوله للرجل، فاكتفيت

بدور المتلقي حتى يُفرغ ما في جوفه وننتهي، موقنًا بأنه لا يستحق عناء الجدال، طوال جلستنا كان شكري يثبت عينيه عليَّ، كل حين وآخر أختلس نظرة لقسمات وجهه التي تتقلب كحال البحر، أتفهم أن أخي تحول الآن وصار يؤمن بغلبة العقيدة الإسلامية، وضرورة الحكم بالقرآن والسنة مع أنه ليس بقريب منهما، ربما لديه بعض ميل فطري نحو الدين، لكنه جنح به في أغلب الظن للوصول بسرعة إلى غايته منذ ترك مدرستنا الجيزويت ونحن على أعتاب البكالوريا بإيعاز من خالي باعتبارها مدرسة رهبان. لا أعرف لماذا تذكرت افتعاله مشكلة كبيرة بجامعة الملك في مدينة الرباط بالمغرب، لمَّا أرسلوه إليها للتدريس بها عقب تخرجه، وقتها أراد أن يُدرِّس لهم القانون الفرنسي باللغة العربية، وقاد مظاهرة لتعريب القوانين فقبضوا عليه، ولولا تدخل أبي لدى السراي وتمكن الملك فاروق من إعادته بعد أسبوع واحد من سفره، لكان شكري الآن في سجون الصحراء، أو ربما وليمة شهية للذئاب.

غُدت بعد لقاء المرشد لقمرتي بالطابق الأول، ساخطًا على شكري الذي صار جزءًا من نسيج الجماعة، لا تعرف خيوطه من خيوطهم، لا أعلم متى وكيف ولماذا ابتعد عني منذ اللقاء الذي حضرته معه بجمعيتهم، رغم أنه وعدني يومها

بمقاطعتهم، وأقسم على تنفيذ وعده، لكنهم جبلوا على الكذب وشكري مثلهم، واحد من القطيع.

دخل أخي قمرتي في ذيلي متلهفًا لمعرفة رأيي بينما كنت أغير ملابسي، لخصت شعوري بالملل كمَن يشاهد فيلمًا للمرة الثانية خلال أسبوع، كنت أتوقع البدايات والنهايات، أكاد أردد الحوار قبل البطل، بدا على شكري أنه لا يفهم كلامي، وربما كان مندهشًا من رد فعلي، لا أفهم إصراره على إقناعي بإخوانه ومن قبلهم مرشده، لا يرى عيوب الرجل كعادته، فهو يحب بإفراط وبغير تفكير، يكره حتى المقاطعة بدون فرصة رجوع واحدة، ويحرق سفنه كلها خلفه، كما يقولون، إذا ما أحب أحدًا أو اختلف معه.

جلس شكري على حافة فراشي وأشعل سيجارة، أول مرة أراه يدخن، لا أعرف متى بدأ تلك العادة وكيف يفعلها مع إخوانه المسلمين، قرأ سؤالي في عيني بفراسته، استرسل شارحًا أن المرشد لا يلومه لأنه ببساطة لا يدخن في حضرته، كنت أعلم أن ذهنه دار بسرعة طائرة في تلك اللحظة ليرتب أفكاره قبل أن ينطق بسؤاله الأثير:

- معانا والا علينا؟

تعمدت تجاهل نظرة عينه ذات البريق الحاد وأنا أستكمل

ارتداء ملابس النوم وأتثاءب، ولمَّا لمست منه بقاءً تمددت على فراشي، لكن قبل أن أغطي جسدي ووجهي كعادتي، أجبته بهدوء:

- أنا معاك يا شكري.. لكن معاك وحدك.

عاد يُلح بسؤاله، لكن هذه المرة بنبرة مثيرة للشفقة، لم يخدعني أداؤه المسرحي، وأعلم جيدًا أنه لن يوقف قطار رحلته من أجل راكب متردد مثلي، سألته بهدوءٍ إذا كان رأيي مهمًّا ووجودي فارقًا؟ أومأ بالإيجاب وهو يمسح فمه ببطءٍ بعد ما أطار الكثير من الرذاذ وهو يتكلم. فقلت:

- أنا ماعرفش أسلم عقلي لغيري.

- طيب نأجل الكلام عن تعاطفك معانا وقول لي رأيك بصراحة في الأستاذ البنا.

قلت حاسمًا للأمر وأنا أهم بالنهوض:

- خلينا نخلص ونفضها سيرة وأجاوب على كل أسئلتك، أنا يا شكري مش متعاطف معاكم ولا مقتنع بفكرة الجماعة من الأساس، أما شيخك فلا يروق لي ولا أفكاره تناسبني وابتسامته لزجة وثقل ظله لا يُطاق.

برقت عينا أخي في دهشة سبقها استنكاره لكلامي، لكني

هززت رأسي بما يعني «نعم هو ما سمعت»، نهض شكري وهو يشير لي بكفه كي أتوقف عن الكلام، ألقى بسيجارته قرب فراشي ودهسها بصندله في عصبية ظاهرة، وبعدها صفق الباب خلفه، أطفأت نور القمرة لكن النوم طار من النافذة المواربة ولم أمسك به حتى نهار اليوم التالي، تركني شكري بغير تعقيب لكن نظرته الأخيرة أقلقتني، حملت من نوايا الانتقام أكثر بكثير ممَّا قصده من عتاب.

***

أنفقت الليل كله في ترتيب ذكرياتي ومحاولة ربط الأحداث ببعضها بعضًا، منذ تجمعنا بمدينة السويس التي وصلناها بالسيارات منذ عدة أيام، إيذانًا بالذهاب للميناء لنركب السفينة التي ستحملنا إلى الأراضي المقدسة، الميناء شديد التواضع، لكنه كان نظيفًا منظمًا، وضمائر الحجيج صافية مثل السماء يومها، كنَّا نتجمَّع كل ليلة حتى صلاة الفجر لنستمع للوعاظ من لابسي العمائم، عندما اقتربنا من ميناء الحجاز نادى فينا منادٍ وردَّدت الناس من خلفه «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك»، تملكتهم الروحانية وهم يرتدون ملابس الإحرام، انفعلوا، بح صوت بعضهم وسقطت الأحرمة عن البعض الآخر من كثرة ما رفعوا أيديهم

بالتلبية والدعاء.

كنت في صحبة أبي وأمي وأخي وزوجته أمينة، ومن الوهلة الأولى بان لنا أن شكري حاز ثقة الشيخ البنا وجماعته، بعد ما قطع معهم شوطًا كبيرًا فاق محبتي واحتمالي له، وبات رجوعه عن الطريق مستحيلًا. ذات ليلة تساءلت أمي عن السر وراء تأخر شكري عن العودة من سطح السفينة بعد ما يخلد الجميع للنوم، خاصة أنه يترك زوجته وأطفاله وحدهم، ربما كان أبي يعلم السر فقد آثر السكوت، فلشكري عنده مكانة خاصة فاقت الجميع، أو ربما لأننا في رحلة مقدسة إلى بيت الله فلماذا القلق، لكن انزعاج أمي طال أكثر ممَّا ينبغي له أن يبلغ، أبلغتها رحمة بأعصابها أن شكري يقضي الليل على سطح السفينة مع أصدقائه، وأضفت وكأن الأمر ليس مرتبطًا ببعضه، أن هناك رجلًا طيبًا يعظ الناس ويُفقههم في أمور دينهم، يلتفون حوله ويستمعون لنصائحه.

في اليوم التالي حمل الفضول أمي إلى السطح لرؤية الرجل وسط فرحة عارمة من أخي وشيخه، فانضمام سيدة مجتمع وزوجة باشا من الباشوات ووزير للمعارف العمومية مكسب عظيم ولا شك، أما أبي ففيما يبدو قد بلغ من العلم

والثقافة والتفقه في أمور دينه ما جعله يرى أن كل ما يقوله الشيخ ليس بجديد، فاختار الجلوس كل صباح بمكان مُشمس يقرأ جريدته لعلها أنفع له، وفي المساء ينام على موسيقى خفيفة منبعثة من جرامافون صغير بقمرته.

انضممت إليهم مضطرًا بإلحاح من شكري وبنظرة خفية من عين أمي، جلست متأففًا، فقد شاهدت هذا العرض الممل أمس في لقاءٍ خاص، لكني لاحظت هذه المرة أن الشيخ غيَّر حديثه الذي قاله لي عندما التقيته منفردًا فانتبهت، ارتدى الأستاذ البنا ثياب التحضر والبساطة، استقرت الابتسامة الهادئة على ملامحه، لم يتناول أمور الدين واكتفى بأحوال الدنيا، تحدث عن الموسيقى والفن وأعمال الخير والبر، امتدح الأمرين على قدم المساواة، لم يستغرق الأمر منه سوى دقيقة واحدة، تفرس خلالها في وجوه مَن يجلسون أمامه، هوانم القوم، كبار السن والمقام من صحبة أمي، ليُدرك بسهولة أن هذا الجمع الذي يستمع إليه ليس مَن اعتاد عليه، وعلى الفور غيَّر دفته لتلائم رياحهم فيلحق بهم، بل ويسبقهم كما خُيل لي.

بعد اللقاء تعمَّدت أمي مصافحة الشيخ مبتسمة، سألتها عن رأيها فيه بعد ما لاحظت تردد يد الشيخ في مصافحتها،

وارتباكه الذي داراه بالنظر إلى آخرين، ربما ليلهيهم عن مصافحته للنساء فلا يقلدونه، أو يمسكونها عليه إذا ما غيَّر رأيه، لم تُجبني أمي واكتفت بابتسامة أعرفها جيدًا عندما يسألها سائل عن المعلوم بالضرورة، لكن مع إلحاحي شرحت باقتضاب ما معناه أن ما وراء الشيخ يفوق ما يدعو إليه، وأن تلك غاية خبيثة لا تبررها هذه الوسيلة الحميدة. ذكرتني كلماتها بجدي بركات فدعوت له.

***

يمتد البحر بطول بصري، وتتسيد صورة أمينة مخيلتي كعادتي، ضايقني انجذابها للشيخ وانبهارها به عندما التقته على سطح السفينة، ومع ذلك لم أفاتحها في شيء. منذ زواجها من شكري أتعمد تفادي مجرد النظر لعينيها، لم أستطع حضور حفل زفافها إلى شقيقي، ولا أريد رؤية كابوسي أمامي كل يوم بعد سرقة أحلامي، لا يمكنني لوم أخي، حتى أمينة غير مذنبة، القدر هو الذي اختلس أمنياتي كلها، وأعطاني بدلًا منها واقعًا خشنًا مملًّا، حياتي باتت خالية من المشاعر وكأنني أنفقتها كلها على أمينة حتى أعلنت إفلاسي من الأحاسيس، أحببتها بكل وجداني وأكثر ما أوجعني هو شعوري قبل خطبتها لشكري بأسابيع قليلة بأنني

كنت الأقرب لقلبها، ومن غفلتي لم أكن أدري أن أخي سبقني. انطويت على نفسي بعدها، ولم أعُد راغبًا في أي فتاةٍ أخرى، وكلما رشحت أمي أو جدتي أنيسة واحدة للزواج قارنتها بأمينة، حتى تعب عقلي من بعد قلبي.. لم تُخلق امرأة على وجه الأرض تُشبه روحها، لكن ربما هناك مثلها في السماء.

عُدنا بعد مراسم الحج إلى القاهرة، وعاد الشيخ ببطانة أكبر وأوسع ممَّا سافر بها، الحق أنه لم يكن فيه ما يجذب الناس أكثر من سحر تركز في عينيه، وقدرة على الخطابة والاسترسال بلا توقف من كتاب الله وحديث نبيه، مع ابتسامة لا تغيب، ومظهر متواضع في الهيئة والملبس، أدوات وعدة بسيطة، لكنها أتت بنتائج غير متوقعة ربما للأستاذ البنا نفسه، وفي ظني أن رحلة الحج تلك كانت نقطة تحول في مسار البنا وجماعته، زادت أعداد المنضمين بعد العودة كما تفاخر شكري، لكني في الحقيقة لم أكن في حاجة لأن يخبرني أحد بعد ما رأيت بعيني انبهار الكثيرين، يكفي أن أمر بميدان الحلمية يوم الثلاثاء وقد فرغ الناس من صلاة المغرب، لأرى الميدان والشوارع المحيطة به وكأننا على مشارف قيام الساعة وتلك علاماتها، لكن بغير فزع ولا ذهول، حشود يضيق بها الميدان والطرق المؤدية إليه، تفحصت وجوه الناس، فبدا لي أنني أعرفهم بسيماهم

من شدة حرصهم على متابعة لقاء الثلاثاء بمقر المركز العام لجماعة الإخوان، رأيت قلة جالسة بحكم أعمارها، وكثرة واقفة لا تشكو مللًا أو تعبًا مهما طال اللقاء، رأيت خليطًا من شيوخ أجلاء وقضاة أعرفهم وأساتذة جامعات وقفت لهم يومًا احترامًا وتوقيرًا، رأيت مهندسين وأطباء وأدباء وضباطًا وحرفيين ومهنيين وربما أميين، مصر كلها هنا كما خُيل لي. تذهلني قدرة البنا على جذب الطوائف المتنوعة، ربما لم يكن في باله أن مصر ستأتي إليه بقدميها فذهب إليها في كل الأماكن التي تتواجد فيها، حتى السفينة ركبها معنا لبيت الله الحرام، فأقنع مَن على متنها أجمعين، إلا مَن رحم ربي.

مرت الشهور وتبدلت الأحوال، دخل على الجماعة فيما يبدو دخلاء، ومع كثرة القضايا وتعدُّد البلاغات لم يعُد الأمر فيما يبدو أمر جمعية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعمل الصالحات. ترسخت أركان المركز العام وغطت فروع له أغلب أنحاء المملكة إن لم تكن كلها، وتفرعت أقسام الجماعة وغلبت عليها السرية والكتمان ليستعينوا بها علينا فيما يبدو، وفي ظني، وبعض الظن إثم لا كله، أن هذه الجماعة وراءها تطلعات معلنة وأخرى خافية، وما خفي عادة يكون أعظم، الآن لا شك عندي أن الشيخ البنا قد جال بخاطره في يومٍ

من الأيام إقامة دولة داخل الدولة، وعندما يستكمل أركانها ويتحقق لها التمكين، ستبتلع الأولى بسهولة دون حاجة حتى لرشفة ماء.

استمر عملي بمكتب النائب العمومي روتينيًا، أيام تجر أسابيع لتلضم مع شهور أخريات فيكتمل العام، حتى علمت أن قرارًا صدر بإلحاقي محققًا بنيابة حوادث مصر، بعد عدة انتدابات قصيرة لها كلما حرقت جماعة الإخوان قسمًا للبوليس أو متجرًا لليهود، لا أعرف مَن الذي دعا لي أو عليّ، لكن الدعوة كانت مستجابة، غرقت في تحقيقات القضايا التي أوكلت لي، حتى وقعت أحداث قضية كبرى بعد أسابيع قليلة من تسلمي عملي الجديد، سيارة مكشوفة ممَّا تستخدمها قوات الإنجليز في الصحراء ضُبطت في القاهرة قرب العباسية، على متنها أربعة من جماعة الإخوان المسلمين، تعطلت في الطريق مصادفة لا نتيجة مراقبة أو متابعة فاشتبه رجل بوليس في أمر راكبيها، فضحهم ارتباكهم ونظراتهم المتوجسة القلقة فيما يبدو فضبطهم عندما حاولوا الفرار، فإذا بالسيارة تحوي قنابل وأسلحة وذخيرة، وأوراقًا ومخططات عن تفجيرات مزمعة واسعة المدى، كنز هبط من السماء ليد البوليس، عرفوا كل شيءٍ عن نوايا الجماعة وما تكتمه صدورهم، لكنهم لم يحسنوا

استغلاله وتعاملوا مع الأمر وكأنها قضية عادية، لا أعرف أكان ذلك تعاطفًا أم جهلًا، لا فرق على كل حال فكلاهما مُر، كل خوفي أن يكون هناك احتمال ثالث بالتعمد بعد ما تسللت السياسة للقانون وكادت تفسده.

لاحظت مع القراءة الثانية للقضية أن الثغرات بها واسعة، ولا بد من إعادة سؤال بعض الشهود لسدها، استوقفني وأقلقني أن بعض المنشورات والمخطوطات مكتوبة بخط يد أعرفه فجزعت، خط دقيق منمنم لا أحد غيره يرسم حروفه مثله، انزعجت ممَّا قرأت وعظم قلقي وكبرت مخاوفي. أغلقت باب مكتبي ونحيت أحراز التفجير وأدوات القتل جانبًا وأمسكت بالمستندات، أحكمت قبضة يدي عليها كأنني أخنقها من رقبتها، مسحت بعيني مخطوطًا عنوانه «أسئلة في القانون»، حول كيفية الإجابة عن أسئلة المحققين بعد القبض على الإخوة، وتعليل الصلة بين المقبوض عليه وبقية المتهمين بمعلومات مغلوطة للتضليل، وجدت كراسة تحمل خطه المنمنم عنوانها «قانون التكوين»، عشرات الصفحات عن التنظيم على هيئة خلايا والقيادة ومكتب الإرشاد والأُسر ومسئولي المناطق والشُّعَب والأحياء، وكيفية الترشيح واختيار أفراد التكوين وتدريبهم وتأهيلهم، ومن قبلها اختبار عقيدتهم ومدى إيمانهم بصلاحية الدعوة كمبدأ،

والكفر بالأحزاب السياسية، ونموذج لجلسة روحية مع مرشح للانضمام إلى الجماعة مارسها شكري بنفسه، وأعطى درجات لمَن رُشِّح على مدى كتمانه وطاعته وقدرته على الصمت والاستماع وتنفيذ التكليفات. تفنن شكري في تشريع لائحة داخلية ووضع عقوباتها، كأنه لا يزال بالعزبة عندما كنَّا صغارًا، عقوبات بدنية ومعنوية، تتدرج من زيادة أيام الصيام، ومضاعفة طوابير التدريب بجبل المقطم، والسير على الأقدام لمسافات طويلة في الحر.

رحت أقلب لأكثر من ثلاث ساعات في كوم هائل من الورق، أنتقي ما أجده بالخط ذاته، حتى انتبهت إلى تقرير عن الاستعانة بالإذاعة السرية بواسطة محطة إرسال خاصة، وبيان بمصاريف تشغيلها، مدون بنهايته ترشيح لمَن يُدعى فايز حبشي، وبجوارها بخط أصغر كلمة «قبطي»، وتحتها خطان. أعدت الأوراق لصندوقها وجلست فوقه، لا صفحة فيها ولا حتى سطر وحيد عن الإنجليز ومقاومتهم، فقط عبارات إنشائية تعتمد السجع عن وحدة مصر والسودان، وخيانة النظام لقضية فلسطين، فكرت لوهلة أن أخفي الأوراق التي بخط أخي من أحراز القضية لأحميه، لكني عدلت عن فكرتي، أعرف أن استكتاب المتهمين إجراء حتمي لمضاهاة خطوطهم مع ما ضبطناه، لكن شكري لن يكون

من بينهم، ولن يعترف عليه إخوانه كما لقنهم في دروسه، وسأبقى وحدي شيطانًا أخرس.

بعد ما مزقتني الحيرة توصلت إلى حل يُسكت ضميري، أخبرت العسكري الواقف بباب مكتبي بأنني سوف أمدد جسدي لنصف الساعة على الأريكة، وطلبت منه عدم إزعاجي لأي سببٍ كان، أغلقت الباب بالمفتاح وأخرجت كاميرا أحتفظ بها في مكتبي لزوم تصوير الجثث ومسرح الجريمة أثناء المعاينات، بدأت في تصوير المستندات التي بخط يد شكري وقطرات عرقي تسبق لهاثي وتستقر على سطح الصورة، فأمسحها بيدٍ مرتعشةٍ حتى انتهيت. تمددت على الأريكة ألتقط أنفاسي وقررت إجراء اتصال بصديقي الصاغ خالد محيي الدين الذي تعرفت عليه منذ عام بجمعية حدتو بعد ما انتظمت في اجتماعاتها لفترة، اتفقت معه على أن يمر ببيتي في المساء ولم أخبره بتفصيلات، نويت تسليمه الفيلم كي يحمضه بمعرفته ويتصرف، أو على الأقل يعرف الحقيقة فيحمل عني بعض أوزارها. وضعت السماعة وتنهدت بعمق، وبينما أنا سارح أمام أوراقي سمعت طرقات قلقة على بابي، ما إن أدرت المفتاح حتى اقتحم غرفتي حارسٌ من حراس المبنى، صرخ في وجهي لأغادر المكان فورًا فاتبعته بغير تفكير، وبينما نهرول على الدرج الجانبي

أخبرني وهو يلهث بأن الموظفين اشتبهوا في أمر شاب يحمل حقيبة أراد تركها في حجرة من حجرات المحققين بحجة أنها خاصة به، فلمّا أصروا على منعه حاول الهرب، كادوا أن يلحقوا به قرب الدرج الرئيسي لكنه أفلت منهم. سارعت بالمغادرة وابتعدت بسيارتي عدة أمتار، وقبل أن أنحرف يسارًا من ميدان السيدة زينب سمعت صوت انفجار هائل، التفتُّ لأجد سحابة من الدخان تظلل سراي النيابة كله، لا يكاد يظهر من بينها سوى بعض أعمدته البيضاء. نجح الشاب في تفجير القنبلة التي كانت بالحقيبة، بعد ما ألقاها على بائع متجول اعتاد الوقوف أمام بوابة النيابة الرئيسية مباشرة، فانفجرت بمحتواها ولقي البائع مصرعه، بعد ما قدم حياته قربانًا لنا، امتد الحريق للمبنى ونال من بعض حجراته وقاعاته ومن بينها حجرتي وأدلة إدانة شكري بما فيها كاميرتي.

***

تمددت على سريري كجثة هامدة، رأيت الموت أمام عيني منذ ساعات ومن وقتها لا يفارقني الخوف، أشعر بأن عزرائيل يحوم بالقرب مني، يبحث عني. سمعت طرقات على باب غرفة نومي فانتفضت، اقتحم شكري الغرفة بغير

استئذان، وجلس على حافة فراشي قائلًا بابتسامة لزجة:

- أنا قلبت الدنيا علشان أطمن عليك بعد ما وصلتني أخبار القنبلة، الحمد لله إنك بخير، ها طمني بقى أخبار القضية إيه يا سعادة البيك؟

نظرت له في ضيقٍ ولم أُجبه، أعلم أن مصادره نضبت من المعلومات بعد ما استبعدت رمضان سكرتيري من التحقيقات، وبالطبع شكري وإخوانه سيقتلهم القلق والفضول من أجل كلمة واحدة، تعطيهم قُبلة حياة للوقوف على اتجاه دفة التحقيق وأقوال المتهم بتفجير مبنى النيابة بعد ضبطه.

تمنيت للحظة لو كنت قاضيًا لأحكم على أخي بالأشغال الشاقة المؤبدة، يستحقها على مجمل أعماله. أطلت النظر إليه، لم يعُد شكري الذي أعرفه، صار مسخًا، هجينًا من شيخٍ مدعٍ وسياسي فاشل وضابط نازي، تنامت شكوكي في تورطه حد الانغماس في كل صغيرة وكبيرة ترتكبها جماعته، ثم غمغمت «شكري تاج الدين سابقًا»، لكني لم أُسمع أحدًا.

***

«محلات ميزون توماس تُعلن عن تخفيضات كبيرة بمناسبة العام الميلادي الجديد 1945، وتهنئ جموع الشعب المصري بهذا الحدث السعيد،

وتعلن استعدادها لتوريد الأجبان والمارتديلا وجميع أصناف

اللحوم الباردة والمعجنات بأنواعها فضلًا عن مشروبات النبيذ المعتق والزبيب اللذيذ والعرَق الأصلي من الباب للباب بدون أية إضافات

نقدية على فاتورة الشراء»

أمينة سعادة - 4

بعد عودتنا من الحجاز انتقلنا لشقة فسيحة في منطقة هادئة بحي الدقي، تطل على حديقة كبيرة كأنها فيلا صغيرة، تظلل شرفتنا شجرة كافور وافرة، على مسافة قريبة منّا طريق عمومي ومن بعده غيطان ممتدة أخاف أن أسير بجوارها بعد المغرب، نقلت بعض عفشي واشتريت بقية الأثاث على ذوقي بعد ما فوضني شكري في الاختيار.

لدينا غرف تتسع لنصف دستة من الأطفال كما يتمنى شكري، فاجأني بحصوله على إجازة لمدة أسبوع لمساعدتي في ترتيب ملابسنا وعفشنا، طلب مني أن أحصل على إجازة من كل شيء، سيُعد طعام الإفطار ويساعدني في الغداء، ونخرج لتناول العشاء في الخارج كل يوم، سيعتني بالأطفال طوال الإجازة، ولن يتركني حتى أنقل مقعدًا من مكانٍ لآخر. بعد يومين شعرت بأنني أركض في أرض واسعة وحدي فخرجت مني صيحة تمرد رغمًا عني:

- لزومها إيه الشقة الكبيرة دي يا شكري؟ ما كنّا كويسين في جاردن سيتي ولو..

قاطعني بقُبلة طويلة، حدثني عن الخصوصية التي لا

يجدها في بيت تاج الدين ولا يريدها بسراي سعادة. صدقته وهونت على نفسي، على الأقل هنا لن ألتقي كل صباح بنينة أنيسة على الإفطار، أشعر طوال الوقت بأنها لا تحبني، وأقرأ في عينيها أنها تمنتني لفهمي، حملتني وحدي تهمة كسر خاطره وتحطيم مشاعره وهي ترميني بسهام نظراتها كل صباح. لثم شكري شفتَي بقُبلةٍ أطول من الأولى وضمَّني لصدره، خبئني بين ذراعيه، يسحرني عندما يخرج من ملابس الضابط ويتحول إلى رجل رقيق رومانسي، لو لم يكن ضابطًا لكان ممثلًا في السينما لا شك، كل صديقاتي يقُلن ذلك، شعره الناعم الكثيف اللامع رغم أنه لا يستعمل الفازلين إلا نادرًا، خصره الرشيق، صدره العريض، ملامحه الحادة، شاربه الرفيع المجدول، ولو أنه هذَّبه قليلًا منذ اقترب من الأستاذ البنا.

احتضنني من الوراء كعادته كأنه يعتصرني على مهلٍ وقال:

- إيه رأيك ندخل السينما الليلة نتفرج على فيلم لفريد الأطرش وسامية جمال؟ بيقولوا فيه تابلوهات وأغاني جديدة.

شكري ضابط البوليس غير شكري عضو هيئة الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين، ربما الاثنان صارمان لا يبتسمان،

لكن الأول أكثر وداعة من الثاني، والاثنان لا صلة لهما على الإطلاق بشكري حبيبي، لا أعرف كيف يخرج من شخصية ليدخل في الأخرى كأنه يبدل ملابسه كما تتندر عليه أمي. ابتسمت وطردت أفكارها من رأسي، لا أريد شيئًا يشغلني عن تلك اللحظة، ارتديت فستانًا أسود يحبه شكري، وطوال الفيلم كنت أضع رأسي على كتفه، أحرك أصابعي على ساقه مع أنغام موسيقى أغاني فريد ورقصات سامية، ويده فوق كتفي.

بعد السينما ذهبنا لتناول العشاء بمطعم خريستو قرب الأهرام، حكيت له ما قالته أمي ونائلة عن مخاوفهما من الجماعة وانخراطي في الدروس والعمل مع الحاجة لبيبة، ابتسم وهو يخلي سمكته من عظامها الرقيقة مثل طبيب يُجري جراحة دقيقة، وقال متجاهلًا سيرة أمي:

- أنا رأيي تاخدي نائلة معاكي للدروس، خليها تشوف الست لبيبة، يمكن ربنا يهديها وتبقى معنا يا أمينة.

وضع فصًّا من لحم السمكة في فمي وهو لا يزال على ابتسامته مردفًا:

- الناس فاهمة إن جماعة الإخوان كلها رجّالة وإن أغلب الأعضاء ناس بسيطة، يمكن الكلام بعضه صحيح وعلشان

كده لازم نضم لنا ناس من وسطنا، ناس شبهنا يا أمينة، وعندنا حجة قوية إن الستات لازم تعرف دينها كويس، كمان الإنجليز مش حيعرفوا قوتنا غير لمَّا عددنا يزيد، أنا فاهم مخاوف نائلة واللي زيها، لكن إقناعهم محتاج مننا شوية تعب. الموضوع يستحق زي ما فضيلة المرشد قال لك.

سكت شكري وبرقت عيناه، تذكرت لقائي بالأستاذ حسن البنا فوق سطح السفينة، لا أنكر إعجابي بحديثه وهدوئه وابتسامته اللطيفة ونصيحته لي بتلاوة أذكار الصباح والمساء كي تتوقف كوابيسي، لكن من داخلي شعور بأنه لولا شكري ما أُعجبت به، ولا شعرت بأدنى اهتمام بالرجل وجماعته، حتى كوابيسي بقيت على حالها ولم تخجل من نصيحة الشيخ.

انتابني خوف أن ينقلب حال شكري، ويثور بركانه إذا ما قرأ أفكاري، لكنه ابتسم قائلًا:

- أنا جات لي فكرة.

قالها وانشغل بالتهام سمكته حتى تركها عظامًا صغيرة ولم يقُل فكرته، طوال طريق العودة ظل شاردًا، قرب الفجر استيقظت قلقة فلم أجده بجواري، خرجت أبحث عنه حتى وجدته بغرفة مكتبه وأمامه أوراق كثيرة يكتب فيها الفكرة،

طلب مني الجلوس وقرأها على مسامعي، اكتشفت أن لا دور لي فيها مع أنني ملهمته، قرر تنظيم دروس دينية يتم إلقاؤها لجذب مزيد من السيدات، مع التركيز على الطبقة الأرستقراطية لتبسيط مفهوم الدين لهن فينجذبن للجماعة أو التعاطف معها على أضعف الإيمان، وضع عناوين رئيسية وفرعية ومقترحات لمكان الاجتماعات ووسائل الترويج والجذب، وفي النهاية كتب بخط كبير اسم الحاجة لبيبة، وتجاهلني.

تكبرني الحاجة لبيبة بنحو ثلاثين عامًا أو يزيد، لكنها تحمل روحَ شابةٍ جميلةٍ وشخصيةً آسرة، مناضلة سياسية وزوجة لباشا كان قاضيًا مثلما أخبرني شكري. كانت تجلس معي بالساعات بعد كل درس كي أفهم ما خفي عني، وتزورني في بيتي لتسأل عن أحوالي. في مرة تشجعت وطلبت أن أعاونها في مهام فرقة الأخوات، لكنها اعتذرت بلطف حتى تتلقى موافقة من شكري. ما زلت أتذكر كلماتها يوم أن اصطحبني شكري للقائها، بعد ما اختارها الأستاذ حسن البنا لتولي الإشراف على قسم الأخوات المسلمات، يومها ألقت السيدة لبيبة كلمة ما زلت أحفظها، بعد ما دونها شكري في ورقة بخطه المنمنم ووضعها أسفل بنورة الكومودينو بجوار سريري، صرت أقرأها كلما شعرت بفتورٍ أو

ملل. قالت الحاجة لبيبة في كلمتها المحفوظة:

«أخواتي وبناتي.. أحييكن بتحية الإسلام، فالسلام عليكن ورحمة الله وبركاته، كم أنا سعيدة بقبول هذه الدعوة من حضرة المرشد العام للإخوان المسلمين للتشرف بخدمة مبادئكن والتقدم لرياسة فرقكن. يا أخواتي إن الأمة في تدهور خلقي، وخلل اجتماعي، ظهرت أعراضه في المنزل وفي الشارع، ودوام هذا الحال يؤدي بنا إلى أحط النتائج، وأساس إصلاح الأمة إصلاح الأسرة، وأول لبنة في إصلاح الأسرة إصلاح الفتاة؛ لأن المرأة التي تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسارها، وإن على الفتاة المسلمة أن تفهم قداسة مهمتها، نحن نريد أن ندعو كل فتاة لتنضم إلينا كي نصلح أنفسنا، وأعتقد أن في تعاليم الإسلام وأحكامه ما يكفل لنا الإصلاح المنشود.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

تلوت كلماتها بصوتٍ عالٍ، وخلالها لم أنظر للورقة إلا مرتين، لعل شكري يدرك أنني صرت أحفظها ويشركني مع فرقة الأخوات بدلًا من ملل الدروس، ما إن انتهيت حتى صفق لي وابتسم وتركني وانصرف، كأنني طفلة صغيرة أُعجب أستاذها بحفظها لدروسها. مع مرور الأسابيع اكتشفت أن شقة الدقي ما هي سوى مكان فسيح لاجتماعات شكري

مع إخوانه، وأن الخصوصية التي يبحث عنها لم تكن لأجلي، وربما لم أكن في الحسبان من الأصل، لُذت بمرسمي غاضبة باكية، أمسكت بالفرشاة ورسمت خطوطًا عديدة متشابكة، بدت ككرة خيط سوداء ضخمة، ومن بين فتحاتها الصغيرة وجدت عيونًا تشكلت وامتدت خيوط دموعها بطول اللوحة. وقفت أمامها ساهمة، وتركتها تبكي على حالي لعلها تواسيني.

***

«وقد ذكر سلفاتور كيكريل رئيس الطائفة اليهودية بالقاهرة أن التفجير الذي وقع صباح أول أمس العشرين من يونيو **1948** استهدف أبناء الطائفة

المقيمين بحارة اليهود عن طريق زرع قنابل بمداخل البيوت

ممَّا نجم عنه قتل سبعين يهوديًّا وجرح أكثر من مئتين آخرين،

ولا يزال الفاعل مجهولًا»

فايز حبشي - 3

سافرت لمديريات عديدة، قمت بالتشويش على تردد الراديو المصري للإعلان عن موعد لقاءات الأستاذ البنا، حشدت الآلاف كل مرة، درَّبت عشرات من شباب الإخوان على استعمال محطة الإذاعة بفيلا حلوان على مدار شهرين، لكنهم لم يفلحوا في تشغيلها بمفردهم، مع أني أخلصت في تدريبهم، ثم أفرجوا عني ونقلوا محطتي إلى السيدة زينب بشقة الصليبة، راحوا يبثون منها على فترات، ثم صادروها بعد ما استعانوا بمهندس شاب، لكنه لم ينجح إلا في البث بالموجات الطويلة، أعادوا الضغط عليَّ كي أعود للإقامة بشقة الصليبة وتشغيل الإذاعة منها، ولمَّا رفضت لم يسمحوا لي باستخدام محطتي في إعلاناتي التجارية، ولم أحصل منهم على بقية مستحقاتي عن فترة خدمتي السابقة. وعندما طالبت بحقي اشترطوا إذاعة منشورات محددة لأحصل على دفعة أولية من حقوقي.

«كل قرش تدفعه لمحل يهودي يتحول إلى رصاصة تستقر في صدر أخيك المسلم».

قرأت المنشور مرة ثانية وزفرت في ضيق، هذا خامس تكليف مطبوع يرد لي من الجماعة، قلبت الورقة أكثر من

مرة، كورتها وألقيتها في أقرب سلة قمامة، لا أريد إذاعة بيانات مصبوغة بصبغة دينية، رفضت طلباتهم وأبلغتهم بقراري وضميري مستريح، خدمت الجماعة بأكثر ممَّا تستحق وحصلت منهم على أقل ممَّا توقعت، ولم أعُد أريد الاستمرار.

تولدت عندي قناعة بحتمية دخولي الجنة جزاءً لتحملي ابتساماتهم اللزجة، الآن أفقت من هواجسي وصار لديَّ يقين أنني أنزلق لهاوية، وإذا ما سقطت فيها لن تمتد الأيادي التي تصفق للمرشد كي تنتشلني، وربما تهيل التراب فوق رأسي لأختفي. ذهبت إلى فرع البنك الإيطالي وسحبت مدخراتي، اشتريت محطة قديمة متهالكة من أحد الهواة بالإسكندرية، كان يستخدمها في الإعلان عن بيع الجوارب الصوفية على المصطافين بالشواطئ حتى أفلس، فهمت من الإعلان الذي نشره أن الأجزاء المعروضة للبيع تشكل محطة راديو صغيرة بموجة طويلة، لا بأس ستفي بالغرض في الموسكي وشبرا، غُدت لعملي لكن زبائني تراجعوا يومًا بعد يوم حتى اكتملت ثلاثة أشهر بلا عمل، كأن هناك مَن يحرضهم على عدم التعامل معي. ظهرت إذاعات أخرى تعمل في الخفاء وخدماتها أعلى مني سعرًا، فانتابني إحساس بالضيق لم يخرجني منه إلا جاري الشيخ مصطفى صاحب الصوت

العذب في الأذان كل يوم، وهو ينادي عليَّ:

- النهارده المولد يا حبشي، تعالى غيَّر جو واشرب لك كوباية سوبيا تطرِّي على قلبك.. بكرة تُفرج.

ضحك الشيخ مصطفى حتى بانت أسنانه المتفرقة الضخمة فذكرتني بفرس النهر، ثم أردف ليُغريني:

- وكمان في أراجوز، أنا واخد العيال وحسبقك على هناك.. يلا اتلحلح بلاش كسل.

اتخذت مكاني بالصف الأول بجوار الشيخ مصطفى، لم يمتلئ السرادق بعد، نصب الأراجوز القائمين الخشبيين وأحاطهما بقماشة مزركشة واختبأ وراءها، راح يُغير من طبقات صوته بعد ما أخفى كفه داخل عروسة خشب ترتدي بدلة عسكرية، والكف الأخرى وضعها في أخرى مماثلة على هيئة رجل بقميص وبنطلون وفوق رأسه طربوش. بدت الأولى أقرب في هيئتها لعساكر الإنجليز لكنها تتحدث بالعامية، حرص الأراجوز على قلب الحاء إلى خاء، وفي كل مشاهدها ظهرت العروسة البريطانية ممسكة بعصا طويلة، وكلما فند الأفندي حُججها الفارغة للبقاء في مصر كانت تضربه بالعصا على رأسه، يضحك الأطفال ويعلو التصفيق مع كل ضربة، تزايد الحضور وبدأ الجميع يشجع الأفندي

بحماس حتى صارت له شعبية، هتفوا باسمه بعد ما عرفوا من الأراجوز أنه يُدعى مصري، أما الثانية فأطلقوا عليها اسم الخواجة، علت الشتائم من نهاية الصيوان تلعن «أبو الخواجة» وبلده وسيرته، وظهرت ثالثة على هيئة امرأة، ورابعة ترتدي جلبابًا وطاقية بيضاء، صاح الشيخ مصطفى حينها متعجّبا:

- الأراجوز ابن الأبالسة عنده أربع إيدين.

ضحكت لبساطة الشيخ، كانت العروسة تتدلل وهي تطلب من الأفندي تخليصها من العسكري البريطاني، التهبت الخيمة بالتصفيق والصفير، فجأة صاح رجل ملتحٍ بصوتٍ جهوري:

- المحفظة.. المحفظة.. أنا اتنشلت ياولاد الهِرمة.

توقف العرض، ورأيت أطفالًا تجري وشبابًا ترمح وقلة ثالثة تضرب الناس بالحجارة، أصابت إحداها العروسة الخشبية ذات الطربوش في رأسها، استغل الأراجوز الفرصة واعتبرها فقرة في برنامجه، راح يتأوه ويبادلهم السباب والشتائم ليشتعل المكان بالتصفيق. في وسط هذه الجلبة أمسك بعض الشباب الغريب عن المنطقة برجل كان يحجل في طريقه للهرب عبر فتحة بجانب الصيوان، أوسعوه ضربًا معلنين أنه اللص، فجأة سمعنا صفارة عساكر الدرك. تراجعت للصف

الأخير لأحمي نفسي، اقترب مني شاب، أعرف ملامحه ولا أتذكر اسمه، همس في أذني بأن امرأة مليحة تنتظرني بالدكان منذ ربع الساعة، وعندما لمح ترددي ودهشتي مال أكثر على رأسي وهو يقول:

- شغلانة قطايف محشية لوز، الست شكلها مريِّش وراقدة على قرشين حلوين.. خسارة تطير منك.

عندما وصلت إلى دكاني لمحت سيارة فورد خضراء صغيرة أمام الباب، على مقربة منها وضع أحدهم مقعدًا خشبيًّا، جلست فوقه سيدة ترتدي فستانًا فستقيًّا وقبعة من اللون ذاته، هيئتها تشي بأنها بنت أكابر وباشوات، دعوتها للدخول فتحججت باستعجالها، وأخرجت من حقيبتها كارتًا صغيرًا وخمسين جنيهًا، سلمتهما لي وهي تقول:

- اسمع يا سي حبشي، أنا غاوية طرب ومغنى، وكل أسبوع بيتجمَّع عندي كُبارات البلد علشان ننبسط، وبصراحة الإذاعة موش قد كده في موضوع الأغاني القديمة وذوقهم مش ولا بد، أنا عاوزة حاجة خصوصي يكون فيها طرب أصيل، أغاني لعبد الوهاب وصالح عبد الحي والست منيرة المهدية.

قُلت بحماس وأنا لا أستوعب كل ما يحدث:

- وماله يا ست هانم.. من الليلة نبتدي، وكل ساعة أذيعلك واحدة منهم.

- لأ لأ.. ما تتصرفش من دماغك، أنا حبلغك بالمعاد والأغنية المطلوبة قبلها بالتليفون. أوروفوار.

فتح لها السائق الباب وهو ينحني، بعدها اقترب مني وطلب رقم هاتفي، ودار بالعربة وفي ثوانٍ اختفى، قلبت في الكارت وفي الخمسين جنيهًا التي دفعتها هذه المخبولة من أجل إذاعة أغاني لمنيرة المهدية وصالح عبد الحي الذي ربما لم يعُد أحد يسمعهما هذه الأيام، مططت شفتي ودسست النقود في جيبي وأنا أتمتم «رزق الهبل على المجانين».

قرب السابعة من مساء اليوم التالي اتصلت بي السيدة الفستقية كما أسميتها رغم اسمها الذي يزين الكارت بحروف ذهبية، طلبت أول أغنية، كانت لصالح عبد الحي واسمها «الجو غَيم»، حدَّدت لي موعد إذاعتها لثلاث مرات على مدار نصف الساعة، نفذت ما طلبته بسرور في المواعيد المحددة، بعدها بيومين أعادت الاتصال، هذه المرة طلبت إذاعة أغنية لمحمد عبد الوهاب اسمها «الجو رايق» عشر مرات على مدار اليوم كله، ورغم غرابة الأمر وصعوبة طلبها خشية ضجر بقية عملائي من تكرار أغنية لدرجة الملل، إلا أنني استجبت،

الخمسون جنيها لا تزال تدفئ جيبي، وربما تدفع لي مثلها الشهر القادم إذا ما استمرت على جنونها بالطرب القديم.

في اليوم الثالث سمعت أزيزًا قريبًا وأنا جالس بالدكان، خرجت لأستطلع الأمر مع أطفال المنطقة الذين كانوا يهللون، لمحت طائرة من طائرات الإنجليز تخط وراءها دخانًا أسود مستقيمًا، يقولون إنها ترش الجو لتطهير الهواء من وباء الكوليرا، والبعض يؤكد أن الحدأة لا ترمي كتاكيت وأن الإنجليز ينشرون الوباء بطائراتهم، قبل أن ينزوي خط الدخان وجدت أمامي عربة بوليس مكشوفة هبط منها أربعة رجال أشبه بعمالقة، حملوني كدُمية وأركبوني معهم عنوة، أوسعوني ضربًا وركلًا، حاولت حماية رأسي فنال بطني كل الضربات حتى سال الدم من فمي.

بعد المغرب بقليل استدعاني ضابط المباحث، كان جالسًا بغرفة شبه مظلمة والإضاءة مسلطة على وجهي فلا أراه بوضوح، سألني عن صلتي بالسيدة الفستقية، أخبرته بما دار بيننا، ضحك ضحكة مَن لا يصدق الكلام، وطلب تراخيص إذاعتي، تمتمت بأنني لا أحمل ترخيصًا، ثم تشجعت وطلبت لقاء الصاغ شكري، لم تظهر على الضابط أية بادرة لمساعٍ حميدة في تلبية طلبي، وقال ببرودٍ وهو يقلب أوراقًا أمامه

كمَن لم يسمع شيئًا:

- الست اللي اتعاملت معاها وأخدت منها خمسين جنيه بتشتغل في تجارة الحشيش، وكل أغنية ليها دلالة عند صبيانها علشان يطلعوا البضاعة من المخزن أو يخفوها بعيد عن البوليس، وإنت بالإذاعة بتاعتك اللي ملهاش ترخيص شريك معاها، ودي تهمة فيها تأبيدة يا أخ حبشي.

أكمل الضابط حديثه ببرود:

- أنا مضطر أحولك على النيابة.

قالها وأطفأ النور وتركني، بدا مثل قاضٍ متعجلٍ نطق حكم الإعدام ورفع الجلسة، لا كلمات تُقال ولن يسمعني أحد حتى إذا صرخت.

***

«أمك فين يا فاروق؟» كنت أسمع الهتاف مدويًا بوضوح عبر نافذة الغرفة المظلمة التي تركوني فيها وحدي، وتبولت فيها على نفسي من شدة حصرتي وارتباكي وطول فترة حبسي بعد ربطي بمقعدي، سمعت عشرات الأشخاص يهتفون ضد الملك ويعايرونه بأمه الملكة نازلي التي هربت من مصر مع أميرة من بناتها، فجأة هبطت كف على كتفي

فارتجفت، علت ضحكات الضابط الخارج من وسط العتمة، لم يكن الصوت غريبًا عني، وجدتني أُردّد اسمه بصوتٍ عالٍ:

- سعادة اليوزباشي شكري؟

أضاء مصباح الغرفة وتنهد وهو يستعدل جسمه في جلسته قائلًا:

- بكباشي شكري يا أخ حبشي، ما تنساش تذيع خبر الترقية لو ربنا كرمك وخرجت من هنا بعد عمرٍ طويل.

أشار ناحية النافذة المواربة ووضع يده على أذنه قائلًا بابتسامة خبيثة:

- سامع الهتاف يا سي حبشي؟

أومأت وكدت أبكي، خرجت كلماتي متحشرجة وأنا أقسم بكل الأيمانات إنني لا أعرف السيدة الفستقية، الأمر كله مكيدة ولا علم لي بنشاطها في الحشيش، أما الإذاعة فتراخيصها مؤجلة بقرار منه شخصيًا، لكن قبل أن أُذكِّره بوعوده هو والأستاذ البنا قاطعني قائلًا:

- من غير ما تحلف أنا مصدقك، أنا قُلت لهم حبشي عمره ما يتاجر في الحشيش، لكن للأسف العدالة عَميا، والقانون ما يعرفش غير اللي مكتوب في الورق، مالوش دعوة بالنوايا

وإلا كانوا قالوا للحرامي يحلف.

- أبوس إيدك أنا مش حِمل تُهمة زي دي، أنا مظلوم ولو على الخمسين جنيه خدوهم.

أشعل البكباشي شكري سيجارة وتغيرت ملامحه مع دخانها الذي غطى وجهه. تحدث بنبرةٍ آمرةٍ هذه المرة:

- قُصر الكلام أنا ممكن أديلك فرصة، الهتاف اللي إنت سامعه حيتكرر في مظاهرات تانية اليومين الجايين، كل المطلوب منك إنك تذيعه على هامش الموضوع اللي إنت بتقوله في الراديو، خلي الناس تعرف الحقيقة.

- حاضر يا حضرة البكباشي.

- من بكرة الشباب بتوعنا حيسلموك تكليفات جديدة تنفذها بالحرف، مش تاخدها وتركنها زي ما عملت.

خرجت مني الكلمات هذه المرة بصعوبة:

- حاضر، حقك عليّا وأنا غلطان.

أطفأ شكري سيجارته ببطءٍ وهو يُملي بقية شروطه:

- الشُّغل من شقة الصليبة، وبالإذاعة بتاعتك، وعلى موجة قصيرة، موش من المحطة اللي اشتريتها من إسكندرية

وأخدت فيها مقلب يا كروديا.

هذه المرة اكتفيت بهز رأسي عدة مرات ليسكت ويطمئن، ثم أردفت :

- والمحضر بتاعي يتقفل على كده.. صح؟

- لأ طبعًا، إنت فاكرها سايبة، المحضر مفتوح لغاية ما تثبت حُسن النية وبعدها نقرر، ومين عارف يمكن لمَّا تعقل ونتأكد من حُسن السير والسلوك يكون ده سبب خلاصك.

أفلتت منه ضحكة غريبة وهو يغادر الغرفة قائلًا:

- وبعدين مش عيب عليك يا راجل في السن دي تروح المولد وتصقف للأراجوز أبو طربوش وتسب وتلعن في الراجل أبو جلابية، هو إنت من بتوع يحيا الوفد ولو فيها رفد ولا إيه؟

ضاقت الدنيا لساعات، ثم أفرجوا عني بلا ضمان ولا تحقيق، خرجت من القسم وبداخلي شعور بالانهزام والدونية، حتى الخمسين جنيهًا استردوها مني، يا ليتني ما ذكرتهم بها! خالجني إحساس بأنني مثل مجذوبٍ عارٍ من الثياب في زحام مولد السيدة، الكل يزدريه ويلقمه بالحجارة والشتائم وهو لا يرد، فقط يكتفي بالندم وهذا أضعف

الإيمان.

أثناء إنهاء إجراءات الإفراج عني لمحت في عين ضابط مباحث شاب نظرة تشي بالود والتعاطف، بدا كأنه يريد قول شيءٍ ما، فتباطأت أمامه لكنه اكتفى بابتسامة مطمئنة.

وقفت أمام باب القسم بعد ما شعرت بأن الطرق تشابهت عليّ، وفي غمرة ذهولي وانكساري لمحت السيارة الفورد الخضراء واقفة على مقربة، وشاهدت السيدة الفستقية تسير مع اثنين من المخبرين في طريقهم للدخول من باب جانبي، هذه المرة كانت ترتدي ملابس سوداء بغير قبعة، لمحتني وابتسمت ببجاحة، لا أعرف لماذا رددت لها الابتسامة ببلاهة، وبعدها ضحكت وعلت ضحكاتي، ربما على خيبتي وغفلتي، ظللت أضحك بصوتٍ عالٍ حتى لفتُّ الأنظار نحوي فظنني البعض مخبولًا، شعرت بأنني فقدت بعض عقلي مؤقتًا، لكني لا أريد أن أفقد كرامتي.

تلفت وتأكدت أن لا أحد من المخبرين يسير خلفي، أشرت لتاكسي ظهر أمامي، وما إن استقريت بداخله حتى قُلت:

- اطلع على محكمة باب الخلق يا أسطى.

أعدت رأسي للوراء وتنهدت في رضا بعد ما اتخذت قراري

الذي ترددت فيه طويلًا.

***

«ولقد اشترك الراديو المصري في تتبع الرحلة الملكية بصعيد مصر لإرساء حجر الأساس وافتتاح المؤسسات والمنشآت العمرانية التي توجها

اسم فاروق، حفظه الله، وفي طليعتها مؤسسة توليد الكهرباء من خزان أسوان، وهو عمل مبارك سيظل مقرونًا باسم عاهل مصر العظيم

الذي حيَّته جموع الشعب طوال طريق الموكب الملكي، ونجحنا

في نقل فرحة الجماهير بطلعته الوضاءة، وشعور الولاء الذي

تدفق حول ركب صاحب الجلالة المفدى»

5 - أمينة سعادة

كل بضعة أسابيع تنتابني ساعات ملل قاتلة تخنقني، أُعلن عنها بوضوح لأتنفس بالكاد، لكن شكري يتجاهل رغبتي في العمل بجماعة الإخوان، أريد أن أكون قريبة منه، ولا أفهم سر تردده في مشاركتي، ولا أرى سببًا لإصراره على إبعادي، كلما اقترح ذلك أحد الإخوة الذين باتوا يزورون بيتنا بانتظامٍ بعد المغرب، ولم يتبقَّ سوى أن يقضوا الليلة معنا، لدهشتي استجاب شكري هذه المرة بابتسامة، كأنه ترك طعامًا ينضج على نار هادئة، ولمّا اطمأن لدرجة تسويته بدأ في تجهيزه كي يلتهمه على مهل.

موافقة شكري كانت مفتاح دخولي لفرقة الأخوات بجماعة الإخوان المسلمين مع السيدة لبيبة، كنت مثل طفلة وجدت سلوتها مع عرائسها، مهمتي تجميع النساء ليحضرن اللقاءات والندوات. الطابع الديني يغلب على الاجتماعات، وأغلب الكلام غير مفهوم بالنسبة لي، كله نواهٍ ومحرمات وكأنني كنت كافرة أو ما زلت، رغم ما يؤكده فهمي في كل مرة ألتقيه فيها وأسأله عن رأيه، فيخبرني أن نواهي الدين لا تزيد على خمسة بالمائة، والبقية أخلاق ومعاملات، أقتنع بكلامه وأجده سهلًا، أذهب به لشكري، يبتسم ولا يُعلق، وبعد

فترة سكوت طويلة يقول عبارة تستفزني في كل مرة:

- لو مش منسجمة مع الأخوات خليكي في البيت يا أمينة.. لا يُكلف الله نفسًا إلا وسعها.

قبلت التحدي مع شكري الذي يراهن على ضعف قدرتي في الاستمرارية وتحمل الدروس، رغم أنها ثقيلة على نفسي ولا أفهم معظمها، وأعتقد أن كثيرات من الأخوات يشعرن بمثل شعوري. كان الحضور ضعيفًا والأسئلة غائبة، الرغبة في الحديث عن الطعام غالبة، وحكايات الجيران والنميمة حاضرة، لكني قررت أن أُسلي وقتي مهما كان حجم الملل، بعد شهرين من الدروس كُلفت بأن أكون مندوبة اتصال، أتولى إبلاغ الأخوات تليفونيًا بالموعد المحدد لكل درس لأحفزهن على الحضور، حاولت قدر استطاعتي تبسيط ما تلقنني به السيدة لبيبة من عناوين جاذبة للنساء كل مرة.. «كيف تسعدين زوجك؟»، و«حب في الله وزواج أبدي»، و«لماذا نطيع أزواجنا؟»

كنت أنطق العبارات بغير اقتناع ولا إحساس، لكن لا أظن أن الأخوات انتبهن لما يدور في صدري. ترقيت بسرعة لكني لم أحصل على درجة وكيلة الفرقة رغم الوعود، اكتفوا بكوني مُنظمة فقط بدلًا من مندوبة اتصال، الحقيقة لم

يكن الفارق كبيرًا، فرأيي لن يؤخذ به حتى لو وصلت لرتبة الوكيلة، ولا يمكنني المشاركة في الانتخابات الداخلية، لا تصويت للمرأة بالجماعة، ولمَّا شكوت مرة لشكري من هذه التفرقة ابتسم قائلًا:

- كفاية إنك بتمشِّي كلامك في البيت من غير ما تشوريني.

قالها وتركني شاردة، لا يعنيني من رجال الأرض سوى شكري، لكن ينقصني معرفته لقدراتي، لست مجرد لوحة جميلة كما يصفني، أريد أن يرى عقلي ويعرف طريقة تفكيري، صحيح أنه لا يعارضني، لكنه لا يكلفني بشيءٍ ولا يهتم بما أفعل، وهو ما يثير أعصابي، فأشكو إليه، لكنه يقابل شكواي بأمرين.. ابتسامة حنون، وهدية مختلفة في كل مرة.

***

- شِدِّي حيلك معانا يا ست أمينة.. عندنا تكليف جديد.

قالتها وكيلة الفرقة وهي تسلمني صورًا فوتوغرافية لفتيات في سن الزواج، جاء التكليف من المرشد بالعمل على تجهيز الأخت الإخوانية لتكون زوجة صالحة للأخ الإخواني، تزعجني تعبيرات الإخوة والأخوات التي يستعملونها، كنت أنادي كل شخص باسمه، حتى السيدة لبيبة أعطيتها لقب

هانم رغمًا عنها، وتقبلته مني على مضض.

حملت الصور العشر التي كُلفت بالبحث عن عرسان لصاحباتها، ذهبت أول ما ذهبت إلى أمي وخالاتي لعلهن يجدن عريسًا مناسبًا ولو لواحدة، لم أطلب أن يكون العريس إخوانيًا كما كلفوني، قلت لنفسي: «عريس والسلام»، مؤكد سيفي بالغرض، فكل واحدة من هؤلاء الفتيات لا تجد عريسًا من الأساس.

- دي عرايس المولد يا أمينة والا إيه؟

سخرت أمي من صور الأخوات فتجرأت خالاتي أكثر، ربما لأنهن لا يحببن جماعة الإخوان، وربما بسبب الطرحة العالية في بعض الصور، أو الإيشارب الذي بدا كحبل مشنقة في أخريات، حتى الصور التي كانت بلا حجاب بدت مُريبة بالنسبة لهن، الابتسامة فيها بلهاء، والعيون شبه ناعسة بصورة مقلقة، ربما بالغت بعض الفتيات في كمية المساحيق التي وُضعت على وجوههن فبدت الوجوه فضية.

بعد أسبوع من اللف والدوران على أقاربي بالصور فشلت في إيجاد عريس لأي صورة، ربما لم أكن مقتنعة بما أفعل، لا أفهم كيف يتزوج رجل عبر صورة، ولا أعرف ما الذي سيجذبه في وجه فتاة فقط، ما الذي سيعرفه عنها من

صورة مقاسها خمسة في ستة سنتيمترات؟ تصورت نفسي رجلًا، لو عُرضت عليّ هذه الصور سأتخيل بقية الجسد مع الوجه، سأحاول استنتاج خفة الظل من الابتسامة، وقوة الشخصية من نظرة العين، قد تخيفني الطرحة العالية، وربما يقلقني الإيشارب الخانق العريض المنسدل على الصدر، سأظن أنه يُخفي عيوبًا في الشعر أو حرقًا بالرقبة، وسأختار في النهاية بناءً على تخيلات واستنتاجات تمنيتها في عروسي، ومن المؤكد أنني لن أجدها بعد الزواج. ذهبت لمربيتي وجنايني بيتنا وسائق والد شكري، ونجحت بعد ثلاثة أسابيع في الوصول لعريس، لكن قوبلت جهودي بلا مبالاة ، اكتفت وكيلة الفرقة بمط شفتيها مؤكدة أنني سأنجح في تزويج الكثيرات لو صدقت نيتي، لم أفهم علاقة النية بالموضوع وأنا لا صلة لي بالعروسين، ولن أحضر حتى فرحهما لو تزوجا، غلبتني الحيرة لأيام فانتهزت فرصة جمعت ثلاثتنا، وألقيت بالموضوع على سُفرة الغداء فلم يسكت لسان فهمي، سخر مني ومن الجماعة كلها وقال مبتسمًا:

- الله يكسفكم.. ده اللي بيشتري بطيخة بيخبط عليها، هو في حد النهارده بيتجوز من صورة؟

قطع شكري حديثنا قائلًا:

- سيبِك من فهمي وكملي البحث لأن في بنات كتير بتتجوز بالطريقة دي، وأغلب الأخوات لقوا عرسان للصور اللي استلموها إلا إنتي، عمومًا لو غلب حمارك رجّعي الصور للوكيلة وأنا حكلمها وأعتذر بالنيابة عنك.

عاد شكري لطريقته في تحطيم مجاديفي، لكن وسط سحب الإحباط التي خيمت على جلستنا ظهر نور أمل، اقترح فهمي أن أُعطي الأخوات دروسًا في اللغة الفرنسية بدلًا من تكليفي بالبحث عن عريس، كدت أقوم وأُقبّل فهمي على فكرته، ولدهشتي تحمس شكري لرأيه، وبعد أيام صدر تكليف من مكتب الإرشاد بالموافقة على دروس تعليم اللغة الفرنسية. اهتمت السيدة لبيبة بالموضوع وخصصت لنا غرفة فسيحة في مقر الجماعة الجديد بشارع الملكة نازلي، بدأنا الدروس ببعض الكتب والجرائد، اخترت لهن بعض مجلات الموضة، بها فساتين بأكمام بعضها طويل وبدلات حريمي بألوان هادئة وصنادل مفتوحة، وأيضًا صور لنساء بقبعات تغطي الرأس، أردت نقل ما أشعر به تجاه جسدي وشكلي، وأن كل امرأة من الممكن أن تكون محتشمة حتى لو لم تكن إخوانية أو حتى مسلمة، كما نصحني فهمي الذي تابع

التجربة معي تليفونيًا كل أسبوع.

لا تفرض لبيبة الحجاب على أحد، لكنها تتحدث عن تجربتها بطريقة توحي بأنه فرض من فروض الدين وكان ينقصها، ممّا دفعني إلى الاستعانة بالمجلات، لكن وكيلة الفرقة حظرت دخول مجلاتي بعد أول درس بحجة عرضها على مكتب الإرشاد أولًا، وبعدها لم أعرف مصيرها، وكلما سألت الوكيلة عنها أجابتني بأن التكليف لم يصل بعد. حتى جاء يوم وأعطتني السيدة لبيبة مائة ورقة مطبوعة بالزنكوغراف، طلبت مني توزيعها على معارفي وصديقاتي وأهلي، قلبتها وبدأت أقرأ فيها، كل ورقة تحوي بضعة سطور، وكل الأوراق متماثلة، تبدأ بعبارة «سيداتي وأخواتي»، وبعدها سطور قليلة قرأت بها:

«يؤلمني أن نمر على المساجد في أيام الجمعة فنجد قسم السيدات خاويًا، بينما في اليوم ذاته تملأ السيدات دور السينما والمسارح التي تُفسد أخلاقنا وتُذهب أموالنا، إذا أردتم الجمع بين الحُسنيين فاهجروا الملاهي وعمروا المساجد، وإذا لم تقدرن فواحدة تكفي، اذكروا ربكم نهار الجمعة وقت الصلاة بالمسجد لعلكم تتقونه في الليل».

لاحظت أن الأوراق بدون توقيع، وقرأت السيدة لبيبة

السؤال في عيني فأجابت بسرعة:

- اكتبي اسمك لو تحبي يا أمينة، اعتبريها دعوة منك لأخت مسلمة يمكن ربنا يكتب لها الهداية على إيدك.

صرَّحت لها بأن المهمة ثقيلة على قلبي، سأكتفي بدروس اللغة الفرنسية التي أفهم فيها، لم أشأ إخبارها بأن معارفي وأهلي لن يتقبلوا صيغة الأمر والتهديد والتلميح بالكفر، وأنهم لا يرون السينما والمسرح فسادًا للأخلاق، كدت أخبرها بأن شكري اصطحبني للسينما منذ أيام، وقبلها كنَّا في الأوبرا، وأننا نستمع للموسيقى والأغاني في البيت كل يوم، لكني أمسكت لساني في آخر لحظة وأعدت الأوراق مصحوبة بابتسامة ومتبوعة باعتذار.

تقبلت لبيبة الأمر، سحبت ورقة وأعطتها لي قائلة بصوتٍ عالٍ لتُسمع بقية الأخوات:

- فلنبدأ بأمينة سعادة، والله المستعان، يمكن ربنا يهديكي.

طويتها ووضعتها بحقيبتي، وعندما أطلعت فهمي عليها قطب جبينه وعقد ما بين حاجبيه وتساءل بصوتٍ عالٍ عن دلالة الجمع بين الحُسنيين ووضعها في غير موضعها، لم أفهم كلامه حتى لمَّا شرحه لي، شعرت بضيق، وقبل دخولي

غرفتي طويت الورقة عدة مرات، وفي أقرب سلة قمامة ألقيتها، لكني لم أشعر بالراحة بعدها.

***

أحضر لي شكري خادمة وسفرجيًا، وبعدها بشهور قليلة صار لدينا طباخ أربعة أيام أسبوعيًا بسبب انشغالي في الدروس مع فرقة الأخوات، كنَّا نغيب عن البيت فترات طويلة بحكم عمله ومهامي الجديدة بالجماعة، لم نعُد نلتقي إلا مساء الخميس ونهار الجمعة، كلفني بنقل نشاطي إلى العزبة بعض الوقت، هناك كنت أعطي دروسًا للفلاحات في اللغة العربية، أُعلمهن الكتابة والقراءة قدر الممكن، عاونتني السيدة لبيبة، وكانت تصطحب معها الأخوات للدروس الفرنسية بالمرة، وتكلف بعضهن بمعاونتي في محو أمية الفلاحات أيضًا. ظللنا نجتمع يومين بالعزبة أسبوعيًا حتى توقفت الدروس عندما أبدى إبراهيم باشا تاج الدين ضيقًا مستترًا منها، تجاوزه شكري مرة بعد مرة، حتى أفصح الباشا عن غضبه في النهاية لكن على استحياء أيضًا، دخل مع شكري في مناقشة طويلة حول جماعة الإخوان، يومها أنهى الباشا نشاطي بالعزبة بكلمة حاسمة عندما أصر شكري على ضرورة انضمام الفلاحين للجماعة، فقاطعه أبوه في غضب

ربما لأول مرة في حياته وهو يُلقي بفوطته على السفرة:

- أنتم مجرد جزء صغير من وطن كبير يا بني، ما ينفعش بلد بحجم مصر يبقى جزء من الجماعة بتاعتكم، عاوز تعمل قيادي ومراتك تدي دروس للفلاحين وتكبر عددكم إعملها في بيتك موش في عزبتي، أرجوك أنا موش عاوز إحراج من دولة الباشا رئيس الوزارة بسبب دروس فارغة.

بعد انصراف الباشا لم يقُل شكري كلمة واحدة، لكنه ابتعد عن أبيه، حتى شعر الرجل بحسرةٍ من تغير ابنه الأقرب بعد أول صدام بينهما، لم أعُد أذهب للعزبة، وكانت المرة الأخيرة عندما اصطحبت معي نائلة صديقتي التي فشلت في ضمها للجماعة، يومها رفضت عرضي ببساطة لأنها تحب الحياة على راحتها، وضحكت مسترسلة:

- مش كفاية جوزي، كمان أروح للست الوكيلة بتاعتك علشان تتحكم فيّا؟ هو أنا ناقصة خوتة يا أمينة؟

استمريت في عملي راضية مقتنعة برسالتي في تعليمهن بمقر الجمعية، تحسن مزاجي، وابتعدت كوابيسي عن رأسي منذ رحلة الحج، واقتنعت بكلمات الأستاذ البنا وكراماته، مضت حياتي روتينية حتى جاء يوم عُدت فيه متأخرة عن موعدي، وضعت المفتاح وأدرته في الباب وقبل أن أرده

ورائي سمعت صوت أمي عاليًا مثل عاصفة الربيع المدفوعة بالرياح الساخنة، وجدتها تجلس مع أطفالي بالصالة، عاتبتني لتأخري وإهمالي لبيتي، اشتكت من المربية والخادمة واتهمتني بأن أولادي سيكونون تربية خدم ويفضحون عائلتَي سعادة وفتح الله التي تنتمي لها. حاولت تهدئتها وشرح ما أفعله من دروس اللغة الفرنسية ومحو الأمية، وأنني أعود لأطفالي في الخامسة بعد عودتهم من المدرسة بساعتين فقط ولا يزال في اليوم بقية، لكنها تصعبت بشفتيها بطريقة غريبة كانت أول مرة أراها منها، وقالت بنبرة استنكار:

- يا خيبتك إنتي وسي شكري بتاعك، تكونيش فاكرة إن البنا بتاعكم ده نبي جديد؟

قبل أن أرد بما حفَّظه لي شكري لمواجهة هذه المواقف التي توقع حدوثها، أردفت أمي بسرعة:

- عشنا وشُفنا.. ما طول عمرنا مسلمين وموحدين بالله من غير جماعة ولا مرشد.

أشارت لي بيدها لأسكت، لا تريد سماع كلمات وأعذار، ختمت كلامها كعادتها بمثل شعبي قائلة:

- اللي بيشيل قربة مخرومة بتخُر فوق راسه، اعملي حسابك إن ولادك أحفادي، وأنا مش حسيبهم يضيعوا.

عبثت بحقيبتها وأخرجت علبة فضية وأشعلت سيجارة في عصبية، طلبت مني إعداد الشاي والكيك بعد ما نظرت في ساعتها ووجدتها تجاوزت الخامسة بكثير. جلست معها في الشرفة نتناول الشاي ونتأمل السماء الصافية والصمت ثالثنا، قالت أمي بعد ما هدأت:

- القمر الليلة شكله غريب.. يمكن علشان مش كامل.

ابتسمت في خبث بعد ما جاءت لي الفرصة كي أرد هجومها، اقتربت منها وهمست أن القمر غير مكتمل لأن شكري لم يحضر بعد.

***

«هنا القاهرة.. أصدر حضرة صاحب المقام الرفيع دولة رئيس الوزراء أمرًا برقم 63 جاء في مادته الأولى ما يلي: تُحل فورًا الجمعية المعروفة

بجماعة الإخوان المسلمين وكافة شعبها أينما وجدت، وتُغلق

الأمكنة المخصصة لنشاطها، وتُضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والأموال، وعلى العموم كافة الأشياء المملوكة للجمعية، ويُحظر على أعضاء مجلس إدارتها وأعضائها والمنتمين

إليها تنظيم اجتماعات أو الدعوة لنشاطها أو جمع إعانات

أو اشتراكات أو الشروع في شيءٍ من ذلك»

فهمي تاج الدين - 8

وصفته باليوم الأسود في دفتري، تلقيت التعازي والتهاني في وقتٍ واحد، رحل جدي عنَّا وحصلت على رتبة البك رسميًا بعد ترقيتي لدرجة رئيس نيابة، تضطرب مشاعري ويتزلزل كياني كلما تلقيت خبرين متناقضين في آنٍ، مثل رجل يجدف بقارب صغير وسط النَّوء، يرى الموت والنجاة متجاورين، لكنه لا يقوى على مقاومة التيار، ولا تُسعفه ذراعاه للتجديف إلى الشاطئ، ولمَّا تمتد يد القدر له يتهاوى منهكًا قبل أن يضع ساقًا على البر.

غيوم رحيل جدي غيبت شمس فرحتي بالترقية، مَهَّد جدي لرحيله بمقدمات متنوعة، مرض ونسيان ونوم لساعات طويلة ، وفقدان شهية وعلب دواء عديدة بجواره كأنها هواية يحرص على جمعها منذ طفولته، رغم ذلك بكيت في حُرقة عندما سمعت الخبر، لا أصدق أنني لن أجد مَن أتكلم معه في هذه الدنيا، ولا مَن أشكو له حالي كي يُخفف عني همومي ويُعطيني جرعة أمل رغم تشاؤمه المتزايد.

اقترب شكري ووقف إلى جواري، تركني أتقدمه رغم أنه أكبر مني بدقيقتين كما يحلو له أن يقولها، يرتدي بدلته الرسمية برتبة البكباشي التي حصل عليها مؤخرًا، لكنه يدرك

مكانته ومكانتي عند جدنا فتراجع مجبرًا على ما أظن، كان السرادق خاويًا بينما امتلأ البيت بالنساء، تحيرت في السبب، ربما لأن كل أصدقاء جدي رحلوا قبله، فقد مات على مشارف التسعين، حتى إخوان شكري اكتفوا بالجنازة، ربما ليتأكدوا من دفن غريمهم وإسكاته للأبد، كان جدي أشرس مَن هاجمهم، وكتب عنهم عشرات المقالات محذرًا من سطوتهم واستغلالهم للناس، وهو أول مَن وصفهم بالقطيع، لكن مرشدهم هو الذئب. في اليوم التالي لم أذهب للعمل، شعرت بأنني لا أريد فعل أي شيءٍ ولا رؤية أحد، تركت سيارتي مفضلًا السير في شوارع جاردن سيتي من الناحية الغربية، أعماني شرودي فقادتني قدماي لوسط البلد حتى عرجت منها إلى قرب العتبة.

القاهرة مدينة لا تنام لكنها تأخذ قيلولة بسيطة حين تكون صائمة، وفي الساعات القليلة قبيل مدفع الإفطار تصير الشوارع مهجورة، لكن فجأة سمعت تهليلًا وتكبيرًا، ولمحت موكبًا كبيرًا يسير بالجِمال محملًا بكسوة الكعبة، يطوف أرجاء العاصمة قبل سفره للحجاز، في مقدمة الموكب خيَّالة الجيش التي تقود المسيرة، والكسوة تتهدهد على ظهور الإبل في صناديق ضخمة مذهبة، التفَّ الناس حول الموكب يحيونه، ومن خلفي وعن يميني ويساري محلات تجارية

وقد تزينت احتفاءً بالحدث. اخترت السير عكس الاتجاه لأنعم ببعض الهدوء، وقعت عيني على لافتات قماشية عريضة عديدة وضعتها جماعة الإخوان فأزعجتني وحفزت ذاكرتي، كلها تدعو الناس للصلاة معهم في الساحات بدلًا من المساجد تحت شعار «الاتحاد قوة». تذكرت كلمات جدي عن عزلتي، وجودي خلف جدران بعيدًا عن الناس لن يجعلني أعرف تغيراتهم، ولن أستطيع تقدير حجم معاناتهم، أنا في حجرتي أو مكتبي لا أزور أحدًا ولم أفلح في تكوين صداقات، أنا فيما يبدو بعيد عن الناس.. بعيد لدرجة تغير فيها المجتمع من حولي، مع أنني أراقبه وأحقق مع أفراده إذا ما انحرف مسار أي واحد منهم وتغير مزاجه إلى الجريمة. أنا متجمد في مكاني، وأقصى سرعة لي هي الصفر كما يسخر مني شكري دائمًا.

انشغلت بتأمل اللافتات التي نثرها البنا وإخوانه، ربما من بينهم أخي شكري، وقد تكون فكرة من أفكاره، كلها تدعو الناس لصلاة العيد في الخلاء.. قرب الصحراء بالعباسية. يُهيأ لي أن البنا ابتكر طقوسًا جديدة في المناسبات الدينية الكبيرة، وأمر أتباعه بتنظيم مسيرات التكبير والتهليل، قرر الشيخ أن يجعل الصلاة في ساحة كبرى مكشوفة خارج العمار بعد سنين طويلة اعتدنا فيها على الصلاة في مساجد

القاهرة ، ولا أعلم ما الذي ينوي عليه بعد ذلك، لكنه نجح في مغازلة روح القطيع للمرة الثانية، متفوقًا على الوفد وأبناء سعد باشا وبقية الأحزاب والحركات المدنية اليسارية التي أحبطتني ووأدت أحلامي، لم يعُد العقل يعمل وابتعد عن طرح الأسئلة، تعوَّد على تلقي الإجابات المائعة والوعود بدخول الجنة. وقفت أسفل لافتة واضعًا يدي حول خصري في تحدٍّ، شعرت لوهلة بأنني مثل دون كيشوت أحارب طواحين الهواء، كدت أصرخ «أنتم تكذبون علينا، تقولون نريدها من أجل الدين، لكنكم تريدون الدنيا ولا شيء آخر». صرت أحدث نفسي كالمجاذيب، نحن شعب لا يقرأ ولا يهتم بالتفاصيل، بهاليل بارعة في التهليل.

عُدت ودموعي تسبق خطواتي، تمتد بطول نظري مائدة إفطار الملك فاروق الخيرية من الساحة أمام قصر عابدين حتى شارع شريف باشا، يجهزونها لآلاف يدخلونها كل يوم، لا يسألهم أحد هل أنتم مسلمون قبل أن يُطعمهم من جوع، فكيف بعد ما تمتلئ بطونهم يفرقون؟

قرب جامع الكخيا شعرت بإرهاق قارب الإعياء بسبب الصيام، دخلت بجسد متعب وروح قلقة وعقل أنهكته الأسئلة بعد ما حُرِم من الجواب، كم أفتقد جدي في هذه

اللحظات، شعرت بأنفاسي تضيق وصدري يرتج، ولم أطمئن إلا بعد ما رفع المؤذن أذان المغرب، شربت جرعة ماء وأكلت تمرة وصليت في جماعة فارتحت، بعدها استلقيت على جنبي الأيمن في ركن بعيد، أول مرة أفعلها في حياتي، شعرت براحة غريبة استسلمت لها حتى غلبني النوم.

في طريق عودتي كنت أرى كابوسي رأي العين، فطلبت من سائق التاكسي الذي يقلني التوقف أمام أبواب الحديقة المغلقة، لمحت حارسًا مهيبًا يقف خلف البوابة ويظهر طربوشه بوضوح، وازنت بين فكرتين، تقديم رشوة أو الإفصاح عن وظيفتي، حتى استقريت على واحدة، وبعدها فُتحت الأبواب بغير سؤال، دخلت مصحوبًا بتحية حارة ظلت معها يد الحارس موازية لرأسه حتى تجاوزته مسرعًا في طريقي لبيت الفيل، العتمة لا تسمح بالرؤية والبيت يبدو كجبل مظلم كئيب، أطلقت أصواتًا متقطعة، وألقيت بحصى صغيرة نحو ما تخيلته الباب لكن الفيل لم يظهر، ظللت في مكاني نادمًا على حماقتي بالمجيء إلى هنا، أشعلت سيجارة ولوهلة شعرت بأنني أرى كتلة سوداء ضخمة تتحرك، وبعدها سكنت أو اختفت، ربما الفيل هرب من بيته، وربما خيل لي كما يحدث في أحيان كثيرة.

***

تأهب الحضور للمغادرة، وانكسرت الشمس مائلة للرحيل خلف قبة الجامعة، وإذا بانفجار هائل يهز أركان المكان، آخر ما سمعت كان أزيز طائرة، وسط صراخ وجلبة وأنين جرحى يريد الموت قبض أرواحهم.

كنت في مكتبي صباح ذلك اليوم عندما تلقيت إخطارًا من إدارة بوليس العاصمة باعتصام طلبة كلية الطب داخل الحرم الجامعي، أخطرت النائب العمومي بالتليفون وانتقلت إلى مسرح الجريمة، فوجدت حكمدار البوليس اللواء سليم زكي موجودًا وقد أفلح فيما يبدو في فض الاعتصام، أو هكذا خُيل لي من فلول الطلبة المبتعدين عن مكانه، وحالة الهدوء التي تسود المكان. صافحته وعرَّفته بنفسي، دار حوار قصير بيننا حول الاعتصام تخلله سؤاله عن صحة والدي، وما إن ابتعدت لاختيار مكان يصلح لتدوين محضر بانتقالي وإثبات الحالة حتى سمعت دويًا هائلًا، ثم جرى ما جرى، ولمَّا أفقت وجدت نفسي بمستشفى قصر العيني، ممددًا على سرير أبيض لا أقوى على النهوض من رقدتي. عرفت أن قنبلة ألقيت في محيط الحكمدار وأنهت حياته، وأماتت العشرات الذين ظلوا جرحى لساعات يتعذبون، وأصابت المئات

بخدوش وجروح، وأتلفت من المباني العمومية والسيارات الخاصة ما قُدِّر بآلاف الجنيهات، ظللت طيلة اليوم صامتًا، شبه مُضرب عن الطعام، ولا أريد الاستمرار في حياة عبثية.

- الحمد لله إنك عايش.

هتف بها شكري وهو يقتحم غرفتي، طلب من الممرضات مغادرتها بنبرةٍ آمرة، أشحت بوجهي حابسًا دموعي بالكاد، أقسم لي دون أن أسأله بعدم صلة جماعة الإخوان المسلمين بالحادث، ولا تدبير له من النظام الخاص، نفرت عروقه واحمرت عيناه وهو يقول بعصبية:

- والله العظيم مكيدة في الإخوان من الأحزاب والملك، لا يمكن نقتل الحكمدار وهو بيساعدنا.

جلس على حافة فراشي بالمستشفى، عيناه دامعتان، يُشير لصدره ويصف ألمًا أصابه عندما عرف بالحادث، بكى في صمت، ولمَّا هدأ قال كلامًا كثيرًا عن التنظيم الخاص ورفْض الأستاذ البنا لما يقوم به وعدم رضاه عنه، لعن السندي وأعضاء التنظيم جميعًا بصوتٍ عالٍ، ولأن هذا العام كان أسود أعوام الجماعة، فقد راح شكري يترحم على رئيس الوزارة النقراشي، ويمدح نزاهة القاضي الخازندار، وينعى الحكمدار سليم زكي بعينين تقطران دمًا، ثلاثة حوادث قتل

صريحة ارتكبوها بدم بارد وقلب ميت، بدا لي مثل إخوة يوسف وهم يُقسمون أمام أبيهم على براءتهم من دم أخيهم.

هَبَّ شكري من مكانه وراح يترافع مثل الأستاذ الهلباوي بالحماس الخادع ذاته، مثلما دافع طوال عمره عن المظلومين، ومثلما ترافع ضدهم في حادث دنشواي حتى أوصلهم لحبل المشنقة.

قاطعته بإشارة من يدي واستجمعت قواي بالكاد قائلًا بغضب:

- لو فاكر إن طريقتك المسرحية مُقنعة تبقى واهم، إنت واقف قدام الشخص الغلط، أنا مش من جمهورك يا شكري ولا عمري حسقَّف لك.

- أنا أخوك يا فهمي ولازم تصدقني وتتكلم معايا وتفضفض.

- صدقني لو اتكلمنا حتزعل مني ويمكن تبقى قطيعة بينًا، اخرج وسيبني لوحدي.

- اتكلم يا فهمي، إنت الوحيد اللي تقول من غير حساب، وحتى لو حزعل من كلامك حسمعه للآخر.

كدت أواجهه بورقة التكليفات التي بخط يده في قضية

العربة الجيب، أوشكت على الصراخ: «دينك المال والجاه والسلطة، ولا ترى من الدنيا سوى المرشد والجماعة، إخوانك يهادنون الوفد وبعدها ينقلبون عليه، يدعمون الملك ثم يناصبونه العداء، يتعاونون مع الإنجليز في السر ويجاهرون بضرورة المقاومة من أجل الجلاء». لكن خانتني شجاعتي وقدرتي على المواجهة، وربما غلبني الإحباط، لا فائدة من أن تخبر إبليس بكفره كما تقول جدتي. تراجعت عن الهجوم بعد ما أيقنت أن الفريسة أرخص من الذخيرة، آثرت الصمت بينما استغله شكري ليعلو صوته بعد ما شعر بضعف حجتي، أحسست بأنه يحرك شفتيه ولا أسمعه، وبدا أنه يبتعد عني بجسده واهتزت صورته. حديثه مثل كل كذبة، تبدأ بكلمة وتكبر لتكون جملة، توضع بين ثنايا حوار فيتناقله الناس، لتصير الحقيقة التي أرادوا إبلاغك بها، هذه الجماعة تفعل فينا ما لم يفعله الإنجليز، غالبيتهم جُبلوا على الكذب والمراوغة والجدال. علا صوت شكري أكثر، فأخرجني من شرودي وهو يصرخ في وجهي:

- إنت نسيت إن الأستاذ البنا كان بيركب العربية المكشوفة مع الحكمدار سليم زكي ويطوفوا على المظاهرات علشان الأستاذ يهديهم؟ بذمتك ودينك لو العلاقة وصلت للدرجة دي بينهم نقوم نفكر نقتله؟ اللي رمى القنبلة رماها بالغلط، يعني

قتل خطأ يا فهمي، إحنا مش أصحاب مصلحة.

- لو فتشت عن صاحب المصلحة الموضوع مش حيكون لصالحك، المصلحة إنكم تقتلوا الخازندار والحكمدار ورئيس الوزارة.. القاضي الخازندار حكم على إخوانك المجرمين، والحكمدار قبض على المضللين بسببكم، ورئيس الوزارة حل جماعة الإخوان المسلمين، والعين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم، مش ده كلامك بالحرف وكتبته بخط إيدك يا شكري في كراسة قانون التكوين والا نسيت؟

برقت عيناه، بُهت الذي كذب، أطرق بحثًا عن مَخرَج لا ندمًا، شعرت بمرارة في حلقي وأسى يعصف بما تبقى من مشاعري، قطع حديثنا دخول الممرضة لتغيير الأنبوب المتصل بعروقي، سكبت فيه مضادات حيوية ومحاليل تعينني على الحياة، لا تدرك أنني الآن في حاجة ماسة لمضادات الارتباك والإحباط، لم تعُد لديَّ حيلة في حماية عقلي من الاضطراب، كلمات شكري مثل خنجر مسموم مغروس بين ضلوعي، لو أزحته أو نزعته لنزفت حتى انتهيت، ولو تركته مت. حاولت النهوض فلم أفلح، أشرت له بيدي فاقترب بحذر، اعتدلت في رقدتي بصعوبة رافضًا يده الممدودة لمساعدتي، مسحت دمعة انحدرت منفردة على

وجنتي، وهمست وأنا أمنع نفسي من الانهيار:

- هذا فراق بيني وبينك.

ربما قلناها سويًا في آنٍ واحدٍ، فقد لمحت شفتيه تتحركان، وربما هيئ لي، الكلمات تمور في صدري منذ فترة لكنها لم تكن ناضجة بعد، أغمضت عينَيّ ولم أعد أسمع سوى الصمت، وربما دخلت في غيبوبة مؤقتة بسبب المسكنات، لم أعرف إذا ما رحل شكري في هدوءٍ بعدها، أم ظل جالسًا لفترة يعض أصابع ندم لو كان يشعر به، لست أدري ولا رغبة عندي في المعرفة، فلم أعُد باقيًا على شيء.

***

«وأخيرًا أيها الإخوة المستمعون نقول لكم بإيجاز أن السِّحر قد ينقلب

أحيانًا على الساحر، وربما لم يُدرك حسن البنا مؤسس هذه الجمعية

أن مسيرته ستنتهي على أيدي بعض أتباعه ومريديه الذين آمنوا بأفكاره وروجوا لها معه، حتى اشتعلت لحظات حياته الأخيرة بنيران

الخلافات مع قيادات نظامه الخاص المسلح الذي أسسه منذ تسع

سنوات، فسبحان الله العلي القدير»

شكري تاج الدين - 7

«البقية في حياتك». عبارة كلما سمعتها لا أجد لها ردًّا مناسبًا، بداخلي رغبة في الانتقام منذ تلقيت الخبر عبر الهاتف، فقط أنتظر نتيجة التحقيقات لأعرف مَن قتل الأستاذ البنا، علمت من إخواني أن الفاعلين يقيمون بالقصر، وبتحريضٍ منهم قتله مجرمون مأجورون، وسكت عن جريمتهم شياطين خرساء ينتمون لمهنتي، أيقنت أنني سأكون آثمًا في حق جماعتي ونفسي وبلدي لو ظللت في مهنتي فعزمت على تقديم استقالتي.

- لا داعي.. ضررها أكبر من نفعها. اصبر عندنا لك مفاجأة.

قالها عبد الرحمن السندي وهو يودعني بعد زيارة قصيرة لبيتي، كان قد خرج من السجن لظروف صحية بعد ما قضى نحو ثمانية شهور محبوسًا على ذمة قضية العربة الجيب، أعتقه قلبه العليل من الحبس ومنحه فرصة جديدة للحرية، فهمت من حديثه عن مقتل الأستاذ البنا أن الرواة اختلفوا في حكايات وملابسات الحادث، لم يكن اختلافهم رحمة، بل حيرة، ضاعت الحقيقة، وخاض كل مُفترٍ فيما ليس به علم في حق الإمام الشهيد، وبقيت حقيقته عند الله وحده مؤجلة لوقتٍ لا يعلمه سواه، لكن كلي يقين أن الله سيُجازي

أشد الجزاء كل مَن افترى على الأستاذ البنا، وينصر كل مَن صدقه. بعد عام نودي بالهضيبي مرشدًا عامًّا على غير رغبة من عبد الرحمن السندي ورجاله، لم أكن متحمسًا للهضيبي لكني مضطر لاختياره، تولى المرشد الجديد قيادة بغير جماعة، بعد ما انفصل عنها كثيرون راحوا يسعون في المسافة بينه وبين النظام الخاص بقيادة السندي، رجحت كفة المرشد نزولًا على رغبة الأستاذ البنا الذي أوصاني باتباعه إذا ما وقع له مكروه، لم أكن مقتنعًا أن على وجه الأرض مَن يحل محل حسن البنا أو يستطيع ملء فراغ غيابه، فلم يعُد فارقًا أن أختار بين أحمد أو محمد.

صار المستشار مرشدًا عامًّا بعد ما نزعنا عنه لفظين اختُص بهما الأستاذ البنا وحده، «صاحب الفضيلة» و«الإمام»، كان البنا معلمًا وحكيمًا يأخذ ويعطي، بينما كان الهضيبي قاضيًا ولا يزال، لا يتكلم إلا مُجيبًا عن سؤال، يُنصت ويُفكر حتى يُصدر حكمه في الموضوع، لكن البنا يُلقي الدروس الطوال، لا يسكت إلا ليبتلع ريقه بعد حلو الحديث، يؤلِّف القلوب باعتباره مؤسس حركة وقائد لتنظيم، ويقبل من الإخوان أخطاءهم بل خطاياهم، يترفق بهم وينبههم إليها في غير إعلان كي لا تصيبهم الفضيحة، ولأنه صاحب بصيرة، فكان يتخذ من القرارات حتى لو خالفت مشورتنا وكنَّا له طائعين.

ربما وافقت على المستشار الهضيبي ورجحت كفته على غيره لأنه ببساطة قاضٍ، يقول للكاذب إنه كذلك في وجهه، لكن ما إن تجمعنا في اجتماع الثلاثاء الأسبوعي، والذي اعتدنا فيه أن يتحدث الأستاذ البنا لثلاث ساعات، ويجيب عن أسئلتنا في مثلها، حتى واجهنا أول صدمة، كنَّا نأتي لهذا الاجتماع بشعور عميق بالاستماع، بالدفء، حتى أسمينا الاجتماع عاطفة الثلاثاء، لكن في أول اجتماع بعد اختيار المرشد الجديد وقف الهضيبي فحمد الله وصلى على رسوله وصحبه ومَن دعا بدعوته، ثم أوصانا بالتمسك بكتاب الله تلاوة وفهمًا ومنهجًا، وبعدها ختم حديثه بالدعاء وجلس، فظلّلنا الإحباط حتى عدنا لمنازلنا. ومع الوقت شعرت بفتور الدعوة وضعف الجماعة ممَّا زاد من قناعتي بضرورة اتخاذ قراري بالاستقالة.

وضعت رأسي على حِجر أمينة فاحتوته بين ذراعيها، هوّنت عليّ الأمر، خفّفت آلامي وطبّبت جراحي، التأمت مؤقتًا شروخ روحي وأغمضت عيني، وكان آخر ما رأيت وجهها الجميل كالبدر حتى غفوت.

***

في صباح يوم ممطر دخلت مقر الجماعة لحضور اجتماع

طارئ لبحث موضوع استقالتي، على مدار الساعة حاول أعضاء مكتب الإرشاد فيه أن يثنوني عن رأيي لأعدل عن قراري، شرحوا أهمية وجودي بوزارة الداخلية في تلك الفترة لأكون عينًا لهم هناك، انبرى أحدهم موضحًا أن البلد عبارة عن مجموعات تتجسس على بعضها، ومَن معه المعلومة الصحيحة سيتحرك في الوقت المناسب. ولأني فقدت الشغف والحماس صممت على رأيي.

ذهبت بعد يومين لتقديم استقالتي من وزارة الداخلية، قبل وصولي لمكتب الوزير وجدت الصاغ صلاح في انتظاري، كان عضوًا بمكتب إرشاد الجماعة وقريبًا لقلبي وعقلي ولفضيلة المرشد أيضًا، تحدث معي طويلًا بمكتبه، بدت نبرته أنها تحمل أمرًا ما خفي عني فصبرت مضطرًا، بعدها تلقيت اتصالًا من السندي، طلب رؤيتي على وجهٍ عاجل، فهرعت إليه ورأسي مشغول بما يستعجلني بشأنه، ولمّا مثلت في حضرته بادرني قائلًا:

- الفترة الجاية حساسة وحرجة، ومكتب الإرشاد رشحك بالإجماع لمهمة جديدة نسأل الله أن يوفقك فيها ويلهمك الصواب وتكون عينًا لنا وعونًا عليهم وأنت هناك.

أصابتني دهشة رغم نبرته الهادئة للغاية التي يحدثني بها،

كأنه يقرأ على مسامعي خبرًا من صفحة أحوال المجتمع عن زواج فلان أو طلاق فلانة، التزمت الصمت حتى طال بيننا فقطعته قائلًا:

- هناك فين؟

قال بحسم وهو يبتسم:

- في قصر عابدين يا حضرة البكباشي.

كان قرار إلحاقي ضابطًا على قوة البوليس الملكي بقصر عابدين نقطة تحول في حياتي وفي مساري مع الجماعة، لم أستطع الاستقالة ولا رفض المنصب الجديد، خاصة بعد ما عرفت أن لدينا أعوانًا في وزارة الحربية قاموا بتزكيتي لأكون قريبًا من الملك، لا أصدق ما يحدث لي بترتيبات القدر فاستسلمت راضيًا، وصبَّرت نفسي بأنها كلها أيام وأرى فاروق أمامي، لن تفصلني عنه سوى أمتار قليلة، سيكون بحوزتي مسدس محشو بالطلقات، وبإمكاني الثأر للإمام الشهيد حسن البنا.. الثأر للجماعة كلها، ومن أكبر رأس في المملكة.. فاروق الأول والأخير إن شاء الله.

***

أشارت عقارب الساعة إلى السابعة صباحًا عندما تسللت

من البيت، لم أشأ إيقاظ أمينة أو الأطفال، اليوم عطلة ولن يصحوا مبكرين كعادتهم، توقفت بسيارتي عند أول شارع الهرم في مكانٍ منزوٍ، بقيت بداخلها أدخن لخمس دقائق وأراقب الطريق الخلفي من مرآة السيارة، ترجَّلت المسافة الباقية متلفتًا حولي، ولمَّا اطمأننت قرعت جرس بيت الوزير المفوض بالسفارة البريطانية، الذي أتباحث وأتفاوض معه منذ أعوام بحكم مكانتي بالجماعة كمسئول عن العلاقات الخارجية. وجدت ترحيبًا منه لالتحاقي بقوة البوليس الملكي، ومع فنجان القهوة الثاني أوضحت له صعوبة تكرار اللقاءات بيننا فيما بعد، وأخبرته باسم مَن سيحل محلي في التفاوض، وافق السيد كورزويل على البديل، لكنها موافقة مشروطة باستمرار الهدنة بيننا لحين وضوح الرؤية، فأكدت عليه التزامنا بالتفاوض وفقًا للشروط التي وضعها فضيلة الإمام الشهيد قبل رحيله.

دقَّ جرس الباب وانضم لنا في الجلسة السيد إيفانز المستشار الشرقي بالسفارة البريطانية، كان مباشرًا كعادته، تحدث بنبرةٍ آمرةٍ محذرًا من التعاون مع فصيل يُسمى الضباط الأحرار، مؤكدًا أن لديه معلومات عن التنسيق بيننا، ولأني لم أكن على دراية كاملة بحجم التعاون طلبت مهلة للرجوع لمكتب الإرشاد، وأكدت لهما أن مصالحنا مشتركة

في الإطاحة بالملك فاروق، مذكرًا بعملية «كش ملك» التي ناقشناها من قبل ووضع بعض تفاصيلها التنظيم الخاص بالجماعة، لكننا لم نحدد لها بعد موعدًا للتنفيذ، مع ذلك بدا السيد إيفانز خبيثًا وهو يسألني:

- هل يقبل الإخوان مقعدًا في الوزارة إذا ما عُرض عليهم؟ أنت تحديدًا بكباشي شكري هل توافق؟

ارتبكت لوهلة، بالطبع لو عُرضت عليَّ الوزارة سأقبلها بغير تفكير، لكن لمَّا تفرست في وجهه أدركت أن الإجابة الصحيحة يجب أن تكون بالرفض المبهم، ليس رفضًا بكلمة لا، إنما بعبارات مطاطة يُستشف منها عدم القبول وعدم الممانعة أيضًا، لكن يبدو أن سكوتي طال بعد ما تحدثت عن أهمية الوزارة وفي الوقت ذاته مدى الالتزام بمبادئ الجماعة، فأعاد السيد إيفانز السؤال وهو يدقق في وجهي أكثر، وكأنه يحاول قراءة صفحة عيني بعد ما نبهه عقله لمراوغتي.

ابتسمت مبتعدًا بنظري عنه، هابطًا بعينَيَّ على وجه السيد كورزويل الذي أرتاح له أكثر في التفاوض قائلًا:

- أريد أن أحكي لكما حكاية..

ارتشفت رشفة ماءٍ وبدأت أحكي أنني ذات صباح عندما

كنت صغيرًا صحوت على جلبة، علمت أن أبي عثر على جرو ثعلب بالحديقة، وأراد ضربه بعصا فوق رأسه ليُنهي حياته، مؤكدًا أننا لا يمكننا الوثوق فيه مهما أطعمناه أو أحسنًا معاملته، بينما اقترح أخي التوأم تركه لحال سبيله، فلا ضرر ولا ضرار، أما أنا فأردت الاحتفاظ به، وما زلت إلى اليوم مقتنعًا أن بإمكاني ترويض الثعلب لو ربيته صغيرًا وأطعمته حتى يكبر.

- وماذا فعلتم في النهاية؟

سألني السيد كورزويل بشغف مَن يتلهف لمعرفة نهاية القصة، فابتسمت وأنا أتأهب للانصراف قائلًا:

- كبر الجرو وصار ثعلبًا وما زلت أستطيع تربيته وإطعامه، وما زال يدين لي بالولاء، ببساطة لأنه يحتاجني.

بدا القصر من اليوم الأول مثل سفينة آيلة للغرق، بها ثقب ضخم بحجم الملك فاروق ذاته، يستنزفها ويدفعها للميل بقوة نحو القاع، التحقت بقوة تأمين الموكب الملكي، وبعد فترة وجيزة انتقلت للدائرة الرابعة من الحراسة التي تحيط بالملك كلما تحرك في شكل دوائر، المهمة ليست بسيطة كما أبلغوني، أعداء الملك كثيرون.. الوفد والإنجليز والشيوعيون.. وجماعة الإخوان بعد صدور قرار الحل، قالها

اللواء أحمد كامل مدير البوليس الملكي وهو يتفرس في وجوه الضباط، منبهًا علينا باليقظة والانتباه طوال الوقت أيًا كان المكان الذي يتواجد فيه الملك، بعدها راح يتفقد بعض العربات الملكية والدراجات البخارية التي تسير أمامها، وأمرنا بالاستعداد لتحرك الموكب في طريقنا للاحتفال بعيد الطيران.

«أصحاب المعالي والعزة.. تفضلوا مشكورين بالتطلع إلى سماء المحروسة، مشهد لم يسبق لكم رؤيته»

ظللت واقفًا بينما صوت الرجل الجهوري يهدر عبر مكبر صوت شارحًا ما نراه بوضوح، صفقت بحماس مع المصفقين مع أني لا أتابع مثلهم ما يدور بالسماء، تعلقت عيناي بالملك فاروق وحده، تلك أول مرة أراه عن قرب، في كل المرات السابقة كنت ألمحه للحظات وهو يركب السيارة أو يغادرها، هذه المرة تفصلني عنه عشرة أمتار فقط، فرصة لا تعوض لإطلاق خمس رصاصات عليه وأحتفظ بالسادسة لرأسي، لكني استعذت بالله كي أهدأ وأطرد الفكرة السخيفة من عقلي. بدا لي فاروق عكس ما توقعت، لم أتخيله بهذه الضخامة والبدانة والطول من الصور التي كنت أراها له في الجرائد والمجلات، انشغلت بمتابعته بعد ما ضبطته أكثر

من مرة يعبث بشاربه أو يستعدل نظارته على أنفه، يتحدث أحيانًا لمَن يجلس عن يمينه فقط، ويتجاهل الجالس عن يساره، ولا يبتسم إلا بالكاد لمَن ينحني أمامه وهو يحييه. جلست على حافة مقعدي متحفزًا للنهوض بعد ما شعرت بخطر يحوم حولي ولا أعرف له سببًا أو مصدرًا، تتبادل عيني النظر بين الملك والطائرات التي تؤدي الاستعراض بعيد الطيران الملكي، ارتفع أحد الطيارين بطائرته بينما ظل اسمه يتردد عبر مكبر الصوت على لسان المذيع بافتخار بما يؤديه من مهارات، ندت مني شهقة عالية عندما كاد يلامس الأرض قبل أن يرتفع بطائرته فوق رءوسنا، لم أستطع منع يدي من التصفيق في المرة الثالثة، هذه المرة شاركني الآخرون، بينما اكتفى الملك بالطرق على فخذه بأنامله عدة مرات.

دارت الطائرة نصف دورة، ارتفعت لأعلى كأنها ستنقلب على ظهرها. ولمحت خيطًا كثيفًا من دخان أخضر ينبعث من مؤخرة طائرته، بينما الأخريات تطلق خيوطًا بيضاء دقيقة بالقرب منه، راحت تتشكل على هيئة نجوم كبيرة عددها ثلاثة أشبه بالعلم المعلق على يمين المقصورة التي نجلس بها، وقفت لأطمئن على الملك وكنت أجلس خلفه بصفين إلى ناحية اليسار، يا ترى هل فهم أن الطيار يحيي علم المملكة أم

لا؟ لم يتحدث الملك فاروق هذه المرة مع الجالس عن يمينه، بدا وجهه منزعجًا وهو يتكلم مع ضابط بريطاني يجلس وراءه، التفت له بنصف جسده رغم أن الضابط وقف وانحنى كرقم ثمانية، رمقت التشريفاتي الملكي الغاضب بطرف عيني وشعرت بأنه ينظر نحوي كي أجلس، تجاهلته باعتبار أن أمن الملك أهم من البروتوكول، تنامى شعوري بقلق خفي حتى جاءت لحظة شعرت بأنني انفصلت فيها عن الزمن، كأنني عبرت حاجزًا شفافًا إلى مجال آخر وعدت مسرعًا، هبَّ نصف الجالسين بالمنصة من مقاعدهم وهم يصيحون في رعب، كأنهم يرون وحشًا مخيفًا خرج من قصص أنيسة جدتي التي كانت تحكيها لنا كل ليلة، وسمعت صوت انفجار مكتوم أعقبه فرقعات متتالية، بدت السماء أمامي صفراء وحمراء ثم سوداء بسبب دخان كثيف، العلم الأخضر اختفى والنجوم البيضاء صارت كرات نارية مخيفة، رجال كثيرون اقتربوا وأحاطوا بالملك وأنا وسطهم، شققنا له طريقًا آمنًا للخروج، وأثناء هرولتنا سمعت أصواتًا متداخلة لم أميز منها شيئًا مفهومًا لكنها تشي بهلع عظيم.

في قصر عابدين وصلنا النبأ قبل أن يصل فاروق لجناحه، هوى طيار الملك الخاص وقائد الاستعراض في يوم الطيران الملكي، سقطت طائرته به أمام المقصورة الملكية وانفجرت

بينما كنَّا نبتعد بفاروق عنها، شعرت بأحاسيس متناقضة وأنا أجذب الملك من يده، وأضع يدي على كتفه ورأسه حتى وصلت به لسيارته مع بقية حراسه، لماذا أنقذته ولم أتركه ليلقى حتفه؟ كنت الأقرب له، ومجرد تأخري لثانية واحدة كان كافيًا لتطوله شظايا الانفجار. وضعت الكاب على مكتبي ومسحت عرقي بمنديلي، عقلي يحاور قلبي وضميري حائر بينهما، حتى دقَّ جرس مكتبي معلنًا إيقاف دوران عجلة تفكيري، أبلغني التشريفاتي أن مولانا أنعم عليَّ بوسام الشجاعة من الدرجة الثانية، سأتسلمه غدًا في احتفال ضيق، وأضاف بينما عيناه تلمعان:

- وترقية للدائرة الثالثة بالحرس الملكي الأقرب لمولانا يا حضرة البكباشي.

ابتسمت رغمًا عني وراوغتني الحيرة، هل يمنحني القدر فرصة أخرى لتكرار المحاولة وقتله أم يكافئني على سماحتي بإنقاذه؟ لست أدري.

***

«افتُتحت مجلة الهلال في عددها الأخير بنبوءات القاهرة سنة 2000

من حيث العمران، فتوقع الدكتور سيد كريم أستاذ العمارة بجامعة فؤاد الأول أن القاهرة بعد خمسين عامًا من الآن ستشهد تطورًا غير مسبوق،

وستزحف حدود القاهرة الشمالية حتى ترعة الإسماعيلية مرورًا ببلدة

قليوب، ويُشق من هناك طريق كبير يصل القاهرة بالإسكندرية، كما توقع إنشاء منطقة سكنية جديدة في جبل المقطم لأنه يحتفظ بطابع معماري

خاص منحدر من أعلى الجبل إلى شاطئ النيل، وسيُغطى جزء منه بالحدائق العامرة، ويعلوه فندق ضخم وكازينو سيكون الأول من نوعه في الشرق،

كما سيكون له مطار خاص، وسيتصل جبل المقطم بمنطقة الأهرام بالجيزة من خلال قطار معلق بأسلاك ضخمة في سماء القاهرة»

فايز حبشي - 4

اقتربت من باب الحديقة القبلية لفيلا تاج الدين وانتظرت، لم أعد أحب التردد على الفيلا منذ تركتها، ورغم أن الست أنيسة كانت تعاملني مثل أحفادها، لكن هناك دومًا نظرة عابرة غير مريحة، طيف يحوم حول عيون أهل الدار، يُشعرني بالدونية وأنا لم أعُد أتحمل المزيد، لا أريد الملابس القديمة ولا الأحذية المستعملة التي يقدمونها لي في كل زيارة مع قليل من القروش، زهدت في صدقات الأغنياء التي يتفاخرون بها بعد ما عرفت النقود طريق جيوبي.

من بعيد لمحت التوأم شكري وفهمي يلعبان بالحديقة، لا يتجاوز عمرهما السنوات الخمس لكن بدانة فهمي جعلته يبدو أكبر سنًّا من أخيه، تكلما قليلًا ثم دفس فهمي وجهه في باب عريض بنهاية الحديقة وبدأ صوته يعلو بالتدريج وهو يعُد الأرقام من واحد لعشرة، في حين اختبأ شكري وراء باب البدروم الأخضر مباشرة.

ابتسمت وأنا أراقب دهشة فهمي وحيرته عندما التفت ووقف في مكانه بحثًا عن أخيه، لا يريد أن يخطو خطوة للأمام، ولا يدري أن خسارته قادمة من وراء ظهره. من بعيد لمحت أمي قادمة لكنها توقفت على مقربة من فهمي، أشارت

له برأسها ناحية الباب، لمحتها تغمز بعينها لكنه لم يلتفت وظل متسمرًا في مكانه، في تلك اللحظة تسلل شكري بخفة ورشاقة ووضع كفه على الباب الأخضر، رافعًا علامة النصر بالكف الأخرى، بينما ظل فهمي يدب الأرض بقدميه متذمرًا. أعطتني أمي نصف جنيه وعمود طعام، صمَّمت وهي تحلف بمحبة ستنا العدرا أن أتناوله بالكامل بعد ما وصفتني بالممقوت، احتضنتها لفترة طويلة كأنني أشحن بطارية مشاعري، ولمَّا شعرت بدموعي تقترب ابتعدت.

هززت رأسي مبتسمًا بعد ما تدافعت الذكريات أثناء انتظاري فهمي بك باستراحة النيابة، انتابني شعور سخيف بأنني ضللت الطريق وراهنت على الحصان الخاسر. هممت بإشعال سيجارة لكن صوتًا قطع شرودي:

- اتفضل يا أستاذ حبشي.. سعادة البك في انتظارك.

دخلت بخطى واثقة وقُلت مبتسمًا:

- نهارك سعيد يا صاحب العزة.

ألقيت التحية وأنا أضع كفي قرب رأسي مقلدًا الملك فاروق، قام فهمي من وراء مكتبه ليُصافحني بود كصديق قديم وهو يدعو لأمي بالرحمة، اتسعت ابتسامته لتحتويني

وتطمئنني مؤقتًا، اندهشت من كونه يعرفني مع أنه لم يرَني من قبل ولا أظن أنه يتذكرني صغيرًا، لكنه فسرها ونحن نتناول القهوة، الست شفيقة حكت له كثيرًا عني، ورغم أنه بدا كاذبًا إلا أنني تأثرت من كلماته الطيبة عن أمي، ومع ذلك ترددت في الإدلاء بالمعلومات التي أتيت من أجلها.

ظل فهمي يدخن ويبتسم، بدا كلاعب شطرنج حرك قطعته بحرفية ليضع الملك في مأزق وراح ينتظر تصرفي، اعتدلت في جلستي وقُلت:

- عدم المؤاخذة يا بك، هو معقول معاليك عرفت إني ابن الست شفيقة من مجرد سماع اسمي؟

سألته وأنا ما زلت معممًا بالدهشة، محاولًا كسب بعض الوقت لاستعادة ثقتي في نفسي، فأجابني بالابتسامة ذاتها:

- لأ طبعًا يا حبشي، أنا عرفت من معاون مباحث القسم إنك كنت عندهم في التخشيبة بتعليمات من البكباشي شكري، وبلغني المعاون إنك ركبت تاكسي بعدها جابك على هنا، وخلال اليومين اللي فاتوا كان بيستكمل تحرياته عنك وبيحكي لي حكايتك وحكاية شقة الصليبة مع شكري والإخوان.

تذكرت معاون المباحث الشاب الذي بدا متعاطفًا معي وهو ينهي إجراءات الإفراج عني، سعدت بحُسن فراستي وتغاضيت عن تغفيلي أن سائق التاكسي الذي وضعوه في طريقي كان مرشدًا للبوليس. سألت بدهشةٍ أكبر:

- هو سعادتك عرفت حكاية الإذاعة كمان؟!

نهض فهمي من كرسيه ودار حول المكتب وجلس أمامي، بدا مهتمًّا للغاية وهو يسألني بلهفة:

- إذاعة أهلية؟ احكيلي الحكاية دي الأول بالتفصيل.

لوهلة ظللني الصمت والخوف معًا، شعرت بأنني تسرعت في كشف أوراقي، لكني تشجعت ورويت له كل شيء، في الأصل أتيت لأعترف وأتطهر، رسمت كروكي للشقة وأبلغته بمضمون المنشورات والبيانات التي نذيعها ومكان حفظ الأجهزة الخاصة بالبث اللاسلكي وطريقة التشغيل ومواعيد البث، واختتمت بطلب حمايتي. دوّن فهمي كل التفاصيل في نوتة صغيرة، وأجرى اتصالًا هاتفيًّا بشخص لم يذكر اسمه أمامي، حكى له ملخص ما قُلته وبعدها وضع السماعة وابتسم وهو يقول في ثقة:

- كل حاجة طلبها منك شكري لازم تنفذها بالحرف يا

حبشي.

قاومت رجفة مسَّت جسدي وضربت قلبي بقوة، ظللت أنظر لفهمي في دهشة، كأنني شكوت شكري الإخواني لشكري البكباشي، ظننت لوهلة أن فهمي يمزح معي، لكن ملامحه الجادة لا تشي بذلك. تسمَّرت بمقعدي وكدت أبكي وربما انسابت مني دمعة أو ترقرقت بعيني أخرى، قدَّم لي فهمي منديلًا وهو يربت كتفي، ثم دسَّ ورقة صغيرة في جيب سترتي وابتسم فهدأت عندما قرأتها. قبل أن أغادر مكتبه، استوقفني فهمي ونظر في عيني طويلًا، سألني بنبرةٍ لا تخلو من قلق توقُّع إجابة معينة:

- هو صحيح شكري أخويا اتجوز على مراته في شقة الصليبة؟

اندهشت من غموض العلاقة بين الأخوين لهذه الدرجة، ولم أجد مبررًا لقلق فهمي بك لمجرد أن أخاه تزوج مرة ثانية، لكني نفيت له الخبر بثقة، ولم أُغادر حتى شعرت بارتياح ملامحه وهدوء روحه.

بعد ساعتين من اللقاء مع فهمي بك غادرت غرفته، لكني وقفت في السكرتارية الملحقة بمكتبه حتى وقعت عيني على سكرتيره رمضان، صِحت بأعلى صوتي مترحمًا على

العدل والقانون، صرخت أن المرء طوال عمره يلوذ بالنيابة ولا يتحدث إلا أمامها لثقته فيها، رفعت كفيّ وأنا أدعو على مَن ظلمني وعلا صوتي مختنقًا:

- نروح فين يا رب علشان نشتكي؟

عُدت لبيتي وقرأت الورقة مرة ثانية في الطريق حتى حفظت ما دُوّن بها، هذه المرة لم أتلفت ورائي، لم يعُد يهمني مَن يسير خلفي أو مَن يعُد خطواتي، ألقيت جسدي على الفراش ولأول مرة منذ يومين أنام بعمق. في الصباح حضر مندوب من الإخوان لبيتي، كالعادة سلمني ظرفًا كبيرًا يحوي عبارات محددة لوضعها ضمن برامج البث، ومواعيد بخروج المظاهرات التي تنظمها الجماعة كي أُغطي الحدث، فرضخت صاغرًا.

على مدار ثلاثة أسابيع كنت أنفذ تكليفات شكري حرفيًا، يأتي المندوب للدكان، يعطيني الظرف المغلق وينصرف، الشيء الوحيد الذي أضافوه للاتفاق بإرادة منفردة هو توقفهم عن الدفع.

بعد فترة تأكدت أن مخبرًا يسير ورائي لكني تظاهرت بعدم كشفه، حتى جاء يوم تلقيت اتصالًا هاتفيًا على منزلي، أبلغني المتحدث بكلمة السر المدونة بورقة التكليفات التي سلمها لي

فهمي.. «بيت الأمة».

ركبت الترمواي قرب الخامسة والنصف مساءً متجهًا إلى سينما مترو بوسط البلد، الأحكام العرفية معلنة وحفلة الساعة السادسة هي الأخيرة، عربات الجيش البريطاني تجوب الشوارع وبعض عساكر الجيش المصري ينتشرون في محيط الشوارع المؤدية للسينما مدججين بالسلاح، خفق قلبي لكني تشجعت، اقتربت من شباك التذاكر وأنا أتلفت حولي، وجدت شخصين أو ثلاثة، لا بل أربعة يصلحون لأن يكونوا مخبرين، لكني التزمت بالتعليمات التي تلقيتها من محدثي بالمكالمة الهاتفية. أدخلت رقبتي بشباك التذاكر وسألت الموظف بصوتٍ خفيضٍ عن تذكرة باسمي فسلّمها لي، دخلت السينما بعد بداية العرض بخمس دقائق عندما تأكدت أن لا أحد خلفي هذه المرة، عندما وصلت لمقعدي في الصف الأخير بالصالة وجدت بجواري شابًا في نهاية العشرينيات من عمره، ممتلئًا قليلًا لكن ملامح وجهه غير واضحة بسبب عتمة القاعة، بجواره ثلاثة مقاعد خالية، أشار لي ناحية المقعد الملاصق له فامتثلت بغير تفكير، وما إن جلست حتى همس بكلمة السر.

طوال عرض الفيلم الذي لم أعد أتذكر منه مشهدًا واحدًا

ظل الرجل يتحدث معي همسًا، يسأل وأجيبه، يطلب تفصيلة محددة ليعود لنقطة سبق أن تحدثنا فيها، بدا أنه يحفظ كلماتي ويعيد ترتيب الأحداث، اهتم بالمحطة الإذاعية اهتمامًا بالغًا وكيفية تشغيلها خاصة على الموجات القصيرة، سلّمني ورقة مطوية بالتعليمات وانصرف قبل نهاية الفيلم بعشر دقائق. لم أعرف طبيعة عمل الرجل الذي قابلته بتكليف من فهمي بك، لكني شككت في كونه ضابطًا بالبوليس، ولمّا سألته عن اسمه ووظيفته طلب أن أناديه مُحيي فقط، فتيقنت أنه ضابط بالقلم السياسي.

تعددت اللقاءات بيننا في سينما مترو، موعد ثابت بحفلة الساعة السادسة كل أسبوعين، لكني لم أرَ وجهه في النور أبدًا، فيما يبدو كان يقف أمام السينما على الرصيف الآخر، وما إن يراني حتى يسير خلفي بعد ما يكون قطع تذكرة لي بجواره في آخر صف، وفي المسافة ما بين استلامي تذكرتي ودخولي يسبقني للصالة لأجده جالسًا في انتظاري، أعطيه تقريرًا شفويًا ويسألني وأجيب، وفي كل مرة تكون المقاعد بجوارنا خالية رغم ازدحام السينما أحيانًا.

كان قليل الكلام، هادئ الطباع كأنه شارد الذهن أو حالم، لكني واثق أن عقله يعمل حتى وهو نائم، ظلت اللقاءات

تتكرر بانتظام حتى انتقال البكباشي شكري لقصر عابدين، وتوقفت الجماعة عن الاتصال بي لفترة، في حين طلب مني وقتها محيي بك بث فقرات محددة عن دور الجيش لكسب تعاطف الجماهير وتجاهل الإخوان تمامًا هذه المرة، أعربت له عن خوفي من بطش الجماعة وعودة الأحكام العرفية التي أعلنتها الحكومة، وإذا ما تم القبض عليَّ سأموت في السجن وعقوبتي لم تنتهِ بعد.

ابتسم وقال بثقةٍ كبيرة:

- هانت يا حبشي، قريب أوي كل حاجة حتتغير.. ماتخافش.

في هذا اللقاء غادر السينما معي على غير عادته، ولأول مرة أرى وجهه واضحًا في النور، يومها ذهبنا إلى كازينو حديقة جروبي وجلس معي قرابة الساعة وانضم لنا ثالث لم يُقدمه لي، رجل أسمر كأبناء الصعيد وطويل القامة وله أنف مميز، ظل يستمع ولا يُعلق بحرفٍ، ثم هزَّ رأسه بما يوحي برضائه عن أدائي. أدرك جيدًا أن سحر البدايات مُسكر والنهايات مُرة كالعلقم، ورغم كلمات محيي المطمئنة لكنها لم تختلف عن تلك التي سمعتها من البكباشي شكري، كأنهما في سباق وكلاهما يرى خط النهاية بوضوح، مع ذلك نفذت

تعليمات محيي بك راضيًا، قُلت لنفسي في النهاية الفائز واحد، ولا بد من ترجيح كفة، على الأقل تطهرت من علاقتي بجماعة الإخوان.

على مدار عام ونصف صارت الأمور روتينية كأن القدر غافل عني، حتى تلقيت اتصالًا هاتفيًا من البكباشي شكري طلب مني فيه الحضور للقائه بقصر عابدين فورًا، أبلغني أن سيارة تقف الآن أمام دكاني في انتظاري. شعرت بقرب نهايتي، لا يوجد سبب واحد يجعل البكباشي شكري يتذكرني بعد كل هذه الشهور، ثم يستدعيني بهذه الطريقة على وجه السرعة إلا إذا كان أمري قد انكشف مع جماعة الإخوان، مؤكد عرفوا موقع إذاعتي الجديدة التي أخفيت عنهم ترددها، ولا بد حددوا مصدر التردد وسمعوا ما كلفني به محيي بك دعمًا للجيش والضباط الأحرار.

اسودّت الدنيا أمامي، وشعرت بأن البكباشي شكري يحفر لي قبرًا ليدفنني فيه وحدي كي يضمن سكوتي، لكن عند مثولي في حضرته اكتشفت أن في الحياة أمورًا أخرى تبدو تافهة وقد لا ترد على بال أحد، وحدهم كبار المسئولين الذين تنشغل أذهانهم بها مهما بلغت قسوتهم وصرامتهم وجسامة مسئولياتهم.

***

«آلا أونا.. آلا دوي.. آلا تري» ردَّدها منصور التركي صاحب صالة «أورفانيللي ومنصور» وهو يشير بعصاه ناحية أحد المزايدين بالصف الأول، بينما أجلس صحبة السيدة أمينة زوجة البكباشي شكري في الصف الأخير، فلا موضع لقدم بالصالة. تغير منصور التركي كثيرًا عن الفترة التي تعرفت فيها عليه منذ بضعة أعوام، بدا مثل الوجهاء والكبراء، عرفته عن طريق جاري الريس هارون الذي يعمل لديه وكان وقتها أشبه بموظفي الدواوين، التقيته مرات عديدة مع شريكه المرحوم الخواجة أورفانيللي، طلبا مني في إحداها بث دعاية لصالتهما عبر إذاعتي بسبب شهرتي وقتها، وعندما عرف الزبائن سكة الصالة عقب زيارة الملك لها توقف التعاون بيننا، لكن الصلة استمرت والود لا يزال قائمًا، ولأن البكباشي شكري يعرف تفاصيل حكايتي مع صالة أورفانيللي عندما استعرض سيرتي الذاتية في البث الإذاعي قبل تكليفي بالعمل لصالح جماعته، استدعاني لمكتبه وسلمني دبوسًا من الذهب محفورًا عليه حرفين باللغة الإنجليزية، أخبرني بأن زوجته تريد بيعه في مزاد لحسابها دون كشف هويتها، وطلب مني توصية منصور التركي صاحب الصالة في الوصول لأعلى سعر ممكن في أقصر وقت.

ذهبت في الموعد المحدد لاصطحاب أمينة هانم سعادة من بيتها بالدقي، اتجهنا إلى وسط البلد، التقينا منصور التركي الذي رحّب بنا في ودٍّ بالغ، فحص الدبوس الذهبي بعدسةٍ ضخمة، وبعدها وزنه على ميزان حساس وحدد لنا موعدًا في الغد للمعاينة مع الجمهور قبل عرضه بالمزاد، وضع سعرًا تقديريًّا يفوق ما توقعته السيدة أمينة بثلاثة أضعاف، لكنه في الوقت ذاته رفع نسبته للضعف في حالة رسو المزاد، وأبلغنا أن البيع سيتم تحت اسم مستعار.

يوم الممارسة ظللت أتابع المزاد مندهشًا من حركات يد وجسد المايسترو منصور كما يطلقون عليه بالسوق، يشير بالعصا كساحر، يغير نبرة صوته كل ثوانٍ قليلة كمشخصاتي كبير على خشبة مسرح، نظرات عينيه يمسح بها وجوه كل المزايدين بالصالة في لمح البصر، ينتقي مجموعة لا يخطئها فتزايد وراءه وترفع السعر إلى ما يريده، كأنه نجح في تنويمهم مغناطيسيًّا. قبل فتح المزاد بدقيقة دار مدير الصالة سعد كروان بالدبوس الذهبي، موضوعًا على خدادية من القطيفة الخضراء الداكنة كي يراه المزايدون بوضوح، في حين كان منصور يحكي قصة الدبوس، روى أنه مملوك في الأساس لنائب قائد القوات الألمانية بالحرب العظمى الثانية،

والذي تم أسره بمعرفة الإنجليز، فاضطر إلى تقديم الدبوس كرشوة لأحد الأعراب بمنطقة العلمين مقابل تهريبه كي يعود لبلده، لم أكن أعرف القصة لكنها أعجبتني، مِلت على أذن السيدة أمينة لسؤالها عنها مستفسرًا في الوقت ذاته عن كيفية وصول الدبوس الذهبي ليد البكباشي شكري، لكن أمينة هانم كتمت ضحكاتها ولم تُجبني.

خرجنا من المزاد بعد ثلاث ساعات، يرقد بحقيبة أمينة شيك قيمته مائة وخمسون جنيهًا، أعطتني إكرامية خمسة جنيهات دفعة واحدة، تلك أول مرة أرى فيها أمينة هانم، بدت لي أشبه بممثلات السينما الأمريكية، رغم أنها خرجت من باب منزلها بالدقي برداء غريب، كانت تضع عباءة واسعة فوق ملابسها وتغطي رأسها بإيشارب طويل عقدته قرب رقبتها، وعندما وصلنا الصالة تخلت عن العباءة بالسيارة واستبدلت قبعة أنيقة بالإيشارب، بدا فستانها الأزرق بلون البحر الهادئ جميلًا عليها رغم أكمامه الطويلة، حديثها أشبه بالهمس، ابتسامتها حاضرة لا تغيب، وحضورها لافت للنظر، مع ذلك لاحظت سحابة حزن تظلل ملامحها طوال الوقت وكأنها ولدت بها.

عدت لمنزلي بعد ما أوصلني سائقها إلى السيدة زينب،

ليلتها منحت نفسي إجازة طويلة، أردت النوم لأطول وقت ممكن، لكن معدتي كان لها رأي آخر وافقت عليه بغير اعتراض، طلبت بالتليفون وجبة عشاء محترمة بمستلزماتها من حاتي الملك بالعباسية، دفعت فيها بغير استخسار خمسة وثلاثين قرشًا والتهمت كيلو كباب بمفردي، بعد ما امتلأ بطني نمت لساعات طويلة لا أدري عددها، وصحوت في اليوم التالي بعد العصر، لديَّ بضع ساعات متبقية على موعدي الثابت مع الضابط محيي بسينما مترو. تثاءبت في سريري حتى غفوت، صحوت بعد المغرب بساعة مفزوعًا على طرقات متتالية تكاد تخلع باب شقتي، نهضت لأستطلع الأمر وفي ظني أن محيي بك أتى لبيتي بعد ما فاتني موعد اللقاء، قبل وصولي للباب كان قد انفسخ من شدة الدفع والطرق، واندفع أكثر من عشرة رجال كعاصفة هبَّت فجأة، بعضهم يرتدي معاطف سوداء، لمحت من بينهم ضابط بوليس بالزي الرسمي، هوى بكفه على وجهي بلا سبب وأمرهم بتفتيش مسكني، قبضوا عليَّ واصطحبوني معهم بجلباب النوم، وعندما وصلت إلى قسم البوليس اكتشفت أن تهمتي هي الاشتراك في حريق القاهرة، مع أنني كنت نائمًا.

***

«أيها السادة، لقد سجَّل التاريخ يوم الرابع عشر من نوفمبر من عام 1951 في أبرز صفحاته، فقد سارت فيه أكبر مظاهرة عرفها العالم، وأوشكت

أن تضم مليونين من الخلق يتقدمهم النحاس باشا ووزراؤه متقلدين الأوسمة والنياشين بعد إلغاء معاهدة 1936 مع إنجلترا، ساروا كاظمين الغيظ، صامتين، حتى بلغوا ميدان الإسماعيلية فاحتشدوا فيه، ليُعلنوا أن هذا

الشعب قد نفد صبره، وعاهدوا الله على الكفاح حتى الموت، وبغير إسرافٍ فإن كل صبي بلغ العاشرة، وكل يافعٍ وكل كهلٍ وشيخٍ خرجوا من بيوتهم حينما أصبح الصباح فلم يبقَ بالبيوت إلا الأطفال، فكثير من نساء

القاهرة شاركن في المسيرة، وكثير من المرضى، حتى الضريرين منهم، شاركوا خلف لافتة مكتوب عليها جمعية النور للنهضة

بمكفوفي البصر بالزيتون»

شكري تاج الدين - 8

«أين الكساء يا ملك النساء» دوَّى الهتاف الذي ردَّده شباب الجماعة عقب خروجنا من مسجد الرفاعي، لكن التعليمات واضحة.. سرعة التحرك وعدم التعرض للمتظاهرين، نفذتها حرفيًّا، اخترت ركوب السيارة السادسة والأخيرة في الموكب، كي أُطيل وقت وقوفي لأمتع عيني وأشنف أذني بالهتاف. عقب وصولنا لقصر عابدين أبلغني مدير مكتبي بإشارة للسفر بعد ساعة من الآن، أعطاني خط السير، وصول الإسكندرية بالقطار الملكي إلى قصر المنتزه قبل حلول المساء، وفي صباح الغد لقاء بقصر رأس التين مع الملك عبد العزيز ورئيس وزراء بريطانيا على مأدبة غداء، والعودة للقاهرة في اليوم الثالث بعد إفطار ملكي بنادي السيارات مع بعض الأمراء والباشوات، وربما يتواجد رئيس الوزراء ووزيرا الداخلية والحربية. تحركت مع الركب حتى وصلنا إلى المحطة الملكية، هبط فاروق واستقل سيارة من أمام بوابة قصر المنتزه وقادها بنفسه، ليلتها أعطانا قائد الحرس راحة حتى السابعة من صباح الغد، رغم أن الملك لا يستيقظ قبل العاشرة صباحًا في أفضل الأحوال.

خرجت بمفردي من قصر المنتزه لأتنزه على الكورنيش،

قرب المندرة جلست على دكة خشبية لربع الساعة، متظاهرًا بمراقبة صيادي السمك، ولمّا تأكدت أن لا أحد يتبعني قفزت في أقرب تاكسي إلى محطة الرمل، أجريت اتصالًا من كابينة عمومية بشقة الصليبة، تلقى الاتصال المندوب المقيم، أبلغته بمضمون خطوط السير والاجتماع المتوقع مثلما أفعل كل مرة منذ تعييني، واتفقنا على معاودة الاتصال بعد ساعة لتلقي التكليف إن وجد.

بعد مرور الساعة أبلغني المندوب بأن مكتب الإرشاد يولي اللقاء أهمية كبرى، ونبّه عليَّ بضرورة الحرص على التواجد قريبًا من مكان الاجتماع لالتقاط أي معلومات. كان واضحًا من طريقة كلامه أنه يقرأ تعليمات مكتوبة، وضعت السماعة ودار ذهني، ما يطلبونه هذه المرة شبه مستحيل ولم يسبق لي فعله، ثم إن مكانتي لا تسمح لي بالاقتراب من الدائرة الأولى المحيطة بالملك، فهو لا يثق إلا في حارسه الألباني رستم، ووقت الاجتماع سأكون خارج الغرفة، وربما خارج قصر رأس التين قرب البحر. جلست على مقهى قريب حائرًا، اقترب مني بائع فستق وهو يصيح: «جوز والا فرد»، لعبت وكسبت، لكني أعطيته عشرة قروش، راح الرجل يدعو لي بطول العمر، فابتسمت له قائلًا:

- ادعي لي يا عم دعوة حلوة.. وسيبك من الأعمار لأنها بيد الله.

- ربنا ينور طريقك ويسهل أمورك.

صباح اليوم التالي وصل رئيس الوزراء البريطاني تشرشل لقصر رأس التين بغير رباط عنق، فالزيارة غير رسمية، لكن في آخر لحظة ارتدى الملك بدلة «بونجور» رمادية رسمية كاملة، واستلزم الأمر أن يتبعه ضيوفه، كان الملك عبد العزيز يرتدي عباءة فوق زيه الرسمي فدخل الصالون دون مشكلة، لكن التشريفات الملكية طلبت من رئيس وزراء بريطانيا أن يرتدي رباط عنق. لم يكن أحد من مرافقيه يرتدي زيًّا رسميًّا، تخففوا جميعًا من ملابسهم كأنهم في نزهة، ما لم يحسبوا له حسابًا أن المزاج الملكي تقلب في اللحظة الأخيرة، ولا بد من الطاعة مهما كانت مكانة الضيف.

تحسست رباط عنقي لا إراديًا، أدركت أن القدر ابتسم لي، لكن رئيس الديوان تجاهلني وأمر أحد معاونيه بإحضار واحدة بسرعة من المكتب لتشرشل، ولأن القدر استجاب من البداية لدعاء بائع الفستق فقد تأخر المعاون في إحضار رباط العنق، وأبلغنا الشماشرجي محمد حسن أن الملك في طريقه للصالون بعد دقيقة واحدة، ولم يعُد لائقًا أن يدخل الملك إلى

الاجتماع ومن بعده رئيس الوزراء الإنجليزي متأخرًا، ارتبك موظفو الديوان وناداني قائد الحرس الملكي بنبرةٍ آمرة:

- بكباشي شكري.. هات الكرافت بتاعتك خلينا نخلص قبل ما مزاج جلالته يتعكر.

خلعتها بسرعة وسلمتها له فأعطاها على الفور لرئيس الوزراء البريطاني الذي بدا مندهشًا بعض الشيء ممَّا يحدث، تبادلت عبارات شكر قصيرة بالإنجليزية مع تشرشل لكنها سمحت ببقائي بالقرب من مكان الاجتماع لوقتٍ أطول، ربما لم ينتبهوا لوجودي، وربما شعروا بحرج مني بعد ما أخذوا رباط عنقي، فلم يأمروني بالانتظار قرب موكب السيارات كالعادة.

وقفت على مقربة من السفير الإنجليزي الذي لم يُسمَح له بالدخول، سمعت أحاديثهم قبل وبعد اللقاء، وأخذت فكرة عمَّا ستدور المباحثات حوله. لم يكن الأمر جللًا ولا عاجلًا كما ظن مكتب الإرشاد، الاجتماع كان عن فلسطين وحقوق أهلها، مباحثات أشبه بعناوين الصحف التي ستمدح حكمة فاروق غدًا، كما مدحتها في كل مباحثاته الناجحة السابقة. ينتابني شعور قوي بعد كل الزيارات الرسمية التي حضرتها منذ اليوم الأول لدخولي القصر أن الملك يشعر بالوحدة

والملل، ويُخيل لي أحيانًا أنه يرتب اجتماعات غامضة، مبهمة، ليُسلي وقته ويشغل مَن حوله والصحف من بعدهم بالحديث عنه، الآن أصبحت موقنًا أن الملك لا يطيق أمور الحكم، لا صبر له على السياسة ولا قدرة على احتمال السياسيين، مجرد شاب يحب اللهو، اختار أن يسجن نفسه وراء قضبان المراهقة، وما يتطلبه واجبه أكبر من قدرات عقله، ينحني شعوره بالمسئولية لمتعة الطيش كلما لاحت الفرصة، حتى كبرت نزواته ولم يعُد يستطيع المقاومة.

هززت رأسي متذكرًا عندما كان كل فترة يفاجئ الطباخين بالمطبخ الملكي، ويمسك بالمخرطة محاولًا إعداد عيدان الملوخية للطهو، أحيانًا نجده في الجراج يفحص سيارة مع ميكانيكي القصر، وفجأة يغافله بوضع بعض الماء في المحرك ليُصعب المهمة عليه، كان يهرب في كثير من الأحيان من الحراسة، ويقود سيارته الألفاروميو الصغيرة ذات السقف المكشوف بمفرده، تتبعته مرة بدراجة بخارية ولحقت به، لمحت في عينيه فرحة طفل بقدرته على الاختباء لفترة طويلة ممَّن يطاردونه، تذكرت شعوري وأنا صغير عندما كنَّا نلعب الغُميضة، لكن فاروق بداخله طفل لم يكبر، ويحتفظ في عقله بمهرج كبير يحرص على إظهاره طوال الوقت، ربما كان مكبوتًا فأفلته بلا ضابط، لكن عندما

ينتقل المهرج إلى القصر لا يصبح ملكًا، إنما يتحول القصر إلى سيرك، كما كانت تقول جدتي أنيسة في أمثالها التركية التي لا تمل من روايتها لنا.

نقلت انطباعي لمكتب الإرشاد في تقريري الشهري، لكنهم أبلغوني بعدم دقة ملاحظتي وسقوطي في فخ يُتقن فاروق نصبه. لدى مكتب الإرشاد قناعة أن الملك شديد الخبث، حاد الذكاء، يتعمد الظهور بمظهر البسيط أمام الجميع لينخدعوا به، ولا يعرفون في أي شيءٍ يفكر وما الذي يخطط له في الغد، لكني ما زلت على قناعتي، أن الغد صار قريبًا، وأن الملك نفسه يتعجل قدره أكثر من أعضاء مكتب الإرشاد وتنظيم الضباط الأحرار، الذي صرنا نسمع عنه بقوة وكأنه حقيقة مرئية للجميع، وليس تنظيمًا سريًا ضعيفًا كما يؤكد وزير الحربية حيدر باشا للملك باستمرار.

انصرف الضيوف عقب مأدبة إفطار ملكية بسيطة بقصر المنتزه هذه المرة، اكتفى فاروق يومها بالاستيقاظ مبكرًا، رأى أنه بهذا العمل قد أدى ما عليه، ولا داعي للانتقال إلى قصر رأس التين فدعاهم لمائدته. بعد ساعة كان العاهل السعودي يغادر بموكب غير رسمي من أربع سيارات ملكية مع حاشيته إلى ميناء الإسكندرية، ولحقه رئيس وزراء

بريطانيا بعد نصف الساعة في طريقه للقاهرة ليستقل الطائرة إلى لندن، قبيل مغادرة تشرشل طلب لقائي ليشكرني، ذهبت إلى سيارته، ترجّل وصافحني بودٍّ شديد، أعاد على مسامعي عبارات الشكر على تقديم رباط العنق قبل أن يُعيده لي مدير المراسم البريطاني، رجوت تشرشل أن يحتفظ به على سبيل الذكرى، تقبّل الرجل الهدية بامتنان، ابتسم ابتسامة ماكرة ونزع دبوسًا ذهبيًا من عروة سترته وثبّته في سترتي الرسمية، وعندما لمح دهشتي أوضح أنه من أجل تأكيد روابط الصداقة العميقة بين مصر وبريطانيا العظمي.

أديت له التحية العسكرية وانصرفت وأنا أتحسس الدبوس على صدري، وطوال طريق العودة للقاهرة كنت أتخيل ما سأحكيه لأولادي عنه، وما سيحكونه لأولادهم عندما يكبرون. حفرت لي أمينة أول حرفين من اسمي ولقبي (.S T). على الدبوس كي أستعمله، ورغم أنه احتل مكانة مميزة في عقلي، إلا أنه استقر في دولابي ولم يجذبني لارتدائه، حتى ضاقت أحوالي المالية مؤخرًا بسبب تأخر وصول معونة والدي، وزيادة دعمي المالي لنشاط الجماعة في الشهور الأخيرة من راتبي ممّا فاق طاقتي، وقتها طرأت في ذهني فكرة أيقنت أنني سأجني من ورائها مكسبًا يفوق

قيمته، بعد ما تذكرت ما قاله لي حبشي عن الذي يدور في كواليس صالات المزاد.

اليوم أجلس في مكتبي بقصر عابدين، وكلما تذكرت ما حدث يومها أبتسم ابتسامة أمكر من تلك التي ابتسمها لي رئيس وزراء بريطانيا وهو يهديني هديته، متذكرًا كيف تم بيع الدبوس في المزاد أمس بمبلغ فلكي لو تخيله تشرشل نفسه لسبقني إلى صالة أورفانيللي.

***

غلب اللون الأحمر على المشهد، سترات الضباط والعساكر وأفراد فرقة الخيَّالة والموسيقى، تضامنت شمس النهار الدافئة مع الملك في فرحته، الوجوه باشة، والثغور باسمة، والأفئدة مسرورة، الكل يتأهب للمشاركة في مراسم الاحتفال الملكي السعيد بولي العهد الجديد، خابت توقعاتي بتأجيل مراسم الاحتفال حدادًا على أرواح زملائي الذين استُشهدوا أمس بالإسماعيلية وهم يقاومون الإنجليز، رغم عدم اقتناعي بجدوى المقاومة، فكل شيءٍ يُنال بالصبر والمسألة مسألة وقت، والاحتلال إلى زوال.

أحاطت فرقة الخيالة بصفوف كتيبة المشاة التي أشرفت على تشكيلاتها منذ الصباح بميدان سراي عابدين، منذ قليل

تأكدت للمرة الثالثة من تطبيق الإجراءات الأمنية بالشوادر الكبيرة المقامة للمواطنين الذين يشاركون في الاحتفال بالطعام والشراب، ثم بالدعاء لمولانا ملك البلاد بهتاف موحد عند وصولهم.

عُدت للساحة، وجدت الوزراء والأمراء والكبراء اصطفوا في صفين كبيرين انتظارًا لتشريف فاروق، صدحت الموسيقى العسكرية بالسلام الملكي فانتبهت، ظهر الملك أمامي قادمًا من أقصى حديقة القصر في عربة من عربات التشريفات، أظن أنها الخاصة بجده الخديوِ إسماعيل، تجرها أربعة جياد ضخمة تتهادى في مشيتها، اقترب من باب العربة رئيس الوزراء وبجواره قائد الحرس الملكي، واندس بينهما الحارس الألباني رستم، وعيناه لا تكفان عن الدوران، هبط الملك بتؤدة ودخل القصر مكتفيًا برفع يده لتحية الموجودين منذ ساعات، في لقطة لم تستغرق سوى بضع ثوانٍ. دخلنا البهو لتناول المرطبات والقهوة قبل مأدبة الغداء، التي دُعي لها كبار رجال الجيش والبوليس والحكومة، مكاني لم يكن بعيدًا عن الملك، أراه بوضوح وأرى المائدة العامرة بوضوح أكثر، حتى جرى ريقي وشعرت بجوع غريب، مضت الدقائق روتينية مملة، لكن قبل أن يبدأ فاروق في تناول طبق الحساء أتى ياوره من يساره، وهمس في

أذنه بكلمات كانت كافية لتُعكر مزاجه.

ظهر في السماء فجأة شريط عريض من الدخان، سرعان ما كساها كلها وكأنها مراسم غروب مبكر، غامت الرؤية وتوتر المدعوون، ووقفت اللقمة في حلوقهم، اقتربت من الملك واضعًا يدي على مسدسي، وبدا لي وجهه وقد اسودَّ وتاهت ملامحه كأن السماء أنزلت غضبها عليه. نبهنا قائد البوليس الملكي باتخاذ وضع الاستعداد التام، انتفضنا وأحطنا بالمائدة في عدة دوائر، لم يُسمح للمدعوين بالمغادرة باستثناء وزير الحربية، الذي همس في أذن فاروق بكلمات قليلة بعد ما أجرى مكالمة هاتفية قصيرة بالداخل، هذه المرة مالت ملامح الملك للهدوء دون سبب منطقي، رغم أن رائحة البارود والدخان بدأت تداعب أنوفنا، ألتقط فاروق بعض حبات الزيتون ووضعها في فمه ببطءٍ تباعًا وهو شارد قليلًا، لكنها على كل حال كانت إشارة للجميع باستئناف تناول طعامهم، ظلت عيني مثبتة عليه بينما ذهني لا يتوقف عن الدوران في عملية «كش ملك»، فيما يبدو بدأ تنفيذها مبكرًا عن موعدها بتدبير من الإنجليز مع النظام الخاص للجماعة، زفرت في ضيق، صمَّم عبد الرحمن السندي على رأيه رغم عدم اكتمال أصوات الموافقة من أعضاء مكتب الإرشاد، ويومها امتنعت عن التصويت.

عاد وزير الحربية هامسًا في أذن فاروق لمرة ثالثة لكن ملامح الملك ظلت محايدة، القاهرة تحترق والدخان يتسلل لأنوفنا، والكل على المائدة يمضغ ببطءٍ ويبتلع بصعوبة، لكن لا أحد يملك الشجاعة لمغادرة مكانه.

***

«وبهذه المناسبة الميمونة أعلن الديوان الملكي النبأ السعيد، أن جلالة الملك أطلق لقب أمير الصعيد على الطفل الوليد، وصدر المرسوم الملكي

الكريم بإطعام مائة ألف فقير، وعشرة جنيهات لكل مولود ذكر ولد

في السادس عشر من يناير الحالي، وإنشاء مؤسستين اجتماعيتين باسم

الأمير في القاهرة والخرطوم، وابتهاجًا بميلاد ولي العهد تقرر

منح الموظفين إجازة اليوم، مع تعطيل الدراسة احتفالًا بهذه

البشرى السارة التي عمَّت البلاد»

فهمي تاج الدين - 9

وقفت أتأمل لافتة مكتب المحاماة النحاسية اللامعة، ظل مغلقًا لسنوات حتى غطاها التراب بعد ما فرغ من مقبض الباب وعتبته، خرج أبي مرة ثانية من الوزارة ويبدو أنها الأخيرة، لا الصحة ولا العمر ولا حتى المزاج يسمحون له بالعودة مرة ثالثة، ربما كان ذلك أفضل له فالوزارات لا تعيش طويلًا الآن، ولم يعُد لقب وزير سابق مغريًا كما كان، بعد ما امتلأت بهم النوادي والمنتديات، وربما يزحفون إلى مقاهي القاهرة قريبًا من فرط كثرتهم.

سمعت أصواتًا غير عادية أشبه بانفجارات مكتومة، تناثرت صرخات تنبئ عن هلع تلتها هتافات غير واضحة لكنها منتظمة، جريت ناحية أقرب نافذة تطل على شارع عبد الخالق ثروت باشا، وجدت مظاهرات تجتاح الشوارع، لاحظت بها عساكر بوليس وأفندية بطرابيش وطلبة جامعات وربما مدارس، أناس يصرخون وآخرون يهرولون، وفئة ثالثة تروح وتجيء في مسافات قصيرة حاملة زجاجات تلقيها على واجهات المحلات بينما يبدو البوليس وكأنه يحرسهم.

رأيت دخانًا كثيفًا ينبعث من مبانٍ قريبةٍ وأخريات بعيدة

بعضه يشي بوقوع حريق هائل لا أعرف مصدر نيرانه، لكن من السهل استنتاج أنها من ناحية ميدان الأوبرا.

«أيكون الكازينو الذي أسهر فيه كل أسبوع؟»

تساءلت بصوتٍ عالٍ، فلم يُجبني سوى وكيل المكتب:

- غالبًا يا فهمي بك.. ربنا يلطف.. منظر الناس ناوي على الشر.

تركت المكتب دون لقاء أبي، وجدت نفسي محشورًا بعد ثوانٍ بين جماهير غفيرة، سِرت معهم مرغمًا لا أستطيع العودة للوراء مثل عقارب الساعة، كلما مررنا ببنك أو دار سينما أو مكاتب تجارية وجدتها محترقة أو في طريقها للاشتعال بالزجاجات إيَّاها، كأنهم يوزعونها على المتظاهرين، النيران لا تفرق بين المباني، تحرق كل ما نمر أمامه أو بجواره، تروح الناس وتجيء فاختلط عليَّ الأمر بين الفاعل والخائف والمجني عليه.

تجاوزت حيرتي أعمدة الدخان، حاولت العودة لسيارتي فلم أستطع، الناس تسير في نهر الطريق كأنه يوم الحشر، تتم أمامي عمليات سلب ونهب من واجهات المحلات التجارية وأنا متفرج بلا حيلة، مررت فوق جثث لا تزال

دماؤها ساخنة، وتجاوزت عشرات الجرحى الممددين بالطرقات، بعضهم ينزف والكل يتأوه من كسور وحروق، أشخاص يصطدمون بي وآخرون يدفعونني للوراء وأحيانًا للأمام، أسقط وأنهض كأنني في سباق، عين تدمع من الدخان وأخرى على اختفاء وجه القاهرة الجميل خلف أخاديد التخريب وندوب الحريق.

وصلت بعد ساعتين من السير والركض إلى مبنى النيابة، كنت في حالة يرثى لها كما وصفني زملائي، جلست ألتقط أنفاسي وأرتشف بعض الماء لعلي أهدأ، لا أحد هنا يعرف ما الذي حدث ومتى بدأ ومَن وراءه، كدت أصرخ: «أنا شاهد عيان، رأيت شبابًا يحرقون ويسرقون، بعضهم يصيح الله أكبر، وبعضهم يفعلها في صمتٍ بوجهٍ مبتسم مُتشفٍّ، وابتسامة خبيثة لا تخلو من شر، ملامح ضاحكة خادعة مثل وجوه الضباع، الغالبية تتصرف بعشوائية، وقلة تعرف كيف تُضرم النيران وتُهيج الجماهير». تسمَّرت في مكاني بجوار الراديو أستمع لأنباء عن الحريق فلم أجد سوى خبر مقتضب، أذاعوا أن قلة منحرفة أضرمت النيران في بعض المحلات، وأعلنوا الأحكام العرفية كالعادة، صار النحاس باشا رئيس الوزارة حاكمًا عسكريًا، هكذا ببساطة اختصروا ما حدث وربما ما زال يحدث في بضع كلمات لا تتجاوز سطرًا

واحدًا، تلاها المذيع وربما هرب بعدها لينجو بنفسه خوفًا من اقتحام مبنى الإذاعة وحرقه.

بعد بضع ساعات تلقينا عشرات المحاضر والإخطارات من البوليس، محررة على عجالة، شبه عشوائية، أشبه بكتابات صحفيين تحت التمرين، قرب الفجر بدأنا التحقيق عقب اجتماع قصير مع النائب العمومي، وبعد العصر أخذنا نتساءل في استراحة قصيرة، هل الحريق نتيجة انفجار سخط شعبي، أم عملية مدبرة والشعب فيها من المتفرجين؟ بعد مرور أسبوع وضعت يدي على الإجابة عندما كبرت قناعتي بتدبير الحوادث والتخطيط للحرائق، أما السرقات فكانت هي الوحيدة العشوائية العابرة، أيقنت أنها خطة محكمة لحرق القاهرة في وقتٍ واحد، أعد لها بعناية محترفون وكنت شاهدًا عليهم، لكنهم في مكتب النائب العمومي رفضوا أن أُدلي بشهادتي وفضلوا أن أكون محققًا.

ظلت كوابيسي تُعيد مشاهد منتقاة من واقعي كل ليلة في منامي، رأيت رجلًا أو اثنين في أغلب الشوارع التي مررت عليها يقودان عددًا من الصبية والشباب، تُعطى لهم التعليمات فينفذونها على الفور، ثم تعلو الهتافات لتندفع جمهرة من المتفرجين الذين قد يشاركون أو يعزفون وأحيانًا

يهربون.. بعضهم من السارقين المستغلين للحظة توقف فيها التاريخ، وأغمض القانون عينيه للحظة تاهت فيها القاهرة.

بعد عشرة أيام من التحقيقات قدَّم لنا البوليس السياسي دليلًا دامغًا كما وصفوه، ربما شعروا بإحباطنا وفتور حماسنا فتعطفوا علينا بما يُشبع فضولنا للمعرفة، سلمونا تقريرًا فنيًا مدعمًا برسم هندسي لبعض أحياء القاهرة المحترقة، وجدت به أسهمًا تشير لمكان الحريق بالزجاجات الحارقة، ومرفق رسم آخر لكيفية تصنيع تلك العبوات، انتهى التقرير بتحريات تفيد بأن هذه الأوراق ضُبطت بمقر حزب مصر الفتاة الذي يرأسه المحامي أحمد حسين، صار هو المتهم الأول وربما الوحيد. أخذت أُقلب في الأوراق وخالجني كثير من الشك في تسلل الافتعال لها، كلها مطبوعة بالزنكوغراف، ولأنني أعرف خبيرًا أرمنيًا كنت ألجأ له في تحقيقات القضايا المهمة فاستدعيته، وعندما اطلع على الرسومات المطبوعة كبرت شكوكه، وغلبه الظن أن الرسومات والتقارير الفنية مطبوعة بمطبعة صغيرة في زقاق بحي الفجالة، أخبرني في ثقة بأنه سبق له فحص رسومات مشابهة لها وصادرة عن المطبعة ذاتها في قضايا قديمة.

عرضت الأمر على النائب العمومي فانتدبني للانتقال إلى

المطبعة، أجريت تحقيقًا موسعًا على مدار يومين، انتهيت فيه من أقوال الشهود إلى أن أحد ضباط حكمدارية القاهرة حمل لهم هذه الرسومات، وطبع هذه الوثيقة الزائفة والدليل المصطنع، لم أتوصل لتحديد شخصية الضابط، وبدلًا من الخروج من التحقيقات بأجوبة وجدتني محملًا بمزيدٍ من الأسئلة.. لماذا يريد البوليس إلصاق التهمة بحزب مصر الفتاة وحده بعد ما استبعد الإخوان المسلمين وغيرهم؟ ربما لأن أحمد حسين رئيس الحزب لا يزال هاربًا، فلا بأس من زيادة الحمولة عليه.. ربما.

طويت أوراقي على حيرتي، وشردت في وصف الشهود من عُمَّال المطبعة لضابط مباحث القاهرة الذي حضر إليهم حاملًا التقارير المزيفة طالبًا طباعتها، ولولا يقيني أنه كان بعيدًا عن المباحث وقتها وقريبًا من الملك في قصر عابدين وفقًا لشهود أثق في روايتهم لأقسمت إنها أوصافه ولا تنطبق على أحدٍ سواه.

بعد ما يقارب مائة وخمسين يومًا من الحريق غادرت النيابة لمرة أخيرة، اعتذرت عن عدم استكمال التحقيقات متعللًا بوعكة صحية، وأدركت أن الله حتى لو مد عمري ألف عام فلن أعرف أبدًا مَن الذي حرق القاهرة.

***

استمرت أمي في العزف على البيانو، بينما لا تزال جدتي تهز رأسها بانسجام مع مقطوعة «موعد في الجنة»، رغم أنها فقدت الكثير من سمعها قبل بصرها، تمددت بجوارها على الأريكة ووضعت رأسي في حجرها، امتدت أناملها تلقائيًا لتعبث بخصلات شعري، وقالت ضاحكة:

- إنت بقيت أصلع يا ولد يا فهمي؟

طبعت قبلة على كفها وطلبت منها تكثيف الدعاء هذه الأيام، توقفت أمي عن العزف ولفت جسدها بمقعد البيانو الدوار سائلة بعينيها في قلق عن أحوالي، قبل أن تنفتح في الكلام عن تأخر زواجي أجبتها مؤكدًا أنني على ما يرام، خفت أن تسألني عن قطيعتي مع شكري، لا بد لاحظت جفاءً مكتومًا بيننا عندما يأتي لزيارتنا مع أمينة، أشحت بوجهي بعيدًا عنها لأتفادى نظراتها، وتحدثت عن التحقيقات الطويلة والإجهاد الذي أشعر به بسببها، لكن وجه أنيسة عبس وهي تقاطعني، توقعت أنها تآمرت مع أمي مرة رابعة أو خامسة وستفتح معي موضوع تأخر زواجي في هذه اللحظة، وتبدأ في ترشيح ابنة فلانة وابنة علان كعادتها، وبعدها أنال نصيبي من التقريع على إنفاق ماهيتي في رهانات الخيول،

لكنها فاجأتني قائلة:

- عرفتم مين اللي حرق البلد؟

- لسة يا نينة، لكن المحامي أحمد حسين هو المتهم الرئيسي لغاية النهارده، إحنا بنحقق وأكيد..

- وأكيد حتقفلوا القضية قريب، إنتم غالبًا طولتم مدة التحقيق علشان الناس تتلهي في حاجة تانية وتنسى، زي أي حاجة في بلدنا. جدك الله يرحمه كان دايمًا يقول كده.. ربنا يعينك يا فهمي.

أنهت كلامها وقرعت جرسًا صغيرًا لتستدعي جليستها الجديدة لتذهب بها إلى غرفتها، لم يستطع أحد ملء فراغ الست شفيقة، الوحيدة التي ارتاحت لها جدتي، وكأن شفيقة كانت تُطيل في عمرها من سنين حياتها، مثلما أطال حبشي ابنها في حياة شكري وجماعته بإذاعته ذات الموجات القصيرة التي لم يكونوا يحلمون بها.

عادت أمي للعزف، هذه المرة لعبت مقطوعة حزينة تخللت نغماتها روحي، كأنها تضع موسيقى في الخلفية تناسب حالي، أسوأ ما يمر به المرء أن يحزن من نفسه وعلى نفسه في آن، أنهكتني قضية حريق القاهرة نفسيًا، أتت على ما تبقى من

شتات روحي، خمسة أشهر من تحقيقات نصل فيها الليل بالنهار ولا نصل إلى شيء، لم يعُد أحمد حسين هاربًا، الآن يُحاكم وحده أمام محكمة عسكرية، الشكوك تسانده وترشح براءته، والفاعل لا يزال يتحكم فينا أو يحكمنا على السواء.. هذا المجهول الذي يرتكب كل جرائمنا.

قدمت طلبًا للنائب العمومي لإنهاء انتدابي بنيابة حوادث مصر، والموافقة على سفري إلى باريس لاستكمال الدكتوراه، لم أُبلغ أمي وأبي وأنيسة إلى الآن، أشعر بأنهم يستمدون طمأنينة من وجودي، حتى ولو كانوا لا يرونني إلا بضع دقائق كل يوم، لكنني لم أعُد أستطيع البقاء في هذا الجو الخانق، كل شيءٍ من حولي له رائحة تزكم الأنوف، الغريب أن لا أحد يعترض ولا حتى يتأفف، ومع ذلك أشعر بثقل خطواتي كلما اقترب موعد سفري، حجزت تذكرة إلى مارسيليا بالباخرة من الإسكندرية، وكلما أخرجتها من حافظتي وتأملتها شعرت بحنين، رغم أنني لم أُغادر جاردن سيتي بعد، صرت مثل شخص تائه يدور في مكان رحب لكنه لا يتسع لأحلامه.

***

«وقد اندلعت الحرائق في العاصمة أمس قبل الظهر بعد ما بدأت الشرارة الأولى من كازينو صفية حلمي بميدان الأوبرا، ووقعت حوادث

يؤسَف لها، وأُعلنت الأحكام العرفية، ويؤخذ من إحصاء وزارة الداخلية أن عدد القتلى في القاهرة بلغ حتى الآن أكثر من ثلاثين قتيلًا،

وتجاوز عدد الجرحى الألف جريح، وطالت النيران أكثر من خمسمائة مؤسسة ومتجر خاص من بينها فندق شبرد الذي احترق بالكامل، فضلًا عن

أربعين دارًا للسينما والمئات من حانات الخمور وصالات الرقص وبعض النوادي الخاصة، وقد أصدر النائب العمومي قرارًا بتشكيل فريق من المحققين من نيابات مصر برئاسة أحد السادة رؤساء النيابة العامة، ولا يزال التحقيق مستمرًّا، والفاعل حتى الآن مجهول»

شكري تاج الدين - 9

كنت منهمكًا في القراءة عندما أخبرني مدير مكتبي بأن ضيفًا بالاستراحة يريد لقائي، أضأت الأباجورة بعد ما انحسر آخر ضوء للشمس عن غرفتي، طويت الجريدة وزفرت في ضيقٍ ممَّا قرأت، حكومة الوفد سبقت الجماعة بخطوة عندما ألغت معاهدة 36، انهارت أكبر حُجة للجماعة في مواجهة حزب الوفد والملك، ورغم أن شباب الإخوان شاركوا في معارك بالسويس ضد الاحتلال، لكن شباب الوفد أظهروا بطولة، أو هكذا تصدرت الأخبار عناوين الصحف، اليوم اتحدت كل القوى مع حكومة الوفد ونسوا دورنا وصار مصطفى النحاس باشا للأسف بطلًا قوميًّا.

- اسمه زغلول عبد القادر يا فندم.

عاد سكرتيري يذكرني بالضيف المنتظر بالاستراحة، تذكرت أن الصاغ صلاح عضو مكتب الإرشاد كلفني بتولي مهمة التنسيق مع الضابط المسئول عن تنظيم الضباط الأحرار بالجيش، ولم أكن التقيته من قبل، كل معلوماتي أن هذا الضابط صديق شخصي له، لكن المرشد لا يحبذ هذه الصداقة ولا هذا الاقتراب، وربما لا يريد التعاون على خلاف رأي النظام الخاص بالجماعة الذي رحّب به، ولمَّا بدا عليَّ

عدم الفهم قالها لي يومها الصاغ صلاح:

- بيني وبينك أنا خايف نخسر الضباط لأنهم أقرب للنتيجة منَّا وممكن يساعدونا فوق ما تتخيل لو تحالفنا معهم.. خليك همزة وصل بينًّا وبينهم باعتبارك بعيد حاليًا عن عضوية مكتب الإرشاد وعيون المرشد.

طلبت من مدير المكتب أن يسمح للمدعو زغلول بالدخول، بعد قليل دخل عليّ شاب طالت قامته حتى انحنت قليلًا إلى الأمام، نحف جسده إلى حد الهزال، ولوحت الشمس بشرته فمالت إلى سمار داكن، طويل الأنف إلى حدٍّ لافتٍ للنظر والدهشة معًا، يهيأ لمَن يلقاه أول مرة أنه ساهٍ، لكنَّ في عينيه بريقَ ذكاءٍ غريبٍ لا تلحظه إلا إذا اقتربت، لتكتشف أن ملامحه أقرب للحزن منها إلى المرح، لمحت شبح ابتسامة يحوم حول شفتيه كأنه يصارع حزن صاحبهما ليخسر في النهاية، وبوجه متصلد مثل قالب شمع، وعينين ضيقتين مشعتين بالبريق الغريب، وذراع مستقيمة تنتهي براحة يد قوية، شدَّ على كفِّي وهو يقول بصوتٍ رخيمٍ في ثقة:

- بكباشي جمال عبد الناصر حسين.

عرَّف نفسه باسمه الثلاثي تسبقه رتبته، تلك كانت المرة الوحيدة التي يزورني فيها مرتديًا الزي العسكري، وبعدها

أقلع عن ارتدائه كلما التقينا، أيضًا كانت المرة الأخيرة التي أتعامل معه باسمه الحقيقي، بعد ما اتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا إذا ما اتصل تليفونيًا أو أرسل لي رسالة مع آخرين. ظل اسمه بيني وبينه وأمام الآخرين..

«زغلول عبد القادر».

رغم مرور عامين على هذا اللقاء إلا أنني لا يمكنني نسيان أول مرة التقينا فيها، كان بسيطًا غير متكلف، لكنها بساطة غير مريحة مثل بساطة الغابة، تجعلك حذرًا طوال الوقت خوفًا من لدغة ثعبان أو لسعة عقرب، رغم ذلك تقاربنا، واكتشفت أن بيننا عشرات الأمور المشتركة في طريقة التفكير، جمعتنا هوايات القراءة والصيد ولعب الشطرنج والتصوير، الانخراط في السياسة ومحاولة قراءة المستقبل القريب والإحساس بالقدرة على التغيير، أبدى زغلول اهتمامًا عظيمًا بالإذاعة، فالجهل مستشرٍ والناس مشغولة بلقمة العيش، ومَن يعلو صوته سيصل لعقول الناس أسرع ويستقر فيها. عرفت بعد اللقاء الأول أنه كان عضوًا بجماعتنا، والآن صار مسئولًا عن تنظيم الضباط الأحرار بالجيش، أخبرني بأن هناك مَن يتولى القيادة غيره، في البداية أخفى اسم القائد عني، وأفضى إليَّ بعدها بشهور أنه كان يختبر قدرتي على

كتمان السر ولا قائد غيره، لم أستطع إنكار إعجابي المتزايد به وصارت له مكانة خاصة عندي، وأحسب أنه وضعني في مثلها بقلبه، لكن مع حذري المتزايد وشكه الذي لا ينتهي باتت العلاقة بيننا مع الوقت كطرفي مقص، كلانا مشدود للآخر لكنَّ كلًّا منَّا في اتجاه.

بعد أكثر من خمسة أسابيع من أول لقاء بعث لي برسالة، ألحَّ على لقاء المرشد في أمرٍ عاجل، وطلب حضوري ومَن أريد في الاجتماع المزمع عقده، من جانبه قرر أن يكتفي بواحد فقط، ساورتني الشكوك وغلبتنا جميعًا الحيرة بمكتب الإرشاد عن سبب اللقاء، مع ذلك حددنا موعدًا بعد يومين، وجلست أنتظر حضوره وبجواري الصاغ صلاح واليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف، وآخرون من أعضاء مكتب الإرشاد، طال انتظارنا مع صمتنا الذي لا يقطعه بين حينٍ وآخر إلا إشعالي سيجارة وتأفف الإخوة من كثرة تدخيني.

دخلت في حوار جانبي مع الصاغ صلاح، ثم دقَّ جرس الباب قاطعًا الحديث بيننا، كان الضابط الذي اصطفاه زغلول ليرافقه بالاجتماع، عقدنا اللقاء في بيتي بناءً على طلب الأحرار خوفًا من الرصد والتتبع من القلم السياسي، صافحنا الضابط الأقرب لزغلول، وكنت التقيته من قبل مرتين

وارتحت إليه، شاب أسمر نحيل وسيم اسمه عبد الحكيم عامر، رتبته صاغ، بشوش الوجه ونقي الروح، من طريقة مصافحته وترحيب الأخوة به فهمت أن الغالبية تعرفه، التفت حكيم حوله وهمس سائلًا عن المرشد، أخبرته بأنه سيتأخر بعض الوقت، وأخفيت عنه أنه يتعمد التأخير حتى لا ينتظر زغلول ورفيقه ويجعلهما المنتظرَين، وأغلب الظن أن حكيم فهمها بفطرته عندما ابتسم ابتسامة خبيثة تؤكد ظني. بعد دقائق قليلة دقَّ جرس الباب ثلاث مرات متتالية، صاح عبد المنعم عبد الرؤوف وحكيم في الوقت ذاته:

- دي طريقته في دق الجرس.

دخل علينا زغلول عبد القادر متجهم الوجه، مقطب الجبين، اكتفى بتحية الجميع بسلام مقتضب دون مصافحة، وبينما تتفقد عيناه وجوه الحاضرين وتطمئن إلى الموجودين دخل مباشرة في الموضوع، راح يتحدث عن تنظيم الضباط الأحرار وأن عددهم في ازدياد. بعد كلمات عامة بغير تفصيل أو معلومات اختتم طالبًا من جماعة الإخوان أن تحدد موقفها منهم، وتتعهد بدعمهم والتعاون معهم إذا ما طُلب منها ذلك في أي وقت.

وصلتني رسالته مبكرًا وأدركت أنه يُرهب الحضور بقوتهم

وعتادهم، لكن مكتب الإرشاد لم تصله الرسالة، فانهمرت الأسئلة على رأس زغلول عن التنظيم ووحدات الجيش المشاركة وقواتها وعتادها والتحرك المقترح والخطة التي أعدوها لمواجهة انتخابات نادي الضباط، والخطط البديلة وأهدافهم البعيدة كما سألته أنا، ابتسم لي وحدي ابتسامة ذات مغزى، لكنه كان كتومًا أكثر من اللازم بصورة تشي بتشككه فينا، لم يقُل أي شيءٍ حرفيًا، اكتفى بابتسامة استنكار لكل سؤال، وأحيانًا كان يوجِّه ابتسامته لحكيم فيردها له مضاعفة وكأنه يدعمه في شكوكه بنا، وكأنهما يسخران منَّا أو يريانا قوة غاشمة ربما يلجآن لها وقت اللزوم ولا شيء آخر، لاحظت أيضًا أنه يخفي المعلومات عن اليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف مع أنه منهم، لكنه فيما يبدو حسبه علينا.

بدأت الأجواء تميل للتوتر عندما أفلتت عبارات غير لائقة من الجانبين، خفت أن يتطور الحديث إلى مشادة كبيرة بسبب عنجهية خطاب زغلول، فطلبت من الجميع التزام الصمت انتظارًا لحضور فضيلة المرشد، وفي وسط هذه الرؤية الضبابية لما يمكن أن يحدث، وأحلام الضباط بتنظيم يفوق الجماعة قوة باعتبارهم أقرب للحكم، وجدت أمينة تنادي عليّ لألحق بها في المطبخ، نهضت متأففًا، وعندما

اقتربت منها فاجأتني بصينية كبيرة تحوي أطباقًا كثيرة من الجبن الأبيض وقرون الفلفل وبجوارها بعض القراقيش، ثم همست:

- خليهم ياكلوا لغاية ما الأستاذ المرشد يوصل، صدقني أحسن طريقة تلهي بيها الرجالة إنك تسد بُقهم بالأكل، أمي دايمًا كانت تعمل كده مع أصحاب أبويا لمَّا يجتمعوا في بيتنا، علشان وقت الكلام في الشغل يكونوا شبعوا وراسهم تقلت ويوافقوا على رأيه.

انتهزت فترة الهدنة وملء البطون، ومِلت على أذن زغلول سائلًا عن أسماء ووحدات بقية زملائه من تنظيم الضباط الأحرار، أعرف أن عددهم يفوق الثلاثين في الدائرة الأولى المقربة له، وثلاثمائة في كل الوحدات، لكنه فاجأني قائلًا بصوتٍ عالٍ ردًّا على سؤالي الهامس، وكأنما أراد الإعلان للجميع أن لا أسرار بعد اليوم:

- أنا أثق ثقة عمياء في حكيم، يمكن ده سبب وجوده النهارده، لكن البقية على قلب رجل واحد، بغض النظر عن أسمائهم ووحداتهم، المهم نعرف رأي المستشار الهضيبي رئيسكم.

- قصدك فضيلة المرشد.

قلتها بصوتٍ عالٍ ونبرة لا تخلو من ضيق وربما عصبية، وسط همهمات استنكار من جانب الإخوة معارضة لكلماته، لكن زغلول رد بهدوءٍ وهو يبتلع لقمة من طعامه:

- مرشدكم أنتم يا شكري، بالنسبة لنا هو المستشار رئيس جمعية الإخوان المنحلة.

عاتبته بالصوت العالي ذاته الذي اختاره منهجًا من البداية رغم تراجعه عنه، وسألته مستنكرًا إذا ما كان الآن يتبرأ من جماعة الإخوان وهو منها، وله فيها أكثر من بعض أعضاء مكتب الإرشاد بعد ما أقسم اليمين على المصحف والمسدس أمام عبد الرحمن السندي رئيس النظام الخاص. ارتشف زغلول بعض الماء وهو يرد بهدوء:

- لا لم أتبرأ، لكن الموضوع لا علاقة له بالعواطف، تنظيم ضباط الجيش لازم يكون سري وغير منحاز، أنا دخلت حركات وأحزاب كتير زي ما حكيت لك وممكن تحكي لإخوانك لكن إحنا ولاءنا للبلد، ما ينفعش يبقى فيه عندنا انتماء لجماعة دينية أو حزب سياسي يا أخ شكري.

- فضيلته وصل.

قالها أحد الإخوة وانتفض بقية الإخوان لتحية المرشد

وتوقف الجميع عن الطعام عدا زغلول، حيَّاه بإيماءةٍ مرددًا بخبث أن لا سلام على طعام، وراح يكرر المديح في الجبن الأبيض مراهنًا أنه من ملوي بالمنيا. لم يتحدث المرشد كعادته وبدا أنه حضر رغمًا عنه، لم يستطع مداراة مشاعره عن ملامحه فأعتمت، ولمَّا طال انتظاره التفت إلى زغلول ووضع كفه أسفل ذقنه وساقًا فوق أخرى قبلها وكأنه يقول له.. «هات ما عندك وخلصنا». استكمل زغلول كلامه بعد ما لخَّص أحد الإخوة للمرشد ما دار باللقاء قبل حضوره فقال:

- قسمي بالولاء للإخوان المسلمين كان أيام المرحوم البنا، وبوفاته أنا في حِلٍّ من أي عهد أو التزام، ولو على الضباط فعبد المنعم عبد الرؤوف معاكم في الجماعة، تقدروا تعتبروه ممثل للجيش مؤقتًا، المهم تأييدكم للضباط الأحرار في أي خطوة نقوم بها، وياريت نسمع رأي المستشار علشان ما نضيعش وقته ووقتكم.

بسمل المرشد ثم قال بنبرة هادئة للغاية:

- يا أخ جمال الأمور لا تؤخذ بهذه الصورة، لا بد من نقاش التفاصيل وبيان الخطط والموافقة عليها من مكتب الإرشاد أولًا، وبعدها نقول لك رأينا فيما سنفعله وما نقدر عليه وما نرفضه، الإنجليز كما تعلم عاوزين يزيحوا الملك وكان عندهم

خطة، لكن إحنا بنرفضها بسبب العنف، بينما أنتم في مرحلة تكوين أولية من غير خطط، على الأقل تنضم أنت وضباطك لنا ونقرر سويًا ما يمكن عمله ومتى وكيف.

بدا الضيق على وجه زغلول ربما بسبب مخاطبة المرشد له باسمه الحقيقي، فتوقف عن الطعام مشعلًا سيجارة ورمقني بنظرة عتاب، تجهمت ملامحه وعادت العصبية لنبرته المعتادة وهو يرد:

- عاوز تساوي بين حركة جيش وطني وبين قوات احتلال تتفاوضون معاها في السر وأنتم جمعية دينية؟

- أنا لا أقبل أن تتهمنا بأي..

قبل أن يُتم المرشد حديثه قاطعه زغلول في حدةٍ بالغةٍ بدت أنها تكبر كبالون على وشك الانفجار:

- لا أتهم أحدًا، لكن الأفضل تراجعوا موقفكم مع أصحابكم الإنجليز.

رفعت يدي طالبًا الكلمة وعيني على المرشد أستأذنه، لكنه هز إصبعه رافضًا والتفت لزغلول بغضب قائلًا:

- هذه إهانة لنا ولنفسك قبلنا، إذا كنَّا تفاوضنا أو نسقنا مع الإنجليز بعض الأمور فمن أجل مصلحة البلد كما تقول، حتى

خطة «كش ملك» رفضنا جانب العنف منها رغم أنها من أجل الخلاص من ملك فاسد، ثم من أجل الجلاء فيما بعد عندما تستقر لنا الأمور، لكن دعني أسألك ألم تقُم مؤخرًا باستشارة أصدقائك الأمريكان وحصلت منهم على موافقة مبدئية مشروطة بحماية الملك وعائلته وحاشيته إذا ما تحركتم؟ ثِق يا حضرة البكباشي أن لدينا عيونًا عليكم مثلما لديكم عيونٌ بيننا.

أنهى المرشد كلامه ووجَّه بصره لنا فوجد من الوجوه ارتياحًا إلا أنا، أصابني التوتر، لا أحب أن أوصف بجاسوس ولا أريد خسارة صداقتي بزغلول ورفاقه، نظرت إليه برجاء أن يصمت حتى لا تتوتر الأجواء في النهايات أكثر من البدايات، بدا الأمر كأننا على مشارف خصام وقطيعة، لم أنجح في نزع فتيل الأزمة ولم يساعدني زغلول بسبب حدته، ولا حكيم بمحاولات الترضية للطرفين التي بذلها مخلصًا، أخافتني النبرة التي تحدث بها البكباشي، وبدا لي أنه تغير مائة وثمانين درجة عن الشهور الماضية، صار أكثر جرأة وبانت أنيابه واضحة، العصبية حاضرة كلما عارضنا رأيه أو طرحنا سؤالًا أو حتى طلبنا استفسارًا لما يأمرنا به.

تأهب زغلول وحكيم للمغادرة لكن المرشد سبقهما ونهض

دون سلام أو تحية فنهضنا لتوديعه، اكتفى المرشد بكلمة أخيرة مثل حد السيف وهو ينظر ناحيتهما:

- لا تأييد ولا مباركة على بياض.. أمرنا شورى بيننا وسيظل إلى يوم الدين.

تسمَّرت مكاني، وبينما زغلول يصافحني مودعًا همس في أذني وهو يبتسم ابتسامة صفراء: «إياكم أن تختبروا صبرنا».

***

«ورغم حرارة الطقس في شهر يوليو من كل عام فقد اصطف على جانبي الطريق من المنتزه حتى رأس التين كوكبة من جنود الجيش مع آلاف الخلائق التي احتشدت على طول الطريق من رعايا جلالته لتحيته، وقد ازدهرت الوجوه بشرًا وعمَّ الفرح القلوب وهتفت الحناجر بحياة عامرة لمليكنا

المفدى فاروق الأول حفظه الله»

أمينة سعادة - 6

ما الذي تغير يا ترى؟ أنا أم القاهرة أم شكري؟ ربما ثلاثتنا في وقتٍ واحد، لست متأكدة من شيء، سئمت الحياة وفي الوقت ذاته بداخلي هاجس غريب يشدني إليها، لا أريد العودة لحياتي العادية رغم أن شكري لا يمانع ، لكنه لا يشجع في الوقت ذاته، تلك هي المشكلة فيما يبدو، أنا فشلت في معرفة ما يريده مني.

- مشكلتك يا أمينة إنك عاوزة شكري يفكر لك وبعدها تعملي اللي هو عاوزه.

قالتها نائلة في غضب وهي تضع فنجان الشاي الفارغ متأهبة للانصراف، بعد ما زاد ضجيج أولادي بالمنزل ، فنائلة لديها طفل واحد ولا تحتمل الحياة المزدحمة بالتفاصيل، قبل انصرافها أخذت تروح وتجيء في المسافة بين الشرفة وباب الشقة، وخلالها ألقت بعشرات الأسئلة فوق رأسي وكلها بلا إجابات، جعلتني أعود لحيرة أيام الدراسة مع أني كنت تلميذة متفوقة، لكن الخوف من عدم الإجابة عن أسئلة شفوية ظل يلازمني إلى يومنا هذا. أدخلتني نائلة في متاهة البحث عن جواب لسؤال حول جماعة توقف نشاطها بقرار من رئيس الوزراء، فتوقفت دروسنا الدينية ودعوتنا للدين

بالقرار ذاته.

- الدين من عند ربنا، مش من عند رئيس الوزارة.. فوقي يا أمينة.

ألقت نائلة بآخر كلماتها وتركتني وحيدة بالشرفة، أتأمل المارة والسيارات القليلة التي تمر أمام بيتي في انتظار عودة شكري كعادتي، أخاف أن تبدأ رحلة جنوني من جديد بعد ما عادت كوابيسي إلى منامي، أخبرتني جدتي أن الأحلام السيئة يحملها الشيطان إلى رءوسنا في منتصف الليل ويطردها أذان الفجر منها، أصبحت أتفادى النوم حتى أول خيط نور كي لا أراها.

عندما جاء شكري أمسكت بكفيه كي لا أسقط في هوة اليأس، بدا عليه القلق وانتظر سؤالًا مني مع أنه متعجل كالعادة، طبع قُبلة على وجنتي بطريقة آلية، أعرف أنه سيتركني بعدها وينام أو يخرج للقاء أصدقائه، طال صمتي وابتسمت فارتاحت ملامحه وبدأ يتهيأ للمغادرة، قبل أن يبتعد همست: «أحبك»، لا أنتظر ردًا، أريد همسة أو لمسة أو حتى إيماءة، جرعة خمر من التي توقف عن سقياي بها، لينتشي إحساسي وتتورق أغصاني ويتدفق الحب إلى وجداني. في سري ناجيته: «أريدك بجواري يا شكري، أريد

روحك حتى لو ابتعدت عني بجسدك كل يوم»، لكنه صار شارد الذهن أكثر مني كأنه ينافسني في حيرتي، مشغولًا بالتفكير حتى وهو نائم لساعات ثلاث كل يوم كمَن يطيل في عمره قدر الممكن، اقترحت الذهاب إلى المصيف، فطلب الانتظار لحين عودة الملك فاروق من الإسكندرية حتى يتمكن من رؤيتنا بعد ما يحصل على إجازة من عمله، ولمَّا لمح ضيقي اقترح أن أسافر مع أهلي أو أهله إن أردت.

- أنا محتاجة وجودك جنبي، إنت حتى مش بتشوف ولادك، وما تعرفش هُمَّا في سنة إيه بالمدرسة.

ظل يحدق في وجهي، كمَن يبحث عن إجابة فوق ملامحي، تمتم بكلمات غير مترابطة لم أفهم منها سوى بتر لاقتراحي بالسفر، أن نؤجل كل شيءٍ حتى نهاية شهر يوليو. تركته وابتعدت، لا أريد خوض معارك صغيرة لن أجني منها سوى الخيبة والإحباط. بدأت أعيد حساباتي مع شكري، مثلما آمنت به لسنوات، كفرت بكل مبادئه تباعًا في شهور، ربما كانت نبوءة كاذبة أو دعوة فاسدة، ولا أريد إجهاد ذهني في الركض وراء المعرفة. الآن شكري مجرد طيف، أراه عابرًا كل حين، وحتى لو اكتمل كالقمر فأنا الآن أرى الوجه المظلم فقط، اجتماعات طوال الوقت وانشغال في العمل غالبية

الأسبوع، حتى عندما يحضر إخوانه وغيرهم لبيتنا بالدقي يجتمعون ويتحدثون ويأكلون، ثم يذهب شكري إلى فراشه منهكًا وبعدها يتبخر لأنتظر ظهوره من جديد، كنت أفرك المصباح كل حين لأحقق أمنياتي لكنَّ الجني مشغول عني، لا يلبي طلباتي ولا حتى يفاجئني، صارت الأسطورة قصة عادية تسرب لها الملل وبهتت تفاصيلها، فلم يعُد أحد يتلهف لمعرفة بقية أحداثها.

***

- برافو أمينة.. فينك يا شكري تشوف مراتك بتصطاد البطة من أول خرطوشة.

قالتها نائلة وهي تصفق بحماس طفلة، جذبتُ سيجارة من علبة سجائرها، علمني شكري التدخين وشجعتني نائلة على الاستمرار فيه، نفثتُ دخانها كخيطٍ طويلٍ وتسليت بمتابعته وهو يختفي تباعًا، لم أعُد أسعل كما كان الحال في البدايات. كافأت نفسي بسيجارة ثانية، وأبعدت يد نائلة الممتدة بقطعة من التوست المغطى بالزبدة وشرائح السلمون، كنَّا نجلس في تراس الأوبرج بالفيوم بعد انتهاء الصيد، مؤخرًا لاحظت زيادة في وزني فاتبعت ريجيمًا قاسيًا مع نفسي، أتناول إفطاري وأكتفي طوال اليوم بالفاكهة والماء وفناجين

القهوة، مثلما تفعل المغنية إيديث بياف التي قرأت عنها بمجلاتي بعد ما أعادتها لي وكيلة فرقة الأخوات عقب حل الجماعة.

فردت ساقي على مقعد منخفض، ووضعت لي نائلة وسادة رقيقة كي أريح عليها قدمي التي التوت عند خروجي من «اللبدة». أغمضت عينَيَّ راضية عن مسار حياتي الجديد رغم عودة كوابيسي، أصبحت أرى أمرًا عجيبًا كل مرة، كأنني أقرأ رواية وكل ليلة أرى منها فصلًا جديدًا، أمس أخذتني الكوابيس إلى صحراء شاسعة توغلت فيها بسيارتي، وظهر لي أعراب كثيرون، أشاروا لي ناحية اليسار، لكني أدرت المقود ناحية اليمين بشدة، انحرفت بي السيارة وانقلبت ومع ذلك خرجت سالمة، ولمَّا حاولت البحث عنهم لمساعدتي في إصلاح سيارتي لم أجد أحدًا منهم، ثم هبط الظلام، لكنه لم يكن كثيفًا، وصحوت على صوت ذئاب تعوي، وكالعادة انخرطت في بكاء طويل بعدها.

تخليت عن العباءة التي باتت تشكل عبئًا عليَّ، واحتفظت بالإيشارب رغم محاولات صديقاتي الجديدات ومن قبلهن نائلة في إقناعي بالتخلي عنه، سمعت منهن أشعارًا في جمال شَعري لكن من داخلي ارتحت لارتدائه، شعرت بأنني أفعل

شيئًا بإرادتي دون ضغط من أحد، صرت متفردة، فلا أحد بجاردن سيتي كلها يرتدي الإيشارب مثلي، ولا تربطه سيدة أخرى بطريقتي، كنت أعيده للوراء مع صديقاتي، وأجذبه للأمام ليُغطي رأسي بدروس الجماعة قبل توقفها وحلها، ببساطة أعجبني، اليوم تخليت عنه عندما أصرت نائلة وزوجها على اصطحابي إلى حفلة تنكرية في بيت البرنس وحيد ابن الأميرة شويكار.

جلست وسط مدعوين يرتدون أقنعة سوداء وقبعات كبيرة وملابس غريبة، موسيقى الفالس تستدعي لذاكرتي صورة شكري وهو يراقصني بكازينو الأزبكية، فتنحدر دموعي على وجنتَي، كنت الوحيدة التي ترتدي فستانًا أحمر بغير أكمام، وتركت شعري ينسدل على كتفي، شعرت لأول مرة بشعور غريب، أنني متنكرة بالفعل فزادت حيرتي، أفتقد أنني كنت مرغوبة، محبوبة، لافتة للأنظار، قادرة على جلب البهجة، صِرت أكثر هشاشة، ومع ذلك لا يفكر شكري في ترميمي، مع أنه الوحيد الذي يُحييني بكلماته، أستقبل بقلبي مديح كلماته لجسدي وجمالي وعقلي، كان يُقدِّر الثلاثة فيَّ، الآن ربما لا يراني، كأننا نسير في طريق عمومي وكل منَّا في اتجاه، فقط تولد لحظة مثل ومضة، نقترب فيها وربما تتلامس أكتافنا أو تتلاقى نظراتنا، ثم يذهب كل منَّا إلى طريق مختلف.

فكرت في وحدتي وتشتت أمي معي، حتى استقر تفكيري على ترك شقة الدقي والعودة إلى جاردن سيتي، لسراي سعادة، لغرفتي وحديقتي، إلى كل ما أفتقده منذ سبع سنوات أو ربما يزيد. شجعتني نائلة الخبيثة ففعلت، وعندما خطوت خطوتي الأولى بالسراي سبقتني كلمات أمي، التي لا تمل من ترديدها على مسامعي كأنني تلميذة خائبة.. لا تيأس من تكرار عبارات نمطية عن دخولي القفص الذهبي صغيرة، ولم أكن مؤهلة، ولم تكن كل الأمور واضحة أمامي، تنهي خطبتها الطويلة بأنها طالما حذرتني، لكنني لا أسمع سوى صوتي. ربما معها بعض الحق، أنا لا أدري أين ذهبت الفتاة المتمردة التي كانت بداخلي وكبرت معي، أخشى أن تكون هي التي تغادر جسدي خلسة في أحلامي وتخرج ميتة، والآن تحاول العودة رغمًا عني عبر كوابيسي. أفقدتني كلمات أمي ما تبقى من صوابي وخذلني أبي بسلبيته هذه المرة، صِرت مثل بركان على وشك أن يقذف حممه في وقتٍ واحدٍ ليصير بعدها خاملًا، لم أعُد أتحمل طلبات أطفالي ولا تصرفات بعضهم الصبيانية، استنفدت الحياة الكثير من روحي، وما تبقى من صبري لا يقيني انفلات أعصابي، كل ما أفعله من رحلاتٍ لصيد البط ولعب الكروكيه بنادي الجزيرة وحفلات بيوت صديقاتي الجديدات مجرد مسكنات لألم

كبير، ووجع سنين لم أستطع التعافي منه بعد.

انكسرت على عتبة بيت أهلي مع أني أتيت رافعة راية بيضاء، أطلب الجبر والدفء والونس، وجدت أبي وأمي وأهلي أجمعين يقفون في صف شكري، في البداية تضايقت، ثم أفلتت مني ابتسامة حتى صارت ضحكة مستنكرة لما أسمعه، ألقوا بالعتاب كله فوق رأسي، لم ينصفني أحد مع أنني استسلمت بعد خسارة روحي لكنهم لا يرحمون.

شعرت باغتراب في لياتي الأولى في جاردن سيتي، وأدركت أنني ابتعدت عن مسارات كثيرة في حياتي، لا جدوى من البكاء عليها أو العودة إليها، لا أحد سيحتويني سوى نفسي، ولن يحترمني مخلوق ما دمت لا أجيد التعامل مع ذاتي.

اليوم لن أنام، لم أعُد راغبة في معرفة بقية رواية أحلامي، ظللت مستيقظة حتى النهار، تناولت فناجين مضاعفة من القهوة، واتخذت قرارًا ببدء رحلة طويلة للبحث عن ذاتي، لن أضع اعتبارًا لأي مخلوق، ولن ألجأ للمسكنات مرة ثانية، سأعيش حياتي كما أحب أن تكون، وألونها بألواني المفضلة، لا تلك التي يحبها الآخرون، لكن في اليوم الذي اتخذت فيه قراري بإعادة اكتشاف نفسي صممت نائلة وبعض صديقاتي

على دعوتي للسينما، وافقت تحت إلحاحهن، رغم مزاجي المتقلب وجسدي المنهك من عدم النوم، ذهبنا قبلها بساعتين إلى جروبي، سمعنا الأوركسترا الموسيقية وهي تعزف لمدة ساعة، وتناولنا الشاي مع قطع الجاتوه فانتعشت، ركبنا السيارة مع السائق متجهين إلى شبرا لدخول سينما برودواي الصيفية، جلسنا بالصف قبل الأخير نشاهد فيلم «غادة الكاميليا» لجريتا جاربو وروبرت تايلور في حفلة الساعة السادسة، بعد نصف ساعة من بدء الفيلم سرت نسمة هواء عابرة لفحت وجهي وجلبت إحساسًا بالنوم، فجأة أُضيئت أنوار الصالة وتوقف العرض، ثم ظهر بين الصفوف رجل بدين يرتدي بدلة أنيقة ممسكًا بلافتة كبيرة عليها اسمي.

اصطحبني الرجل الأنيق إلى مكتب الإدارة، لمحت على شفتيه ابتسامة مريحة هدَّأت من روعي قليلًا، دار حول مكتبه وقدَّم لي سماعة التليفون قائلًا بصوتٍ خافت:

- الديوان الملكي على الخط يا هانم.

وجدت صوت شكري يخترق أذني، وبنبرةٍ آمرةٍ لا تحتمل الرجاء أو النقاش أو حتى مجرد الاستفسار طلب عودتي فورًا للبيت، وألا أغادره حتى أتلقى اتصالًا آخر، وقبل أن أرد أغلق الخط في وجهي. غادرت السينما مجبرة، ورغم أنني

شاهدت الفيلم من قبل، وله ذكرى خاصة عندي، إلا أنني كنت أنتظر هذه المرة إكماله حتى كلمة النهاية، لكن شكري كعادته لا بد وأن يضعها عند مشهد معين يقرره وحده.

***

«ونستهل برامجنا في تمام السادسة وخمس وأربعين دقيقة بالموسيقى العسكرية، يعقبها فقرة التمرينات الرياضية مع الأستاذ محمد لطيف،

وفي السابعة وخمس وثلاثين دقيقة حديث ديني لفضيلة الشيخ محمود شلتوت من كبار العلماء، وقبل الثامنة بعشرين دقيقة حديث

الأستاذ عباس محمود العقاد بعنوان: الظروف الحاضرة، ثم نشرة الأخبار

في الثامنة، ونختتم الفترة المسائية بالسلام الملكي»

فهمي تاج الدين - 10

دعا سكرتيري شخصًا لدخول مكتبي دون إذن مني بترحابٍ بالغ، ووجدت شكري أمامي بلباسه العسكري، طلب من السكرتير ألا يُقاطعنا أحد مهما كان الأمر مُلحًا، شعرت بقلق عظيم من نبرته وملامحه المتجهمة، وقف في منتصف الحجرة باسطًا ذراعيه وقال بصوتٍ متهدج:

- معقولة كنت ناوي تسافر من غير ما تودع أخوك؟!

رغم طريقته المسرحية المعتادة إلا أن دمعة انحدرت من عيني، وأطلقت العنان للباقيات بلا لجام، بغير تفكير ألقيت بنفسي بين ذراعيه الممدودتين، استمر عناقنا لفترةٍ ثم جلسنا متقابلين نبتسم بلا سبب. استدعى عقلي كل ذكرياتي مع شكري بمجرد النظر لوجهه، وكنت أحسب أنني فقدت الكثير من ذاكرتي، بعد مشاهد قليلة مشوشة اكتشفت أن ذكرياتنا متطابقة، فعلنا كل شيءٍ سويًا في نصف عمرنا، لكن لو رويت حكايات طفولتي وشبابي سأحكي قصته هو، ولمَّا كبرنا صار شكري البطل الأوحد، وأنا من بعيد مجرد كومبارس متكلم، لكني حتى لا أظهر بوجهي.. مجرد ظل أو صدى صوت ولا شيء أكثر.

- مالك يا فهمي يا خويا؟

ابتسمت بالكاد وهززت رأسي نافيًا أي ضيق، وطردت هواجسي بعبارات ترحيب مجددًا، مع فنجان القهوة الثاني أفصح عن سبب الزيارة، ومع ذلك لم يغير الأمر من مشاعري، كنت أتلكك لأصالحه. قرر شكري لقاء بعض الضباط في بيتنا بجاردن سيتي، وحدد موعدًا الليلة ويُريد مني إعداد الترتيبات، أوضح أن ضيوفه تابعون لتنظيم الضباط الأحرار، لم أندهش، وأعرف من بينهم الصاغ خالد محيي الدين، فيما يبدو أراد شكري إغرائي أكثر عندما أخبرني بأن مؤسس التنظيم سيكون موجودًا، قاطعته غير مبالٍ بضباطه:

- طيب ما هو بيت أبوك، قابلهم من غير إذن ولا ترتيب واتكلموا براحتكم، أنا شأني إيه؟

بدا أشبه بذئبٍ عجوزٍ يتفحص دروب الصحراء قبل أن يتوغل فيها بحثًا عن فريسة شاردة وقال:

- المشكلة إنهم مكشوفين للقصر والبوليس، ما ينفعش حد يعرف، السرية مطلوبة والاجتماع عاجل وأنا مش لاقي مكان آمن في مصر كلها غير بيت الأمة يا فهمي، أرجوك رتب أمورك وسيب الباب الوراني للجنينة موارب الليلة الساعة تمانية، ولازم تبقى موجود معانا للتأمين.

قطم شكري كلامه بعدها وانصرف بغير صخب عكس ما وصل.

في المساء جلست مثل متفرج وحيد في صالة مسرح تظلل خشبته إضاءة خافتة، أمامي شكري وضيفه الضابط زغلول عبد القادر، أشاهد عرضًا لا أعرف عنه شيئًا، بدا زغلول حذرًا منذ وصوله، رغم كلمات شكري كي يطمئنه لوجودي، جلست في شبه عتمة أسمع وأندهش وأشعر بالخوف، تحدثا عن تحرك قريب محتمل وتنسيق منذ شهور بينهما، وعلاقة وثيقة أقوى من الصداقة مع أنني أول مرة أرى زغلول هذا أو أسمع اسمه. شعرت لوهلة بأن التاريخ يُكتب أمامي، صحيح لو فشلوا سيمحوه الملك ويكتب سطورًا جديدة، لكني شاهد على المقدمات لو غير فيها المنتصر، مثلما نقرأ بكتب التاريخ التي أخبرني جدي عنها.

أحسست للحظة بأنني أرى الحقيقة عارية، لكني لم أتخيل جسدها بهذا القبح عندما تخلت عن ردائها.

دار حوار طويل بينهما بعد ما طمأنه شكري أنني شقيقه التوأم، الجزء الأكبر من روحه، لن أشي به أو بهما، فانطلق لسانهما يفضح ويكشف ويروي ظمئي للحقيقة، فهمت أن التنسيق يدور منذ أكثر من عام بينهما، ورأيت المودة

بادية كشمسٍ مشرقة، أشاهد الآن بوضوح يدًا تمتد في فن وحرفية لتضع قطعة البيدق الصغيرة في مكان يصعب على الملك أن يفلت منه، تحاصره في خانة ضيقة، ربما لن ينتظر معها العبارة الشهيرة «كش ملك»، بل سيقولها من تلقاء نفسه ليرتاح. لكن عندما تطرق الحديث إلى تفصيلات تخص جماعة الإخوان المسلمين ظهر اختلاف وجهات النظر بين الصديقين، تحولا إلى نقيضين، فاحت من شكري رائحة تشدُّد لم أعهدها به من قبل، تخيلتهما يتصارعان على كعكة كبيرة تكفي الجميع، واكتشفت أن كليهما يريدها وحده، أدهشني جانب ممَّا خفي عني عندما شكره زغلول على تعاونه معهم، وإخفاء صندوق الأسلحة والمتفجرات بالعزبة وقت حريق القاهرة، شهقت رغمًا عني، هل كانت عزبة أبي أحد الأماكن التي يتعين عليَّ بحكم وظيفتي تفتيشها، وأخي أحد المشاركين في الجريمة؟

التفتا ناحيتي إثر شهقتي، فسألت زغلول بعفوية:

- هل شاركتم في حريق القاهرة فعلًا؟

رغم سذاجة سؤالي نظر لي الرجل نظرة لن أنساها، بريق عينيه مرعب، ونظرته حادة تخترق الصدور، تكشف خبايا النفوس، وتجعلك تضطرب حتى لو كنت صادقًا، مع ذلك

أجابني بهدوء:

- لا لم نشارك ولم نحرق، أرجأنا كل شيء، كانت لدينا خطة أو بالأدق فرصة عظيمة للاستيلاء على القاهرة بعد إعلان الأحكام العرفية وتولينا المسئولية في الحماية والضبط لكننا رأينا أن...

توقف زغلول عن الكلام وبدا على ملامحه الندم، ربما أحسَّ أنه أفاض في الحديث أكثر ممَّا ينبغي فاقتضب:

- عودة إلى جواب سؤالك، الإنجليز والقصر هم المجرمون، وأظن بعض إخوان أخيك.

صاح شكري غاضبًا:

- غير صحيح، أنا أخفيت الصندوق قبل الحريق ولم أوافق على حرق القاهرة، يومها كنت في قصر عابدين والملك أقام وليمة للضباط وأظن أنه تعمَّد تأخير نزول الجيش، أنا لا أحب الدم ولا الخراب.

ابتسم زغلول بخبثٍ ثم ردَّ في تحدٍّ:

- ودم النقراشي باشا والخازندار والحكمدار سليم زكي؟

- لم أكن أعلم قبلها، وحتى لو كان الذين فعلوها من

الإخوان فلم يكن قرار الجماعة، والله على ما أقول شهيد.

احتفظ زغلول بابتسامته الخبيثة وهو ينظر ناحيتي هذه المرة:

- أخوك دايمًا لا يعلم ما لا يرضيه مسبقًا.

جذبني الحوار كأنني أشاهد لاعبَي شطرنج ماهرين، أدهشني حرص شكري على الحديث بالفصحى مثل إخوانه، مع أنه ليس كذلك معي أو مع الآخرين. لديه قدرة بارعة على تقمُّص شخصية لا تخصه كأنه ولد بها.

صاح شكري بنبرةٍ حادةٍ موجهًا حديثه لزغلول:

- هل اجتماع الليلة لعتابي؟

أشعل زغلول سيجارة بعد ما قدّم لي واحدة وغيّر دفة الحديث بنبرةٍ جادة:

- العتاب بين الأصدقاء محبة، الحقيقة أنا جاي الليلة علشان نتفق قبل ما يجتمع كل واحد منّا بالباقين، وبعدها سهل كل واحد فينا يقنع أصحابه، التحرك قريب يا شكري ولازم موقف الجماعة يكون واضح من غير ملاوعة، ماعدش عندنا رفاهية اختيار، وأنا ماعنديش ثقة في الجماعة بتوعك.

قالها زغلول وهو ينظر ناحيتي بحذر، ربما قال ما لا يجب أن يقوله، لكن شكري عاد ليُطمئنه مردفًا بابتسامة لزجة أنني العدو رقم واحد لجماعة الإخوان، لم يبتسم زغلول وقفز شكري على الموضوع سائلًا عن الخطوة التالية إذا نجحت الحركة، حتى يمكن استطلاع رأي المرشد فيما سيفعلونه.

سحب زغلول نفسًا طويلًا من سيجارته قضى على غالبيتها وقال بنبرة لا تخلو من شجن:

- ولو أنه كلام سابق لأوانه لكني نويت تطليق السياسة والعسكرية وأرجع قريتي، ألبس الجلابية وأزرع الأرض، مواطن عادي يا شكري زي غالبية المصريين.

ضحك أخي لأول مرة منذ اجتماعنا بصوتٍ عالٍ وقال بسرعة:

- ما بلاش حكاية القرية والجلابية معايا أنا بالذات، أنا وإنت عارفين بعض كويس، يمكن الحكاية دي تدخل على غيري، ومع ذلك وجودك مهم حتى تستقر الأمور، على الأقل سنة وبعدها تعمل انتخابات يُسمح لنا بدخولها مثل الأحزاب، لكن لا بد من إعلان الجمهورية ووضع دستور جديد يضمن للناس حرية وكرامة وعدالة اقتصادية في توزيع الثروة

زي ما اتكلمنا قبل كده، وفي الناحية دي مفيش أفضل من الشريعة الإسلامية زي ما المستشار بلغك بقرار مكتب الإرشاد.

تهرب زغلول من الإجابة ببراعة وهو يوجّه سؤالًا أشبه بطعنة جعلت شكري يترنح:

- الآن تؤيد إعلان الجمهورية؟ طبعًا ما هي الأنسب لتواجدكم رغم إنها فكرة أصحابك الإنجليز، أما موضوع تطبيق الشريعة في التعليم والقوانين ده كلام أنا عمري ما وافقت عليه وإنت عارف رأيي فيه كويس ورأيك كان من رأيي بالمناسبة، ثم أحزاب إيه اللي إنت عاوزها تترشح في انتخابات بعد ما أفسدوا الملك والحياة السياسية؟ عاوز نديهم فرصة يخربوها تاني ولا إيه؟

بدأ غضب شكري ينفلت منه وتتسيد العصبية نبراته عندما رد:

- الجمهورية فكرتك ولم أسمعها من الإنجليز وهم ليسوا أصحابي بالمناسبة، وكل تفاوض جرى بيني وبينهم أنت على علم بتفاصيله، أما الشريعة فأمر لا تنازل عنه من الجماعة وإنت عارف رأيهم كويس ورأيي شخصي لا قيمة له مع رأي الجماعة، أنا فقط ملتزم بقرار مكتب الإرشاد، لكن لو عاوز

تعرف رأيي الآن، فأنا مع تطبيق الشريعة، وكتبت تصور لتعديل القوانين خصوصًا في مسألة تطبيق الحدود. المسألة سهلة وكل شيء يُنال بالصبر.

أشعل زغلول سيجارة من عقبها ولمّا تنبه ألقاها بعصبية وأشعل غيرها وهو يقول:

- عاوز تقطع إيدين الناس يا شكري؟!

- لأ، لكن عندي تصور مُستمد من القرآن، وتحديدًا من سورة يوسف، الآية بتقول «قطعن أيديهن» بما يعني مجرد تشريط بالسكين على ظهر اليد، وممكن القياس عليها في حالة السرقة، مادة واحدة نضيفها لقانون العقوبات ونحل المشكلة، أما في حالة الزنا فأنا شايف..

هنا قاطعه زغلول رافعًا كفه في وجهه وسبقني كأنه اختطف الكلمات من فوق لساني:

- حيلك حيلك يا مولانا، دع الخلق للخالق.. إحنا عاوزين نبقى زي ما احنا دولة مدنية، مش خلافة دينية، عمومًا سيبك دلوقتي من مواضيع الشريعة وخلينا في السياسة والأحزاب.

سكت شكري ليبتلع ريقه وقال بابتسامة خبيثة:

- لو الأحزاب مش عاجباك حِلها وخليهم ينضموا للإخوان وإحنا نغربلهم ونعيد الأصلح منهم للحياة السياسية.

بدا الضيق على وجه زغلول لكنه حاول أن يبدو هادئًا قدر الممكن وهو يقول بابتسامة غريبة:

- لأ يا شكري، مش وقته الكلام ده، وأنا متأكد إنه مش كلامك برضه، شوف إنت لازم تعقَّل إخوانك لأنك غيرهم، وبعدين يا أخي فكرة الجمهورية بتاعة أصحابك الإنجليز، لا داعي للإنكار، زي ما أخوك فهمي بيقول للمتهمين.

قالها زغلول ثم ابتسم ناظرًا نحوي فجاملته بابتسامة، وشردت على ذكر تحويل مصر إلى جمهورية، رجعت بذاكرتي إلى حادث الرابع من فبراير منذ عشر سنوات، عندما حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين وكادوا أن يجبروا الملك على التنازل عن عرشه، لولا تعيينه النحاس باشا رئيسًا للوزارة كي يحفظ ماء وجهه ويحمي العرش.

تدخلت في الحديث لأول مرة قائلًا:

- عندك حق في موضوع الإنجليز.

وجهت كلامي لزغلول لكن بدا على شكري عدم الفهم، شرحت أن الوثيقة التي أعدها السير لامبسون وقتها كانت

تتضمن التنازل عن عرش مصر من فاروق وأولاده من بعده، وهذا يعني أن البرلمان والأحزاب لن يجدوا سوى الأمير محمد علي أمامهم ليجلس على كرسي عرش مصر، رجل عجوز أعزب تجاوز الستين وقتها ولا خبرة له بالسياسة، والأهم أنه صديق للإنجليز وبعدها..

قاطعني زغلول وهو يقدم لي سيجارة جديدة، ربما كمكافأة على كلامي الذي لقي قبولًا لديه:

- وبعدها يتم خلع الأمير محمد علي ويكون إعلان الجمهورية أسهل من خلع سِنة طفل تلخلخت.

قبل أن يعلق شكري أردف زغلول في حسم:

- عودة لموضوعنا مع إرجاء موضوعات الأحزاب والشريعة والانتخابات، أنا عاوزك تبلغ مرشدك إن إعلان الجمهورية فورًا خطأ كبير، لا بد من الانتظار سنة على الأقل، الشعب لازم يتقبلنا ويتعود على طباعنا والأهم يقتنع بنا الغرب وإننا حنقضي على الشيوعية وطبعًا..

هذه المرة قاطعته أنا:

- ولماذا يشغلك الغرب إذا كان الشعب معك؟

التفت زغلول قائلًا بحدة:

- أومال عاوزني أنشغل بالشرق؟

تدخل شكري:

- كلاهما سواء، نريد الغرب والشرق، لكن المهم الآن أن نعود للموضوع الأصلي، كفانا تفريعات.

فيما يبدو لم يعجب زغلول أن يمر كلامي بغير تعقيب منه فقال:

- لأ.. الغرب هو المهم ولا أهمية للشرق الآن، صحيح الغرب مستعمر لكن نعرفه ونقدر نتفاهم معاه، موازين القوة اتغيرت بعد الحرب التانية، لكن الشيوعية لا أرضاها أبدًا لو كنت في موضع المسئولية.

ابتسم شكري ابتسامة خبيثة استعارها من فوق شفتي زغلول وقال:

- إنت وقتها حتكون في قريتك بالجلباب بتزرع وتفلح، لن يكون لك قرار أو صوت، مش كده والا إيه؟

تجاوز زغلول السخرية وقال بنبرة مَن يريد إنهاء الاجتماع:

- اسمع يا شكري.. إنت عارف مكانتك عندي، وعارف إني

لا أحسبك على الإخوان، ودايمًا أقولك إنك غيرهم وطريقة تفكيرك مختلفة وأقرب لنا، حتى تطبيق الشريعة وخلطها بالسياسة مش فكرتك ولا تعنيك رغم حماسك الزائد لها إرضاءً لإخوانك.

حاول شكري المقاطعة لكن زغلول كان قد وصل لمحطته الأخيرة فيما يبدو:

- أنا كل اللي عاوزه إنك تقنع المستشار والجماعة في مكتب الإرشاد بإرجاء أي تأييد علني للحركة وقت القيام بها، أنا عاوزها وطنية خالصة من الجيش، وبعدها الشعب يؤيد بطبيعة الحال مع استعدادكم للنزول وقت ما نطلب منكم في أي وقت في الدلتا أو الصعيد، اتفقنا؟

- لا أظن إننا سنتفق، معنى كلامك إن الإخوان المسلمين فصيل غير وطني، كلام لا نقبله ولن نرضاه.

- صدقني لو بفكر كده يا شكري ما كنتش طلبت اللقاء النهارده وهنا في بيتك، الأمر متعلق بالغرب، بنظرة المجتمع الدولي للحركة، كل اللي بطلبه تأييد في السر وعدم التحرك إلا بأمر مني، وبعد نجاح الحركة يكون التأييد علني باعتباركم جزء من الشعب.

هنا فاجأني شكري وأحسب أنه فاجأ زغلول أيضًا وهو يقول بثقة غريبة:

- ما إحنا كمان نقدر نحرك جزء من الشعب وقت اللزوم، لا تنسى من فضلك.

سمعنا بالكاد صوت مؤذن من بعيد ينادي لإقامة الصلاة، نظرنا لا إراديًا في ساعاتنا، هبط الفجر علينا فسكت كلامنا، تأهب زغلول للانصراف وقد اصطف الضيق واليأس على ملامحه متجاورين، صافحني مؤكدًا أن بيننا لقاءً آخر قريبًا، ربت كتف شكري وهو يرجوه ساخرًا بالدعاء لنجاح الحركة إذا ما نوى الصلاة.

عقب خروجه نظرت لوجه شكري المجهد وعيناي تسألانه في قلق: «ماذا أنتم فاعلون؟» لم أتلقَّ إجابة حاضرة، ربما سيقول إن أمرهم شورى بينهم كما يصدعني دومًا، ومؤكد لن يجيب قبل أن يلقنهم مرشدهم ما سيقولونه للجميع وكأنه رأيهم الذي سيدافعون عنه باستماتة، لكن كل ما تكرم به وكأنه أفضى لي بسر كبير، أن الضابط الذي كان معنا هو البكباشي جمال عبد الناصر قائد تنظيم الضباط الأحرار، وأن زغلول عبد القادر اسمه الحركي، لم أندهش، ولم أجد سببًا للتخفي ولا فارقًا في الأسماء بعد ما رأيته بوضوح عندما

تكلم.

انصرف شكري متلحفًا بآخر خيوط العتمة قبل أن تفضحه أنوار الصباح، وكان آخر ما طلبه مني ألا أخبر أمينة بوجوده بالقاهرة. أغمضت عينَيّ واستلقيت على مقعد بالحديقة القبلية أمام بيت الأمة، بعد ما أحكمت إغلاق بابه وسلمت شكري نسخة من مفتاحه بناءً على طلبه. عُدت أسترجع تفاصيل ساعات اللقاء، وخرجت بانطباعٍ وحيدٍ عن جمال أو زغلول، في السياسة ليس مهمًا أن تكون على صواب، لكن المهم أن تظهر بمظهر يظن معه الجميع أنك كنت صائبًا في قرارك. أما شكري فقد أخافتني اللهجة التي تحدث بها الليلة عن تصوره لنظام الحكم في مصر، أيقنت أنه تغير كثيرًا في العامين الأخيرين، تفكيره أشبه بانتكاسة مريض لا يُرجى معه شفاء قريب، غريبة تلك النزعة المتشددة في كلامه وكأنها لُقنت له ولا تليق به، لم يتحدث يومًا عن التعليم ومناهجه ونظام الحكم الإسلامي بهذه التفاصيل الدقيقة، كلام لا يخرج من قلب أو عقل شكري ويستحيل تصديقه.

رحل أخي وترك وراءه سؤالًا بحجم جبل المقطم، عن تحوله من بكباشي شكري تاج الدين إلى الشيخ شكري بن تاج الدين. ظللت راقدًا حتى غمرني النهار بضوئه، وخرجت

في طريقي لعملي بعد ما طار النوم من عيني، اندهشت من عقارب الساعة التي تزحف ببطءٍ نحو السادسة والنصف ولم أشعر معها بمرور الوقت، تغيُّر شكري شغل تفكيري، ومع أني أتفهم دوافعه وأعرف طموحاته، ومن الطبيعي أن أرى السفينة في الماء، لكن ما أراه الآن أن الماء صار بداخل السفينة كلها.

***

«بني وطني.. اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا بحرب فلسطين، وتآمر الخونة على الشعب، وتولى أمرهم إما جاهل

أو خائن أو فاسد حتى تُصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك

قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب»

شكري تاج الدين - 10

«جلالته في سابع نومة»، قالها ضابط زميلي مبتسمًا وهو يشير ناحية الشاطئ، كنَّا نقف أعلى برج قصر المنتزه، لمحت الملك فاروق ممددًا على بطنه فوق أريكة خشبية طويلة، يرتدي لباس بحر أبيض، وبجواره بعض الأميرات الصغيرات يلعبن في الرمال، في حين كانت الملكة في جناحها مع ولي العهد لم تهبط إلى الشاطئ بعد.

عدت منذ قليل بعد وداع فهمي، استقل اليوم الباخرة من الميناء إلى مارسيليا، دعوت أن تمر الأمور على ما يرام حتى يعود ويجد كل شيءٍ تغير كما حلمت أنا. جلست بمكتبي لا أفعل شيئًا سوى التدخين والنظر إلى الهاتف، أعرف أنه لن يدق، آخر لقاء بيني وبينه كان ببيت الأمة منذ يومين، لم يحضره فهمي لانشغاله في وداع أبي وأمي وجدتي، وأتى جمال رفقة بعض ضباطه، أخبرته بأن أسماءهم عُرضت بالفعل على الملك، لكنه رفض اتخاذ أي إجراء ضدهم، مع ذلك ساورت جمال شكوك عظيمة واعتراه القلق، طمأنته أن فاروق لا يريد القبض على ضباط الجيش، سكت جمال وبدا شاردًا في أمرٍ ما، ثم تمتم: «هذا الملك يسعى لحتفه». نقلت له ملخص رأي المستشار الهضيبي في الملكية وأنها

إلى زوال، ولا بد من إعلان الجمهورية، لا يعترض المرشد على طلب الضباط الأحرار بتأجيل التأييد لو نجحت الحركة، لكنه في الوقت ذاته لم يعِد بأي تأييد لاحق في موعد محدد، فسألني جمال يومها بدهشة:

- هل سيكتفي بالفرجة علينا من غير تأييد؟

- لأ.. سيدعو لكم بالهداية والتوفيق، لكن عنده تحفظات.

احتفظ جمال بدهشته ولم يهتم بمعرفة التحفظات، اتفقنا على إرجاء الحديث لحين نجاح حركة الضباط، لم أخبر جمال يومها بأن المرشد وبَّخني لمعاودة الاتصال بالضباط الأحرار، وطلب مني قطع صلتي بهم نهائيًّا، فهو لا يثق بالانقلابات العسكرية، ولا يرى أنهم منَّا ولا محسوبين على جماعتنا، حتى ولو دخل بعضهم فيها وأقسموا على المصحف والمسدس بالولاء لنا.

شعرت باختناق فخرجت إلى الشرفة القبلية بقصر المنتزه المخصصة لنا في وقت الراحة أتناول الشاي، ينتابني شعور التائه، أقف على مسافة بعيدة من الجميع، لا أرى أيًّا منهم بوضوح، ولا بد من اختيار وجهتي، ربما هذا هو المَخرَج الأخير، لكني لا أستطيع ترك الجماعة أو الابتعاد عنها، نشأت بينهم وتربيت على أيديهم وفرصتي في السلطة معهم، وفي

الوقت ذاته لن يقبلني الأحرار إذا ما نجحوا في حركتهم، سيشعرون بأنهم أقوى منّا جميعًا ولا حاجة لهم بي ولا بجماعتي، حتى صداقتي بجمال عبد الناصر لن تفيدني، مع أنني بذلت جهدًا عظيمًا للحفاظ عليها، وعلى سر الضباط الأحرار عندما ائتُمنت على موعد الحركة، عاد ذهني لتذكر كلمات جمال عبد الناصر في لقائنا الأخير، وهو يقولها بنبرة امتنان:

- كان ممكن تبيعنا للملك وتقبض التمن تعيينك في الوزارة وإلغاء قرار حل الجماعة.

رغم امتنانه رددت عليه باستنكار مقصود:

- الخيانة مش طبعي، ولا طبع المستشار الهضيبي بالمناسبة.

ابتسم جمال ابتسامة صفراء اعتاد عليها لكنها لا تروق لي، وعقَّب على كلماتي قائلًا:

- صحيح، عمومًا المستشار راجل عنيد، كان أفضل تختاروا شاب بديلًا عنه، إنت مثلًا يا شكري كان ممكن تقود الجماعة بعد الأستاذ البنا؛ لأن التنظيم محتاج حيوية وطاقة و..

قاطعته بسرعة:

- وأنتم اخترتم اللواء نجيب واجهة لكم ليه؟

تجهمت ملامحه وقال كلامًا مقتضبًا عن اللواء محمد نجيب، مجرد وجه مألوف للشعب، طيب القلب، ورتبته وسنه وملامحه تساعد على تخطي أمور كثيرة، لم يشرحها وإن كنت أفهمها، فقد قرأنا سويًا كتاب الأمير لمكيافيللي أكثر من مرة. بعدها خفض جمال من صوته كأنه يُفشي سرًّا:

- التحرك غالبًا سيكون غدًا في منتصف الليل، ستكون حركة الثالث والعشرين من يوليو.

قالها بثقةٍ وكأنه يقرأ من كتاب تاريخ لا يخط فيه أحد سطورًا غيره، ثم علا صوته وتغيرت نبرته:

- لكن يمكن نتأخر يوم أو اتنين، الليلة في اجتماع مهم ببيت الصاغ خالد محيي الدين علشان نحسم الموضوع.

خطر في بالي أن أهوّن عليه الأمر وأمازحه فقلت:

- يوليو شهر الثورات، الثورة الفرنسية، وأيضًا استقلال أصدقائك الأمريكان.

لم يبتسم واستمر يتكلم كأنه يقرأ من لوح حُفرت الكلمات عليه:

- الشعب حاليًا في رخاء، والتاريخ بيقول إن المصريين يؤيدون الثورات وهم في رخاء، أما لو انشغلوا بلقمة العيش وضيق الحال وقلة الرزق سينشغلون بالتبعية عن الثورة أو يترددون في تأييدها.

رددت مازحًا:

- معنى كلامك إنك ناوي تحرم الشعب من الرخاء لتضمن عدم تأييده أي ثورة عليك.

ابتسم جمال ابتسامة مجهدة، مثقلة بالقلق، قائلًا:

- لأ طبعا، إنت خبيث يا شكري في تحليل كلامي.

نهض وصافحني بعناق طويل ربما لأول مرة بيننا، شد على يدي مرة ثانية. لا تزال كلماته ترن في أذني عندما أوصاني بأولاده وزوجته، اتفقنا في حال نجاحه أن يتصل بي شخصيًا، أما في حالة الفشل لا قدر الله ستتصل بي سيدة من طرفه وتخبرني أن اسمها تحية، وأضاف بصوتٍ خافتٍ كي لا يسمعه ضباطه:

- اسمع منها وحاول إنقاذي قدر استطاعتك، إلى اللقاء.

أغمضت عيني على ذكرياتي وتنهدت طويلًا، تمتمت بالدعاء لجمال ورفاقه، نظرت في ساعتي، وجدت الوقت

يقترب من السادسة مساء، هبطت إلى مكتبي وأمسكت المنظار المقرب وصوبت بصري نحو الشاطئ، وجدت فاروق والأميرات وبعض أصدقائه واثنين من الحاشية يتأهبون لركوب لَنْش صغير. تفصلنا ساعات عن تحرك الأحرار كما قال جمال، لا أعرف أية تفاصيل عن الخطة، لكني واثق أنها ستحدث الليلة كما أبلغني.

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بأمينة، أخبرتني أمها بذهابها لسينما برودواي مع صديقاتها، انزعجت لبُعد المسافة من شبرا عن جاردن سيتي، طلبت من موظف الديوان الملكي الاتصال بالسينما فورًا لأمر عائلي، وعقب إنهاء مكالمتي القصيرة مع أمينة ألقيت بجسدي المتعب على الأريكة حتى يكف رأسي عن الدوران بالأفكار.

***

فيما يبدو غفوت لساعات طويلة، حتى صحوت على يد خشنة تهزني بعنف، وجدت اللواء أحمد كامل وآخرين من البوليس الملكي يحتلون مكتبي ولم أعرف السبب، لمحت ضابطًا يجلس وراءه ويُجري محادثة هاتفية ثم يسلم السماعة لآخر، انتبهت لكلمات اللواء كامل:

- اصحى يا شكري، عندنا معلومات إن بعض ضباط جيش

أعلنوا تمرد على وحداتهم والوضع خطير، ويمكن يحصل تحرك من القاهرة على إسكندرية، وخلال ساعة لازم نتحرك بجلالة الملك على راس التين.

كتمت مشاعر الفرح بالنصر بصعوبة، قلبي يرقص بين ضلوعي، تحركت بنشاط لفت انتباه أحد الضباط، تحججت بإحساسي بالخطر. مؤكد أن جمال ورفاقه قد نجحوا في الاستيلاء على قيادة أركان الجيش، ولا بد أن الوضع في منتهى السوء في كل مكان، وإلا لماذا سينتقل الملك إلى قصر رأس التين؟ خطر في بالي قوات الحرس الملكي المتمركزة في ثكنات مصطفى كامل الحربية، سنمر عليها في طريقنا على الكورنيش ولا بد أن تعليمات صدرت إليها بحماية الملك وعرشه، لكني فوجئت بعبارات متناثرة فهمت منها أن أوامر جلالته صريحة وواضحة بعدم إطلاق رصاصة واحدة في حالة الهجوم على القصر، وألا تتحرك أي قوات من مكانها إلا بأمر منه.

أغمضت عيني وتمتمت حامدًا ربي، نظرت ناحية البحر فوجدت صفحته هادئة، ومع أول أنوار الصباح كنت أجلس بالسيارة الثالثة في الموكب الملكي، ظهر فاروق على سلالم القصر فجأة، مهرولًا رغم بدانته، ركب في المقعد الأمامي

لسيارته وبجواره طياره الخاص، بدا تائه النظرات، مضطرب الخطوات، رغم محاولته إظهار التماسك وهو يتحدث مع قائد الحرس الملكي، في هذه اللحظة لم يعُد لديَّ أدنى شك في أن فاروق الأول يسابق القدر لفقدان عرشه، وغالبًا سيسبقه ولن يكون له ثانٍ.

مرق موكب الملك من بوابة قصر رأس التين بسرعة عالية حتى توقفت بنا السيارات أمام المدخل مباشرة، هبطنا كلنا في وقتٍ واحد، بدا المشهد كأننا حاشية ملكية تحيط بفاروق لتحميه من الضباط القادمين بعد قليل، أصدر اللواء كامل أوامره للحرس الملكي بالاستعداد، لكن فاروق نهره مرة ثانية أمامنا، ودخل مكتبه صحبة رئيس الديوان وسكرتيره الصحفي، فجأة حدث هرج ومرج وخرج أحد موظفي الديوان مسرعًا لتسهيل دخول السفير الأمريكي إلى القصر. وقفت قرب الشرفة القبلية أدخن سيجارة من أخرى بلا توقف، أريد تهنئة جمال ورفاقه، وفي الوقت ذاته طمأنة المرشد وإخواني رغم أن وجود السفير كافري يقلقني، لكن الثمرة سقطت في حجرنا، ولم يعُد باقيًا إلا تقشيرها بهدوءٍ والتهامها على مهل.

فجأة دوت رصاصات متتالية أعقبها طلقات متقطعة، أظن

أنها من بنادق الحرس الملكي، خرجت مسرعًا لاستبيان الأمر، تعثرت على السلم ونهضت مهرولًا، وجدت عسكريًّا من الحرس الملكي مضرجًا في دمائه، وأعلن ضابط عن مقتل آخر ناحية البوابة البحرية، عرفت أن عبد المنعم عبد الرؤوف يقود كتيبة لمحاصرة رأس التين، اندهشت من تصرفه الغريب، الحركة نجحت والملك محاصر في آخر رقعة الشطرنج ببضعة عساكر، النهاية قادمة لا محالة، فلماذا القتل؟ تحسست مسدسي وقبل أن أخرجه فكرت في أنهم لن يطلقوا النار عليّ، يعرفون صلتي بالإخوان وعبد الناصر ولن يُطلق أحد رصاصة نحوي، توجهت ناحية البوابة لكن في منتصف الطريق أبلغني قائد الحرس بالتراجع لحماية مولانا لحين وصول إمدادات من ثكنة مصطفى كامل الحربية.

غُدت لداخل القصر، وجدتهم أخرجوا السفير الأمريكي من بوابة خلفية، وأبصرت السكرتير الصحفي للملك يهرول بين مكتبين بوجهٍ أصفر، اقتربت أكثر وسمعت أن الأميرالاي جلال علوبة قائد البحرية الملكية أخبر فاروق باستعداد ضباطه للدفاع عنه حتى الرصاصة الأخيرة، وأن الأسطول الإنجليزي يمكنه التحرك لحماية المملكة من أي هجوم متوقع، لم أعرف كيف أتصرف، لن يسمع أحد نصيحة مني

ولن يُسمح لي بالكلام، وربما تُثار الشكوك نحوي، وقد تفشل الحركة وأرتدي البدلة الحمراء مع الأحرار.

آثرت السلامة وبقيت قرب مكتب الملك متظاهرًا بحمايته، ظللت في مكاني بضع ساعات، كل ثانية منها تحرق بعضًا من أعصابي، حتى خرج علينا رئيس الديوان وأبلغنا بقبول الملك استقالة وزارة الهلالي، وتعيين علي باشا ماهر بدلًا منه، مع الموافقة على أن يكون اللواء محمد نجيب رئيسًا لنادي الضباط.

كدت أصرخ: «الله أكبر ولله الحمد».. الحركة الآن نجحت.

***

نظرت في ساعتي، أشارت عقاربها إلى السادسة وعشرين دقيقة، خرج فاروق من مصر بعد ثلاثة أيام، أظن أنه لم ينَم فيها، متجهًا إلى منفاه، عقب تنازله عن عرش مصر للأمير أحمد فؤاد، وخرجت أنا بعده بيومين من وظيفتي بالبوليس. وجدت نفسي محالًا للاستيداع مع آخرين، محسوبًا على العهد البائد كما تقول الصحف اليومية، اعتبروني واحدًا من رجال العهد الملكي، ربما بحسبان مسافة وقوفي بالقرب من فاروق، رغم أنهم استبقوا الضابط عبد المنعم جنيد، الحارس الخاص للملك، وهو أقرب مني لفاروق. كيف نسوا أنني منهم

ومعهم؟ هززت رأسي بغير جواب وأنا أطفئ سيجارتي، متذكرًا رئيس الوزراء علي ماهر باشا عندما وصل إلى القصر صحبة الصاغ حكيم وآخرين صباح يوم التنازل عن العرش. لحظة دخوله كان السعاة ينزعون صور فؤاد وفاروق من فوق الجدران ويذهبون بها كطابور نمل يحمل كسرات خبز كبيرة في طريقهم الى البدروم، ألقى علينا الباشا خطابًا قصيرًا، طلب منّا فيه حماية العرش ومرافقة الملك الطفل أحمد فؤاد الثاني إلى منفاه مع أبيه، ادعيت وقتها إصابتي بوعكة صحية، بعد ما وقع عليّ الاختيار لمرافقة الملك على متن المحروسة إلى مكان مجهول لا أعرفه، وساعدني الصاغ حكيم لتمر كذبتي على الجميع، لم أكُن خائفًا بقدر ما كنت حائرًا ، لا أعرف إلى أين سيذهبون بالملك، البعض قال فرنسا، والبعض قال إيطاليا، والكل رحب برحيله، لكني لا أريد أن تنتهي حياتي بقفزة في الظلام، وتذكرة سفر وحيدة إلى المجهول.

وقفت وراء ستار نافذة مكتب قائد البوليس الملكي بعد تسليم عهدتي وسلاحي الميري، أسعل وأشعر بآلام مختلفة بكل جزءٍ مني، ربما لأنني لم أنَم منذ فجر الثالث والعشرين من يوليو إلا ساعات متقطعة، أكثر من ثلاثة أيام بقيت فيها متوترًا، قلقًا، سعيدًا، منتظرًا، والآن منكسرًا، نفثت دخان

سيجارتي في الهواء بالاتجاه ذاته الذي رحل منه فاروق، ظللت أتأمل البحر وبعض الجنود المحيطين بقصر رأس التين، وهيئ لي للحظة أن السفينة ستعود، وكل ما مر بنا كان مجرد كابوس.

قبل عودتي للقاهرة حاولت لقاء عبد الناصر أو عبد الحكيم عندما علمت بقدومهما للإسكندرية، لكن لم يُسمح لي بالمقابلة، منعوني من دخول ثكنة مصطفى كامل الحربية، اعتبروني في يومٍ وليلةٍ ضابطًا سابقًا، من المغضوب عليهم والضالين، ربما تمتموا «آمين»، وأنا أدير ظهري وأنصرف في طريقي لمحطة القطار متجهًا للقاهرة.

***

اخترت أن أكون محاميًا، أعطاني أبي حجرة بمكتبه لأباشر قضايا تخص جماعة الإخوان. وبينما كنت أجلس في مكتبي لتناول القهوة مع مطالعة الجريدة قتلًا للملل من قلة العمل، وجدت خبرًا في الصفحة الأولى بجريدة «الأهرام»، وقرأت تفاصيل عن صدور قانون العفو الشامل من مجلس قيادة الثورة بشأن المحكوم عليهم في قضايا سياسية، أفرجوا عن الإخوان المسلمين، المتهمين بقتل المستشار الخازندار والحكمدار سليم زكي، تهلل وجهي

وأنا أقرأ بقية الخبر، أطلقوا سراح المتهمين بقتل النقراشي باشا، ومَن ألقوا القنابل على محكمة الإسكندرية وأقسام البوليس بالقاهرة. سجدت سجدة شكر، وغادرت المكتب متعجلًا في طريقي للمركز العام للجماعة بشارع رمسيس لإعداد احتفال يليق بالمفرج عنهم، وطوال طريقي انشغل ذهني بصيغة بيان نشكر فيه مجلس قيادة الثورة على حسن تعاونهم معنا، وإظهار بادرة للنوايا الطيبة. نسيت مشاكلي الخاصة وخروجي للمعاش وبدأت أستعد لمرحلة أرى فيها أمامي كرسي الوزارة خاليًا، يتولى اثنان من العساكر تلميعه وتجهيزه ويدعونني للجلوس عليه، أغمضت عيني وابتسمت، انتبهت عندما ارتطمت سيارتي بسيارة جيش متوقفة أمامي، تهشمت مقدمة عربتي تمامًا وفقدت مصابيح إضاءتها، وباتت في حالة لا تصلح معها للسير، ترجّلت في طريقي للمركز العام بعد ما تركت كارتًا شخصيًا لقائد عربة الجيش مع تعهدي بإصلاح كل ما أفسدته على نفقتي، بينما ذهني لا يزال مشغولًا بصيغة بيان نُغازل فيه الأحرار دون أن نتخلى عن الكثير من كبريائنا.

في اليوم التالي أقمنا احتفالًا كبيرًا بخروج المعتقلين، ألقيت به كلمة مطوّلة شكرت فيها الأحرار على موقفهم، لكني حذرتهم من عدم توزيع الثمرة بالعدل بعد سقوطها

من الشجرة العجوز، كنت أظن أنني الآن صرت حرًّا عندما عملت بالمحاماة، ولا توجد جهة تستطيع محاسبتي على كلماتي، حتى تلقيت اتصالًا من جمال عبد الناصر بالحضور لمكتبه بمقر مجلس قيادة الثورة، وعرفت يومها قدر سذاجتي. في البداية تصورت أن استدعائي رد على البيان الذي شكرت فيه الجماعة الضباط الأحرار، وأدرك جمال من صياغته أنني صاحبه، ولا بد أنه يريد التعاون معنا مرة ثانية، وعندما التقيته أدركت أن كل خبرتي السابقة في العمل السياسي والتنظيمي بجماعة الإخوان لا تتجاوز خبرة الهواة والمبتدئين، وأن جمال أستاذ في علم التكتيك، ضربت جبهتي بعنف لاعنًا غبائي، الرجل ظل يتلاعب بنا طوال الوقت من خلال خيوط شفافة، وبينما كنَّا نظن أننا نتحرك بإرادتنا، كان يبتسم من فوق رءوسنا ويمد لنا الخيط أكثر، وربما كان يضحك علينا ويردد مقولتي «المسألة مسألة وقت، وكل شيءٍ يُنال بالصبر»، لكن صبره هذه المرة لم يكن طويلًا.

***

«أيها السادة، تشهد شوارع القاهرة الآن مرور ركب قائد الحركة اللواء محمد نجيب، وبصحبته السادة الضباط في عربة مكشوفة، يحيط بهم على جانبي الطريق مئات الجنود، وقد احتشد الآلاف من المواطنين لتحيته هاتفين بحياته، كلنا نعلم أن القائد العام اللواء محمد نجيب كان يُشرف بنفسه

على الحركة المباركة للتطهير حتى لاقت ترحيب الشعب من أقصى

البلاد إلى أقصاها، بعد ما وجد فيها الخلاص من الفساد، والآن أيها السادة، من أمام قصر عابدين المحاط بالدبابات والسيارات المصفحة الحربية،

تنضم جموع الشعب التي سُمح لها بالاحتشاد والوقوف في أركان الميدان، فتعالت هتافاتهم بحياة اللواء نجيب منقذ البلاد والعباد»

فهمي تاج الدين - 11

منذ اللحظة الأولى سلبت روحي، عيناها وملامح وجهها وجسدها، صوتها وضحكتها، كل شيء فيها كما ينبغي أن يكون، عودتني على أمور لم أكن أدري عنها شيئًا، لكنها راقت لي وأثارتني، كل مرة ترتدي ملابس قصيرة تكشف أكثر ممَّا تُخفي، تسير أمامي في دلال، وعندما أقترب تبتعد، لكنها تظل متاحة، أحاول مرة ثانية وثالثة حتى تستسلم في النهاية برضاها، تتركني أفترسها بتلذذ وتستمتع بلذتي، نتلامس واقفين. ساقاها وبطنها وصدرها وشفتاها، أتشمم عطرها، يخترقني ويثير غريزتي فأشعر برغبة مجنونة، أتحسس كل جزء من جسدها ببطءٍ كأنني أحتويه، من قدميها إلى شعرها، أُقبِّل رقبتها وأغمرها بفيضان من قُبلات متفرقات كسيل، ندت منها آهة طويلة تبعتها بأخريات متنوعات، احتضنتها بقوة وأغمضت عيني، ناديتها باسمها كعادتي، أخرجت مشاعري مع رغبتي، مزجتهما معًا وأغرقتها بهما حتى ذابت بين ذراعي، ألقت بنفسها على الفراش وهي تناديني بعينيها فألقيت بجسدي فوقها، صرنا جسدًا واحدًا بروحين ترقصان التانجو، تشابكت أصابع يدينا كما تحب هي، تلاحمنا، شعرت بحرارة جسدها تدفئني، تحفزني أكثر بالتواءات جسمها أسفلي، تخبرني بنشوتها واحتياجها لي،

تتأجج رغبتي وأشعر بدفءٍ ينبعث منها يجعلني أنتشي كلما فرغت، تلك أعظم لحظات حياتي.. هذا ما تمنيته وربما فاق أمنياتي وتجاوز أحلامي، اعتصرتها حتى رويتها بمائي مرة ثانية، فارتاحت ملامحها وتزين وجهها بابتسامة رضا، رحت أُقبلها ببطءٍ وأنا أداعبها مبتسمًا، ورغم أنها بادلتني قبلات شهية مثيرة كعادتها، إلا أن طيف ارتباك دار حائرًا حول ملامحها هذه المرة أيضًا، وترك أثرًا في عينيها لم تمحه قُبلاتي ومشاعري، وبدا أنها تكتم عني أمرًا يوجعها، لكنها لا تريد الإفصاح عنه.

***

«أعزائي نينة أنيسة.. أمي.. أبي.. أمينة.. أخي شكري»

تركت القلم بعد ما كتبت الديباجة المعتادة وحِرت مفكرًا فيما يجب أن أقوله وكيف يُقال، منذ شهور توقفت عن كتابة خطابات لهم، لكني حرصت على اتصالات تليفونية كل شهر كي تطفئ أشواقي، رغم انقطاع المكالمة كل دقيقة تقريبًا وابتعاد الصوت حد السكون. الآن لديَّ أخبار يجب أن يعرفوها، وكلما تأخرت لن يكون الوقت لصالحي، وحتمًا سيغضبون مني لأنني لم أُبلغهم في وقتها، فكرت في أن أكتب لهم بصيغة لطيفة تخفف من وقع النبأ، وتنقل تفاصيله

من وجهة نظري وحدي، فأمسكت بالقلم وكتبت:

«ربما تأخرت عليكم في كتابة الخطاب الشهري، لكن هذه المرة لديَّ مفاجأة، أو للدقة أخبار سارة. الحقيقة هي اسم على مسمى، المعنى الحرفي ذاته للكلمة، تعرفت منذ شهور على فتاة فرنسية اسمها سارة تدرس معي القانون. أخفيت عنكم الأمر لحين التأكد من مشاعري، وتأخرت في خطاباتي بسبب انشغالي بها ومعها، شعرت بأنها نصفي الآخر، وعندما توطدت العلاقة بيننا وأفصحنا عن مشاعرنا كنت قد تورطت في حبها، بالطبع لو كانت نينة أنيسة معي لظنت أنها خطة من حماتي الفرنسية للإيقاع بي عن طريق ابنتها، دعوني أحكِ لكم ما أنا فيه بعيدًا عن العبارات المنمقة المعتادة بالخطابات، سارة فتاة جميلة جدًّا، في عينَي طبعًا، وقبل أن تستعجلني أمي لذكر أوصافها خوفًا من أن تكون بدينة مثلي، أو كما تقول نينة أنيسة مثلها الشهير «بيضا وأوقف.. سمرا وأوصف»، إليكم أول مفاجأة، هي بيضاء بالفعل، ومع ذلك تحتاج إلى وصف، فالقمر رغم جماله نتغزل فيه، عيناها خضراوان واسعتان تحتويانك، شعرها ناعم يسحرك، يميل لونه إلى الذهبي قليلًا، ربما أعطته الشمس بعض خيوطها كمنحةٍ لا تُرد، لها أنف بديع منحوت بمقاييس دقيقة لا يعرفها إلا خالقها، سر من أسرار الجمال، أنف دقيق ومع

ذلك يُشعرك بكبرياء عظيمة، سارة أيضًا رشيقة كالفراشة، رقيقة كالنسمة، تبتسم قبل أن تتحدث كأنها تضع مقدمة للبهجة التي تنطق بها، صوتها هادئ كموسيقى خافتة، كأنك تسمع حفيف أشجار عندما يُداعب نسيم العصاري أوراقها، حضورها طاغٍ كشمسٍ دافئة، طلتها رائعة كالبدر المكتمل، عندما تمشي ترى مهرة تتمخطر في دلال، وعندما تتحدث لا تملك إلا أن تُعطي لها كل حواسك، رغم أن عينيك وقلبك في اتجاه آخر. كلي ثقة أنكم إذا ما رأيتموها ستقعون في هواها مثلي، وحتى تتخيلوها بسهولة فهي تشبه أمينة وكأنهما توأم متطابق.. نفس الجمال والروح والوداعة والبهجة. الآن وبعد أن قدمت لكم سارة أرجو ألا تغضبوا مني بسبب ما سأُعلنه لكم كمفاجأة ثانية، أنا تزوجت سارة، نعم كما سمعتم الآن، تزوجت بالفعل وأعتذر لعدم إبلاغ أبي أو استئذانه، وأتمنى أن يغفر لي، وواثق أنه سيفعل إذا ما جلس مع سارة خمس دقائق فقط».

رفعت القلم عن الورقة ومزقتها ودمعت عيناي، هذا الخطاب أعدت كتابته أكثر من مرة حتى الآن، وما زلت مترددًا في إرساله، رغم أنني اخترت كل كلمة بعناية، لم أكتب بعفوية كما كنت، لكن خانتني مشاعري عندما وصفت سارة ووجه الشبه بينها وبين أمينة، هل كنت أصف لهم

أمينة؟ لا أدري.

تركت نفسي لأحاسيسي بلا قيود، استسلمت لها واستمتعت بعدم المقاومة حتى تنبهت أنها غلبتني. أغمضت عيني وزفرت زفرة طويلة، كتبت فقرة جديدة حاولت فيها تخفيف أوصاف سارة كي لا تنطبق على أمينة وأعدت القراءة، هززت رأسي غير مقتنع، ربما من الأفضل إرجاء الحديث في هذه الأمور حتى يروها، أو إرسال صورة لسارة اختصارًا لكل الأوصاف والكلمات التي تفضح المشاعر.

شغلني الأمر الثاني الذي أريد التحدث معهم فيه، وبعد سيجارتين وفنجان قهوة أمام النافذة جلست على مكتبي مقتنعًا أن الرصاصة انطلقت وما وقع قد وقع، ولا داعي لاستدعاء شجون لا فائدة من ورائها.

أمسكت بالقلم وكتبت:

«أرسل صورة سارة بدلًا من أن أصفها لكم، فأنا أحب القمر لكني أخشى نسيان تفاصيل جماله من فرط عشقي له، والآن بعد أن تفرغوا من تبادل صورتها بينكم أريد أن تنصتوا جيدًا، لديَّ أمر مهم يجب أن تعرفوه، سارة تكبرني بعامين، وهي مسيحية، تزوجنا زواجًا مدنيًا بمكتب محاماة منذ خمسة أشهر، أبرمنا عقدًا مثل زواج الأجانب، لا أعلم هل تم إلغاؤه

عندكم أم لا، على كل حال سأحاول توثيق الزواج بالسفارة المصرية هنا قريبًا، أو بالقاهرة عند عودتي العام القادم. في العموم حفل الزواج كان جميلًا رغم اقتصاره على بعض أقارب سارة.

أطمئنكم على أحوالي المالية، يمكنني القول إنها جيدة، أمضيت شهر العسل لمدة أسبوع في سويسرا، استأجرت الكوخ الريفي الخشبي لو تتذكره يا شكري، وقضينا به وقتًا ممتعًا، كان الأمر أشبه بمشهد في رواية عالمية، كأنك ترى جانبًا من حياة البطل الذي يعيش مع حبيبته في ربوع الجبال، أظن أن سويسرا ستكون هي الجنة في النهاية، هذا هو شعوري بالضبط عندما كنت وسط الخضرة التي لا تنتهي، ومعي الوجه الحسن وأعيش قريبًا من البحيرة. منذ عودتي من سويسرا وأنا أستعد لتقديم فصل جديد في الرسالة يا أبي، أرجو أن تطمئن فالدراسة تسير بشكلٍ جيدٍ الآن، لا أحتاج لزيادة مصروفي فالجنيه المصري لا يزال صامدًا أمام الفرنك الفرنسي، صحيح كنت أستطيع شراء أربع دجاجات كل أسبوع بجنيه مصري والآن أشتري دجاجتين فقط، لكن لك أن تتخيل رغم ارتفاع الأسعار فأنا أشعر بأنني ثري جدًّا هنا بما ترسلونه لي كل شهر، لكنني لم أدخر أي فرنك حتى الآن. أرجوكم اكتبوا لي خطابات طويلة،

احكوا لي أخباركم بتفصيل أكثر، ماذا تفعلون كل يوم؟ كيف صارت الحياة بمصر؟ ما الذي تغير؟ هل أنتم مطمئنون؟ هل الناس مؤيدة لما حدث؟ الأخبار هنا متضاربة ومتناقضة جدًا حتى تاهت الحقيقة بين ثناياها، بعيدًا عن السياسة لم يتغير كثيرًا روتيني في الحياة، أقضي معظم الوقت مع سارة في مشاهدة الأفلام بالسينما مساء السبت، ونذهب إلى المتاحف كل أحد، وتوجد هنا مثل القاهرة أكشاك للموسيقى في الشوارع. ربما أتأخر عليكم قليلًا في كتابة الخطابات الفترة القادمة لانشغالي في إنهاء الجزء المهم من الرسالة، مر عام ونصف العام الآن وأريد إنهاء البحث خلال ستة أشهر قادمة.. أفتقد القاهرة جدًا والعزبة خاصة، وعملي بالنيابة أحيانًا، أما أنتم فأضع صورة لكل واحد منكم بجوار سريري، لا بد أنكم تسمعون بقلوبكم تحية الصباح والمساء كل يوم، الآن ستسمعونها بصوت سارة معي، فهي متشوقة جدًا لرؤيتكم. أشواقي وأحضاني لنينة أنيسة، وأبلغوها أنني اشتريت لها الجوارب الصوفية التي تحبها، وقبلاتي لأمي العزيزة وسأرسل لها هدية مميزة مع صديقي المصري الأسبوع القادم عندما يسافر إلى القاهرة، أسطوانات مسجلًا عليها غالبية السيمفونيات العالمية، وجدتها تُباع هنا بسعر زهيد فاشتريت عشر أسطوانات دفعة واحدة. أيضًا أبي

العزيز له هدية مختلفة، بيريه مثل الذي يرتديه صديقه الكاتب توفيق الحكيم، ولأنك يا أبي تُشبهه إلى حدٍّ غريبٍ فسوف يحتار الناس بينكما، وربما يسعد الحكيم بهذا التشابه ليجعلك تسدد ديونه للجزار والبقال بدلًا منه، أمينة لم أنسها بالطبع، لها هدية متفردة مثلها، عندما علمت من شكري أنها لا تزال ترتدي الإيشارب اشتريت لها ثلاثة بألوان فاتحة وإذا ما فكرت في خلعه يمكنها أن تستخدمها حول رقبتها، ستكون أكثر أناقة من وجهة نظري على الأقل، أما أخي شكري فهديتي له هذه السنة ستكون نصيحة.. أنت تعلم يا شكري قدر محبتي لك حتى لو اختلفنا في الرأي، وبعدما قرأت منك أخبار أصحابك، وطريقة تفكيرهم في إدارة البلاد، وما تفكر أنت فيه مع جماعتك، فنصيحتي الوحيدة لك: «لا تستمع لنصيحة من إخوانك أبدًا، ولا تهز رأسك بالإيجاب طوال الوقت أمام أصدقائك الجدد من الأحرار عندما يتكلمون معك». خالص مودتي ومحبتي لكم جميعًا».

فهمي وسارة، وقريبًا تاج الدين الصغير/ باريس/ يناير 1954

***

«نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان، لمّا كنّا نتطلب الخير لأمتنا

ولمّا كنّا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة ونزولًا على إرادة الشعب، قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد، وأصدرنا أمرنا بهذا لحضرة صاحب المقام

الرفيع علي ماهر باشا رئيس الوزراء للعمل بمقتضاه. هنا القاهرة..

أيها السادة، وبعد هذا البيان الملكي أُنزل العلم الخاص بالملك السابق من فوق الساري بقصر رأس التين واستقل السيارة في طريقه إلى يخت المحروسة، حيث أقله إلى خارج البلاد، ودوت طلقات المدافع التي أطلقتها المدمرة الحربية فاروق الأول طبقا للتقاليد المتبعة في هذه الظروف»

فايز حبشي - 5

«إفراج يا باشمهندس». كلمات قليلة قالها أومباشي عجوز فتحت بابًا مغلقًا بعد تسعة أشهر من العزلة، لم يُحقَّق معي فيها، ولم يُخبرني مخلوق عن تهمتي بالتفصيل، أمضيت المدة معتقلًا في سجن الأجانب بوسط القاهرة، وهي مَكرمة من البوليس بدلًا من البهدلة في أقسام القاهرة، لكني ظللت حبيس غرفة شبه خانقة، أسمع فيها صوت نفسي تلومني على خيبتي، بعد ما تحدثت إليها مرات ومرات حتى شارفت على فقدان عقلي.

دخلت متهمًا بحريق القاهرة، وخرجت لشوارعها أشاهد آثار النيران كأنها شاهدة على تلفيق التهمة لي، أنا أضعف من رؤية دجاجة تُذبح، فما بالنا بكل هذه المحلات والدكاكين والكازينوهات المحترقة، قادتني قدماي لشارع شريف باشا، وفي نهايته انحرفت يسارًا إلى ساحة قصر عابدين، تجاوزت القصر المحاط بدبابات كثيرة حتى رأيت نواصي شوارع السيدة زينب فشعرت بألفة وونس. في جيبي نصف جنيه، صدقة من الأومباشي العجوز، ربما رقَّ قلبه لحالي فأعطاه لي وهو يبتسم، وقفت على عربة فول وتناولت طبقًا مع أقراص الطعمية ورغيفين، جلست على مقهى قريب وبعد كوب شاي

وحجر شيشة استأذنت المعلم صاحب المقهى في استعمال التليفون، أجريت اتصالًا بمكتب البكباشي شكري، أخبروني بخروجه إلى المعاش، كدت أضحك، أنا أكبره بخمسة عشر عامًا ولم أبلغ الستين بعد، هززت رأسي وقلت لنفسي ربما لترقيته مبكرًا من رتبة اليوزباشي إلى البكباشي في خمس سنوات فقط، فأرادوا مجازاته بأثر رجعي بعد حركة الضباط التي قامت وأنا في السجن.

أدرت القرص مرة ثانية متصلًا بفهمي بك، وجدته سافر في إجازة دراسية بفرنسا، بعدها اتجهت لدكاني، أفكر في المبيت فيه بعد ما استولى صاحب البيت على شقتي وطردني منها لعدم سدادي الأجرة، أرسل لي إنذارًا بالطرد ثم نفذ الحكم، ولم أستطع الاستئناف أو التظلم بسبب وجودي في السجن.

تركت باب الدكان مفتوحًا لتهوية المكان من الأتربة والهواء المكتوم، وجلست أمام الواجهة أستمتع بشمس أغسطس التي يهرب منها الجميع، كنت أفتقدها فلم أشعر بحرارتها، ومهما فعلت بي فهي أحن من قسوة زنزانة رطبة منفردة لشهور عديدة بلا أمل.

- كفَّارة يا راجل يا طيب..

قالها الحاج مصطفى بصوته الحنون ووجهه البشوش، هو

وجاري الأستاذ لمعي لم يتوقفا عن إرسال زيارة أسبوعية لي بالسجن، ورغم أنني لم ألتقِ بهما في محبسي إلا أنهما لم ييأسا، وظلا يجلبان الطعام والملابس حتى أسبوع مضى.

جذب الحاج مصطفى مقعدين وهو يقول:

- لمعي جاي ورايا، تلاقيه بس دخل دورة المية يفك حَصرة.

بلع ريقه وأردف بابتسامة:

- رُحنا الصبح الزيارة بتاعتك بلغونا ببشارة خروجك، مكدبناش خبر وجينا على هنا.

قبل أن أرد على الحاج فاجأني لمعي من الخلف، احتضنني بقوة وجلس وهو يسألني عن أحوالي وظروفي بالسجن، لكن مصطفى تطوع بالإجابة بدلًا مني وقال:

- ما هو زي الفل قُدامك أهو، ده حتى مربرب زي العِجل، مش كده والا إيه؟

- إيه..

قلتها متنهدًا في ضيق، شكوت لهم ما فعله صاحب البيت رغم معرفتي بشهادتهما لصالحي بالمحكمة وتطوعهما بسداد

الأجرة، لكن وجودي بالسجن على ذمة حريق القاهرة رجح كفة مالك المنزل وطردني القاضي. كنت أريد الفضفضة والثرثرة التي حُرمت منها لشهور طويلة، لكن لمعي نهض كمَن لسعه عقرب وقاطعني:

- ما تسيبك من العفرة والصهد اللي إنت مقعدنا فيهم وتعالوا عندي البيت نقعد في الطراوة نكمل كلامنا.

عندما دلفنا من بوابة بيت لمعي لاحظت صورة كبيرة ملصقة على الجدار، مقتطعة من مجلة أو جريدة، يجلس فيها الضباط الأحرار مع اللواء محمد نجيب بمكتبه، لم أكن أعرف أسماءهم، اقتربت ودققت في الصورة، صرخت باسمه «محيي بك» بعد ما تعرفت عليه فورًا.. وتذكرت الشاب الأسمر الذي قابلته معه في جروبي، فقفزت مكاني وهللت وأنا أُشير نحوه، كان الأقرب للواء نجيب بل يكاد يطغى عليه في الصورة.

جلست على ركبتيّ رافعًا كفيّ للسماء ورحت أشكر ربنا. نظر لي الحاج مصطفى في ذهول، وأشار لمعي إلى رأسه، يظن أنني فقدت عقلي، نهضت وسألتهما في لهفة:

- ما تعرفوش الجماعة دول أراضيهم فين؟

تبادلا نظرات صامتة في ذهول، حوقل الحاج مصطفى ووضع يده على رأسي متمتمًا «الله أكبر»، بينما لمحت دموعًا تترقرق في عين لمعي وهو يغمغم:

- يا رب نجّنا من الشرير ولا تُدخلنا تجربة.. حبشي باين عليه اتلحس.

خرجت زوجته على صوتنا ولحقت بها جارة بعينين يفر منهما التلصص، وعلت عبارات متناثرة من آخرين تجمعوا تباعًا، كأنهم كانوا قابعين وراء الأبواب يتنصتون علينا.

«ربنا يلطُف بعباده».. «ربنا ينتقم من ولاد الحرام.. حد يلحقنا بكوباية مية يا اخوانّا»..

«ارجع يا مجنون»، تلك آخر عبارة سمعتها، ميزت فيها صوت الحاج مصطفى، اكتفيت بالتلويح بذراعي اليسرى دون أن ألتفت ومضيت في طريقي مسرعًا، بعد ما أكد لي لمعي أن الضابط الذي أشرت على صورته هو الصاغ خالد محيي الدين وليس محيي بك كما ذكرت أمامهم عدة مرات من فرط انفعالي.

وصلت لمبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة الذي دلني لمعي عليه، استوقفني حراس مسلحون، من صرامتهم

وصمتهم تحسبهم لا يفهمون اللغة العربية، ورغم أنني أخبرتهم كذبًا بوجود موعد سابق مع الصاغ خالد محيي الدين، إلا أنهم تركوني أنتظر لأكثر من ساعة في غرفة خانقة، ثم سمحوا لي بالدخول لمكتب به ضابط صغير الرتبة، تفحص بطاقتي في ريبةٍ وطلب مني الانتظار في غرفة أخرى، هذه المرة وجدت معي آخرين لكن لا أحد منَّا يتكلم مع آخر، كأننا متهمون وكل واحد فينا يخشى أن يتحمل وحده مغبة الكلام فيصبح مسئولًا عن جريمة لم يرتكبها.

بعد ساعتين من انتظار ينهش العقل أدخلوني إليه، وجدته يرتدي زيه العسكري، صافحني الصاغ خالد بترحاب، أكد على أنه وراء قرار الإفراج عني بعد ما تلقى برقية من فهمي من باريس يذكره فيها بمساعدتي لهم طالبًا تدخله، عاتبني على عدم إبلاغه بوجودي بالسجن طوال الشهور الماضية فابتسمت ببلاهة. شجّعني كرمه وحُسن استقباله على طلب مسكن ووظيفة، بعد ما سألني أكثر من مرة عن أحوالي وبدا من سؤاله استعداده لمساعدتي بأمانة، نظر لي الصاغ خالد نظرة فاحصة وكأنه يتعرف عليّ لأول مرة، ثم ضغط زرًّا فوق مكتبه فمثل أمامه الضابط صغير الرتبة، كتب الصاغ كلمات قليلة في ورقة وشبكها بدبوس صغير فوق كارت يحمل اسمه وناولها للضابط قائلًا:

- اتصل باليوزباشي أحمد عيسوي في الإذاعة وبلغه إننا عاوزين الباشمهندس حبشي يتعين في الهندسة الإذاعية، وبعدين نشوف موضوع مسوغات التعيين.

أدى الضابط التحية العسكرية وانصرف، التفت ناحيتي الصاغ خالد سائلًا عن مؤهلاتي، أُسقط في يدي، لست مهندسًا ولم أحصل حتى على شهادة البكالوريا، كل خبرتي في الإذاعة اكتسبتها من الخواجة الأسترالي، مسوغات التعيين التي لديّ تصلح بالكاد لتوظيفي عاملًا على عربة الفول بميدان السيدة، ثم إنني لا أريد العمل في الهندسة الإذاعية، لكن تلك رفاهية لا أملكها الآن، دار عقلي كترس خرب وظللت واجمًا حتى قال الصاغ خالد:

- ما تشغلش بالك، الليلة تعدي عليّا هنا الساعة عشرة أكون رتبت لك أوضة تبات فيها.

خرجت من مجلس قيادة الثورة والفرحة لا تسعني، كدت أهتف للضباط الأحرار واحدًا واحدًا بالاسم، صافحت كل العساكر والحراسة المتواجدة بالمكان وحوله وقبّلت بعضهم، تحسست جيبي وتأكدت أن الجنيهات الخمسة التي أعطاني إياها الصاغ خالد في مكانها، أشرت لأقرب تاكسي وجلست بالمقعد الخلفي قائلًا بثقة:

- اطلع على شارع الشريفين يا أسطى.

وأردفت بنبرة أكثر ثقة: «مبنى الإذاعة يا بني».

***

«كما أعلن البكباشي جمال عبد الناصر أن الثورة استهدفت القضاء على الاستعمار وأعوانه، وأن فاروق كان أحد ركائز الاستعمار، إن تاريخ أسرة محمد علي سلسلة متصلة من الخيانات ارتُكبت في حق هذا الشعب،

منذ أن أغرق إسماعيل البلاد في الديون، ثم جاء توفيق بالإنجليز ليحتلوا أرضنا، وقد فاق فاروق كل مَن سبقوه بهذه الشجرة الملعونة فأثرى

وفجر وطغى وتجبر وكفر، واليوم نُعلن باسم الشعب إلغاء النظام الملكي وحكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية، على أن يتولى اللواء

أركان حرب محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية طوال فترة الانتقال، ويكون للشعب الكلمة الأخيرة في تحديد نوع الجمهورية، واختيار

شخص الرئيس عند إقرار الدستور الجديد، والله الموفق والمستعان»

شكري تاج الدين - 11

مثل عائد من غربة، عانقت جمال طويلًا، مَرَّت خمسة أشهر منذ آخر لقاء بيننا، أشار ناحية أريكة جلدية في نهاية حجرة الاجتماعات التي أدخلوني إليها فور وصولي لمجلس قيادة الثورة، وضع الأرائك يشي بجلسة حميمية بين صديقين فرقتهما الظروف وأبعدتهما خلافات الرأي والسياسة، ولا تزال المحبة متقدة في قلبيهما.

جلسنا ندخن ونشرب القهوة، حكى لي تفصيلات ما حدث ليلة الثورة بفخر المنتصر الذي خاض حربًا صعبة حتى كُتب له النصر في نهايتها، لم أستطع منع لساني من الكلام وقُلت:

- محاسن الصدف.

عاتبني فابتسمت ابتسامة خبيثة يعرف معناها، شرحت رأيي باختصار موضحًا أنهم لم يتوقعوا هذه السهولة في الوصول لعرش مصر، ربما لو كانوا ذاهبين في نزهة لعانوا من مشكلات أكبر ممَّا واجهتهم في الأيام الثلاثة الحاسمة، كما أسماها هو من وقت التحرك حتى رحيل فاروق.

ارتاحت ملامحه وهو يشعل سيجارة من أخرى أوشكت على الاحتراق وقال:

- تخيل أكتر من ستين ساعة من غير نوم يا شكري.

هززت رأسي بلا معنى، أنا أيضًا لم أنَم، لكن حتى لو ناموا ما تغير شيء، البكباشي يوسف صدِّيق فعلها وحده وخضع الملك لكل مطالبهم من البداية، وبعدها وافق على التنازل عن العرش بسهولة توقيع دفتر شيكاته بالبنك، لم يتوقع أي متفائل حدثًا واحدًا ممَّا وقع، حاول جمال مقاطعتي فعلا صوتي مؤكدًا أن فاروق سبب نجاح ثورة يوليو كما أسموها الآن، هرول لخاتمة مُلكه، ومنحهم مفاتيح مصر، ترجَّاهم فقط أن يتركوا له بعض حقائب مقتنياته وملابسه، يا لها من صفقة رابحة!

تقلبت ملامح جمال معترضًا على تبسيطي للأمور، ووصف كلامي بالسذاجة السياسية، أرجع كل تصرفات فاروق الدفاعية للتكتيك الهجومي الذي تم وضعه قبل الثورة بسنوات، حتى صار مجبرًا على ما وصل إليه، تمسكت برأيي ورويت له ما رأيته عندما علم فاروق بالانقلاب، كنت شاهد عيان في سيارة أخرى خلفه حتى وصلنا إلى قصر رأس التين، المكان ذاته الذي خرج منه جده إسماعيل متنازلًا عن عرشه، ولو كان دخل تكنات مصطفى كامل الحربية في طريقه أو حتى توقف ببابها لتغير الوضع كله، ومؤكد كان

سيُثير العواطف ويُشعل حماس الضباط والجنود.

أشعلت سيجارة وقُلت:

- كنتم حتحاربوا بعض يا جمال، تقدر تقولي خطتك كانت إيه في الوقت ده؟

أجاب في هدوء:

- الحمد لله الذي أعفانا من القتال، قدَّر الله وما شاء فعل زي ما بتقولوا يا أخ شكري.

قالها وهو يبتسم بخبث مماثل، لا ينسى ثأره أبدًا، لكني تجاوزت سخريته من الجماعة وأردفت:

- بالمناسبة خطوة عظيمة أنكم لم تحاكموه أو تعدموه كما أُشيع وقتها، موضوع ارتباط الحركة المباركة بدماء من البداية شيء مزعج، إنت عارف إن الدم في بلادنا عمره ما يتنسي.

هدأ جمال تمامًا بعد كلماتي الأخيرة، حكى عن آراء بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، ووصف أحدهم بالمجنون لأنه صمم على إعدام الملك في ميدان عام، واختتم كلامه أن السفير الأمريكي طلب منهم تأمين حياة فاروق وعائلته. لم أُعقب على كلامه، فهمت ما أراد أن يخبرني به بين السطور،

خيوط اللعبة الآن مع الأمريكان لا الإنجليز.

قطع حديثنا ضابط شاب دخل الغرفة، مال على أذن جمال وراح يُسر فيها همسًا، هزَّ جمال رأسه وقال بصوتٍ مسموعٍ متعمدًا فيما بدا لي:

- مفيش مشكلة، لكن يحضر معاه صلاح سالم أو حكيم وأنا أحصلكم بعد شوية.

نهضت مستأذنًا لكنه صمم على إبقائي، قال وهو يُشعل سيجارة ويُقدم لي أخرى:

- الحكاية كلها إن في ضيوف وسفراء أجانب وعرب بيترددوا على مكتب اللواء نجيب لتهنئته، وإحنا ماينفعش نسيبه يقابلهم وحده، لازم واحد مننا على الأقل يكون حاضر معاه، مسألة تنسيقية موش أكتر.

هززت رأسي غير مقتنع، شعرت ببوادر حصار لنجيب مبكرًا، لكن جمال اخترقني بنظرات عينيه قائلًا:

- إنت عارف بساطته وتلقائيته، وطبيعي ناخد احتياطنا بدري، إحنا لسه في الأول وعاوزين الأمور تمر بسلام.

قالها وغيَّر دفة الحديث دون انتظار لتعليقي، تحدث باستفاضة عن مجلس الوصاية على العرش، فجأة لمعت

عيناه كمَن تذكر شيئًا:

- بصفتك قانوني في الأساس أنا بدي أغير الدستور، وعلشان كده طلبت أقابلك، إنت الآن حر وممكن تتعاون معانا كمستشار للحركة بعيد عن الجماعة وبعيد عن الداخلية، والا إيه يا حضرة البكباشي؟

ضحكت رغمًا عني وقلت مبتسمًا:

- بكباشي سابق يا معالي وزير الداخلية، الحقيقة أنا مش فاهم حاجة، يعني إنتم رفدتوني من البوليس علشان تعينوني مستشار قانوني بعدها بشهور؟ طيب ليه الغلبة دي كلها، ما كان أولى تعينوا أخويا فهمي وأهو بيعمل دكتوراه في القانون بباريس، يعني أعلم مني.. ومنكم.

فيما يبدو لم تعجب عبارتي الأخيرة جمال، تجهمت ملامحه وأعاد السؤال مؤكدًا أنه يعرض عرضًا جديًا فقُلت:

- أنا أفضل لي أرجع البوليس الملكي.

عادت ابتسامته الرائقة بسرعة وهو يقول:

- متبقاش عديم الرؤية يا شكري، مفيش حاجة حتبقى ملكية في مصر غير ملوك الكوتشينة، بُص لقدام، إحنا كلها كام يوم ونعلن مصر جمهورية، فكر في مستقبلك موش في

جماعتك، أنا طلعتك معاش بدري علشان أعرف أجيبك جنبي وقت اللزوم، وأهو آن الأوان إنك..

قاطعنا ضابط شاب مرة أخرى هامسًا في أذن جمال فتقلبت ملامحه ونهض، فاستأذنت للانصراف فطلب أن أبقى بالغرفة لحين عودته، لكني أصريت على الذهاب مدعيًا ارتباطي بموعدٍ مهم، فصافحني وشدَّ على يدي قائلًا:

- خُد وقتك لكن أنا محتاج ناس بتفهم تبقى معانا الفترة الجاية، مكتبي مفتوح لك أي وقت يا شكري إوعى تتردد. صحيح الثورة خرجتك معاش، لكن إنت غير كل إخوانك.

خرجت من مكتبه وكلماته الأخيرة ترن في أذني، لا يكف جمال عن ترديدها كلما التقينا، ربما لهذا السبب غيرت اتجاهي بعد خروجي من مجلس قيادة الثورة، عدلت عن الذهاب للقاء المرشد وأعضاء مكتب الإرشاد الذين ينتظرون عودتي كي أحكي لهم ما دار في اللقاء، خاصة أن السُّبل شبه مقطوعة بين الإخوان والأحرار منذ شهر، بسبب صلابة رأي المرشد وإصراره على المشاركة في اتخاذ القرار، وهو ما رفضه الأحرار بحسمٍ وجمال أولهم.

قُدت سيارتي في طريقي لبيتي، شعرت بحاجة إلى حضن أمينة، المكان الوحيد الآمن في حياتي، الملاذ الذي أنسى

فيه همومي، حضن تذوب فيه مشاكلي، لا أفكر في شيءٍ وأنا معها، هي الوحيدة القادرة على جلب السعادة لقلبي والبهجة لروحي، ألقيت بجسدي في حضنها، احتوتني على الفور، دائمًا مستعدة لتلبية ندائي، قادرة على ترميم مشاعري المضطربة بلمسات قليلة. ابتسمت قبل أن أُقبلها فأشرق وجهها بابتسامةٍ مذهلة، وعينين واسعتين تناديانني بشغف، اقتربت والتحم جسدانا حتى ذابت بين ذراعي، كل قطعة من جسمها لها مذاق أعرفه وأحفظه، أنتظره وأستمتع به. في وسط عناقنا والتحامنا لمست أمينة وجهي بكفيها وهمست: «وحشتني»، غبنا في قُبلةٍ طويلةٍ بعدها مغمضين أعيننا، قُبلة تروي ولا تنتهي، قُبلة ما نكاد نفرغ منها حتى تسألنا شفاهنا في خجل: «هل من مزيد»؟

***

«وبعدها هتف البكباشي جمال عبد الناصر وزير الداخلية في جموع

الجماهير ليرددوا خلفه المبايعة للرئيس محمد نجيب، فرددت مصر

كلها وراءه ما قاله: أيها المواطنون فلنقف جميعًا لمبايعة الرئيس

اللواء أركان الحرب محمد نجيب رئيسًا لجمهورية مصر،

ولنردد جميعًا المبايعة.. اللهم إنَّا نُشهدك وأنت السميع العليم، أننا قد

بايعنا اللواء محمد نجيب قائد الثورة رئيسًا لجمهورية مصر،

كما أننا نُقسم أن نحمي الجمهورية بكل ما نملك من قوة وعزم،

وأن نحرر الوطن بأرواحنا وأموالنا، وأن يكون شعارنا الاتحاد والنظام والعمل، والله على ما نقول شهيد.. الله أكبر وتحيا الجمهورية..

الله أكبر والعزة لمصر»

فهمي تاج الدين - 12

«عمك الحاج زغلول اتعين عمدة على العزبة والأرض ممكن تضيع مننا.. ارجع فورًا».

للمرة الثانية قرأت كلمات البرقية القصيرة التي أرسلها شكري منذ أسبوعين، ورغم أنني فهمت ما يرمي إليه لكني لم أجد سببًا لقلقه وطلبه عودتي بهذه السرعة، زغلول هو صديقه الأقرب من بين الأحرار، وإذا ما صار رئيسًا لمصر أو ظل متحكمًا من وراء ستار كوزير داخلية فما الداعي للقلق؟ بعد تفكير طويل اهتديت لحل وحيد، أن زغلول ربما انقلب على شكري وقرر حرق دفاتره القديمة كي لا يتتبع ماضيه أحد.

عُدت للقاهرة بعد ما يقرب من عامين على سفري، بدت لي مثل امرأة أرستقراطية طُلقت من زوجها الثري البارد، بعد ما أحبت شابًا فقيرًا متحمسًا غيورًا، وبدأت تعاني من شظف العيش وقسوة الحياة، في حين بارك أهلها الزيجتين بنفس الحماس كل مرة.

تأقلمت زوجتي سارة مع عائلتي منذ اللحظة الأولى، عندما وصلنا لسراي تاج الدين بجاردن سيتي كان الجميع في

انتظارنا بالحديقة، حتى جدتي أنيسة أحضروا لها كرسيًّا لتنتظرني معهم، لم تُعطهم سارة فرصة لإبداء الترحيب الروتيني قبل كسر حاجز الثلج، قفزت فوقه واحتضنتهم في ودٍّ حقيقي وهي تنادي كلًّا منهم باسمه، تعرفهم من الصور التي أضعها بجوار سريري في باريس، حفظت الأسماء مع الوجوه، وداعبت كلًّا منهم بكلمات نعتبرها لازمة من لوازم الشخصية، قالت لأنيسة بلغة عربية كسيحة تبعث على الضحك: «أنا بيضة وأوقف موش سمرا وأوصف»، ربما ضحكت جدتي على طريقة نطق سارة أكثر، حتى إنها شعرت بالخجل ووضعت كفها فوق فمها وتاهت نظرات عينيها بيننا جميعًا. نثرت سارة محبتها بعطاء، صفَّرت بلحن موتزارت وهي تُحرك يديها في الهواء كمايسترو قبل أن تحتضن أمي، والتي راحت تدور بها في فرحةٍ حقيقيةٍ وكأن سارة ابنتها العائدة من السفر لا أنا، حتى أبي المتحفِّظ قليل الكلام احتضنته في ود، ووضعت رأسها على صدره كأنه أبوها الذي التقته بعد فراق، دخلت في حوار قصير بالفرنسية مع أمينة مثل صديقتين منذ أيام المدرسة والتقيتا بعد غيابٍ طويل.

- شكري بك على التليفون.

قالها السفرجي متلعثمًا، ابتسمت رغمًا عني، لا يزال الخدم

يهابون شكري حتى لو مجرد صوت عبر الهاتف. تركتُ سارة تُدير ساقية المحبة وتحدثت مع شكري، سألته بنبرةٍ قلقةٍ عن أحواله، لكن صوته بدا هادئًا، هنأني على زواجي، وأخبرني بأنه سيأتي في المساء لرؤيتي، في نهاية المكالمة أكد عليّ عدم الارتباط بأي مواعيد في الغد.

تعاظم قلقي، الهدوء الذي يتحدث به شكري يُقلق، خرجت من شرودي على صوت أبي ينادي عليّ، أعطاني الكاميرا كي ألتقط لهم صورة، بينما لا تزال سارة تصنع مزيدًا من بهجة ابتلعت همومي مؤقتًا.

***

خرجت إلى شوارع المحروسة، مشيت من جاردن سيتي حتى ميدان الإسماعيلية بسبب إضراب سائقي المواصلات العامة وخروج العمال في مظاهرات لا أعرف سببها، لاحظت أثناء سيري تبدل لافتات لعديد من المحلات، حتى ميدان الإسماعيلية صار اسمه ميدان التحرير. نظرت في ساعتي، وجدت متسعًا من الوقت قبل موعدي فقررت حلاقة شعر رأسي، توجهت إلى صالون فاروق الذي اعتدت الذهاب إليه مع جدي وأبي منذ صغري، ترجّلت حتى شارع شريف باشا وانحرفت أول يمين بالممر، دخلت محبطًا عندما لاحظت

أن لافتته صارت «صالون اللواء». نكست رأسي كي يحلق لي صاحب الدكان ما تبقى من شعري، ثرثر الحلاق أن البلاد كانت حبلى بالثورة منذ حريق القاهرة في يناير منذ عامين، والملك فسد وأفسد الجميع، هززت رأسي غير مقتنع فجرح أذني، سكت الحلاق فأكملت كلامه بما أظنه، البلاد بالفعل كانت حبلى لكنها أخرجت جنينًا غير مكتمل بعد ستة أشهر، ربما سيعيش، لكنه سيكون ضيق الصبر منحرف المزاج، لن يحتملنا ولن يجعل لدينا طاقة لتحمله.

سلمت أذني السليمة للحلاق، استمر يثرثر عن التغييرات الجديدة ويمجد في حركة الضباط وما فعلوه لأجل مصر، ولمّا هززت رأسي معترضًا جرح أذني الثانية، راح يعتذر ورفض أن يقبض أجرة الحلاقة، فيما يبدو اعتبرها تعويضًا عن جروحي وقبلتها مضطرًا. خرجت متألمًا أتحسس أذنَيّ كأنني أطرش، وأنا ألعن الحلاق ولافتته وشكري الذي ضرب لي موعدًا في آخر الدنيا.. في العباسية.

اختار كبابجي حاتي الجيش بالعباسية وصمم عليه بلا سبب مفهوم رغم اعتراضي قائلًا:

- وبالمرة تاكل كباب بدل الأكل الفرنساوي الناشف، ده إنت قربت تبقى أرفع مني يا راجل.

في البداية ظننته مطعمًا جديدًا بجوار المحل القديم الذي أعرفه، عند وصولي اكتشفت أن اللافتة فقط هي التي تغيرت من حاتي الملك كما كنت أعرفه إلى حاتي الجيش، المناضد والكراسي كما هي، حتى صورة الملك لا تزال في مكانها، وبجواره مقهى العرش، رفعت عيني صوب لافتته فوجدتها مقهى الأحرار، أعجبتني اللعبة وأوجعتني في آن.

رحت أتتبع لافتات المتاجر والدكاكين حتى أصابني الضيق، صرنا ننحني دون أن يُطلب منَّا، نكذب بسبب أو بدون بعد ما صار الكذب عادة، ورغم أن التغيرات بدت طفيفة بالنسبة لشكري، لكني رأيت عمق أثرها بوضوح، أكبر وأعلى من الهتافات والتصفيق الذي ناله الأحرار وهم يتنقلون في سيارة مكشوفة من أحد قصور فاروق إلى آخر يومًا من بعد يوم، مع أن الشعب ذاته لم يتغير.

- كيلو كباب وسلطات مشكلة واتنين اسباتس، بسرعة وحياة أبوك.

قالها شكري لعامل المطعم الذي أعاد الطلب وراءه بصوتٍ عالٍ، مال أخي ناحيتي حتى اقترب أنفه من وجهي رغم أننا نجلس وحدنا في ركن قصي من المحل اختاره بعناية وهمس:

- اسمع الكلام المهم لأني لازم أمشي بعد ساعة، من يومين عرضوا عليًّا الوزارة لكن طبعًا اشترطوا ترك جماعة الإخوان نهائيًّا.

- مين اللي عرض الوزارة عليك؟ اللوا محمد نجيب؟

- لأ.. زغلول عبد القادر، نجيب أسد عجوز، والجماعة في خطر، خلاص زغلول ناوي يصفيها بالكامل، مع إن سبحان الله يا أخي البدايات كانت مبشرة لدرجة إننا تندرنا وقُلنا عليه فضيلة البكباشي، تخيل بعد الثورة الجماعة رجعت علانية رغم إنهم ألغوا الأحزاب، وزغلول فتح تحقيق في قضية الأستاذ البنا وحبس الأميرالاي محمود عبد المجيد وكيل وزارة الداخلية، واتهمه بتدبير الاغتيال وحاكمه، وزار قبر الإمام الشهيد وصلى معانا هناك جماعة.

أشعل أخي سيجارة ونفث دخانها في ضيق وهو يسترسل:

- لكن فجأة كل الوعود اتبخرت، اختلف زغلول مع المرشد وانقلب علينا، الجماعة اتحلت تاني والأميرالاي عبد المجيد واللي معاه خرجوا من السجن والقضية اتقفلت، وكلها يوم ولا اتنين ويشيلوا اللوا نجيب بانتخابات جديدة، علشان كده لازم نسانده، المرشد أصدر تعليمات لكل الإخوان بالمحافظات بالتصويت لصالح محمد نجيب؛ لأنه راجل بتاع

ربنا وبيحبنا يا فهمي.

أدهشني حفاظه على الطريقة المسرحية وإن كانت براعته خفتت كأنه ممثل مَلَّ تكرار دوره. ومع ذلك جاريته قائلًا:

- ما كلنا بتوع ربنا يا شيخ شكري، المهم قُل لي، إنت قبلت الوزارة؟

خرجت منه تنهيدة طويلة تحمل كل متاعب عمره وأوهام السلطة وخيالات الزعامة وقال:

- أنا ماقدرش أسيب الإخوان يا فهمي لأسباب كتير مش حقدر أشرحها دلوقتي، وفي الوقت ذاته أنا حلمي أدخل الوزارة، وممكن أبقى نائب رئيس الوزراء كمان وأنا..

قاطعته بحدة لثباته على طريقته القديمة بالدوران حول السؤال، قائلًا:

- إبعد يا شكري عن المناصب وعن الجماعة، صدقني لو حاولت تاخد كل حاجة مش..

قاطعني شكري بعصبية:

- أنا مش عاوز أسمع نصايح وكلام إنشا يا فهمي، أنا طلبت منك ترجع لأني خططت وقررت.

أشعلت سيجارة وأنا مضطرب قليلًا، وحاولت تفادي عصبيته قائلًا:

- يعني إنت خططت ترجعني من باريس علشان قررت ناكل كباب في العباسية؟!

رجع شكري بظهره حتى يتمكن العامل من وضع أطباق الطعام أمامنا، واقترب مرة ثانية هامسًا:

- من غير تفاصيل.. أعضاء مكتب الإرشاد بينسقوا مع اللواء نجيب من فترة، كمان بعض الكتائب معانا على حسب ما فهمت من المرشد، ده غير المجموعات الخاصة بتاعتنا، الصراع كبير بين جمال والأحرار من ناحية، ونجيب من ناحية تانية، دي بقى فرصتنا، إحنا قررنا نكون في صف اللوا نجيب، وبكده أقدر آخد كل حاجة، الوزارة والجماعة وحكم مصر، صدقني يا فهمي المسألة مسألة وقت وكل شيء..

قاطعته بسرعة قبل أن يُكمل مقولته العقيمة:

- وأنا دوري إيه في الرواية البايخة دي يا شكري غير إني أقول وراك آمين؟

لمعت عيناه وتكونت دمعة كبيرة في كل مقلة ببطءٍ وقال بنبرة يائسة:

- أمينة يا فهمي أهم حاجة عندي؛ لأن لو اتقبض عليَّا عقوبتي مش حتكون أقل من الإعدام، ووقتها أرجوك خلي بالك من أمينة وأولادي، دي وصية بينَّا يا فهمي لو أنا غبت عن الدنيا، إنت الوحيد اللي أثق فيه، وإنت اللي حاطمِّن على أمينة وولادي معاه.

شربت كثيرًا من الماء رغم أنني لم أذُق الكباب بعد، وقُلت بنبرة مخنوقة قلقة كأنها حبيسة حنجرتي منذ سنوات:

- وحضرتك نويت تعمل العملة السودا دي إمتى إن شاء الله؟

التهم شكري قطعة لحم كبيرة دفعة واحدة، لاكها بسرعة وابتلعها في ثوانٍ كأنه حيوان مفترس وقال:

- الليلة زغلول عبد القادر عازمني على العشا في بيته في منشية البكري أنا وحكيم، مقدرش أرفض وإلا يشك فيَّا. المهم بعدها حخرج من عنده وأطلع على إسكندرية أقابل المرشد علشان نرتب الخطوة الأخيرة، أظن إننا خلال يومين بالكتير حنتحرك من هناك.

توقف عن الكلام وراح يعبث بشوكته في طبق السلطة، وبعدها قال وكأن الأمر غير مرتبط ببعضه:

- بالمناسبة أمينة حتديلك ورقة فيها خريطة مرسومة بخط اليد، كان المفروض أعدي أجيبها من شقة الدقي لكن الوقت اتأخر، عاوزك تحفر في العزبة على الخريطة حتلاقي صندوق أسلحة وذخيرة، اتخلص منه بأي طريقة مناسبة، ده صندوق زغلول لو فاكر.

هززت رأسي بالإيجاب وعلا صوتي بغير وعي متهمًا إيَّاه بالجنون، نبهني بإشارةٍ من عينه، فقُلت بنبرةٍ متوسلة:

- اسمع نصيحتي بلاش مشوار إسكندرية يا شكري، أرجوك.

هزَّ كتفيه بلا معنى واضح ولم يقُل كلمة واحدة بعد ذلك، انشغل بطعامه وكأنه لم يأكل منذ أيام طويلة، ظل شاردًا لنهاية اللقاء يستمع لأسئلتي الكثيرة ولا يجيب عنها، ثم نهض وودعني بعناق قصير على غير توقعي وانصرف.

تابعته عبر زجاج الواجهة، مشيته مترنحة كمَن ينزف ويتحايل على الألم، مثل جنرالات نابليون الذين كانوا يرتدون سترات حمراء وقت الحرب لتمويه الجراح والدماء فيظن جنودهم أنهم خالدون مع أنها حلاوة روح لا أكثر.

***

وصلت إلى جاردن سيتي بصعوبة بالغة، البلد مشلول مثل

تفكيري، صاخب كالأفكار التي تمور برأسي، قلق متوجس ينتظر الأسوأ مثلي بعد الذي سمعته من شكري. صادفت المظاهرات في طريق عودتي، عمال وأفندية يهتفون «لا أحزاب ولا برلمان»، من بعيد سمعت هتافات أخرى هادرة، لم أتبين كلماتها حتى اقتربت الحشود، فسمعتهم يطالبون بسقوط الديمقراطية وإلغاء الحريات، يناشدون عبد الناصر بالضرب بيدٍ من حديد، زفرت في ضيق، لا بد وأنه سيضربنا جميعًا، كلنا يريد الديمقراطية والحرية. اقتربوا، أصبح وجهي في وجوههم، مروا من حولي وجعلوني وسطهم، بعدها جرفوني معهم، قاومت فأسقطوني، وداسوا عليَّ حتى علا أنيني لكنهم لم يسمعوني ومضوا يهتفون.

الآن أدركت أن زغلول عبد القادر والأحرار سبقوا شكري وإخوانه بخطوات واسعة، جلست على الأرض مشدوهًا، أراقب القطعان التي تهتف وتكاد تدهسني كل لحظة، بعد وقتٍ قصيرٍ لم أعُد أرى سوى أحذية، أسمع هتافات لا أميزها والأحذية تتزايد، شعرت بأنني أسير بينهم، لا أصفق ولا أهتف ولا حتى أفهم ما الذي يحدث مثل أي رهينة ضعيفة ووحدي سأعاقب على سكوتي، كدت أبكي بعد ما راح صوتي وانعدمت قدرتي على الصراخ، لم يفترض ذهني أي افتراضات، ولم أُشر بأصابع الاتهام إلى أحد بعينه، آمنت في

هذه اللحظة أن العيب فينا وحدنا، في عقولنا التي لا نريد أن نستخدمها، وفي وقت الحركة لا تزيد سرعتنا على الصفر كل مرة.

دخلت السراي قرب الحادية عشرة مساءً، وجدت البهو مظلمًا وكأن أهلي هجروه، قابلني السفرجي عند منتصف السلم، أخبرني بأن الجميع خلدوا للنوم منذ ساعة، كشف عن صفي أسنان بيضاء وهو يبتسم متحدثًا عن رقة وذوق السيدة سارة زوجتي، وكيف أنها صافحتهم باليد جميعًا عندما زارتهم بالمطبخ لتتعرف عليهم، تركته وصعدت على أطراف أصابعي كي أتفادى إيقاظ أحد، اتصلت ببيت أخي عدة مرات لكن الهاتف لا يرد، تذكرت أن أمينة وأطفالها يبيتون عند أمها منذ أسبوع، لا بد وأنه أخبرها بما ينوي عمله وطلب منها ترك البيت، وهي مختلة العقل مثله وستوافقه، وربما كانت تشجعه.

وضعت رأسي على الوسادة وساقية عقلي تروي أفكارًا سوداء، تصور لي شكري بالبدلة الحمراء وحبل المشنقة يتدلى من السقف فارتعشت، نظرت ناحية سارة لأطرد أفكاري، وجدتها نائمة وتتنفس بصوتٍ عالٍ ربما بسبب حملها، لم أشأ إزعاجها بتغيير وضعية رأسها، نظرت في ساعتي

وجدتها تجاوزت منتصف الليل، تمنيت أن يكون شكري في أمان، وألا يكون عشاء الليلة مع زغلول هو العشاء الأخير مع الرئيس المنتظر. ربما يكون شكري محقًّا في مخاوفه، زغلول داهية سياسية لا يُستهان به، يُحرك مكتب الإرشاد كعرائس خشبية ووحده يمسك بالخيوط كلها، والإخوان من تغفيلهم يظنون أن الروح بُثت فيهم من جديد بعد حركة الأحرار، وأن الثمرة الكبيرة التي سقطت ستُقسم بينهم بالتساوي، لا يدركون أن زغلول يراهم مثل طائر كبير له صوت منفر وقبيح الشكل لا يسر الأعين، طائر بثلاثة أجنحة وإنه لقاطعها، بدأ بالجناح العسكري واستمال عبد الرحمن السندي في صفه، عيَّنه في الحكومة بوظيفة مرموقة تُدر دخلًا لم يكن يحلم به، وحصل منه على أرشيف النظام الخاص وأسماء عناصره، ثم خلع الجناح الديني ووضعه مؤقتًا في أروقة الحكومة، وزير مؤقت لشئون الأوقاف سهل التضحية به في أي تعديل وزاري قريب بعد ما تنتهي صلاحيته، والرجل قبل وصار محرومًا من التحليق بعد ما قص زغلول ريشه كله، لكن الجناح السياسي الأخير ما زال عصيًّا، ويتعب زغلول ورفاقه، شكري يمثل جسر العبور إلى الإنجليز، علاقاته معهم قوية ولها جذور، ربما لم أدركها من قبل ولا تخيلتها، ومن الغفلة أن يكون الجسر متاحًا أمام أي

سياسي ولا يعبر منه إلى أعدائه، وزغلول ليس مغفلًا وحتمًا سيمهد الجسر للعبور وبعدها يغلقه، وإن لم يستطع سينسفه ولن يسمح لغيره بالمرور عليه.. ليت شكري يدرك ذلك مبكرًا ويقبل بقص جناحه بدلًا من أن تطير رقبته.

تنبهت على صوت حجر صغير يرتطم بنافذة حجرتي، وضعت قدمي في نعلين خفيفين وهبطت الحديقة، ما إن فتحت باب الفيلا المطل عليها حتى وجدت ورقة مثبتة بحجر كبير على عتبة الباب، جذبتها ويدي ترتعش، صافحت عيناي الخط الدقيق المنمق، لكنه كان منحرفًا هذه المرة إلى أسفل، قرأت ما دُوِّن بها «بيت الأمة».

ولأول مرة منذ الصباح وجدت نفسي أبتسم.

***

«هنا القاهرة، السيدات والسادة، لقد وثبت مصر يوم الجمعة الماضي وثبة كبيرة عندما افتتح الرئيس محمد نجيب المقر الرئيسي لهيئة التحرير،

مفتتحًا بذلك كعبة يحج إليها المصريون جميعًا ويتجهون إليها بأفئدتهم وأرواحهم، ففي كعبة التحرير لا سيد ومسود، إنها كعبة الشعب،

والدين فيها هو الإيمان بالوطن، وجاء اختيار المكان دالًّا، فهذه الدار التي تحتضن هيئة التحرير اليوم كانت بالأمس القريب دارًا للحرس الملكي وبوليس الملك السابق، فما أجمل أن يحل حرس الشعب محل حرس الملك! فهنيئًا لنا بهذا الإنجاز العظيم»

شكري تاج الدين - 12

تتعمَّد حماتي السخرية مني كلما التقتني، سخرية مُغلفة بكلمات عادية لكنها مبطنة بكثير من التشفي في جماعة الإخوان، تراني سبب تعاسة ابنتها، مع أنها لو كلفت خاطرها وسألتها سؤالًا واحدًا، لأخبرتها بأنها تحبني وسعيدة معي، فيما يبدو لا تتحمل حماتي تبعات الإجابة، ولا قدرة لها على تقبُّل الهزيمة. تجاهلتُ سخافاتها وألقيت عليها السلام بأفضل منه، فرأسي مشغول بما هو أهم منها، طويت السلالم بسرعة للجناح الذي تقيم به أمينة مع أطفالي، رأيتها تضبط الإيشارب فوق رأسها أمام المرآة، لا أفهم سبب إصرارها على ارتدائه إلى الآن، احتضنتها من الوراء كعادتي وطبعت قبلة على رقبتها جاذبًا الإيشارب في هدوء، ابتسمت أمينة ابتسامة خجلة وهمست:

- إحنا الصبح يا مجنون.

وضعت إصبعي على شفتيها، قبلتها قُبلة طويلة وأجلستها جواري فوق الفراش، أفهمتها أن الأمور تغيرت وجماعة الإخوان تتعرض لمحنة كبيرة، ارتبكت ملامحها وسيطر عدم الفهم عليها، أطل القلق من عينيها وهي تسألني:

- يعني ممكن تدخل السجن؟

- كل شيء وارد، المهم عاوزك ترجعي طبيعية، أمينة هانم بنت محمود باشا سعادة اللي ساكنة في جاردن سيتي وبتسهر في حفلات وبتحب الحياة، بتلبس مايوه وبتنزل البيسين وبتصيف في ستانلي، أنا عارف إنك بتخرجي وبتتفسحي مع نائلة لكن خليكي طبيعية أكتر.

فاجأتني بسؤالٍ مبللٍ بالدموع:

- يعني إنت بتشوفني موش طبيعية يا شكري؟

استدعى سؤالها من قاع ذاكرتي أمورًا حسبت أني نسيتها، قيود فرضتها على نفسي ولم أعُد أشعر بآلامها حول معصمي، مع ذلك تداركت الأمر ومهدت لكلامي بقُبلة على جبينها:

- لأ طبعا، إنتي حلوة وطبيعية في عينيا في كل وقت وأي حال، غرضي أقول ما تحرميش نفسك من حاجة.

اكتست ملامحها بمسحة حزن كأنني أحدثها عن امرأة تعرفها وماتت منذ زمن، قالت بالفرنسية وهي شاردة:

- مفيش مشكلة، إنت ناوي على إيه؟

- أنا رتبت أموري واستخرت ربي لكن عاوز أكلفك بموضوع مهم لأن وقتي ضيق ومش عاوزك تتكلمي مع حد فيه غير فهمي.

أخبرتها بمكان الخريطة بخزينتي في شقة الدقي، وشرحت لها ما فيها وأن الصندوق به أسلحة وذخيرة مدفون في العزبة البحرية بجوار نخلة تبعد عن السراي بحوالي سبعين مترًا، كررت الكلام لتكون واعية أكثر، لكنها نظرت لي في وجوم، فقلت بسرعة لتستفيق:

- أنا خايف يحصل تفتيش ولازم الصندوق يتنقل وإلا حتحاكم بيه وهو مايخصنيش من الأساس.

- وإنت اللي رسمت الخريطة بخط إيدك؟

سألتني أمينة ببراءة طفلة فأجبتها بصدق:

- لأ الخريطة بخط زغلول عبد القادر والأسلحة كمان تخصه، كان المفروض نتحرك وقت حريق القاهرة لكن هو والضباط ارتأوا تأجيل الحركة وقتها، ودلوقتي أنا شامم ريحة انقلاب على الجماعة وأنا محسوب عليها ولا يمكن أقدر أثبت براءتي.

- ليه؟

- لأن الأسلحة في عزبتي والورقة محدش يعرف إنها بخطه وحتى لو أثبتوها في التحقيق حيقولوا خط مجهول أو يمكن يطلع لي شريك ويتحبس معايا، الله أعلم.

- وفهمي لمَّا يعرف حيعمل إيه؟ حيبلغ عن زغلول ويشهد ضده؟

ضحكت رغمًا عني وأمسكت بكفيها قائلًا:

- لأ طبعًا يا أمينة يا حبيبتي، فهمي حيعرف ينقل الصندوق ويخفيه في مكان تاني، كل اللي عليكي إنك تبلغيه وتدي له الخريطة وهو حيتصرف.

غادرت متعجلًا وتركتها بوجهٍ باكٍ حتى لا أبكي معها وعليها، لا أتصور حياتي بدونها، لكني وصلت لمرحلة لم يعُد فيها التراجع اختيارًا أو قرارًا، تلفتُّ ورائي عند باب الحديقة، وجدتها تلوح بالإيشارب ثم مسحت به دموعًا انسابت على خديها، لوحت لها في عجالة وركبت سيارتي وانطلقت في طريقي لمكتب الإرشاد، اليوم سيحضر زغلول ورفاقه للقاء المرشد قبل العصر، وأخشى أن يكون هذا اللقاء فصل الختام بيننا وبينهم، فالمرشد نوى إعلان الحرب.

***

بعض الظن إثم لكنَّ سوءه من حُسن الفِطن، أحسب أن زغلول ورفاقه تعمدوا أن يحضروا متأخرين عن موعدهم كي ينتظرهم المرشد، قلت لنفسي هكذا تعادلنا، فقد فعلها الهضيبي من قبل معهم.

بدأت الجلسة ساخنة من الدقيقة الأولى، استهل جمال حديثه باعتباره الوحيد في مجلس قيادة الثورة الذي يتعاطف مع جماعتنا، أشعرنا بأن الجميع ضدنا ولن يستطيع الصمود أمامهم لوقتٍ طويل، لم يُعطِ أحدًا غيره فرصة للكلام، عاتب المرشد على مماطلته في تأييد الثورة رغم أننا على أعتاب عيدها الثاني بعد شهور قليلة، ثم اتهمه بمحاولة التدخل في إدارة شئون البلاد والتقرب من اللواء نجيب.

حاولت تلطيف أجواء الحديث، لكن المرشد اتهمني بتأييد الضباط طوال الوقت. تُسعد هذه الكلمات جمال ورفاقه، وربما تُشجعهم على عرض المناصب عليَّ واستمالتي ناحيتهم، أشعر في هذه اللحظات كأنني أرقص على الحبال، ولا أستطيع أن أحفظ توازني وسقوطي قادم لا محالة. انبريت كطالب يهتف في مظاهرة:

- الجماعة شاركت في حركة الجيش ونجحت في حمايتها بالقرى والنجوع ولولانا لكان..

قاطعني جمال بغطرسة:

- السُّلطة معانا الآن والسيطرة على القيادة بالقاهرة هي الأساس، وما فات قد فات.

تكلم المستشار الهضيبي لأول مرة:

- السُّلطة معكم إلى حين ويجب أن تُرد لأصحابها، إيَّاك أن يخدعك أحد بفكرة المستبد العادل، الاستبداد لا يكون عدلًا في أي صورة.

غيَّر جمال دفة الحديث على الفور وأشعل سيجارة متعمدًا نفث دخانها ناحية المرشد وقال:

- المشكلة يا سعادة المستشار إنكم عاوزين حكومة إسلامية تطبق القرآن فورًا، ده استبداد برضه، وفي الوقت ذاته كلام نظري جميل، كلنا مسلمين وموحدين بالله لكن تطبيق الشريعة فورًا مستحيل، ده أمر غير ممكن عمليًّا في مجتمع منفتح زي مصر.

وضع الهضيبي ساقًا فوق أخرى وقال:

- مَن طلب منك ذلك؟

- أليست هذه دعوة الإخوان؟

بالهدوء والثبات ذاته أجابه المستشار:

- لا داعي للحديث عن بقايا فهم سابق للدعوة من جانبكم، لكن دعني أسألك هل تعلم معني تطبيق الشريعة؟

لاحظت ارتباكًا طفيفًا على ملامح جمال رغم ثقته المفرطة بنفسه:

- معناها معروف، باختصار منع الخمر والربا وقطع يد السارق وتعديل القوانين.. وما إلى ذلك.

ابتسم المستشار لأول مرة وهو يجول ببصره بيننا كأنه يُشهدنا عليه وقال:

- المهم هو «ما إلى ذلك»، هذا ما لم تفهموه وتلك هي المشكلة. اسمع يا بكباشي جمال، فلا حاجة لنا الآن أن نناديك زغلول عبد القادر كما فرضتها علينا مع صديقك شكري، القرآن خُلُق إذا تخلَّق به الناس صَلُح حَالهم، والشريعة طريق إذا ما ساروا فيه تكشفت لهم حقائقه، لكني لن أشرح لك معاني، فلا أظن وقتك أو وقت زملائك يسمح لكم بمزيد من المعرفة، لكن إن شئت رأيًا فاستشرنا أولًا قبل أن تفعل وإلا..

قاطعة جمال في ضيق:

- وإلا ماذا؟

- وإلا لا تطلب منَّا تأييدًا، نحن قوم إذا لم يستشرنا أحد نتعفف عن السؤال، ونتوقف عن إبداء الرأي أو النصح، ولا نؤيد قرارات لم نشترك في دراستها مسبقًا.

- حتى لو كانت لصالح البلد؟

لم يُجبه المستشار، أشاح بوجهه وطلب كوب ماء من أحد الإخوة، تبادل جمال نظرات مع زملائه وقال:

- ما رأيكم يا فضيلة المرشد في إجلاء الإنجليز فورًا وتقييد الملكية الزراعية، وتنظيم الحياة السياسية بالتدريج؟ أنا أيضًا أفكر في إنشاء هيئة التحرير وتأجيل عودة الأحزاب.

مدَّ المستشار ساقيه وقال دون أن يوجِّه بصره لجمال ربما متعمدًا:

- لا مانع لدينا في أي قرار يكون شورى بيننا، وبالمناسبة هل قرأت العدالة الاجتماعية في الإسلام للأستاذ سيد قطب؟

التفت جمال ناحيتي وسألني إن كنت لخصت له هذا الكتاب في بداية تعارفنا، فقد كنَّا نقرأ الكتب ونلخصها

أسبوعًا من بعد أسبوع، أومأت بالإيجاب، ارتاحت ملامحه وقال للمرشد:

- أنا قرأت تلخيصه على الأقل، وإذا كنت ترشح لي كتابًا فأنا بدي أرشح لك الأمير لمكيافيللي.

فجأة نهض المستشار فأربكنا، بدا أنه قرر إنهاء الاجتماع، تحجج بلقاء أُسري وأردف دون أن يُصافح أحدًا:

- اقرأ كتاب سيد قطب مرة ثانية سيفيدك، أما كتاب الأمير فلا حاجة لي بقراءته بعد لقائك.

بدا لي أن المرشد أسدل الستار على الفصل الأخير من قصتنا مع الأحرار بهذا اللقاء، مضى بغير وعود ولا اتفاق، ألقى كرة نار في حِجر الضباط الأحرار بغير خبرة ولا دراية. بعد انصرافه رجوت جمال ورفاقه البقاء، ظلوا جالسين معنا لأكثر من ساعة حتى إن أحدهم طلب منَّا إعداد عشاء خفيف، آثرت الصمت حتى نهاية الجلسة، وتركت جمال يناقش أعضاء مكتب الإرشاد، هو كفيل بهم ولن يصمدوا أمامه طويلًا.

شردت في حالي البائس، أنا متهم طوال الوقت ولا حاجة لتذكير أي جانب بشبهاتي، شغلت نفسي بمراقبة ملامح

جمال ما تبقى من الوقت، أعرف من كزِّه على أسنانه أنه كتمها في نفسه، وأعرف أيضًا أنه سيردها لنا مضاعفة.

***

«أصدر مجلس قيادة الثورة بالإجماع قرارًا بحل جماعة الإخوان المسلمين بعد ما ثبت أن مرشدها العام حسن الهضيبي يُسخِّر الدعوة لمطامعه

الشخصية ويُدير انقلابًا باسم الدين ويعمل على قلب نظام الحكم

ويكوِّن منظمات سرية في الجيش والبوليس والجامعات وبين العمال، ويتفاوض مع الإنجليز مع بطانته من خلف ظهر الثورة والثوار

للإضرار بأمن البلاد، وقال البكباشي جمال عبد الناصر: أنا لست ضد الفكر إنما ضد العَمالة، كان يوجد جيش مسلح لدى جماعة الإخوان يستعد للانقضاض على البلد، والقضاء على إنجازات الثورة، حاولوا اغتيالي وفشلوا، تفاوضوا مع الإنجليز سرًّا، لإفشال مفاوضات الجلاء، وللانقلاب على الثورة، وكشفناهم، ونحن لم نبدأهم بالعدوان أبدًا»

أمينة سعادة - 7

تُعيد نائلة على مسامعي عبارة لا تتغير، أن فهمي اختارها لأنها تُشبهني، مع أني لا أرى أي وجه شبه بيني وبين سارة على الإطلاق، ربما لون العينين والشعر ، لكن أنفي أصغر، وخصرها في الصور التي أرسلها فهمي من باريس كان أدق من خصري، ويكاد العظم يظهر من جانبها كرأس حربة، ثم إن صوتها خشن كرجل، وساقيها رفيعتين كعيدان الكبريت، نحيفة كمومياء، باهتة كتمثال شمع، صاخبة كراديو لا ينطفئ. هززت رأسي نافضة الكلام غير مقتنعة بما تقوله نائلة، وهممت بإشعال سيجارة لولا أنني تنبهت في اللحظة الأخيرة أننا في مستشفى.

فتح الطبيب باب غرفة ونزع عن يديه قفازين ملوثين بدماء كثيرة وهو يقول مبتسمًا:

- مبروك.. مدام فهمي جابت بنت.

برطمت نائلة:

- وطبعًا حيسميها أمينة.

هرولنا ناحية الحجرة التي نقلوها إليها، وجدناها تبتسم رغم تعبها. أمسكت سارة بيدي وتساءلت بنبرةٍ واهنة:

- ولد ولا بنت؟

ردت نائلة بالفرنسية أيضًا:

- أمينة الصغيرة.

أطل الخبث من عيني نائلة، وشعرت بحرج شديد، خاصة أن أمي وحماتي دخلتا الغرفة في تلك اللحظة، لكن الفرحة التي خرجت من عينَي سارة بددت الشرور الصغيرة التي تطلقها نائلة. تورد وجه سارة وقالت بنبرةٍ مرتبكةٍ وهي تحاول أن تستعدل جسدها بالفراش:

- أمينة اسم جميل، لكن أكيد فهمي قال لك إنه اختار اسم أنيسة لو كانت بنت، واختار بركات على اسم جده لو خلفنا ولد.

ظلت ابتسامة نائلة الخبيثة تتسع مصممة أن سارة تخفي الحقيقة حرجًا، وفي حين باركت أمي في فتور لسارة وخرجت من الحجرة تهز مروحة يدها في عصبية، بعد ما أخبرتنا بأن رائحة المستشفيات تُشعرها بالاختناق، انشغلت حماتي بالمولودة، وأطلت من عينيها فرحة عظيمة رغم أنها جدة لستة أطفال، كأنها الفرحة الأولى التي ابتلعت كل ما سبقها من أفراح. نظرت في ساعتي ثم إلى نائلة التي

انغرست مكانها، قررت مغادرة المستشفى قبل حضور فهمي كي لا تحرجني نائلة التي تحب حكايات النميمة وقراءة العيون التي تفضح النوايا وتكشف ستر القلوب.

قبل أن نبلغ نهاية ممر مستشفى مورو الذي يُفضي لباب الخروج صادفنا فهمي مهرولًا باتجاهنا، باغتته نائلة:

- مبروك يا فهمي سارة جابت بنت، حتسميها أنيسة ولا أمينة؟

تسمَّر فهمي وبدا مرتبكًا، شعرت بالدم يتجمد في عروقي وسرت برودة غريبة في جسدي، رمقني بنظرة مليئة بالشجن، تلخص شقاء السنين وطولها، وتخفي وراءها مشاعر أعرفها، نظرة استدعت دموعًا من قاع عيني آتية من قلبي، دموعًا أشبه بدماء تنزف بلا توقف، لكن الحياة تأبى أن تنتهي رغم كل هذه الآلام. لا أعرف ماذا يدور بداخلي الآن، ربما قليل من الشوق لا يزال موجودًا، والذكريات تتجدد لأن فهمي صار ملازمًا لعيني منذ عودته، لكني واثقة من حبي لشكري، كررتها بيني وبين نفسي ثلاث مرات، ومضيت في طريقي لباب الخروج دون أن أصافحه.

***

ترقص آلامي مع أمنياتي رقصة تانجو أخيرة، تميل الآلام وتحني جذعها فتقترب الأماني من الأرض، تئن من الوجع الذي يعتصرها حتى يتركها الألم لتهوي، تتكسر أجنحتها ولا تقوى على التحليق مرة ثانية بعد ما حُرمت من الرفرفة.

عاودتني كوابيسي، وعادت أشد ضراوة كأنها تعوض ما فاتها، ربما ظنت أنني سعيدة، ولا تعرف كم أعاني لأتظاهر بالسعادة كل يوم، لو سألتني لأخبرتها بما أخفيه عن الجميع، أتناول حبوبًا منومة بصورة منتظمة حتى يخمد جسدي، وأنشط طوال النهار بعشرات الفناجين من القهوة، صرت مثل ماكينة تعمل وتتوقف بأزرار. مؤخرًا علمتني نائلة تناول كأس من الفودكا، أخبرتني بأنها تساعد على النوم بعمق في المساء، وتفتح الشهية على الطعام، لم تفلح الكأس الكبيرة التي أتناولها في الخفاء ظهر كل يوم، صارت كأسين، ثم ثلاثة على مدار اليوم، وزادت لنصف زجاجة حتى دار رأسي في مرة وفقدت توازني، اصطدم رأسي بالكومودينو واحتجت لغرزتين تركتا أثرًا وأخفاه شعري مؤقتًا. كذبت على شكري لأول مرة، وأخبرته بأن قدمي تعثرت في السجادة، وأقسمت بعدها بألا أعود للخمر، خفت من لساني يفضح أمري، وخشيت من انكسار صورتي أمام أولادي لو رأوني.

- والا خايفة شكري يعرف؟ تلاقيه بيشرب كل ليلة، إوعي تفتكري الاجتماعات اللي كل يوم والتاني بيسهر فيها بتبقى أورديحي، والنبي إنتي على نياتك وهبلة.

قالتها نائلة بعد ما جاءت لبيتي لتأخذ الزجاجة وما فيها. لم تُصر بعدها على تقديم خمور لي، ومن جانبي حاولت التغلب على تقلبات روحي بالجلوس مع أبي وتفادي أمي قدر الممكن، هو الوحيد الذي يعرف كيف ينفذ إلى عقلي بعد ما وجد قلبي مسكونًا بحب شكري، ولم يعُد هناك مكانٌ لأحد غيره، كل ما تقوله نائلة عن فهمي غير صحيح، لا هو يحبني الآن، ولا أنا أفكر فيه.. إلا بالصدفة أحيانًا.

جذبت الغطاء فوق رأسي في محاولة يائسة لجلب النوم، علّه يأتي ويداعب جفوني فتنغلق عيناي، أخبرني فهمي بأنه يفعلها كل ليلة وتنجح، لكني فشلت فيما يبدو، ولمَّا نمت قرب الفجر تكرر الكابوس، خرجت الفتاة الميتة من جسدي، حاولت الإمساك بها وإعادتها بداخلي لكنها راحت تطير، حلقت في خطوط متعرجة، رفرفت الفتاة بجناح وحيد وتساقط ريشها تباعًا، ظلت تتأرجح حتى هوت قرب النهر وبقيت في مكانها تئن وتنزف، من بعيد ظهر شكري يرتدي بذلته الميري البيضاء، وحوله آخرون يرتدون جلابيب

وطرابيش، يمسك كل واحد منهم بمسبحة طويلة، إلا شكري مسبحته بها ألف حبة، ناديته متوسلة، وصرخت «لم أعد أستطيع الصبر»، اقترب من الفتاة وعاونها على النهوض، كانت تتكئ على ذراعه لكنه مشغول بمسبحته الطويلة التي أعطاها له أحدهم وحلّفه ألا يتركها، لم يهتم بجروحها التي تنزف وأنينها الذي يزيد، حاولت الصراخ لأنبهه فلم يخرج صوتي، أشرت له كالمجنونة فالتفت ببرود نحوي وأخبرني بأن الفتاة ماتت منذ زمن بعيد وهو في طريقه لدفنها، صدقته مع أنها تئن وتنزف وتتحرك أمامي، ثم صحوت من كابوسي زاعقة وأنا أمسك برأسي، وبعدها رحت أبكي مثل كل مرة.

***

على مدار النهار أخذني التفكير حتى انتهيت إلى قرار، لست أقل من فهمي ولن أخيب توقعات شكري الذي ائتمنني على سره. سأنهي الموضوع وحدي وأفاجئه بنجاحي في التخلص من السلاح والذخيرة.

أحكمت غلق باب غرفتي وأفرغت محتويات صندوقي، أخرجت قباقيب الباتيناج وأطواق الهولاهوب الخيزران وعرائس صغيرة وكبيرة، كومتها فوق بعضها كأنها مقبرة

كبيرة لطفولتي، وجدت أكياسًا شفافة بها خصلات طويلة وقصيرة من شعري كنت أحتفظ بها كلما قصصته، عشرات الصور الفوتوغرافية ونوتة يومياتي وخطابات فهمي أو شكري.. لا فارق الآن.

جلست حائرة بجوار الصندوق المقلوب، ارتكنت بظهري عليه ودفست رأسي بين كفيّ، حاولت طرد ذكريات أيامي الجميلة لأتذكر مكان الخريطة التي أحضرتها من شقة الدقي أمس وأخفيتها بحجرتي، واثقة أنني وضعتها بالصندوق لكني لا أجدها ولا أدري ماذا أفعل، فهمي يُلح في طلبها للذهاب إلى العزبة واستخراج الصندوق، حذرني من أن الوضع سيئ والوقت ليس في صالحنا، وأخفيت عنه أنني أضعتها. مع أول ضوء نهار اتصلت بنائلة طالبة منها الحضور، وصلت قلقة من نبرة صوتي ومكالمتي المبكرة، أجبرتها على القسم أولًا على المصحف أنها لن تُفشي سري، أقسمَت وبرقت عيناها بعد ما عرفت الحكاية، راحت تبحث معي، أحيانًا تكون الأشياء أمام عيوننا ولا نجدها.. هكذا قالت، ظننت أن نائلة ستُعينني لكننا فشلنا بعد ساعات طويلة من البحث حتى انتصف النهار.

ألحّت نائلة عليّ لتذكر أي شيءٍ يوصلنا للخريطة أو

الصندوق، أخبرتها بكلمات شكري الأخيرة التي تذكرتها:

«سبعون مترًا من السراي ناحية العزبة البحرية تحت النخلة».

هتفت نائلة وعيناها تلمعان:

- قومي بسرعة البسي هدومك.

بعد ساعتين ونصف الساعة كنّا بالعزبة، واقفتين أمام نخلة عجوز، ومن حولنا عشرات النُّقَر الواسعة تتوسطها حفرة كبيرة بعُمق متر، على مسافة منّا وقف الخفير عوض ومعه خمسة من الفلاحين يجففون عرقهم ويتكئون على معاولهم، تشي ملامحهم بأنهم يكتمون سرًّا كما تقول نائلة، فحتى هذه اللحظة لا أثر لصندوق زغلول.

جلسنا تحت شجرة قريبة أنا ونائلة، مالت على أذني وهمست فاعترضت على وجهة نظرها واستبعدتها، لكنها لم تأبه لرفضي وصاحت في عوض وبقية الفلاحين:

- بالك إنت وهو لو شكري بيه أخد خبر إن في حد دخل العزبة وأخد الصندوق وإنتم كنتم نايمين على ودانكم، مش بعيد يعلقكم من رجليكم في الشجرة دي.

صاح أحد الفلاحين بغضب:

- الكلام ده مالوش لزوم يا ست هانم ولا حد يقدر يلمس شعرة من أيتها فلاح النهارده، ثم إن الباشا الكبير راجل طيب مايرضاش بالأذية، وإحنا مالناش صالح بصندوق شكري بيه ولا بالحكومة.

نظرت لي نائلة وهي تبتسم على ذكر كلمة الحكومة لكني ما زلت غير مصدقة، تظن أن الفلاحين عثروا على الصندوق لكنهم لم يفتحوه بعد، أو ربما لم يفلحوا في فتحه، ويفكرون في إبلاغ البوليس عنه، لم تيأس نائلة وأخرجت من حقيبتها ورقة خضراء بعشرة جنيهات، لوحت بها موجهة حديثها لعوض وحده:

- شكري بيه مخبي صندوق أسلحة تخص البوليس ولازم يسلمها للحكومة ولو اتلقت في بيت حد من العزبة حتبقى مصيبة ويدخل السجن، الفلوس دي حلاوة اللي يلاقي الصندوق.

ساد وجوم غريب بين الفلاحين وراحوا يتبادلون نظرات صامتة مع بعضهم، ضرب بعضهم كفًّا بأخرى وبرطم آخرون، لم تفلح الجنيهات العشرة في إغرائهم بإعادة الصندوق، تسربوا واحدًا تلو الآخر وبقي معنا عوض. جلس القرفصاء أمامنا وأطرق. همست نائلة لي:

- وحياتك كلها ربع ساعة ويرجعوا بالصندوق وتسمعي حكاية جديدة عن فلاح غريب دخل الأرض من وراهم لكن هُمَّا ما سكتوش لغاية ما رجّعوا الأمانة.

سكتت قليلًا وهي تنفث دخان سيجارتها وأردفت:

- دي عشرة جنيه يا أمينة، الناس دي من بكرة حيبقوا أفندية بالفلوس اللي حيخدوها مني.

مرت نصف الساعة فطلبت نائلة من عوض أن يذهب للفلاحين، حدثته بنبرة يُفهم منها أنها ستُعطيه عشرة جنيهات أخرى لنفسه إذا ظهر الصندوق، تلفَّت عوض حوله واقترب منَّا وهو يقول بنبرةٍ التصق بها الخوف:

- الحكومة جات هنا من كام يوم يا ست هانم، حفروا في المكان ذات نفسه وطلعوا الصندوق اللي بتدوروا عليه وأخدوه ومشيوا، لكن وحياة الباشا الكبير يا ست أمينة لو العمدة أو المأمور في المركز شم خبر إني فتحت حنكي واتكلمت معاكم حيدفنوني مكان الصندوق، دا الفلاحين سابت الفلوس وخافت وهُمَّا مش لاقيين اللُّقمة، والنبي يا ست هانم أبوس إيدك خلي السر في بير.

ختم عوض كلماته بدموع ونهض واقفًا ينتظر الأمان،

رافضًا نقود نائلة بكبرياء، لم أكن قادرة على الكلام، ما رواه عوض يعني أن شكري سيُقدم للمحاكمة بدليل عثروا عليه في أرضه كما توقع، وتأخري في البحث ليوم كامل هو السبب، أحسست بدوار مريع، وشعرت أن الأرض تميد من تحتي، ركبنا السيارة لنعود إلى القاهرة، لم أستطع القيادة وتركتها لنائلة، باغتنا الظلام قرب القناطر الخيرية، هدَّأت نائلة السرعة وهي تحاول تذكر الطريق بعد ما انحرفت لسكة غريبة، دارت بالسيارة أقصى اليمين مؤكدة أنه الطريق الصحيح، بعد عشر دقائق لاحظت أننا نسير في سكة مظلمة، على يميننا النيل مباشرة، لكن السور منخفض للغاية ولا يوجد ما يُشير لوجود حياة بالمكان.

- إيه المكان الغريب ده يا نيني؟

ابتسمت نائلة ابتسامة خبيثة وهي تحكي عن عزبة زوجها القريبة من هنا، وكانا يختلسان أوقاتًا غرامية في سيارته، طمأنتني أنه طريق مختصر إلى القاهرة، ضغطت أكثر على دواسة البنزين، فجأة تقطعت السرعة وهدَّأت السيارة بصورة غريبة من سرعتها وهي تُصدر أصواتًا مزعجة، ظلت تتأرجح بنا حتى توقفت تمامًا. خفنا أن نهبط في هذا المكان «المقطوع» كما وصفته نائلة، فتحت جزءًا يسيرًا من نافذتي

لأستنشق بعض الهواء، جسمي كله يرتعش بينما نائلة تحاول إدارة محرك السيارة عدة مرات لكن دون جدوى، زفرت نائلة في ضيق وهي تعبث بأزرار المصابيح الأمامية للسيارة، تطفئها وتنيرها حتى أصابتني بالتوتر، نهرتها للتوقف وطلبت منها إعادة المحاولة لعل السيارة تدور، هذه المرة استجابت، صفقنا في حماسة ونائلة تصفر فرحة، هممنا بالتحرك لكني لمحت شبح رجل بالقرب من نافذة نائلة كأنه خرج من باطن الأرض، عندما اقترب وجدته رجلًا سمينًا مبتسمًا، وقبل أن أسأل نائلة عن معرفتها به سمعنا سرينة بوليس تدوي مزعجة، أُضيئت أنوار عالية من أمامنا وخلفنا، أحاط بسيارتي أكثر من عشرة عساكر مسلحين، اقترب من السيارة ضابط طويل بشارب رفيع، ضرب الزجاج بعصاه وأمرنا بالنزول وهو يلوح بمسدسه، جمَّدنا الخوف في مقعدينا، ولزمنا الصمت من فرط الهلع، شعرت ببعض البلل في ملابسي الداخلية لمَّا سمعته يأمر رجاله بالقبض على الرجل السمين، ظللت أنظر للضابط في ذهول بعد ما هربت الكلمات من لساني كأنني صِرت خرساء.

***

«وأعلن الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومي تأليف محكمة الثورة لمحاكمة كل مَن أخطأ في حق وطنه من المصريين، وفي صباح يوم السبت 26 سبتمبر وصل المتهم إبراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء الأسبق، وهو أول متهم تحاكمه محكمة الثورة، وأُجلت الجلسة لاثنتين وسبعين ساعة

لاستعداد الدفاع والاطلاع والمرافعة، وأُعيدت للانعقاد يوم 29 سبتمبر، وفي نهايتها قررت إصدار الحكم في أول أكتوبر، وفي صباح اليوم انعقدت الجلسة برئاسة قائد جناح عبد اللطيف بغدادي، وعضوية البكباشي

أنور السادات، وقائد الأسراب حسن إبراهيم، واستُدعي المتهم

للمثول ليسمع حكم الثورة التي حكمت عليه بالإعدام شنقًا ومصادرة

جميع أمواله عدا ميراثه الشرعي، وبعدها رُفعت الجلسة وضجت القاعة بهتاف: يحيا العدل»

شكري تاج الدين - 13

يجري النيل أمام عيني وتتسع صفحة النهر على مدى البصر، سرايات وقصور جاردن سيتي بدت أطلالًا من الضفة الأخرى كأنها شاهدة علينا أو تنتظر بقلق مصيرها.. لست أدري.

كنت جالسًا مع جمال في مقر مجلس قيادة الثورة بالجزيرة عندما أخبروه بنبأ اعتقال فؤاد سراج الدين باشا في قصره، أبديت تحفظًا على قرار الاعتقال، ودافع عنه جمال باعتبار أن فؤاد باشا ضد الإصلاح الزراعي ويرى الاكتفاء بالضرائب التصاعدية. قاطعنا صلاح سالم قائلًا:

- تخيلوا لمّا اتقبض عليه الساعة تلاتة الفجر كان بيكتب مسوَّدة لقانون الضرايب وجنبها دفتر يومياته!

انبعثت ضحكات متناثرة من الحاضرين عدا عبد الحكيم وجمال الذي بدا متجهمًا وهو يقول:

- عمومًا ده مجرد إجراء وقائي مؤقت لحين الانتهاء من قوانين تقييد الملكية، وبعدين فؤاد باشا ده عدو الإخوان، بتدافع عنه ليه يا سي شكري؟ ما أنا ريحتكم منه أهو.

- يمكن يكون عدو سياسي، لكن في الحقيقة هو صديق

لوالدي وأنا بحترمه.

- ما النقراشي باشا كان صديق لوالدك ورئيسه، والحكمدار سليم زكي كان رئيسك وصديق لأبوك والا نسيت؟

- لأ مش ناسي لكن إنت عارف إني ماليش صلة بحوادث الاغتيال وماكنتش أعرف قبلها.

ابتسم جمال عبد الناصر بمكر وهو يقول:

- صدقتني بقى إنك غيرهم؟ إنت كمان خسارة فيهم، أتعشم تكون فكرت في الموضوع اللي فاتحتك فيه، الوزارة بتتشكل حاليًا ومكانك محفوظ، وفي الوقت نفسه ممكن تكون مستشار قانوني لهيئة التحرير ومجلس القيادة مع سليمان عزت.. ها قُلت إيه؟

قبل أن أرد قاطعني حكيم:

- اخترنا في الوزارة تلاتة من الإخوان المسلمين، جمال اختار اتنين، إنت وأحمد الباقوري، والتالت سِبناه للمرشد طالما هو عاوز القرار بالشورى.

قالها حكيم بنبرةٍ ساخرة، ولأني أحبه ضحكت وتقبلتها منه وقُلت:

- والله ما عارفين نرُد الجمايل وفرص الاختيار الكبيرة اللي سبتوها لفضيلته يا حكيم.

قاطعنا جمال بنبرةٍ جادة:

- إنت أقرب لنا يا شكري من الباقوري أو غيره، بلاش عنادك يوصلك لطريق مسدود، أنا صبري قرب ينفد، لو متردد أو عندك حرج من فضيلته أنا ممكن أسفَّرك كام شهر بره، تتعين وزير مفوض في أي بلد تختاره وبعدها ترجع للشغل.

أشعلت سيجارة لأسترد بعض هدوئي وقُلت:

- لازم أرجع لمكتب الإرشاد أستطلع رأيهم أولًا، اعفيني من أي حرج أرجوك.

لم يزد جمال بكلمة في الموضوع، إنما دعا ضابطًا كان يجلس مع آخر على طاولة اجتماعات في أقصى الغرفة لينضم إلينا، نهض جمال على غير العادة وقدَّمه لي بفخر قائلًا:

- البكباشي يوسف صدِّيق.

صافحته بتبجيل يليق بدوره في الثورة، ولاحظت كبرياء وأنفة لا تخطئها العين على محياه، اقترب بعده بخطوات خجلة الضابط الآخر، فقدَّمه جمال بنبرةٍ مستريحةٍ أكثر

قائلًا:

- الصاغ خالد محيي الدين، صاحب أخوك فهمي بالمناسبة.

تذكرت اسم الصاغ خالد، وفهمت الآن لماذا تحدث جمال باطمئنان أمام فهمي ببيت الأمة ووافق على حضوره معنا رغم شخصيته المتشككة في الجميع. جلس الضابطان معنا لكنني لاحظت نظرة غريبة من الصاغ خالد نحوي لم أفهم لها سببًا، وكأنه يعرف عني أمرًا مشينًا، تجاهل جمال أمر تقديمي لهما وسألهما عن رأيهما في اشتراك جماعة الإخوان بالوزارة الجديدة، تقلبت ملامح يوسف صديق على الفور وقال في قرفٍ شديد:

- مجموعة من الأغبياء أصحاب عقول منغلقة وفكر عقيم لا يصلح لهذا العصر.

شعرت ببرودة تسري في جسدي، وفي هذه اللحظة تعمَّد جمال أن يُقدمني لهما وهو يقول مبتسمًا:

- شكري تاج الدين، بكباشي سابق في البوليس الملكي، وعضو بارز في جماعة الإخوان.

ابتسم يوسف صديق ابتسامة صياد عثر على فريسة كسيحة لن يتعب في مطاردتها وقال:

- تشرفنا يا أستاذ شكري، جمال حدثنا عنك من فترة وقال إنك لست غبيًّا مثل جماعتك ومرشدك، الحقيقة أنا لا أفهم إزاي قادر تتحملهم كل السنين دي؟

سقطت كلماته فوق رأسي كالدبش وارتبكت، أشار ناحية الصاغ خالد محيي الدين وقال وهو يمسك بذراعه:

- سنة 48 الصاغ خالد قابل السندي في مقر مكتب الإرشاد الضُّهر علشان ينضم للإخوان، وبعد صلاة العصر كان خالد في بيتهم واستقال من الجماعة، شايف وشه نور إزاي من يومها؟

ضحك الحاضرون بلا استثناء، وخفت أن أتحول إلى مسخ بينهم خاصة أنني بلا سند، لملمت شجاعتي وقُلت بحدة:

- أرجو ألا تحكموا على قومٍ لا تعرفونهم، وربما تسمح الظروف السياسية الآن أن تتعرفوا عليهم عن قرب، والسندي لا يمثل الجماعة لا من قبل ولا الآن.

ختمت كلامي وأنا أنظر ناحية جمال نظرة أعتقد أنه فهم مغزاها، الأمر بات معروفًا لدينا أن السندي بايع الثورة منفردًا وباع الجماعة كلها في اللحظة ذاتها، حصل على الأمان من جمال شخصيًّا بعد ما سلَّمه كشوفًا بأسماء أعضاء النظام

الخاص ومخططات وأوراق التنظيم، وفي المقابل منحوه وظيفة في شركة من شركات الحكومة.

أفلح كارت السندي في دحض الهجوم المدبر ضدي مؤقتًا عندما غيَّر جمال دفة الحديث، نهض يوسف صديق وبصحبته خالد محيي الدين واستأذنا في الانصراف، شعرت بغربةٍ رغم انضمام آخرين لنا، لم أكن أعرفهم بالاسم لكن أحدهم تذكرته من صوته وهو يُقدِّم نفسه، يُدعى أنور السادات، هو مَن ألقى بيان الحركة الأول من الإذاعة، ظل مبتسمًا طوال جلستنا بلا سبب، يسمع ولا يتكلم حتى تحسبه أبكم، ومع ذلك شعرت بأنه متعاطف معي للغاية.

خرجت من مجلس قيادة الثورة إلى مكتب الإرشاد، ناوشني شعور غريب بأنني مثل رجل متزوج من امرأتين لا يستطيع العدل بينهما، حاولت إقناع أعضاء المكتب وفضيلة المرشد لعله يؤثر عليهم ويوافقوا على انضمامي للوزارة، لم يكن لديَّ مهلة طويلة بعد ما أعطاني جمال يومًا وبضع ساعات، ودعاني على العشاء في بيته مساء الغد لحسم الأمر.

قرب السابعة مساءً كانت راية العناد ترفرف خفاقة فوق رءوس أعضاء مكتب الإرشاد، رغم إعلان رأيي بكلمات

لا تقبل القسمة على اثنين ولا تُقرأ من اليسار إلى اليمين، رجوتهم لمرة عاشرة قبول الوزارة كأفراد لنكون قريبين من الحكم، من السُّلطة، مع اللواء نجيب الذي سيترأس الوزارة هذه المرة، أغريتهم بضمان البقاء لأطول فترة ممكنة، لكن لا حياة لمَن أُناقش، عبثًا حاولت إفهامهم أن نكون في قلب الحدث خير من أن نكون خارجه، وأن الاقتراب منهم يجعلنا نعرف خطواتهم ونراقبها، والابتعاد عنهم يعني فرصة لغيرنا أن يُحيط بجمال ورفاقه، ونحن لا ندري مَن سيكون وماذا سيفعل بنا ومعنا، فلا داعي لأن نكون أغبياء كما يظنون بنا.

صبر المرشد حتى أفرغت شحنة غضبي، وقال ببرود:

- هل قُلت رأيك يا أخ شكري؟

زفرت في ضيقٍ وأجبته:

- نعم.

- وهذا رأينا، أبلغ البكباشي صديقك برفضنا، وثِق أن نجيب سينتصر في النهاية.

خرجت من مكتب الإرشاد في طريقي لبيتي، لاحظت أن هناك مَن يراقبني، لم يكن واحدًا ولا اثنين أو هكذا هيئ لي.. ممّا جعلني أشعر بقرب تصفيتي، لا تصفية الجماعة وحدها.

***

وصلت لمنشية البكري بسهولة من العباسية بعد لقائي مع فهمي، فالمظاهرات لم تذهب لهذا الطريق منذ الصباح، لمحت من بعيد سيارة حكيم الخاصة تقف قرب البوابة الرئيسية، يبدو أن اللقاء سيقتصر على ثلاثتنا ولن يغير رأيه في آخر لحظة كما اعتاد مؤخرًا. دخلت بخطى مترددة، فوجدت حكيم يجلس بالصالون يدخن في شرود، صافحني بترحاب وهيصة كما اعتاد، ثم همس أنه يتعشم خيرًا الليلة، لكن ملامحي أجابت عن سؤاله بغير كلام على ما أظن فعاد لشروده. دخل جمال علينا مشعلًا سيجارته ووضع العلبة بيننا وهو يشير لها بكفه قائلًا بحسم:

- ما ردك يا حضرة البكباشي؟

فاجأتني طريقته، ظننت أننا سنتناول العشاء أولًا وبعدها يطول الحديث بيننا حتى نصل لنقطة الختام، أردت كسب بعض الوقت، فعاتبته على تكراره عبارة أنني غير أعضاء جماعتي، وأفهمته أنها تسبب لي حرجًا مع المرشد.

اعتدل جمال في جلسته وقال بنبرةٍ جادة:

- أنا بدي نتكلم بصراحة، إحنا وضعنا مستقر ولازم نشوف

حال البلد بقى، أكتر من سنة ونص ضاعت في صراعات، وأنا رهاني على الشعب، إحنا مش محتاجين المرشد ولا اللوا نجيب، كانوا ضروريين لمرحلة والمرحلة خلصت، الثورة استقرت وهُمَّا كمان استفادوا. هيئة التحرير ستبقى والإخوان والأحزاب إلى زوال يا شكري، لا الظرف السياسي ولا الزمني يسمح بوجودهم، والخسارة أن أخسرك.

- أنا مع جمال في كل كلمة.

قالها حكيم وهو ينظر ناحيتي بود شديد، أُكن لهذا الرجل الكثير من المحبة وأراه مختلفًا عنهم، لكن رغم اختلافي مع الإخوان في التفاصيل فأنا أنتمي إليهم في الأصول، والخلاف نصفيه بالمناقشة والإقناع، أما الأصول فلا أستطيع التنصل منها، بداخلي قناعة أن جمال اختارني مع الباقوري ليضرب الجماعة من الداخل ويشق صفوفها، تذكرت كلمات خالي عمَّن يترك الجماعة وكيف يظل قلبه وعقله مشغولين بها طوال عمره. حاولت إفهامهما وجهة نظري، لكني شعرت بعد نصف الساعة بأننا في حوار طرشان.

أنهيت الحديث بأن الباقوري سيقبل الوزارة بشخصه لا بصفته إخوانيًّا، ثم أضفت على استحياء:

- مكتب الإرشاد رفض بالإجماع اشتراك الإخوان في أي

وزارة وأبلغ اللواء نجيب بالقرار.

تقلبت ملامح جمال وقطب حكيم ما بين حاجبيه، خرج السؤال من كليهما في وقت واحد:

- وما علاقة نجيب بالموضوع؟

- باعتباره رئيس الجمهورية.

لم أجد ردًّا منطقيًّا آخر، اكتفيت برفع كتفي ومط شفتي، خيم ضباب الضيق على جلستنا بعدها، ثم استأذن منَّا جمال لأمرٍ ما لم يُفصح عنه، غاب لفترةٍ وعاد ودعانا إلى العشاء. جلسنا نأكل في صمتٍ لم يقطعه سوى حكيم كل حين وهو يُعيد الكلام ذاته حتى أسكته جمال بنظرة غاضبة، والتفت نحوي وسألني عن اليوزباشي عبد المنعم عبد الرؤوف، ارتبكت لوهلة، تذكرت أن جمال قد قبض على عبد المنعم منذ شهور قليلة، ولكنه استطاع الهرب من السجن وظل مختبئًا بالقاهرة فترة طويلة أزعجت عبد الناصر، ولاحظت بين ثنايا سؤاله تلميحًا خفيًّا بمشاركتي في تهريبه، أو على أقل تقدير أعرف مكانه باعتباري كنت محاميه لمَّا قبضوا عليه وحوكم أمام محكمة الثورة.

أدركت أن هذا هو السبب الرئيسي لاستدعائي، فاستجمعت

أفكاري وأجبت في برودٍ نافيًا معرفتي بمكانه، تعمَّدت إغاظته عندما رويت أن إشاعة تملأ البلد وتحكي عن الحكومة التي هرَّبته، فمن غير المعقول هروب شخص أعزل تحرسه سيارتان حربيتان بكل واحدة ستة جنود مسلحين بالمدافع الرشاشة، لكن جمال ابتلع اللقمة بقليلٍ من الماء ولم يُعلق على كلامي.

عدنا للصالون لتناول القهوة، ودخل رجل أنيق همس لجمال في أذنه فهز رأسه بالموافقة، بعدها دخل علينا ضابط شاب أدى التحية العسكرية، مال على أُذن حكيم هذه المرة، أسرَّ له ببضع كلمات لكن ملامح حكيم لم تتغير واستمر في تناول قهوته وتدخين سيجارته رغم تبادله نظرة مع جمال لم أفهم معناها. بعدها تقلب بطني وشعرت بأن الطعام الذي تناولته يكاد يعاود الخروج من فمي، انتابني شعور بالقلق وغمرني إحساس بخطرٍ عظيم، وزاد منه أنني عند استئذاني في الانصراف أذن لي جمال دون التمسك بي كعادته في كل لقاء.

عند خروجي وجدت حكيم ينادي عليّ من بعيد، ورأيته يتجه نحوي بملامح متجهمة فازداد إحساسي بالخطر حتى إنني فكرت في الهرب بسيارتي رغم الحراسة الشديدة من

حولي.

***

«هنا القاهرة.. أيها السادة جاءنا البيان التالي: قرر مجلس قيادة الثورة اليوم إعفاء اللواء محمد نجيب من جميع المناصب

التي يشغلها، على أن يبقى منصب رياسة الجمهورية شاغرًا، ويستمر

مجلس الثورة بقيادة البكباشي أركان حرب جمال عبد الناصر في تولي

كافة سلطاته الحالية لإدارة البلاد»

فهمي تاج الدين - 13

«البوليس الحربي عند بيتك». بهذه الكلمات القليلة أبلغني شكري مرتجفًا بتحذير حكيم له، عندما التقاه قرب سيارته بعد العشاء ببيت جمال عبد الناصر، كان شكري يحدثني بينما كفه ترتعش، شارحًا أن حكيم جهر بكلماته تلك دون أن يتلفت حوله، ثم طلب منه ألا يعود لمنزله، ولمَّا سأله إلى أين يذهب، ردَّ حكيم ببساطة:

- عندنا في الجيش مقولة شهيرة بتقول لك: «اتصرف».

بعدما هدأ شكري، فهمت منه أن جمال طلب من قائد البوليس الحربي القبض عليه وإيداعه السجن، ربما لم يجد شكري ما يقوله ردًّا على شهامة حكيم، فطلب منه أن يأخذ حذره هو الآخر، لكن حكيم رد وهو مبتسم في ثقة:

- لا تقلق عليًّا.. أنا غير الكل يا شكري.

استقليت سيارة تاكسي من الميدان القريب من البيت وجلست في الخلف حتى لا يلحظ السائق توتري، بمجرد دخولنا الشارع الذي تقع به شقة شكري لمحت سيارة تابعة للبوليس الحربي، ووجدت أكثر من عشرة رجال مدنيين يبدو من هيئتهم أنهم مخبرون، تبينت ثلاث سيارات أخريات

أمام مدخل البيت.

أحكموا الخناق عليه وحكيم كان صادقًا. سألني السائق في ضيق:

- فين في الدقي يا أستاذ؟

أشرت له ناحية اليسار في اتجاه بيت شكري، مضى يسير ببطءٍ وهو يبرطم حتى طلبت منه إيقاف السيارة، على الفور اقترب منَّا مخبر وسأل السائق بغلظة عمَّا يريده، علا صوتي من الخلف فالتفت ناحيتي وهو يُدخل رأسه عبر النافذة، ادَّعيت أنني تائه وأريد الذهاب إلى نادي الصيد الملكي، تعجب السائق من سؤالي، وتفرس فيَّ المخبر لوهلةٍ ثم استدار ليسأل آخر عن العنوان، ثوانٍ قليلة لكنها كافية لحصر أكثر من عشرة رجال آخرين منتشرين بمدخل العقار وحوله، وصف لنا المخبر الطريق وضرب بيده على سقف السيارة وهو يأمر سائقها بسرعة الانصراف، غادرنا والسائق يُبرطم بكلمات مسموعة بعضها غير لائق لكني تجاوزت إهانته. عند نهاية الشارع لم أجد سيارات عسكرية أخرى، فقفز سؤال لرأسي بلا جواب «هل تركوا له بابًا للخروج متعمدين؟»

عندما وصلت السيارة بنا إلى بوابة نادي الصيد عاتبني السائق لعدم إعلاني وجهتي من البداية، تحججت بأنني لم

أشأ إحراجه ظنًّا مني أنه لا يعرف الطريق، تجهمت ملامحه وتغيرت نبرة صوته وهو يقول:

- ليه لا مؤاخذة يا أفندي شايفني جاي من ورا الجاموسة ولا شغال تاكسي أرياف؟ أنا شغال في الشغلانة دي من عشر سنين، يعني من أيام الملك.

تركت له التعريفات المتبقية من الخمسة صاغ، انتظرت حتى ابتعد وعبرت الطريق إلى الجانب الآخر، استوقفت «تاكسي» آخر لأعود إلى شكري محملًا بالسؤال، فاندفعت إجابته كبركان في وجهي:

- بلاش كلام فارغ، جمال معتقد إني دخلت المصيدة بسهولة ومفيش داعي لعربيات تانية عند مخرج الشارع. المهم تدبر لي مكان أستخبى فيه لغاية ما مخي يعرف يدوَّر على حل.. أنا قررت ما أدخلش السجن.

أفلتت ابتسامة رغمًا عني على كلمته المعتادة «قررت» لكني سألته بجدية:

- وأبوك وأمك وأمينة أقولهم إيه؟

- قولهم إن عندي قضية في الصعيد وحرجع بعد كام يوم لغاية ما ربنا يفرجها.

- طيب انزل تحت في بدروم بيت الأمة وحجيب لك بيجامة من بتوعي وشوية مية وأكل.

صرخ بعصبية وهو يهبط الدرج المعدني الحلزوني:

- وأروصة سجاير «لاكي سترايك» عريضة يا فهمي ماتنساش.

جذبت الحلقة الحديدية لتنغلق الطاقة المفضية لمساحة واسعة مقاربة لمساحة الفيلا، كان جدي يستعمل البدروم مخزنًا للكراكيب التي لا يُفرط فيها، وكنَّا نلجأ إليه كمخبأ وقت غارات الألمان، وكانت الست شفيقة تعتبره الكرار الاحتياطي وقت أزمة التموين في أثناء الحرب. هبط شكري وابتلعه ظلام الكوة، أحكمت غلق الباب ووضعت فوقه مقعدًا، وجدت نفسي شاردًا في كل ما جرى وما انتهى إليه حالنا، لا أعرف لماذا طافت بذهني لعبة الغُميضة التي كنَّا نلعبها صغارًا في المكان ذاته، أشعلت سيجارة وأفلتت مني ابتسامة، غريبة هذه الدنيا وتحولاتها، شكري تناول العشاء الأخير على ما يبدو مع أقوى ضابط بالضباط الأحرار، وبعدها غاب في غيابة الجُب.

ظللت جالسًا أفكر بلا حلول حتى انتبهت لأنني غفوت في مكاني، وجدت عقارب الساعة تُشير إلى الثامنة من صباح

أول يوم يعيش فيه شكري تحت الأرض، بعد ما كان ملء السمع والأبصار فوقها حتى ساعات قريبة ماضية.

***

صادف اليوم التالي لهروب شكري أن تلقيت إخطارًا بجناية قتل قرب الظهر بعد ما خططت للانصراف مبكرًا، انتقلت لمناظرة جثة في بيت مهجور بالقرب من مسجد الرفاعي، اضطررت لمعاينة مسرح الجريمة ومناظرة جثة القتيل لكن بنصف عقل بسبب انشغالي بشكري. ومع الوقت أدركت أنني مشتت حتى خُيل لي وجه أخي على الجثة التي أمامي، فكلفت معاون النيابة المصاحب لي باستكمال التحقيق.

عُدت مسرعًا إلى النيابة، فأبلغني زميلي أن قلم المخدرات بالقليوبية اتصل بي عدة مرات وأيضًا البيت عندي، تعجبت، فلا صلة لي به أو اختصاص بعمله. أجّلت الاتصال بالبيت، ربما خرج شكري من مكمنه وليس لديَّ ما أقوله لأمي وأبي وجدتي، ولأن ضابط قلم المخدرات ترك رقمًا فأعدت الاتصال به، كادت السماعة تسقط من يدي وظللت صامتًا لا أُصدق ما يُتلى على مسامعي، أبلغني الضابط بأن لديه بالحجز سيدتين إحداهما تدَّعي أنها زوجة شقيقي شكري تاج الدين، وبصحبتها امرأة أخرى، تم ضبطهما أمس حال

محاولتهما شراء حشيش من تجار المخدرات المنتشرين بمنطقة نائية بالقناطر بعد إعطاء إشارات ضوئية متقطعة بمصابيح السيارة.

ظننت لوهلةٍ أن أحدًا يمزح معي مزاحًا سخيفًا، فخرجت مني الكلمات مبعثرة، ربما نجح الضابط في إعادة ترتيبها، طلبت منه إخراجهما من التخشيبة لحين وصولي إليه، ورجوته تأجيل تدوين المحضر، ومن ارتباكي نسيت سؤاله عن كمية الحشيش المضبوطة معهما. وضعت السماعة وأنا أفكر في مئات الأسباب التي تدعو أمينة وصديقتها لشراء مخدرات من بنها، لم أجد إجابة واحدة منطقية سوى أن أمينة فقدت عقلها.

أجريت اتصالًا بالبيت، أخبرتني جدتي بقلق والدة أمينة عليها لأنها لم تعُد للمنزل منذ ليلة أمس، وأيضًا لم يذهب شكري للمكتب، تنهدت وحمدت ربي أنني اتصلت بالبوليس أولًا، طمأنتها أن شكري وأمينة في الإسكندرية لانشغاله في قضية هناك، واصطحبا معهما صديقتها نائلة. انطلقت في طريقي إلى بنها بسيارة شكري، وطوال الطريق أفكر في المكان الذي سيختبئ به أخي خلال الأيام القادمة، تشوش تفكيري فأدرت الراديو بعد ما شعرت بتعب رأسي،

استمعت نصف ساعة لبعض البرامج المملة، بعدها أذاعوا أغنية جديدة اسمها «صافيني مرة» لمطرب جديد اسمه عبد الحليم حافظ، إيقاعها كان سريعًا للغاية فلم تعجبني، لفت نظري صوت المذيع في برنامجٍ تالٍ، رفعت الصوت قليلًا وخفضت لا إراديًا من سرعة السيارة لأزيد من تركيزي، كانت الحلقة على وشك الانتهاء، لكني أعرف الصوت جيدًا فانتبهت، قبل أن ينتهي البرنامج تعرفت على صوته المميز ينطلق عبر الأثير..

«برنامج ضد مجهول يُعده ويقدمه لكم فايز حبشي، انتظرونا في حلقة الاثنين القادم.. دمتم بخير».

***

«هنا القاهرة.. وصل الآن ركب السيد الرئيس جمال عبد الناصر

إلى ميدان الحرية حيث السرادق الكبير الذي أُقيم احتفالًا بوضع حجر الأساس لمبنى الإذاعة المصرية الجديد، وبهذه المناسبة ألقى وزير الإرشاد كلمة قال فيها: إن الله قيض للإذاعة من الشرف لتكون وسيلة للنهضة

بهذا الشعب العظيم، ويكفيها أنها أول مَن نقلت عبر الراديو في

23 يوليو 1952 أولى بشائر هذه النهضة، كما أكد في كلمته

على تجديد العهد للقائد والزعيم»

فايز حبشي - 6

همس مساعد المخرج بكلمات قليلة في أذني، وأشار إلى أقصى يسار الأستديو حيث يجلس الرقيب أو «الكئيب» كما نُطلق عليه فيما بيننا، اقتربت وحييته، سلمته «إسكريبت» الحلقة الجديدة وتفرغت لقهوتي قبل أن تبرد، سيناريو مكرر، بضع دقائق يدفس الرقيب وجهه في الأوراق، وبعدها يخلع نظارته السميكة ويمط شفتيه، يُبلل إصبعه بطرف لسانه، ويقلب ورقة أو اثنتين وهو يهز رأسه بلا معنى، وأخيرًا يلطع توقيعه بالموافقة، لا يجهد نفسه في القراءة، وربما لا يجيدها، ثم إن برنامجي بعيد عن السياسة، وأيضًا لي وضع خاص منذ تعييني بالإذاعة، ربما اهتز وضعي بعد إبعاد الصاغ خالد محيي الدين مؤخرًا، لكنهم ما زالوا يعملون لي حسابًا باعتباري محسوبًا على الضباط الأحرار، ويعتبرونني هنا رجلهم في الإذاعة، يظنون أنني عينهم على العاملين والمحتوى، ويعتقد البعض أنني أكتب تقارير في زملائي، الحقيقة أني لا أفعل لكني لا أنفي التهمة عن نفسي، وجدتها حصانة قوية للبقاء في منصبي كمقدم، فقبضت على الفرصة منذ اليوم الأول عندما اكتشفوا صوتي الرخيم وقدرتي على الحديث من وراء الميكروفون بثقة، طلقت الهندسة الإذاعية من قبل أن أدخل غرفتها، وبقيت في أستديو الهواء أقدم

برنامجي عن لصوص لم يفلح البوليس في ضبطهم، لعل المشاهدين يتطوعون ويساعدوننا، مَرَّت الفكرة على الرقيب بل وحياني عليها، وربما كتب في تقريره إشادة بي. الخوف يصنع الفارق، وأنا ابتعدت عنهم بمسافة الآن.

رفع عامل البوفيه فنجان قهوتي فطلبت آخر، لكنه مال بجذعه نحوي وهمس:

- فهمي بيه تاج الدين رئيس نيابة السيدة زينب بيسأل عليك يا أستاذ حبشي.

- على التليفون من فرنسا؟

- فرنسا إيه اسم الله عليك يا أستاذ، البيه قاعد في استراحة الضيوف من ربع ساعة.

قفزت من مقعدي محملًا بذكريات طيبات، احتضنته بودٍّ حقيقي مدفوعًا بشوقٍ لم ينقطع، لفت نظري أن الهموم ركبته وأضافت لعمره سنين كثيرة، لكنه عندما حكى لي ما أتى به إلى هنا شعرت بأنني أتضاءل بهمومي كلها أمامه.

آخر ما كنت أتوقعه أن يصبح البكباشي شكري مطاردًا وأنا ملاذه الوحيد بعد ما أبلغت عنه وعن إخوانه، صحيح الثورة قلبت الموازين أو عدلتها كما يقول جمال عبد الناصر، لكن ما

يجري الآن لم يخطر لي على بال.

غادرنا مبنى الإذاعة إلى جراج نابليون بالسكاكيني، سألني فهمي متعجبًا إذا كنت أعيش بالجراج، ابتسمت وقلت:

- مش للدرجة دي يا بك، أنا مذيع قد الدنيا وساكن في شقة مطرحين وصالة بالإيجار، الجراج ده بأجر منه عربية كل فترة لزوم المنجهة، ثم إن سعادتك بيه قد الدنيا برضه وجاي في تاكسي.

ابتسم فهمي رغم ملامحه الحزينة، تركت السيارة وأشرت له من بوابة الجراج إلى شقتي بالمبنى الملاصق لكازينو سكاكيني، لكنه كان مشغولًا بقراءة ملصق إعلان جراج نابليون والخدمات التي يقدمها لعملائه: «تأجير سيارات وتصليحها.. رحلات لمنطقة الهرم.. نزهة بالقناطر الخيرية». توقف عند الأخيرة ونقر عليها بإصبعه عدة مرات.

عندما تفقد فهمي شقتي بدا كرجل نيابة يُعاين مسرح جريمة إخفاء متهم من الحكومة، ثم التفت نحوي والإحباط يتدلى من عينيه قائلًا:

- شقتك مجروحة من الجيران، وجنبها فرن بلدي ومطعم فراخ مشوية، وقدامها كازينو سكاكيني، يعني أربعة

وعشرين ساعة دوشة وناس رايحة جاية زي المولد، تعالى ننزل الجراج أنا عندي فكرة تانية.

ابتاع فهمي تذكرتين للقناطر الخيرية، بعد ساعة كنَّا نجلس متجاورَين على مقعدين من الخوص أمام كشك خشبي صغير على نهر النيل مباشرة، مرَّ علينا مندوب الجراج وتفحص تذكرتينا، سلَّم كلًّا منَّا كيسًا ورقيًّا كبيرًا به سندوتشات لحوم باردة وقطعة مُرتاديلا وبيضة مسلوقة وفاكهة، سألنا إذا كنَّا نريد شرابًا خلاف الماء المثلج الذي يُقدَّم مجانًا، طلب فهمي زجاجتي بيرة ومنحه عشرة قروش وأشار له بالاحتفاظ ببقيتها لنفسه، طار الرجل بالقروش الأربعة المتبقية وحافظ على خصوصيتنا كما أمره فهمي. مضينا نأكل ونشرب بينما فهمي يرسم خطوطًا على ورقة كبيرة فردها فوق المنضدة، وضع خطة لتهريب شكري داخل أشولة بصل إلى الصعيد عن طريق النيل، ليُخفيه بإحدى القرى البعيدة لدى عائلة يعرف ابنها من عمله بالنيابة ويثق فيه، لديهم عزبة نائية ويمكن لشكري الإقامة فيها لفترة طويلة كما قال، ظل يرسم ويشرح حتى هبط علينا الظلام وفاتتنا السيارة الليموزين التي عادت ببقية الزبائن إلى القاهرة، طويت الورقة وانشغلت في تقشير ثمرة اليوسفي وقلت لفهمي بحماس:

- الخطة ممتازة وممكن ننفذها لكن حتكلف معاليك حوالي ألف جنيه لزوم سكوت المراكبي والوسيط، ده غير مصاريف النقل والإعاشة للبكباشي شكري لغاية ما يوصل بالسلامة.

سكت لبعض الوقت وأنا أشعر بحرج قليل حتى تغلبت عليه وقلت:

- يا ريت سعادتك تاخد رأي شكري بيه قبل ما نتحرك خطوة؛ لأن دماغ معاليه ناشفة حبتين.

نظر لي فهمي في شرودٍ ولم يرد، نهض وتخفف من سترته، انتقى حجرًا أملس، قذفه ناحية النيل ليصطدم بصفحة الماء مرتين وبعدها غرق في هدوء.

***

«وما خبيش عليكم في سنة 53 كان عندنا رغبة إننا نتعاون مخلصين مع جماعة الإخوان، وقابلت المرشد أكتر من مرة في بيت صديق قديم

وفي مجلس القيادة، وكل مرة كنت بلاقي تعنت وعناد وطلبات غريبة..

يعني مثلًا قال لي لازم الستات تتحجِّب، قُلت له طيب ما بنتك طالبة في كلية الطب ومش محجبة، إزاي عاوزني أحجب عشرة مليون ست مصرية وإنت موش قادر على بيت واحد وبنت واحدة؟ وبعدها طلب نقفل السينمات والمسارح يعني أخليها ضلمة، وبعدين اتطورت المطالب وزادت

إن المرشد يتدخل في كل قراراتنا ويراجعها مع إنه بيعتبرنا كلنا كفرة لأنه لازم يحكم بالشرع، يعني مفيش قوانين ولا دستور، والمرشد باعتباره

كبيرهم يبقى هو رسول من عند ربنا ويحكمنا، ومش بس أنا اللي كافر وأنتم كمان، كلنا كفرة حتى الدول العربية اللي الإخوان قاعدين فيها النهارده بيكفروا ملوكها وأمراءها.. أمر عجيب وغريب وكان لازم نرفضه»

شكري تاج الدين - 14

سمعت مناديًا يُنادي أن الصلاة خير من النوم فاعتبرتها إشارة من الله أنني على الطريق الصحيح، توضأت وصليت الفجر وجلست أدخن شاردًا، ما زلت عاتبًا على فهمي بسبب إخفائه عني ما حدث لأمينة، رغم أنه السبب في ذهابها إلى العزبة بمفردها عندما ألح عليها في طلب الخريطة وأربكها. أمس زارتني بالبدروم، لاحظت رعشة في يدها وتوترًا في حركة شفتيها، نظراتها تائهة، وعيناها مليئتان بدموع تنتظر إشارة بسيطة لتنهمر، ما إن سألتها عن أحوالها وأحوال أولادنا وأنا أضع كفيّ فوق وجنتيها حتى انهارت بالبكاء، حكت عن تخشيبة قسم القناطر، وعن حشرة البق السوداء التي رأتها لأول مرة وأخافتها، انهارت وهي تصف سيدة متهمة بالقتل فتشت ملابسها وتحسست جسمها بصورة أفزعتها، ظلت تبكي وهي تحكي عن تهمتها بشراء الحشيش مع أنه لم يُضبط معها أي شيء، وأنها لم تكن تعرف أن إضاءة مصباح السيارة عدة مرات مثلما فعلت نائلة إشارة متفق عليها بين المتعاطين والموزعين.

أبلغتني بتشاجر نائلة مع زوجها وأنها تركت البيت لتُقيم عند والدتها مع احتمال وقوع الطلاق بينهما، ولو حدث

ستكون فضيحة. حاولت تهدئتها لأن الموضوع صار ذكرى من الماضي بعد ما أخرجهما فهمي من القضية، وما أنا فيه أهم وأخطر، لكنها ظلت تبكي ولطمت خديها بطريقة غريبة، أول مرة أراها منها، لم أجد مخرجًا لها ممَّا هي فيه سوى تكليفها بالذهاب إلى شقة الدقي وإحضار ملابس لي، ولنرى ماذا هم فاعلون معها.

نجحت خطتي وتوقفت دموع أمينة، حام طيف ابتسامة مأزومة على شفتيها، ومسحت وجنتيها كطفلة ونهضت في خفة، اكتست ملامحها بجدية مخلوطة بحماس وهي تسألني عمَّا أريده بالضبط، دبَّت فيها الروح مرة ثانية ودوَّنت في ورقة صغيرة كل ما أقوله، ابتسمت واقتربت منها واحتضنتها، طبعت قُبلة طويلة على جبهتها بسبب وجود فهمي الذي أدار وجهه خجلًا فيما يبدو، ثم همست لها: «أحبك».

غادرت أمينة بعد ما أوصيتها أن تعود لبيتها في جاردن سيتي بعد ذهابها إلى شقة الدقي، أكدت عليها أن تنتظر يومًا أو اثنين وتأتي للقاء فهمي بعيدًا عن البدروم وبيت الأمة، وعندما تسنح الفرصة سأرتب لها موعدًا آخر. عانقتني وقبَّلتني قُبلة قصيرة غير عابئة بفهمي، فقط اكتفت بكلمة

وحيدة وجهتها له وهو يرفع طاقة الخروج:

- أوروفوار.

أشعل فهمي سيجارة وقدَّم لي واحدة وهو يحدثني عن حبشي، هززت رأسي غير مقتنع بوجهة نظره، لكني لم أتمسك بالاعتراض، فالله يضع سره أحيانًا في أضعف خلقه، أبلغني باتفاقه مع حبشي على تهريبي من القناطر الخيرية داخل أشولة بصل إلى الصعيد، وأن الخطة مضمونة بنسبة كبيرة، ثم بان عليه التردد وهو يقول:

- إن شاء الله كلها شهر والا اتنين والدنيا تهدى والمية ترجع لمجاريها مع زغلول و..

قاطعته قائلًا:

- عشم إبليس في الجنة، ومع ذلك أنا حمشي معاك للآخر ولو إني مش واثق في حبشي.

- صدقني حبشي راجل كويس وحافظ للجميل رغم إنك أذيته وبلَّغت عنه وقت حريق القاهرة.

أشعلت سيجارة ثانية من الأولى وقُلت:

- هو اللي أذى نفسه بمُخه الوسخ وغدر بينا كلنا وكان فاهم

نفسه ناصح، المهم دلوقتي عاوزك تروح حكمدارية القاهرة وتقابل اليوزباشي أحمد الكومي في البحث الجنائي وتبلغه إن أنا في البدروم.

- وبعدين؟

سألني فهمي بعد ما أخرج نوتة وقلمًا من سترته وبدأ يستعد لتدوين ملاحظات، فقلت:

- ولا أي حاجة، موش مطلوب منك غير كده، واليوزباشي الكومي حيتصرف.

- وخطتي مع حبشي، إنت ناوي ترجع في كلامك؟

- مالهاش علاقة باليوزباشي، أنا عاوزه في موضوع تاني خالص بعدين أقولك عليه. ابقى هات حبشي الزفت أي وقت هنا أشوفه وأسمع منه.

فجأة سمعنا طرقات خفيفة، ارتبك فهمي قليلًا وأخرجت مسدسي فزاد ارتباكه لكنه مسح عرقه وقال بلجلجة:

- يمكن يكون أبوك، أنا نسيت أقول لك إني قُلت له الحقيقة امبارح بالليل.

تركني فهمي قبل أن أعاتبه على مخالفة ما اتفقنا عليه،

راح يدفع الباب المعدني بهدوء، فرد ذراعه ومد الأخرى ناحية القادم ليُعاونه، وجدت أبي يهبط بصعوبة الدرج الخشبي، على وجهه ملامح متجمدة، خليط من الحزن والأسى والقلق، تهاويت على أقرب مقعد متوقعًا الحكم بإدانتي، متنازلًا عن دفاعي، قال أبي كلامًا كثيرًا لكن ملامحه المتجهمة لم تغب عن عيني، حتى انتبهت لعينيه الدامعتين وهو يقول:

- يعز عليّ فراقك يا بني، لكن الهروب ملاذك الأخير.

قالها وترك دموعه تنحدر ببطءٍ على خديه، أخرج من جيبه ظرفًا منتفخًا بالمال تركه على منضدة قريبة وبعدها فتح ذراعيه ليستقبلني في حضنه، بكيت لأول مرة منذ سنين طويلة وشعرت بأنني كنت أفتقد هذا الشعور.

***

يموت المرء مرتين إذا وثق فيمَن خذله. ظننت لمدة طويلة أننا أصدقاء لكن بعض الظن إثم، انقلب عليّ جمال مثلما فعل مع كل مَن ساعده في بدايات الثورة، المسألة مسألة وقت، وهو صبر على الجميع وبات على أعتاب جني كل ما زرعه. لكني لن أكون ثمرة سهلة القطف كما يظن.

يُصر فهمي على أن جمال لا يزال يحفظ عهد الصداقة بيننا ويؤيده حبشي على استحياء، حاولت إفهامهما أن السياسة ليست بالضرورة مرادفًا للمنطق إنما للمصلحة، لكن فهمي عاد يُكرر كلامه كأنه أسطوانة أصابها العطب. قبل أن يُقاطعني كعادته في منتصف كلامي رميت السؤال في وجهه:

- تقدر تقول لي يا سعادة البك فين يوسف صديق وخالد محيي الدين ومن قبلهم اللوا نجيب؟

- خلينا في البكباشي شكري تاج الدين أولًا وبعدين نشوف الباقيين.

انبرى فهمي محللًا كل خطوة تمت، كان منطقيًا إلى حدٍّ كبير، كل شيءٍ هادئ فعلًا، أمينة ذهبت لشقة الدقي عدة مرات ولم يحدث شيء، رغم وجود مخبر دائم أمام المدخل لكنه لم يتتبعها، بل حتى لم يسألها عن سبب حضورها، وصندوق الأسلحة سبقنا رجال زغلول إليه حتى لا يشي بنا أحد، ولا توجد قضية بشأنه إلى الآن، زادت ثقة فهمي معتبرًا واقعة الصندوق رسالة طمأنينة واضحة، ظل يسترسل كقطار لن يقف إلا في المحطة الأخيرة، حتى نجحت بصعوبة في الإمساك بناصية الحديث بينما كان يلتقط أنفاسه، قاطعته قائلًا:

- لو متخيل إني أقرب لجمال من الناس اللي قُلت لك أساميهم تبقى لا بتفهم سياسة ولا ليك في ألاعيبها.

لم أسمح لفهمي بعدها بالرد ووجهت كلامي لحبشي قائلًا:

- اسمع يا سي حبشي، أنا عاوز منك خدمة غير موضوع القناطر، محتاج جواز سفر باسم ووظيفة جديدة، تعرف تعمل المطلوب والا خايب زي فهمي بيه؟

نظر لي حبشي نظرة كلها قلة حيلة وقال:

- جواز سفر مزور موش سكتي. معرفش أعمله.

ابتسمت وأنا أقول له:

- مش مطلوب منك تزور، أنا حدلّك على واحد معروف في وسط البلد قرب ميدان الأوبرا اسمه المحمدي، إيديه تتلف في حرير، فهمي حيسلمك فلوس لزوم المصاريف واليوزباشي الكومي حيسهل لك المأمورية، بكرة الصبح تقابله في حكمدارية القاهرة ويفهمك.

رغم كلامي الواضح مع حبشي لم ييأس فهمي، طلب فرصة أخيرة لعرض وجهة نظره، كأنه التماس إعادة نظر لمحكوم عليه بالإعدام. طرح عشرات الأسئلة عن سبب عدم قدوم البوليس إلى جاردن سيتي أو مكتب المحاماة، انفعل

أكثر وهو يرفع صوته:

- لو أراد لفعل، كان من السهل يقبُض عليك عند بيته بعد العَشا ولا يبعت لك عبد الحكيم ينبهك.

كاد فهمي يبكي وهو يشرح أن حكيم لن يفعل ما فعله دون علم جمال، ظل يردد عبارة: «صدقني يا شكري» عدة مرات، ثم قال في يأس واضح وهو يتهاوى على أقرب مقعد مجهدًا:

- جمال قاصد يمنحك فرصة.

- فرصة؟!

نطقتها بدهشة، فأجابني بهدوء وثقة مَن يعرف الحقيقة:

- أيوة.. فرصة للاختفاء، طالما لست معه فهو لا يريدك مع غيره، فرصة تشبه كلامك عني وإحنا صغيرين لما كنت بتقول «السرعة القصوى صفر».. إنت هدف سهل ومع ذلك ساب لك باب موارب، باب للنجاة من غير أذية، رسالة خفية بيقولك خليك هنا وبلاش تهرب برة مصر زي ما بتخطط وتقرر وحدك كل مرة.

تدخل حبشي في الحديث، قال كلامًا كثيرًا مرتبًا، بدا مؤيدًا لوجهة نظر فهمي، هززت رأسي غير مقتنع، وشعرت

بنفسي يضيق من مجرد التفكير في شوال البصل الذي ينويان وضعي بداخله، حتى لو كان كلامهما منطقيًّا، سيكون حالي كحال عصفور وضع له صاحبه الطعام أمامه وظل واقفًا يتأمله من مقربة، حتمًا سأطير وقتها ولن أقرب الأكل، ببساطة لأن حريتي أهم من طعامي، وجمال يدرك ذلك ويتلاعب بي.

غادر حبشي ووراءه فهمي ورددت الباب خلفهما، لم أخبرهما بتفاصيل لقائي أمس مع اليوزباشي الكومي، ولن يفهما وضعي مهما شرحته لهما، أنا كالراقص على الحبال، دفعتني الجماعة للصدارة لكنها الآن مرضت وشارفت على الموت، والأحرار لن يعتبروني منهم مهما قدمت من قرابين، سيحين دوري لتُقطف رقبتي وسأكون من المحظوظين لو صرت سفيرًا في دولة لبضع سنين، وبعدها أتشمس في نادي الجزيرة لأتحدث عن بطولاتي حتى يمل مني الجميع.

أنا مثل طائر شارد، وطالما صرت كذلك فلن أهتم باختبار الغصن الذي أقف عليه لمعرفة إذا كان سيتحملني أم سيهوي بي، ثقتي الوحيدة الآن في أجنحتي لا في أغصان الشجر، أجنحتي هي التي ستجعلني أُحلق بعيدًا عن مخالب النسور وأنياب الأسد.

***

«أيها السادة، الآن يخرج الرئيس جمال عبد الناصر إلى شرفة قصر عابدين، القصر الذي طالما استقبل الطغاة على مدار السنين.. طاغية من بعد طاغية.. الآن يغسل عاره ويُشرفه جمال عبد الناصر بالخروج من شرفته ليرد تحية

أبناء الشعب بعد ما خلَّص البلاد من حكم فاسد طويل»

فهمي تاج الدين - 14

دققت بوق السيارة ثلاث دقات متتالية كاتفاقنا، لمحت رمضان سكرتير النيابة السابق واقفًا بباب الحديقة القبلية، أضأت النور مرة واحدة وأطفأت المحرك بعدها، اختفى رمضان لوهلة وظهر بعدها ووراءه شكري الذي غطى رأسه ونصف وجهه ببيريه كبير كنت اشتريته لأبي هدية من باريس.

جرى كل شيءٍ كما قرر شكري منفردًا، مزق خطتي بالهرب عن طريق القناطر الخيرية في شوال بصل إلى الصعيد، سخر منها مقترحًا أن أبللها بالماء وبعدها أشربه ثلاث مرات يوميًا. استدعى رمضان سكرتيري السابق في غيابي، وضع أخي خطة غريبة أخافتني وأقلقتني، أفهمنا أن عصابة كبيرة من النشالين تعيش على أطراف المنطقة الصحراوية، ما بين العباسية ومصر الجديدة من جهة شرق القاهرة، عصابة لها زعيم لم يتمكن البوليس من ضبطه، يُدعى عبد الكبير الوالي، لم يرَه أحد حتى صبيانه، وبالتالي لا تعرف الداخلية أوصافه، منذ أسبوع كلف رمضان بالتنسيق مع الوالي لإيوائه مقابل ثلاثة آلاف جنيه سنويًا عندما وصلته معلومة أنه يأوي المطاريد، أخبرنا بأنه سيذهب إليه ببطاقة مزورة واسم

مستعار، طمأننا على نجاح خطته في كل الأحوال بسبب ضخامة المبلغ المعروض لإيوائه.

اتهمته بالجنون وتركته مع حبشي رافضًا المشاركة في هذه المهزلة لعله يتراجع عن فكرته، لكني أمس وافقت على الخطة مجبرًا بعد ما أبلغني بأنه قرر الرحيل الآن كعادته في كل قرارات حياته، ونظر لي حبشي نظرة لا معنى لها إلا «ألم أقُل لك؟»

استأجرت سيارة بيضاء طويلة من جراج نابليون، قال شكري قبل أن يركبها إنها تُشبه تلك التي تنقل الموتى، وأبدى تشاؤمه من المشوار كله، جلس متأففًا بالأريكة الخلفية مع حبشي وبينهما شيخ معمم يبدو قلقًا رغم سماحة وجهه، ملامحه ليست غريبة عني، أتى الشيخ صحبة حبشي لكنه لم يُعرِّفني به، لم أكن على علم بتفاصيل خطة الوصول إلى الوالي، مجرد خطوط عريضة لم أستوعبها بسبب قلقي على ما بعدها. فقط صممت على قيادة السيارة كي أثبت لشكري أن زغلول لن يقبض عليه، لكنه تبادل مع حبشي ابتسامة غامضة.

ظللت متوقفًا بالسيارة رغم أنها كامل العدد الآن، حتى صاح حبشي من الخلف قائلًا:

- تقدر تتحرك يا فهمي بك.

انطلقت بالسيارة في اتجاه العباسية، وبعد دقائق قليلة قدَّم حبشي بفخر الراكب المعمم الجالس بينه وبين شكري، واصفًا إيَّاه بكروان الإذاعة. قبل أن تتسع دهشتي لوجود الشيخ عبد الباسط المقرئ الشهير معنا أردف حبشي:

- مولانا تكرَّم بإحياء الليلة إن شاء الله، وربنا يجعلها آخر الأحزان.

- البقاء لله يا فهمي بك، البقاء لله يا أستاذ...

قالها الشيخ وهو ينقل بصره بيننا منتظرًا أن يُعرِّفه أحد بشكري لكننا تجاهلناه، أصابتني رجفة غريبة، وصبَّرت نفسي بأن الشيخ اكتفى باسمي ولقبي كما ناداني بهما حبشي، ولم يتعرَّف على أخي ومؤكد لن يتذكر ملامحه. أعرف أن البوليس أعد كمائن متحركة منذ فترة للبحث عن عناصر الإخوان المسلمين الهاربين بعد محاولتهم قتل عبد الناصر في المنشية، ومن جاردن سيتي إلى العباسية لا بد وأن نقع في أحدها، لم تكتمل هواجسي حتى وجدنا الكمين الأول يقطع طريق الكورنيش، وضعوا حواجز ومتاريس خلفها جنود مدججون ببنادق ذات سكين تابعون للبوليس الحربي، اقترب منَّا ضابط جَهْم، أدخل عنقه عبر نافذتي حتى كدت

أتشمم أنفاسه. وقبل أن يتفرس في وجوهنا بدقة خاطبه حبشي بنبرةٍ حزينة:

- عندنا حالة وفاة يا سعادة البيه ومعانا فضيلة الشيخ عبد الباسط علشان عاملين ليلة عزا في العباسية.

كان اسم الشيخ كلمة السر، تعرَّف عليه الضابط على الفور، ربط الملامح بالاسم وصافحه بحرارة، طلب منه الدعاء فلبى الرجل على الفور، انفتحت الحواجز وأُبعدت المتاريس وتراخى الجنود، تلقينا التحايا ومررنا بسلاسة مصحوبين بدعوات الصبر والسلوان، قرب الكمين الثاني كادت تفلت مني ضحكة رغم قلقي، تذكرت كيف كان شكري يختبئ منَّا ونحن صغار، الآن نمر بأجسادنا ووجوهنا ظاهرة للبوليس لكنهم لا يروننا، تكرر ما حدث بالكمين الأول بحذافيره، كأنهم تلقوا النص عبر جهاز اللاسلكي فرددوه بغير نقصان.

وصلنا إلى العباسية وتجاوزنا الميدان المزدحم، خفتت الحركة تدريجيًا حتى أظلمت السكة وغابت أعمدة الإنارة، انحرفت إلى أقصى اليسار، قطعت بضعة كيلو مترات في مِدَقٍّ صحراوي رجرج السيارة حتى كدنا نتقيأ، نبهني رمضان إلى الاتجاه يمينًا حتى توقفنا قرب تبَّة، طلب إطلاق عدة إشارات بأنوار السيارة ثم إطفاء المحرك فنفذت صاغرًا.

خرج صوت الشيخ محملًا بالقلق سائلًا عن السرادق والمعزين وهو يتلفت حوله في العتمة فلا يرى كف يده، لكن حبشي ورمضان طمأناه بكلمات مبهمة، نزلا من السيارة وراحا يتباحثان في أمرٍ ما، لم تمضِ خمس دقائق حتى ظهرت سيارة جيب مثل التي يستخدمها الجيش الإنجليزي وخلفها سيارة عادية بها سائق وراكب آخر، نزل من العربة الجيب ثلاثة مسلحون ببنادق قصيرة، صافحوا رمضان بحرارة واقتربوا من السيارة سائلين عن الأستاذ رشيد، بهدوءٍ شديدٍ نزل شكري وسار معهم كأنه يعرفهم من قبل، ومن خلفه رمضان.

- لا مؤاخذة يا مولانا علشان العطلة.. إحنا دقائق ونوصل إن شاء الله.

قالها حبشي مخاطبًا الشيخ الذي حوقل وهو يقلب نظره بيننا في جزع، أخرج حبشي ورقة خضراء بمائة جنيه سلَّمها له وهو يكرر اعتذراه، دس النقود في كف الشيخ المبسوطة، كانت عيناه ذاهلتين ممَّا يجري حوله ومعه، ثم هذا المبلغ الضخم الذي حصل عليه دون أن يتلو آية واحدة حتى الآن في سُرادق، فقال:

- أنا يا بني ما أقبلش فلوس على نفسي من غير شُغل،

والفار بيلعب في عِبِّي، مين الناس دي والموضوع إيه؟

أعاد الشيخ المائة جنيه ولم يُجادله حبشي هذه المرة، طمأنته واختلقت كذبة سريعة أن هناك مأتمًا آخر لكنه يخص المدعو رشيد، فأوصلناه أولًا، وبلع الشيخ كذبتي مضطرًّا.

دارت السيارة الجيب وبداخلها شكري الذي لوح لنا بعلامة النصر قبل أن تبتلعه عتمة الصحراء، بينما انطلقت العربة الأخرى برمضان سكرتيري مع آخرين، ولوهلةٍ شعرت بانقباض في قلبي وعلت أنفاسي، طلب حبشي أن يتولى القيادة فاستسلمت لطلبه، ورغم أنه عاد للعباسية مسرعًا وبدأت الأنوار وملامح المدينة في الظهور إلا أن أنفاسي ظلت تضيق، ورحت أتعرق من كل جسدي كأنني محموم، من مكاني أسمع بوضوح همس الشيخ وهو يتلو قصار السور سائلًا كل فينة وأخرى عن مكان العزاء، فنطمئنه أنه على الأعتاب.

ظل حبشي يلف ويدور في شوارع العباسية حتى لمح من بعيد أنوارًا ساطعة، اقترب وأوقف السيارة بعد ما جعل مؤخرتها ناحية سرادق عزاء، اصطحب الشيخ الذي عاد إليه حماسه واسترد طمأنينته ودخل به وسط المعزين، لاحت مني التفاتة عندما اخترقت أذني تكبيرات وتهليلات

لقدوم الشيخ بعد ما تعرَّف عليه المعزون، وقبل أن تخفت التكبيرات وجدت حبشي يجلس في مقعد السائق ويتحرك مسرعًا وكأنه يفر بعد ارتكاب جريمة، ابتسمت رغمًا عني وبادلني حبشي الابتسام وهو يُعيد لي المائة جنيه قائلًا:

- النصيب بقى.. ربنا أكيد حيكرمه بأكتر منها.. العزا طلع يخص تجار خردة.

أعدت رأسي للوراء وفتحت نافذتي عن آخرها وتنهدت، وفي غمرة تعبي سمعت بائع جرائد ينادي بصوتٍ عالٍ ممسكًا بجريدة مسائية: «اقرا الحادثة.. مقتل عبد الكبير الوالي». شعرت لوهلةٍ أن الدنيا اسودَّت في عيني، صحت بقوة وكأني استرددت صوتي فجأة:

- اقف هنا يا حبشي.

لفت صوت مكابح السيارة واحتكاك الإطارات بالطريق انتباه بعض المارة، هرع حبشي لشراء نسخة من الجورنال، وعاد مأزومًا مرتبكًا، قرأنا العناوين وأصابنا الوجوم، هبط علينا الخبر كغراب ضخم ظللنا بجناحيه وعلا نواحه وكأننا في مأتم كما ادعينا.

***

«عزيزي المواطن، قد تكون وقعت بالصدفة على معلومات تخص حوادث استغلال نفوذ.. عن أطيان أو أملاك أو عمارات اقتناها أصحاب النفوذ لقربهم من الحكم والسلطان، وقد تكون سمعت عن أموال أو رشاوى دُفعت

لقضاء حاجات في الدولة، هذه المعلومات لو أبلغت بها الآن يجعلك تكسب ألف جنيه، ولا تظن أن فيما تفعله وشاية إنما هي خدمة تؤديها لنفسك وللدولة، ونؤكد أن في إمكان الصحفيين بجميع الجرائد الاشتراك في

حملة التطهير، ويمكن لهؤلاء الصحفيين أن يطمئنوا كل الاطمئنان إلى أن أسماءهم ستظل سرًّا مدفونًا لا يستطيع أحد الوصول إليه أبدًا»

شكري تاج الدين - 15

بضع ساعات مرت كسنوات، بين مغادرة عبد الكبير الوالي العزبة وحتى عودته واستدعائي للمثول بين يديه، لم أتخيل أنه سيكشف أمري بهذه السهولة، ولا أعرف متى تسرب الشك لديه نحوي رغم المدة القصيرة التي قضيتها بينهم، كل ما أعرفه أنني شعرت لأول مرة بشعور المحكوم عليه بالإعدام وأنا أسير خلف الضبع، وورائي حارس خيمتي، أعد خطواتي الأخيرة وأحصي أنفاسي المتحشرجة التي ضاق بها صدري، بعد ما توقف قلبي عن الخفقان من فرط الخوف.

كانت الليلة قمرية رائقة، أنار فيها ضوء البدر المكان بخيوط فضية ساحرة عكست أجواءً رومانسية، افتقدت وجود أمينة، لكن نظرة واحدة لوجه الجالس أمامي وسماع صوته ذي النبرة المتوترة كفيلين بتبديد سُحب خيالي كلها. ظننت في البداية أن عبد الكبير الوالي سيخلع باروكته وينزع شاربه الرفيع لأجد أمامي شخصًا أشبه بمَن تخيلته، ثم اكتشفت أن الهيئة التي أمامي هي حقيقته، يعيش بين رجاله موظفًا حكوميًا بوزارة الأشغال، وبعد الظهر يعمل مثلهم بالمغارة، مسئولًا عن التقييم وحسابات حصيلة النشل، خلق لنفسه وضعًا متفردًا جعله قريبًا من مراقبة رأس ماله

وصبيانه، وفي الوقت ذاته لا يشك فيه أحد ولا يتعرف عليه مخلوق.

سحب الوالي نفسًا طويلًا من الجوزة حتى غاب وجهه وسط دخانها الكثيف، كنَّا نجلس على وسائد عريضة مرتفعة، مرصوصة بعناية أمام بوابة مغارة صغيرة منزوية لا يمكن الوصول إليها بسهولة، وعندما التقيته ظل صامتًا لفترة طالت، افترستني فيها ظنوني ومنعتني هيبته من بدء الكلام حتى قال:

- الحكومة قدرتك بخمستلاف جنيه.. واضح إنك مش غالي أوي عندهم.

قالها متندرًا على قيمة المكافأة التي رصدتها وزارة الداخلية للقبض عليّ بعد ما نشرت الجرائد صورتين لي، صحيح كانت إحداهما مهزوزة مثل التي كانت أمينة تلتقطها لي، والثانية قديمة، وقد تغيرت ملامحي بحكم السن واللحية التي أطلقتها، مع ذلك خفت من كلامه، ولم أفهم إذا ما كان تندره يخفي طمعًا في زيادة ما أدفعه له كإتاوة سنوية، أم مجرد جذب لأطراف حديث عن صلتي بجمال عبد الناصر؟ آثرت الصمت حتى يكشف عمَّا يدور بعقله، لم يتركني الوالي أنتظر كثيرًا، اعتدل بجلسته وقال:

- شوف يا سيدنا الأفندي، أنا ماليش في الجماعة بتوع الإخوان، لكني التزمت معاك بكلمة شرف، إنت هنا في أمان طالما بتدفع، بس ما تآخذنيش في الكلمة، الفيزيتا حتزيد وبدل ما كانت تلات آلاف جنيه في السنة حيبقوا خمسة، زينا زي تسعيرة الحكومة، واعتبر الفرق حق الصبيان بتوعي اللي قبضت عليهم زمان واتسببت في حبسهم.

أعدت ظهري للوراء متنهدًا بعمق عندما كشف عن نواياه، كلمات الوالي اقتحمت الخواء وأنبتت الأمل بداخلي في دورة جديدة لبلوغ محطة قادمة تلوح في الأفق، صحيح لا تزال النهاية بعيدة لكن الطريق باتت آمنة، وعندما قدَّم لي الوالي الجوزة التقمتها برضا وسرور وشاركته تدخين الحشيش، أردت الاقتراب منه كي أحوز ثقته ولا يغدر بي، ومع تعدد اللقاءات بيننا انفتح قلبه وانطلق لسانه وراح يحكي لي عن إشاعة موته التي تتردد كل فترة ثم تنزوي، والأغرب أنها تعود كل مرة بالقوة ذاتها وكأننا مغفلون.

ابتسم بخبث وهو يقول:

- أنا حرَسّيك على الحكاية من طقطق لسلامو عليكو، الحكمدار توماس راسل كان خواجة شرس، وفي وقت من الأوقات مكناش بنقدر ننزل من الجبل بسببه، لكن لمَّا غلب

حماره معانا ومعرفش يقبض عليًّا طلَّع إشاعة إن أنا ميت؛ لأنه ببساطة مش بيتقبل الهزيمة.

- ما تآخذنيش في السؤال يا معلم، لكن مصلحتك إيه إنك تبقى ميت في نظر الحكومة؟

- إنت باين عليك غشيم وحتزعلني منك، محسوبك ابن ليل وهربان من الحكومة، وبصراحة الموضوع على هوايا، وطالما ميت تبقى الحكومة مش حتدور عليَّا، ومن بعدها ربنا فرجها والرزق زاد، لغاية ما يعيدوا الحدوتة مرة تانية.

- وهي الناس مغفلة إن الحكومة كل شوية تعيد حكاية موتك يا معلم؟ ده كلام ما يتعقلش.

- وشرفك الناس مغفلة زي ما سعادتك بتقول فالحكومة كل شوية تعيد الحكاية، وبعدها تكدبها وفي المرتين المغفلين مصدقين. زي كل حاجة بتقراها في جرايد اليومين دول والناس بتصدقها مع إنهم عارفين إن الحكومة برضه بتكدب عليهم، مع إن الخواجة راسل ساب مصر من عشر سنين.

ابتسمت بينما علت قهقهة الوالي على كلامه، قاطعتنا المرأة المليحة فتغيرت ملامحه وبدا وجهه أكثر إشراقًا وهو ينظر لها بعاطفة حقيقية تكشف عن لوعة واشتياق. بدت

السيدة أكبر سنًا من الوالي لكنها لا تزال محتفظة بآثار أنوثة قديمة تمتعت بها لسنوات طويلة. وضعت السيدة صينية طعام هائلة بيننا وانصرفت في هدوء دون أن تتفوه بكلمة، لكن لسان الوالي كان قد انفلت ولم يعُد ممكنًا السيطرة على لجامه فقال:

- دي بقى الجماعة بتاعتي، مراتي في الحلال، في الأصل كانت أم خطيبتي، يعني حماتي، لكن عجبتني واتجوزتها.

روى أنه بعد ما تقدم لخطبة ابنة زوجته ووافقوا عليه، أعجبته الأم وارتاح لها أكثر، ولأنها أرملة فلم يتردد في فسخ الخطبة وعقد قرانه عليها تاركًا الابنة لصاحب النصيب. قهقه بصوتٍ عالٍ وأردف:

- زي ما تقول كده عجبني الإنتاج فقلت أشتري الفابريكة ذات نفسها.

أيقنت أن الحشيش الذي نتعاطاه قد أتى ثماره مع الوالي، استمرت ضحكاته تعلو بصورة غريبة وانتقلت العدوى لي، حتى إنني لم أستطع التوقف، وكلما أقبلت زوجته لرفع الصينية أو تقديم الشاي لنا كنت أبتسم ابتسامة واسعة تقديرًا لمكانتها، ومع الوقت وتعدد اللقاءات مع الوالي لاحظت أنها عنيفة مثل زوجها، ورغم قساوتها لها ابتسامة

حانية، كانت تؤمن بالخرافات وبحقها في قتل مَن يحاول سرقتها أو مهاجمة مغارتها، ولا تغفل عن سلاح يظهر بوضوح أسفل جلبابها، ورأيتها مرة تحمله كما تحمل الأم طفلها، ورغم أنها تطيع الوالي طاعة عمياء وتخشاه، كانت تعلن رأيها المخالف لرأيه إذا ما استشارها.

تشعبت الحكايات بيني وبين الوالي، حتى سألته مرة كي يطمئن قلبي عن سبب إخفاء حقيقته عن الجميع إلا أنا وأحمد الضبع، أوضح ببساطة أن الضبع تربى على يديه منذ ولادته، ويعتبره مثل ابنه، فهو لقيط لا يُعرَف له أهل.

حدق في وجهي بإمعان قبل أن يجيب بثقة أخافتني:

- إنت وضعك مختلف يا سيدنا الأفندي، لكن بعد تفكير وتدبير لقيت حالك زي حالي، إحنا الاتنين محكوم علينا بالهرب بقية عمرنا، وعدو عدوي صاحبي، وبعدين يعني ماتآخذنيش في الكلمة حتعمل إيه بالمعلومة اللي عرفتها؟ ولا حاجة، أنا يا حضرة البكباشي محتاج حد مخه متنور يآنسني ويسلي أيامي، عيشة الجبل صعبة والغالبية مطاريد وكل فين وفين لمّا يجيلنا حد متعلم نأويه ويسلينا لغاية ما ربنا يأذن.

عبثت بلحيتي وقلت بهدوء لا يخلو من هواجس:

- يأذن بإيه يا معلم؟

قهقه الوالي وهو يشير بإبهامه ناحية الصحراء قائلًا:

- بالسر الإلهي، كلهم هناك، محدش دخل عندنا وخرج تاني، ربنا يرحمهم ويبشبش الطوبة اللي تحت راسهم، اقرا لهم الفاتحة يا حضرة البكباشي.

بعدها غمغم الوالي بكلمات لم أفهمها، ربما كان يقرأ الفاتحة بالفعل على روح المتوفين ممَّن كان يأويهم قبلي. لكن ملامحه تقلبت فجأة وقال بنبرة لم تُرحني:

- لا مؤاخذة إحنا معندناش عواطلية هنا، طول ما إنت بتدفع حتفضل معانا، أما لو فلوسك خلصت لازم تشتغل ويَّانا؛ لأنه ما ينفعش تشوف وشوشنا وبعدها تسيبنا وتمشي يا حضرة البكباشي.

أدركت الآن أن كل مَن يعيش هنا ويعمل بالنشل من الهاربين. هاربون من الحياة ومن البوليس ومن الفقر والعوز، هاربون من أي شيءٍ لا يستطيعون مواجهته، ورغم اختلافهم فإنهم متشابهون، يحركهم الخوف ويغلفهم الحذر وتطمئن أرواحهم لعتمة الليل ووحشة مقابر الجبل الجماعية، ربما يكون الموت أكثر رحمة عليهم من الحياة فتونسوا به،

فجأة انتابني شعور بأن الموت قريب مني أيضًا، يحوم حول المكان ويتحين الفرصة كي يخطف روحي.

حاولت نفض الفكرة من رأسي ففشلت، من بعدها، وكلما دعاني الوالي للثرثرة وتدخين الحشيش بمغارته، شعرت بأن الخوف صار رفيقي في مكمني، وأيقنت أنه أسوأ رفيق للسفر الطويل، وأنا على سفر ولا أعرف محطتي القادمة ولا نهاية واضحة لرحلتي، لكن بداخلي شعور أنها لن تنتهي هنا، ومن يومها قررت ألا أموت في هذا المكان، لكني لن أخبر أحدًا بقراري الآن.

***

تلقيت أول زيارة من رمضان بعد ثلاثة أشهر من إقامتي بعزبة الوالي كما يسمون المكان، التقيته بخيمتي العامرة بالأوراق والأقلام، وبعد جلسة طالت لأكثر من أربع ساعات ونصف الساعة خرجت من الباب الأمامي للخيمة وأشعلت سيجارة متجاذبًا أطراف حديث ممل مع حارسي، تحرك ليبحث عن رمضان فأبلغته بأنه يقضي حاجته بالناحية الأخرى من الخيمة ويحتاج بعض الخصوصية، احتجزت الحارس بجسدي كي لا يذهب ويتفقد مكان رمضان فامتثل. بعد دقائق ظهر رمضان يستعدل ملابسه وهو يبتسم، ودعته

وكلي أمل أن ينفذ ما طلبته منه كما كتبته في الأوراق التي أخفاها في ملابسه الداخلية، حتى لا تنكشف وهم يفتشونه وقت الخروج، لكني لم أرَه بعدها، تخلف عن زيارتي في الموعد المحدد حتى انتابني القلق، ولكي يطمئنني الوالي كلف بصاصيه باقتفاء أثره، فأخبروه بما أقلقني وقضَّ مضجعي لأيام عديدة، جاء الخبر على أجنحة غراب، قبض البوليس على رمضان في شقة بشبرا مع مجموعة كبيرة من جماعة الإخوان، بعد ما قاوموا القبض عليهم بأسلحة نارية وقنابل لساعات طويلة، وفي النهاية استسلموا.

الآن جاء دور أمينة لتحل محل رمضان، دور البطولة الذي انتظرته زوجتي طويلًا وطالما حلمت به، سأمنحه لها مجبرًا، فلم يعُد عندي بطل آخر.

***

«أيها السادة، وصل السيد الرئيس جمال عبد الناصر إلى دار الغرفة التجارية بالمنشية في موكب رائع لم تشهده الإسكندرية من قبل، فدوى التصفيق

من الجماهير مع الهتافات، وظهرت مشاعر الشعب بكافة طبقاته ناحية الزعيم الذي يبذل كل الجهد في سبيل الوطن المقدس، وهذا ليس بغريب على شعب مصر الواعي الذي عرف بعد الثورة الحق من الضلال، والنور

من الظلام، ودفعته ثورة الأحرار من الضعف والهوان إلى القوة والعزة»

فهمي تاج الدين - 15

داهمتني الأسئلة مُشهرة علامات الاستفهام في وجهي فاستسلمت، سألني أبي بنظرة تترقب إجابة تتجنب إجهاد العقل بالتفكير، بينما أمطرتني أمي بعشرات الأسئلة عن مكانه ونومته وطعامه ومزاجه والذين معه، وفي حين ظلت أمينة ترقبني بوجهٍ باكٍ كانت سارة تترقب إجابتي بملامح جادة منزعجة، أما جدتي أنيسة فاكتفت بسؤال يتيم طرحته بنبرة تنتظر إجابة تريح قلبها:

- قلبك بيوجعك يا فهمي؟

في البداية طمأنتهم معتمدًا على خيالي، ربما لو حكيت لهم ما رأيته لزدتهم قلقًا، وغدًا سيقرأون في الجريدة خبر مقتل عبد الكبير الوالي، ويكون البوليس اقتحم الجبل وقبض على رجاله وصبيانه وشكري معهم، ومؤكد سيتهمونه بتهم إضافية، ويتم اعتباره من الخارجين على القانون والنشالين وقطاع الطرق. قصصت عليهم رواية من تأليفي، ربما لو نشرتها لحققت مبيعات أكثر من قصص إحسان عبد القدوس، رويت أن الوالي رجل مُسن طيب القلب له لحية بيضاء وعصا طويلة، أشبه بشيخ زهد الدنيا، وأن رجاله أشداء يحرسون المكان بصرامة وقوة فلا يمكن الوصول

إليهم إلا بكتيبة من الجيش، أضفت بثقة أنهم يولون شكري عناية فائقة وسط الصحراء التي حولوها لواحة فيها كل ما تشتهي الأعين والأنفس.

قاطعتني نينة أنيسة:

- مال صوتك يا بني؟

لم أستطع الرد، كان صدري يرتج بقوة، وربما لاحظت جدتي شبه الضريرة أن صوتي اختلف، سبقتني دموع لم أستطع الاحتفاظ بها لنهاية روايتي البائسة، علا بكائي رغم محاولات التماسك أمامهم، شهقت أمي وانزعج أبي، أخبرتهم بحقيقة ما رأيت وما قرأت بالجريدة التي سيقرأونها بعد قليل، ثم اقتربت من أنيسة واحتضنتها بقوة، راحت تمسح دموعي بكفيها وأنا لا أكف عن طلب الدعاء منهم لشكري.

تجهمت ملامح أبي وقال بنبرةٍ قلقة:

- ماظنش خبر موت الوالي صحيح، وقت ما كنت في الحكومة أشاعوا كده مرة وتبين إنه عايش. أنا حتأكد من وزارة الداخلية.

لم تعلق أمينة بحرف ولم تسألني عن زوجها، كأننا نتحدث عن شخص غريب عنها، ثم غادرت بحجة إطعام كلبها. بعد

انصرافها سادت موجة جديدة من الرعب والخوف، ألقى أبي على مسامعنا بنبأ عثوره على مدفع رشاش صغير بالبدروم بعد هروب شكري، انتابنا هلع غريب، لا نعرف ما الذي يجب علينا فعله، هل نطمئن كما أقنعنا أنفسنا بأن عبد الناصر لن يفتش بيتنا مثلما تجاهل القبض على شكري، أم نحاول إخفاء السلاح في مكان بعيد تجنبًا للبهدلة كما وصفها أبي لو تغيرت الأمور؟ تذكرت أن اليوزباشي أحمد الكومي هو الذي أحضر السلاح لشكري عندما زاره، لكني لم أفهم لماذا تركه شكري هنا؟ فكرت في الذهاب إليه لكن أبي رفض الفكرة بدون أسباب، واقترحت سارة إبلاغ البوليس لكن لم يؤيدها أحد.

في وسط حيرتنا وقلة حيلتنا، ظهرت أمينة مرة ثانية من باب البهو المفضي إلى الصالون الكبير، سمعنا نباحًا رقيقًا قبلها، ألفيناها قادمة نحونا ترتدي قبعة فرنسية عريضة وفستانًا قصيرًا، تجر وراءها جروًا أبيض يثير ضوضاء تفوق حجمه عشرات المرات. خلعت أمينة الإيشارب منذ محاولة اغتيال عبد الناصر بالمنشية، وقبلها تخلت عن العباءة الغريبة التي كانت تضعها فوق ملابسها، عادت كما كانت منذ خمسة عشر عامًا، أمينة التي أحببتها.

- أنا خارجة أفسح الكلب شوية و..

قاطعتها أمي وأخبرتها بالخبيئة التي عثر عليها أبي لتشاركنا الحيرة، بعد تفكير قصير هبَّت أمينة من مكانها وهي تقول بنبرة غريبة:

- فين المدفع الرشاش؟

أشار أبي كالمنوم مغناطيسيًّا إلى أسفل ناحية البدروم، تركت أمينة كلبها معي وعادت لبيتها. لا أعرف لماذا اختارتني وأنا أفزع من مجرد نباح الكلب، لكني تماسكت حتى عادت بعد قليل مرتدية عباءتها، هبطت البدروم معنا، ورفعت السلاح بسلاسة غريبة من صندوقه، لم نعرف إذا كان محشوًّا بالذخيرة أم فارغًا، لكن أمينة لم تترك لنا فرصة لفحصه، أخفته تحت العباءة الواسعة بعد أن قيدته برباط عريض حول خصرها، وساعدتها أنا وأبي في إحكام ربطته، خرجت أمينة من باب الفيلا في ثقة حسدتها عليها. تتبعتها في قلق، ممسكًا بكلبها الذي ظل ينبح حتى خشيت أن يلفت الأنظار نحوي، بعد ما لاحظت وجوهًا غريبة على ناصية شارعنا وشككت في أنهم مخبرون، لكن أمينة مضت في طريقها دون أن تنظُر إليهم أو تعطيهم أدنى اهتمام.

انطلقت بسيارتها وأنا خلفها بسيارة شكري رغم معارضة

سارة لذهابي. وصلنا منتصف كوبري قصر النيل، الساعة تقترب من التاسعة والنصف صباحًا، لكن القاهرة لا تستيقظ مبكرًا يوم الجمعة، أوقفت أمينة السيارة بمنتصف الكوبري، خرجت منها شامخة، تلفتت يمينًا ويسارًا، وعندما اطمأنت لعدم وجود أحد أخرجت المدفع الرشاش، خلعت عباءتها ولفته بها وألقت بهما في النيل، وبهدوءٍ شديدٍ ركبت عربتها متجهة لجاردن سيتي وأنا في ذيلها، بجواري كلبها الصغير الذي لم يتوقف عن النباح، وربما كان يشاركني الدهشة والقلق والكثير من الخوف أيضًا.

***

زاد النوء بعد ما علا الموج وارتفع، وفي كل مرة يغرقني فيها أشعر بأنني أنغرس في مكاني أكثر حتى صرت قعيدًا عاجزًا. نُقلت لنيابة منقباد في أسيوط بأقصى الصعيد، أغيب عن البيت ثلاثة أسابيع، ولا أكاد أكمل الأسبوع الأخير من الشهر بجاردن سيتي حتى أستعد للعودة، طلبت نقلي من النيابة إلى القضاء حتى أستريح من اغتراب طويل لا طائل من ورائه، خاصة أن زوجتي سارة بدأت تضيق بالعيش في القاهرة، صارت عصبية ضجرة بكل ما حولها، ولم يعُد على لسانها كلمات سوى العودة إلى باريس مع ابنتنا الوحيدة.

رفضت سارة إلحاقها بمدرسة هنا، وكلما اقترب سن الدراسة علت نغمة العودة بإصرار وعناد، حتى صارت تعزفها كل صباح وأنا أتناول إفطاري معها في الأسبوع اليتيم، وبالكاد ألحقتها بمدرسة الليسيه متأخرة عن أقرانها بعامين. لم تعُد ترى القاهرة باريس الشرق، رأت فيها الخوف والقلق وعدم الطمأنينة، لم تعُد تنام آمنة، ولم تستطع التأقلم على الحياة الجديدة التي لم نتوقعها كلنا، لم تفهم ما الذي فعله شكري ليهرب من رئيس الدولة، رغم أننا بسطنا لها الأمور وقُلنا مجرد اختلاف في وجهات النظر.. فزادها كلامنا فزعًا.

فشلت كل جهود أمي وجدتي في إقناع سارة بالبقاء، وكان من السهل عليّ التمسك برأيي وعدم السماح لها بالسفر، فهي لن تستطيع الحصول على تأشيرة خروج بغير موافقة الزوج، ولو وافقت ستحصل عليها بلا عودة بسبب موقف الحكومة الحالي من الأجانب، خاصة الفرنسيين، وسارة منهم. قبل بلوغ مرحلة الخصومة والعناد مع سارة محطتها الأخيرة، فوجئت بقرار جمهوري بإحالتي بدرجتي الوظيفية إلى وزارة التموين والتجارة الداخلية موظفًا حكوميًا. أبعدوني عن النيابة العامة بسبب معاونتي لشكري في الهرب، لكنهم لم يذكروا السبب في قرار نقلي، فقط اكتفوا بكلمتين.. «لصالح العمل».

الحقيقة التي أخفوها عني وعرفتها وديًا من اليوزباشي أحمد الكومي، أن سكرتيري السابق رمضان وقع في قبضة البوليس بعد ما وجدوه مختبئًا في شقة بالإيجار في شبرا، ربما اختارها لتكون مأوى جديدًا لشكري الذي انقطعت كل السبل بيننا وبينه، فرمضان كان همزة الوصل الوحيدة مع أخي. وعقب ضبطه فكوا عقدة لسانه وحكى ما رأى، فوقفوا على دور البطولة الذي قُمت به في فيلم الهروب، مع أنني كنت رافضًا القيام به من البداية ولم أكن سوى كومبارس يقود السيارة.

قلبت موضوع نقلي لوزارة التموين على عدة أوجه وتدبرت في الأمر، لم أرَ في النقل سببًا يرتاح به ضميري أو تهدأ له نفسي، وجدتني مخيرًا بين عمل جديد بعيد عن تخصصي ودراستي، وبين طرق ميدان العمل الحر لعلي أجد راحة بالي وصميم عملي، فاخترت مهنة عزيزة على قلبي، كريمة على الناس، اعتزمت الاشتغال بالمحاماة هنا أو بفرنسا، وانتهى بي التدبر لتقديم استقالتي من وزارة التموين، قبلوا الاستقالة فورًا وكأنهم ينتظرونها، رغم ذلك شعرت براحة كبيرة، حتى إنني كتبت في دفتري واصفًا هذا اليوم بأنه عيد الحرية.

جلسنا بالصالون بعد أن خلدت أسرتي كلها إلى النوم، أو لعلهم يتقلبون في فراشهم قلقًا محاولين استجدائه مثلي كل ليلة، رجوت سارة حتى مطلع الفجر أن تبقى في القاهرة، الآن صرت حرًّا ويمكنني العمل بالمحاماة في مكتب أبي، لكنها ترى ارتباط مصيري بشكري، وطالما هو هارب سأظل مطاردًا، وحتمًا لن يتركوني في حالي، وأعصابها لم تعُد تحتمل ولا تريد مصيرًا مجهولًا لطفلتنا. خُيل لي أنها هددتني باللجوء لسفارة فرنسا، لكني أرحت عقلي بأن لغتي الفرنسية أضعف من لغة سارة ولا بد أنني فهمت المعنى على نحو خاطئ.

صارت سارة تبيت في غرفة مستقلة مع ابنتنا، الجفاء يزيد والهوة تتسع، يتهمني أبي باللا مبالاة كعادته معي، وأنني أوصلت الأمور إلى هذا السوء، في حين تدافع عني أمي وتحاول أنيسة إصلاح ما فسد، لكنها لا ترى الحقيقة ونبرة الصوت دومًا خادعة. «منذ أتينا إلى هنا ونحن نلهث، لا وراء حلم بل هربًا من كابوس»، ظلت كلمات سارة تتردد في أذني، من بين ثنايا كلماتها كنت أشعر بغيرتها من أمينة، ولا أدري إذا ما كانت القطعة المقلدة تشعر بتقليدها أم إنها تظن دومًا أنها الأصل؟!

حاولت النوم فلم أستطع القبض على خيوطه، أمسكت كتابًا فزاد شرودي، وقعت عيني على مكتبي، لأول مرة أنتبه إلى حصالة شكري الخضراء، شعرت بحنين إلى علم المملكة الذي تغير، هززتها فوجدتها خفيفة لا تصدر صوتًا، ابتسمت وأدركت أن شكري حول العملات الفضية لجنيهات ورقية، لكن عندما فتحتها لم أجد بها مالًا، فقط ورقة مدون بها أرقام وتواريخ، ثم كلمات قليلة لا تزيد على بضعة سطور مذيلة بتوقيعه. استدان شكري المبلغ كله من الحصالة، وسلمه لأهل العرافة التي صدمها بسيارة أبي منذ سنوات بعيدة، اعترف لأول مرة أن العرافة ماتت بعد الحادث بيوم، أخبره خالي بالنبأ، فاضطر لفتح الحصالة، ولمَّا وجد بها عشرة جنيهات أعطى نصفها لعبدون السائق، وسلَّم النصف الآخر لابنة العرافة عندما زارها مع خالي للتعزية في وفاة أمها.

كتب شكري ورقة صغيرة بخط يده أوضح فيها أن العرافة كانت كاذبة حتى لو صدفت في نبوءتها، ثم دوَّن مقولتها التي همست له بها وأغضبته منها.. «واحد يدخل الجنة».

كتب أسفلها إنه يتمنى لي الهداية لأدخل الجنة معه، وأغلب الظن أنها كاذبة، وطلب في نهاية خطابه أن أسامحها.

قرأت كلمات شكري مرات ومرات، وتساءلت في نفسي إذا ما كان أخبر ابنة العرافة بأنه قاتل أمها، أم اكتفى بالدعاء لها باعتباره من أهل الجنة؟ لا أدري كيف افترض أنني المستبعد من الجنة؟ وكيف ضمن دخولها وحده؟ لا أجد سببًا واحدًا لأن يدخل واحد الجنة حتى ولو كنت أنا هذا الشخص، فما بالنا بشكري؟

انسابت دموعي بطيئة مترددة، ولا أعرف أيضًا لماذا سالت ولا على مَن؟ العرافة أم شكري أم على حالي؟!

بجوار الحصالة الخضراء لمحت تمثال مايكل أنجلو الذي صنعته منذ سنوات بعيدة وسرقه شكري مني، تعجبت من ظهوره الآن بعد ما كنت نسيته، مددت يدي فوجدت رقبته مخنوقة بمسبحة حمراء قانية، حررت التمثال منها بصعوبة، وهززت رأسي أسفًا بعد ما وصلتني رسالة شكري فجفت دموعي.

ظللت جالسًا على مكتبي حتى لاحت أنوار الفجر على استحياء، تحاول دخول غرفتي ولا تفلح بسبب ستائري الثقيلة، نهضت لأنام بضع ساعات قبل أن أبدأ حوارًا مكررًا في الصباح مع سارة، في محاولة جديدة يائسة لإقناعها بالبقاء، أو السفر معها لفرنسا كورقة أخيرة لا أريد الكشف

عنها الآن، لكني فيما يبدو سألجأ إليها مضطرًا، وما بين الغفوة واليقظة سمعت صوت ارتطام حجر بنافذتي، نهضت لفتحها ولم أجد أحدًا، قفزت درجات السلم حتى كدت أنكفئ على وجهي مرتين، لا أحد غيره يفعلها، تسارعت دقات قلبي حتى كادت تسبق قدمَيّ، وعندما فتحت الباب الخلفي المؤدي للحديقة القبلية التي جاء منها الحجر لم أجد شكري أمامي كما توقعت. رأيت رجلًا أشبه بالفتوات والمجرمين الذين كنت أحقق معهم، بيده حقيبة صغيرة كأنه عائد من سفرة قصيرة، وبجواره سيدة جميلة المحيا، تضع شالًا مزركشًا على كتفيها يغطي بعضه رقبتها وتبتسم في وداعة أم حنون.

ظللت متسمرًا في مكاني بينما الرجل يبتسم في لزوجة، مد يده بخطاب مغلق وورقة صغيرة مدون بها كلمتان فقط، لكنهما كانتا كافيتين لطمأنتي.

قرأت بالخط المنمنم إيَّاه «بيت الأمة».

***

«كما اصطحب الرئيس عبد الناصر ضيفه الكبير الفريق عبود لافتتاح ملعب القاهرة، وهو أكبر استاد لكرة القدم في الشرق الأوسط، بحضور الوزراء والسفراء ورجال السلك السياسي، ثم شهد الرئيس عرضًا لسيارات

رمسيس المصنوعة بفخر في الجمهورية العربية المتحدة، بمناسبة تزامن

عيد العمال العربي مع عيد الثورة الثامن، ثم شهد الضيوف عرضًا لدراجات مصر العربية، وهو حدث صناعي عظيم في عهدنا الجديد»

شكري تاج الدين - 16

أستنبئ الساعة عن الدقائق عسى أن تمر، فتماطلني ولا تأذن بالمرور إلا لثوانٍ متثاقلة لا تريد أن تمضي، كذبت ساعتي لكن أذني أكدت أنها تدور، مرّت عليّ أوقات جال فيها بخاطري كل سوء، ولم يعُد في استطاعتي تفسير كل ما أسمعه تفسيرًا مقبولًا أو حتى منطقيًا.. هبوب ريح ونباح كلاب وعواء ذئب، كلها تستقر في عقلي عبر أذني على أنها تحذيرات من موت قريب وخطر محدق. أغمضت عيني وأرجعت رأسي للوراء بعد ما شعرت بخدر الحشيش، رغم لجوئي «للقطقطة» بحذر كي لا أنسطل وفي الوقت ذاته حتى لا يكشف الوالي أنني لجأت إليها لأستدرجه في الكلام، كنت أسحب أنفاسًا قصيرة ولا أُدخلها في صدري، أُخرجها متقطعة مثلما تعلمت أثناء خدمتي بالبوليس، عندما كنت أتنكر لضبط تجار المخدرات، كلما ثبت الوالي نظره على وجهي اضطررت إلى جذب أنفاس طويلة كي يطمئن قلبه وتتبخر شكوكه، تظاهرت بالنوم كي لا يلح عليّ في تعاطي المزيد، رحت أتخيل رد فعل فهمي وأبتسم، مؤكد أصابه الذعر من لقاء أحمد الضبع فاضطربت ملامحه واصفر وجهه، وربما سال عرقه حتى كاد يسبح فيه، خاصة عندما يكتشف أنني خبأت محطة اللاسلكي الصغيرة المملوكة لحبشي

ببدروم بيت الأمة، بعد ما نقلتها من شقة الصليبة عقب قيام الثورة بأسبوعين خوفًا من الانقلاب عليّ بعد إحالتي للمعاش، أدركت وقتها أن الغدر قادم لا محالة، لن تمحوه قراراتي ولا إرادتي مهما عظمت، وفي هذه الأحوال يكون الانحناء للريح حكمة، والتحلي بالصبر فضيلة.

خططت لكل شيءٍ ولم يعُد متبقيًا سوى التنفيذ من أحمد الضبع وزوجة الوالي، أعجبني أن عبد الكبير يفهم في الأصول عندما وافق على استضافة أمينة لليلة واحدة بخيمتي، وأرسل زوجته مع الضبع حتى لا يصطحبها وحده باعتباره رجلًا غريبًا، لكن كرمه الحاتمي هذا لن يشفع له عندي، لن أنسى تهديده لي بالبقاء هنا حتى آخر العمر وجشعه بزيادة قيمة الإتاوة إلى خمسة آلاف جنيه.. ولن أغفر له ما سمعته وهو يقول للضبع عني إن حاول الهرب اقتلوه، وإن لمستم منه بادرة غدر اقتلوه، ولو توقف عن السداد اقتلوه. اعتبرت أقواله وأفعاله من الكبائر، ولم يعُد أمامي سوى الصبر حتى تحين ساعة الحساب.

غفوت لساعةٍ أو يزيد، وعندما نهضت وجدت الوالي مشغولًا بحسابات يجريها في أوراق مبعثرة أمامه، غاب القمر عن سمائي تلك الليلة، لكن على ضوءٍ بعيدٍ ربما من

مصباح زيت رأيت ثلاثتهم قادمين نحونا، تتوسطهم أمينة، تسير بخطى واثقة أثارت دهشتي قبل أشواقي، أعطاني الوالي منظارًا مكبرًا ليليًّا يفتخر بسرقته من معسكرات الجيش الإنجليزي، الآن أرى أمينة بوضوح، ترتدي العباءة والإيشارب مرة ثانية، ملامحها جادة وعيناها تتفحصان ماحولها في دهشة ممزوجة بقلق حسبما شعرت مع أن وجهها جامد.

رتبت كلمات كثيرة في ذهني، ودبجت مقدمات طويلة نويت تلاوتها على مسامعها لتغفر ذنبي بالهرب إلى هنا دون وداعها، ليلتها غادرت بيت الأمة وهي نائمة، طمأنتها برسالة شفوية مع فهمي، لم تكن تعلم ميعاد الخروج، وأردت تفادي لحظات الوداع وتهوين أيام الفراق. يبدو أنني أخطأت، لا الهروب يُنسينا مرارة الألم ولا الوداع يُخفف من وجع الفراق. شكرت الوالي وأنا أعيد المنظار المقرب له، غمرني بعبارات اعتذار كثيرة بسبب تأخر مجيء أمينة في موعدها المحدد، تعلل بأن القمر كان بدرًا ولا بد من الانتظار حتى تسترهم العتمة وقت عبورهم منطقة الجبل في طريق العودة. لا يعرف الوالي أن هذه المعلومة سوف تفيدني كثيرًا بعد أيام قليلة، مع معلومات أخرى ثرثر بها تحت تأثير الحشيش كل ليلة، اكتفيت بالابتسام وأنا أكاد أشكره على تقديمه

الرصاصة التي سوف أقتله بها.

***

ما إن دخلنا خيمتنا حتى احتضنتها بقوة، وجدت جسدها باردًا متخشبًا، يدها لا تزال ترتعش، خائفة تتلفت وترمقني بعينين يطل منهما الفزع وعشرات الأسئلة، كثير منها بلا إجابة. أحكمت إغلاق الخيمة بعد ما تأكدت من ابتعاد الحارس الليلي لأكثر من مائة متر كما أمره الوالي بناءً على طلبي، التفتُّ لأمينة، أجلستها على فراشي بهدوء، وظللت ممسكًا بكفيها لكن الرعشة زادت، بكت بكاءً صامتًا ولم تستطع التوقف لدقائق، ثم علا صوت البكاء.

قرأت على صفحة عينيها سؤالًا جديدًا: لماذا أتيت بي إلى هنا؟ أجبتها بقُبلة على جبهتها ووضعت رأسها على صدري، احتضنتها هامسًا: «أحبك»، لكنها لم تستجب، أقسمتُ عشرات المرات إنني كنت مضطرًا وخططت كي أعود إليها، طمأنتها أن المحطة الأخيرة اقتربت، وأن المسألة مسألة وقت، قاطعتني بصوتٍ أشبه بالنشيج معلنة أنها لم تعُد تستطيع الصبر، وكفرت بكل شيء.. فابتعدت.

ذاب كل ما خططت له من أجل ليلة رومانسية وسط الجبل، ذاب مع دموع أمينة، لا بأس، المهم الآن خطتي، ظلت

مخاوفها تكبر حتى أول خيط ضوء من النهار، لم تتوقف عن عتابي ولومي، انهارت مرتين وسقطت في الثالثة مغشيًا عليها وأفقتها بصعوبة، أتى الحارس على صراخها مرة، وفي الثانية سألني الضبع من خارج الخيمة إن كنت في حاجة إلى شيء، فاضطررت للخروج كي أُطمئنه وينصرف ولا يُبلغ الوالي بشكوكه فتفسد خطتي قبل أن تبدأ.

- كفاية أرجوكي، حتبقي إنتي والحكومة والوالي والزمن عليًا؟ أنا تعبت وكل اللي بطلبه فرصة أخيرة. وإنتي اللي حتقدري تساعديني، ومحدش غيرك يعرف يعمل اللي حطلبه منك.

تصورت أن كلماتي سوف تشجعها مثل كل مرة، توقعت أن دموعها ستتوقف وتنتفض كي أخبرها بالتكليف فتقول شُبيك لبيك مثل عادتها. لكنها أدارت رأسها وراحت تعبث بمفرش صغير بجوار فراشي، عقدته عقدة كبيرة وألقت به بعيدًا عنها، وبعدها سحبت سيجارة من علبتي وأشعلتها واضعة ساقًا فوق أخرى قائلة ببرود:

- أنا عاوزة أرجع لولادي وما تطلبش مني حاجة. ولو عاوز تتجوز تاني اعملها لكن سيبني في حالي.

تغيرت ملامحها وعلا صوتها وهي تصرخ قائلة:

- إنت عارف يعني إيه أكتر من خمس شهور ماعرفش عنك حاجة؟ حي ولا ميت؟ طيب بلاش أنا، ما فكرتش في ولادك؟ في حقهم عليك؟ ما فكرتش في أمك وأبوك وجدتك اللي اتعمت من البُكا عليك وعلى حالنا؟

- ورحمة خالي ما حبيت غيرك ولا عمري فكرت في ست تانية ولا حيكون. اهدي أرجوكي.

- بالبساطة دي يا شكري؟ جايبني مع مجرمين وسط مجرمين؟ ما فكرتش إن البوليس ممكن يقبض عليّا وولادنا يتشردوا؟

جلستُ القرفصاء قرب قدميها، قبّلت كفيها وبكيت، ورجوتها أن تتفهم ما أنا فيه، وأن الخلاص لن يأتي إلا على يديها، فالوالي لم يقبل أن يزورني رجل مرة ثانية بعد القبض على رمضان، وإذا ما كانت تريد العودة لبيتها فسوف تعود خلال ساعات مع أول الليل لكنني سأموت هنا وحدي. عقب جملتي الأخيرة لانت أمينة قليلًا، فشرحت خطتي على الفور، بعد دقائق بدأت دموعها تجف واعتدلت بجلستها، تشي حركات جسدها ويديها بأنها مقتنعة بما أقول، مؤمنة بدورها، متحمسة للمغامرة، لكنها لا تريد إعلان إعجابها حتى لا تفقد كبرياءها التي أتت متسلحة بها، انتظرت حتى

لمعت عيناها وأخرجت من أسفل المرتبة ورقة كبيرة بها رسم كروكي للمكان كله، شرحت لها دلالة الأسهم والعلامات التي تشير لدروب المنطقة الجبلية الغربية التي يتفاداها البوليس لوعورتها، وربما لا يعرف سككها جيدًا لكني درستها ورفعت تفاصيلها على خريطة أخرى صغيرة سلمتها لأمينة، دوَّنت لها اسم الضابط الذي ستذهب للقائه، وكتبت له خطابًا بخط يدي، طلبت منها أن تخفيه مع الخريطة في ملابسها الداخلية حتى نتفادى الفشل، لو طرأت للوالي فكرة تفتيش متعلقاتها عند المغادرة مثلما يفعلون عند الوصول خشية تهريب أسلحة لي.

سلمتني أمينة الحقيبة التي تحوي محطة اللاسلكي الصغيرة المفككة وأخبرتني بالمدفع الرشاش الذي نسيته بالبدروم فلم أشأ توبيخها على تصرفها الغريب، خرجت وناديت الحارس طالبًا منه تسليم حقيبة المحطة الإذاعية إلى أحمد الضبع، وضعها بجواره وأخبرني بأن التعليمات صادرة إليه بعدم مغادرة مكانه أيًّا كانت الأسباب، حاولت إبعاده بشتى الطرق وإفهامه أن بالحقيبة شيئًا هامًّا، لا بد وأن يطلع عليه المعلم شخصيًّا، لكنه حرن كما الحمار ولم يبارح مكانه.

بعد الغروب غادرت الخيمة مع أمينة عندما أذن الوالي لها بالمغادرة، وأتى الضبع ليصطحبها، ودعتها قرب المدق المؤدي لطريق الخروج، وكما توقعت فتشوا حقيبتها وتحسست زوجة الوالي جسدها من الخارج، ظللت أتابعها بعيني حتى غابت عن بصري، اصطحبني الحارس إلى مغارة الوالي لنبدأ سهرة جديدة مع الحشيش، هذه المرة ذهبت إليه منتشيًا للغاية، لا حاجة لي إلى وقية واحدة ممَّا يحرقه كل ليلة، الآن كل ما عليَّ فعله أن أعد الليالي المتبقية لي هنا.. لو نجحت خطتي.

***

«إمسك اللي ضرب ده، فليبقَ كلٌّ في مكانه أيها الرجال، أيها الأحرار، حياتي فداء لكم.. دمي فداء لمصر، إن حياة جمال عبد الناصر ملك لكم، أيها الناس.. أيها الرجال.. هذا جمال عبد الناصر يتحدث إليكم بعون الله بعد

ما حاول المجرمون التعدي على حياتي، أيها الناس.. أيها الرجال.. ها هو جمال عبد الناصر يقف بينكم، أنا لست جبانًا، أقف بينكم ومعكم

من أجل حريتكم وكرامتكم، أيها الأحرار.. إوعى.. حاسب.. سيبوني.. فليقتلوني إن أرادوا، فقد وضعت فيكم العزة.. فليقتلوني، فقد وضعت

فيكم الكرامة.. وكلكم جمال عبد الناصر»

فهمي تاج الدين - 16

اليوم اكتملت من الشهور تسعة على وجودي بالسجن، لكني لم أولد من جديد، بل شارفت على الموت، الزمن يُعيد نفسه كل نهار في عنادٍ غريب، أسندت رأسي للجدار، سمعت أقدام الصول مطاوع تقترب فاعتدلت برقدتي، يدق كعبيه دقات منتظمة معلنًا قيام القيامة كل صباح في السادسة تمامًا، فُتح باب العنبر وصرخ فينا مطاوع كالمعتاد: «انتباه».. فانتفضنا، لا تعني الكلمة المعنى المقصود منها، بل على العكس هي أمر بالحركة لا بالسكون، أمرنا بسرعة لف البطانية والبورش، وبعدها أدرنا وجوهنا باتجاه الحائط رافعين أذرعنا، لا يصبر علينا أكثر من دقيقتين إذا كان مزاجه رائقًا كي ننتهي من مهمتنا، وبعدها يبدأ السباب يتطاير من فمه ويا ويل مَن يتباطأ أو يتلكأ، سينال ضربات موجعة من خيزرانة رفيعة للغاية، بعدها يقف مطاوع وسط العنبر صائحًا: «استعد»، يدخل اللواء همَّت صحبة ضباطه، الصيحة هذه المرة تعني أن نخلع البنطلون ونركع كما نفعل في صلاتنا، مرَّ الضابط من خلفنا، وضرب كلًّا منَّا ضربة ثقيلة بشومة غليظة على مؤخرته، ربما القصد الإهانة أكثر من الإيلام.

يستغرق طابور المهانة، كما أسميته تمهيدًا لتدوينه

بدفتري، حوالي ساعة كل يوم، بعده يحين موعد الإفطار، ملعقة عسل أسود وربع رغيف جاف لا يمكن قضمه حتى إن البعض كان يستخدمه في المشاجرات بديلًا عن الحجارة. بعدها نخرج كقطيع مضطرب إلى الجبل لقضاء حاجتنا أمام العساكر التي تمتطي الخيول وتدور حولنا، يسمحون لنا بدقيقة واحدة ونحن نجلس القرفصاء أمام بعضنا بعضًا، نصطف في طوابير صغيرة من عشرة مساجين لتكسير الأحجار من الجبل القريب، أكثر من أربع ساعات تحت شمس لعينة لا ترحم، في نهايتها يتعين علينا تسليم مقطوعية يومية مكونة من خمسة مقاطف ممتلئة عن آخرها. أمس فشلت في حمل حجر كبير بعد ما نجحت في قطعه بالكاد، ولسوء حظي، أو لحسنه لست أدري، كان اللواء همَّت يمر فوق حصانه للتفتيش علينا، لمحني وأنا أحاول رفع الحجر، نادى على الصول مطاوع، وأمره بوضع الحجر فوق ظهري لأزحف به، رقدت على بطني مثل تمساح عجوز لا يقوى على العودة للنهر وراح يلهث في مكانه، تمددت كجذع شجرة ميت فركلني اللواء همّت بحذائه الميري عدة مرات في جانبي الأيمن، أحسست بآلام شديدة وتقيأت دمًا، فنقلوني بعد مشاورات للعيادة، فشعرت بأن الله رضي عني وأدخلني فسيح جناته بعد عذابٍ أليم.

«انكتب لك عمر جديد».

جملة يقولها كل الصولات بالعيادة للضيوف المستجدين، تلمع في عيونهم نظرات الشفقة وهم يرددونها، عشرات الجثث تدخل وتخرج في اليوم ذاته، يُكتب بشأنها جميعًا تقرير طبي لا يتغير «هبوط حاد بالدورة الدموية»، مع أن صاحبها نال تعذيبًا شديدًا، ربما أنا أحد المحظوظين الذين عادوا من جهنم وهم على قيد الحياة.

العيادة ليست بالمعنى الذي أعرفه، ولا علاقة لها بالطب، حتى البيطري منه، هي حجرة كبيرة بجدران بيضاء، كانت في الأصل دورة مياه وأُعيد تأهيلها لتصبح محطة ترانزيت قبل الانتقال للرفيق الأعلى، هنا لا نتلقى علاجًا أو نأخذ دواءً، فقط ننام على سرير معدني ولا يتم ضربنا مرة أخرى باعتبارنا حصلنا على حصتنا كاملة من التعذيب قبل وصولنا إلى هنا، مع ذلك ففي العيادة مزية عظيمة، يمكنني قراءة الجرائد خلسة أثناء قضاء حاجتي، يترك أحدهم كل يوم جريدة مطوية بصندوق السيفون، وكل ما عليَّ فعله الوقوف على القاعدة والتقاطها، ثم الجلوس والقراءة وإعادتها لمكانها كأننا في مكتبة ونستعير كتبًا، بعدها أعود إلى العيادة لأبقى في فراشي صامتًا ساكنًا.

انفتح الباب علينا في غير موعده، وصاح الصول مطاوع مناديًا عشرين سجينًا تباعًا:

- إفراج يا كافر منك له.

ناديت من سريري بصوتٍ عالٍ بعد ما جلست كزاوية قائمة:

- وأنا يا حضرة الصول؟

بصق مطاوع نحوي، وأولاني ظهره منشغلًا بتوديع كل مفرج عنه بالضرب على قفاه أثناء خروجه من العنبر مع أنهم مرضى بالفعل، لكنها فيما يبدو مكافأة نهاية الخدمة، تمنيتها.. لكني لم أنلها بعد.

***

لم يسبق أن رأيت عزرائيل، ولا أظن أن غيري رآه وحكى لنا ما شاهده، صورته في ذهني منذ الطفولة أنه صعب المنظر، قاسي الملامح، يحمل منجله ويطوح به يمينًا ويسارًا بمقدار ليحصد الأرواح وفق أجلٍ مكتوب، لم تتغير هيئته في ذهني عندما كبرت، وظلت صورته على حالها في أعماقي، لكني هنا أستطيع رؤيته بوضوح، عندما يمثل الموت وخطره وكآبته، ولوعة الفراق والمجهول الذي يحمله في كل مرة يقترب فيها منّا.

تقلبت في فراشي مفتشًا عن أهداب النوم كي أتشبث بها، وأرتاح لبضع ساعات بعد أيام طويلة من الأرق، وكوابيس سخيفة أرى فيها أنهم يشقُّونني نصفين ويُلقون بكل نصفٍ في مكان، وبعدها تسير جنازتان، بكل واحدة نعش يحمل نصفي، أُدفن في مقبرتين وأُحاسب مرتين، في الأولى أذهب إلى النار، وفي الثانية أنتظر دوري لدخول الجنة، لكنه لا يأتي أبدًا، وأستيقظ كل مرة قبل دخولها.

- اصحى يا دكتور فهمي.. زيارة خصوصي.

لمست ودًّا غير مألوف بنبرة صوت الصول مطاوع وهو يُخاطبني بلقبي العلمي لأول مرة، رأيت نظرة حانية لم أعتدها من قبل، تبخَّر الركل والسباب والبصق وحلَّت الرحمة محلهم وتسيَّدت ملامحه حتى بدا ملاكًا وهو يقول:

- المدام والأولاد منورين السجن يا جناب الدكتور.

تلفَّت ورائي معتقدًا أنه يحادث غيري، لكنه جذبني برفقٍ واصطحبني لعنبرٍ جديدٍ للزيارة، مكان فسيح ربما كان إسطبلًا للخيل، عندما تدخله تفزع من تداخل الأصوات، الكل يحاول تلخيص مشاعره في كلمات قليلة حتى لا تسبقه دقائق الزيارة ويُعلن الصول خميس بصوته الخشن انتهاء موعدها. تلك الزيارة هي الثانية التي أحصل عليها بصورةٍ

استثنائية، زارني أبي وأمي في المرة الأولى لمدة ربع الساعة لم تتوقف أمي خلالها عن البكاء، واكتفى أبي بالصمت بعد سؤال وحيد عن الصحة. اليوم وجدت أمامي سارة وابنتي وابني، الذي صار عمره حوالي خمس سنوات ونصف السنة وأراه لأول مرة، احتضنته لمدة خمس دقائق متصلة وأبقيته بعدها بين ذراعَي، لكنه ظل متوجسًا متخشبًا فعذرته. صافحتني سارة بملامسة باردة، تجاهلتها وأنفقت غالبية وقت الزيارة في ملاطفة ابني وابنتي، التي ابتعدت عني ولم أفهم سببًا لنفورها.

اقترب منَّا الصول مطاوع وهمس في أذني بامتداد الزيارة لنصف الساعة، ولمَّا برقت عيناي ربت كتفي وابتسم في وداعة وانصرف. ساورتني شكوك غريبة وهواجس مريبة، وخُيل لي أن حكمًا جديدًا صدر بإعدامي وأن التنفيذ قريب؛ لذلك يعاملونني بلطف باعتبار أنها أيامي الأخيرة. لكن سارة نطقت بالفرنسية:

- أنا دفعت له خمسين جنيه.

أطارت سارة كل شكوكي بكلماتها، فابتسمت في بلاهة، خمسون جنيهًا من الممكن أن نؤجِّر بها شقة صغيرة في وسط القاهرة لمدة عام، لا بد أن الصول مطاوع سيستقيل

اليوم من عمله بعد ما صار دخله أكبر من مدير السجن.

- إنت بتحارب إسرائيل هنا؟

باغتني ابني الصغير بسؤالٍ لم أجد له جوابًا، وفشلت الابتسامة البلهاء التي وضعتها على شفتَيّ في الرد عليه، تداركت سارة الأمر شارحة للطفل بالفرنسية أن كل الموجودين هنا كانوا يحاربون إسرائيل وفرنسا أيضًا، أشارت نحوي باعتباري قائد كل الجنود الذين يراهم بالعنبر، ولكني الآن أُعاقب بسبب الحرب لأنها عمل كريه.

رغم كلامها بدا على ابني حماس غريب، وطلب أن يرى الجنود الإسرائيليين الذين كنَّا نحاربهم، ارتبكت سارة، بينما ظللت محتفظًا بابتسامتي البلهاء غير مصدق ما سمعته منها، لا أفهم لماذا حشت رأس الصبي بخرافات حتى أبدو في نظره مجرم حرب لدولة تحمل أمه جنسيتها، وكان أولَى بها أن تخبره بحقيقة كوني مظلومًا ليعرف معنى العدل مبكرًا.

علا صوتي معاتبًا سارة فأخرجت أسوأ ما فيها، ممَّا دعا الصول مطاوع للاقتراب منَّا محاولًا تهدئتنا، لكن الحيرة تسيدت ملامحه بعد ما دخلت الكلمات الفرنسية أذنه وخرجت بلا معنى. تمالكت أعصابي قدر الممكن، وشرحت له بابتسامة لزجة أن ابني يظن أننا نحارب إسرائيل هنا،

ضحكت ليبدو الأمر تافهًا وينصرف، إلا أن الصول مطاوع فاجأنا منافسًا ابني في حماسه عندما هتف:

- تعالى معايا يا حبيبي، ولاد الكلب الصهاينة كلهم هنا، تعالى العب معاهم كورة واضربهم كمان لو تحب.

اصطحب مطاوع ابني إلى الفناء ليلعب مع المساجين وسط ذهول أمه وأخته، التفتُّ ناحية سارة وابنتي، أرجوهما ألا تتركاني.. تنتظراني.. يوم الخروج قادم.. لا أعرف متى وكيف، لكن كلي ثقة أنه قريب. لم ترد ابنتي، بدت في حالة خوفٍ ممّا حولها وترقرقت دموعها، بينما قالت سارة بوجهٍ صلدٍ وملامح جامدة كأنها إنسانة أخرى لا أعرفها:

- مستحيل يا فهمي، الوقت تأخر، اليوم جئنا لنودعك، سأعود لفرنسا بعد شهر، لكن هذه المرة للأبد، أنا لا أريد العيش في سجن كبير تسمونه مصر.

- سارة.. أنا أحبك ولن أعيش وحدي لو خرجت من هنا.. أرجوكي إبقي.

علا صوتها لأول مرة قائلة:

- لكن كولونيل ناصر لا يحبنا، وأنت تخيلت أنك تحبني، اخترتني بناءً على صورة في خيالك تمنيتها، صورة تراها

ولا تستطيع لمسها، صورة لست أنا صاحبتها.. أنا مجرد ظل يا فهمي، حتى في علاقتك معي كنت تناديني باسمها .. تُغمض عينيك وأنت في فراشي، وأنت تُقبلني، ولا تراني أبدًا. صدقني الظل لا صوت له ولا حيلة في الحركة، مجرد رد فعل لحظي، ولا يستطيع أن يتخذ الخطوة الأولى.

- أنا مستعد أسافر معاكم باريس بعد..

- ششششش.. أرجوك أنا لا قدرة عندي على الكلام والجدال مثل عائلتك، أنت لا تملك قرارك ولا تعرف مصيرك، أنا قررت السفر بعد تفكير طويل ولا عودة في قراري، وأنت حتى لو خرجت من هنا قد لا يسمحون لك بالسفر، صدقني هذا الحل أنسب لي ولك ولأولادنا قبلنا.

أدركت أنني مُسير لا مُخير، غادرت سارة بعد ما أتت على ما تبقى مني، رحلت وتركت لي صيغة اتفاق قانوني كي أُلقي عليها نظرة وأوقعها، والبديل اللجوء للسفارة الفرنسية في حال رفضي، جرت عيني على البنود فوجدت اتفاقًا يُنهي إنسانيتي ويحرق قلبي.

استغرق عنادي مع نفسي أسبوعًا، وقبل سفرها بيومٍ وقعت على ورقتها وسلمتها للقنصل الفرنسي الذي زارني بمكتب مأمور السجن لبضع دقائق، بدا مثل عزرائيل جاء في مهمة

محددة، قبض فيها روحي واختفى، توصلنا لصيغة تضمن لها فسخ عقد زواجنا المدني واحتفاظها بابنتنا الكبرى معها على أن تترك لي الولد الصغير بعد ما ألح أبي وأمي عليها لترك حفيديهما، فأمسكت العصا من المنتصف لتضمن موافقتي على سفرها، وتحصل على تأشيرة الخروج من مصر. إلى الآن أشعر بدوار كلما فكرت في الأمر، وكيف وقعت على تنازل لقطعة مني، عن ابنتي.. والاحتفاظ بأخرى لم أرتبط بها مثل الأولى، فكرت في أن سارة فعلت الشيء نفسه عندما تنازلت عن الولد واحتفظت بالبنت، صحيح أن الاتفاق يسمح لأي طرف برؤية مَن تنازل عنه في أي وقت، لكن بالبلد الذي يعيش فيه الطفل، وأنا سجين ولا أعرف متى أخرج، ولو خرجت هل سيسمحون لي بالسفر؟ بينما سارة يمكنها أن تركب طائرة وتأتي في أي وقت لترى ابننا.

أظن أنني ظُلمت في تلك الصفقة التي خسرت نصف روحي في اللحظة التي وقعت فيها عليها، ورُحت ألعن ضعفي وتخاذلي بعدد الثواني والدقائق كل يوم.

***

كانت لديَّ حياة وهوايات وعمل وزوجة وأولاد، كانت لديَّ وعود في الحياة صارت كلها ديون بالسجن، كنت أسأل أبي

صغيرًا عن الشياطين وهل يمكننا رؤيتهم؟ الآن تلقيت إجابة لم يقُلها أبي، الشياطين تعيش وتتكاثر وتتحرك بيننا وأمامنا كل يوم، فاق عددهم أعدادنا حتى صرنا أقلية لا يسمعها أحد.

منذ الجلسة الأولى لمحاكمتي قرأت اتهامي وإدانتي وعقابي معًا في عيني القاضي، لم يسمع دفاعي بعد ما أخفى أذنيه أسفل البيريه العسكري، وبملامح جامدة وعين تزدري كل ما تقع عليه ولا ترى الحقيقة كاملة نطق بإعدامي كما علمت مؤخرًا، ثم تعطف السيد الرئيس وخفَّف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، أخذني بقدرٍ من الرأفة وفقًا لمسببات القرار، مع أنني أستحق كل الشفقة والكثير من التعويض ومن قبلهما البراءة.

في الفترة الأخيرة ساءت صحتي، كل فترة يصيبني إمساك شديد يستمر لأيام، أعاني بعدها أسابيع أخرى في التعافي منه، ولا توجد أدوية مُلينة تُعينني على تخطي أزمتي، ولأن لا أحد سواي أُصيب بهذا الداء اللعين فلم يهتموا بعلاجي، حتى جاء يوم وكنت أحاول دون جدوى قضاء حاجتي خلف ستارة شبه ممزقة جالسًا القرفصاء حتى سمعت خرفشة، تلفَّت يميني فلمحت ثعبانًا صغيرًا يتلوى،

أدركت أنه خرج من فتحة البالوعة التي لا تجري فيها المياه، ولا بد أنه كان على بُعد مليمترات من مؤخرتي، مسَّني هلع ترجمه عقلي على هيئة عرق غزير غمر جسدي، وأصابني إسهال مريع أفرغت معه كل ما في بطني في ثوانٍ، قفزت مثل طائر بطريق فزع من مكاني متوجهًا إلى سريري وأنا ألملم سروالي وبنطلوني، وفي طريقي سألني زميل بالعنبر عن الشَّربة التي سهَّلت أموري بعد ما فاحت رائحة خرائي وعبأت المكان كله، فأجبته بصدقٍ وأنا ما زلت أرتعش:

- شَربة الحنش.

- شُفيتم يا دكتور.

قالها الصول مطاوع متجاوزًا دهشة زميلي من اسم الشَّربة، واقترب حتى جلس على حافة فراشي، تزحزح كثعبان حتى التصق بي وهو يبتسم بخبث:

- ممكن استشارة طبية؟

همس مطاوع هذه المرة بأدب جم لا يليق به، وتصنعه بمهارة حسدته عليها. أعلم أنه يظنني طبيبًا وتركته على اعتقاده طمعًا في رضاه، فهو إذا غضب صار وحشًا يستحيل ترويضه، اعتقدت أنه يشكو من أعراض بسيطة كآلام البطن

أو وجع بالمفاصل، وهي أمور صِرت بالخبرة بعد سنوات طويلة قضيتها بعيادة السجن على دراية بها ويسهل عليّ علاجها، حتى إنني كنت أكتب روشتات يومية لمساجين ونجحت في مداواتهم، لكن مطاوع فاجأني عندما همس بعجزه الجنسي، وتعاظمت دهشتي لمّا عرفت أنها زوجته الثانية، شابّة تصغره بعشرين عامًا على الأقل، لكنه يرقد بجوارها كشقيقها كل ليلة. حساسية الموضوع لم تسبب له حرجًا وزادت في الوقت ذاته من مساحة الجرأة عندي، سألته عن تفصيلات لا يُعلنها المرء حتى لطبيبه، عن بدايات العلاقة الحميمية وتطوراتها ونهاياتها، ظل يُدهشني وهو يُجيب بصراحة مذهلة متشوقًا لعلاج من المفترض أن أصفه في نهاية كلامه، بدا كأنه يتخلص من هموم ناءت بها كتفاه ولم يعُد قادرًا على مواصلة الحياة وهو يحملها من البيت للسجن ويعود بها كما هي وربما تزيد كل يوم.

ظللت أتأمل الصول المهيب وهو ينهار أمامي ويذوب كشمعة، لحظة ضعف لم أتوقعها لرجل لا يعرف إلا القسوة، لم يتبدل أو يتغير إلا عندما غابت ذكورته، رغم ظن بعضنا في الأسابيع الأولى بالسجن أن الصول مطاوع حتمًا سوف يغتصب أحدنا من فرط بذاءته وتحرشه بأجسادنا عندما يأمروننا بخلع ملابسنا.

كتبت له بعض المقويات التي كنَّا نُعطيها لجدي في أواخر أيامه عن طريق الحقن، قُلت لنفسي لو لم ينصلح حاله بها فعلى الأقل لن يسوء، ومضت في رأسي فكرة، فاقتربت منه وهمست له بالتوقف عن تعذيب المعتقلين سواء بالركل أو الجلد، رفعت نبرة صوتي قليلًا وأنا أبتسم بخبث قائلًا:

- وفر طاقتك.

بعد أسبوع واحد لمست تغيرًا في طريقته مع العنبر كله، صرنا نسهر حتى منتصف الليل والنور مضاء، تحسنت نوعية الطعام وعاد عمود الأكل للدخول بعد منعه لأكثر من سنة، ولم يعُد مطاوع يفتشه بصرامة، ورأينا اللحم مرة ثانية بعد سنواتٍ عجاف، لكن راحت منه رائحة جدتي أنيسة ولم أفهم السبب، سُمح لنا بمزيد من الجرائد والمجلات، وظهرت علب السجائر علانية لأول مرة، أدركت أنه نجح في علاقته مع زوجته، قرأتها على قسمات وجهه المستريحة الراضية، استعاد الصول هيبته، لكنَّ كبرياءه حرضته على ألا يشكرني، لا بأس المهم أنني في أمان، تجرأت وطلبت منه إجراء مكالمة هاتفية من تليفون السجن العمومي، وهو طلب كنَّا نعتبره من المستحيلات.

دقَّ قلبي أعلى من دقات الهاتف على الناحية الأخرى،

عندما أدرت القرص واتصلت ببيتنا في جاردن سيتي، لم أرَها منذ سنوات ولم أسمع صوتها، ولا أحد يُطمئنني عليها بصورةٍ تريح قلبي، جاء صوتها عبر الأثير واهنًا، هتفت من فرحتي بسماعه قائلًا:

- وحشتيني يا نينة أنيسة.. وحشتيني أوي.

- إنت مين يا حبيبي؟

- أنا فهمي يا نينة.

- النمرة غلط يا بني.

اسودّت الدنيا أمام عيني عندما وضعت أنيسة السماعة بهدوء، شعرت بخشونة في روحي وثقل في رأسي، انتابني إحساس غريب بأنني مثل طائر شريد يبحث عن عشه ولا يجده وحتمًا سيلقى مصرعه، بعد ما سمعت صوت بنادق الصيادين وهي تُعمر استعدادًا للإطلاق.

***

نطقت الشهادتين وأنا مغمض العينين، كنت أرتجف بشدة محتضنًا صدري بذراعي، في حين تصطك ركبتاي وأسمع طرقعة عظامي، طوال حياتي لا أتحمل المياه الباردة شتاءً ولا حتى صيفًا، اعتدت على الماء الدافئ، الآن أزمة كل

شتاء، وبعد ثلاثة وستين يومًا هذه المرة لم تلمس قطرة ماء جسدي وأوشكت على التعفن حيًّا، اضطررت للوقوف أسفل فتحة صنبور معوجة تطل على رأسي من سقفٍ عالٍ مليءٍ بتجاويف تصلح لإيواء فئران، رفعت عيني صوب فتحة الماء أستجديها، بدأت تئن بقطرات لزجة باردة أحيانًا، وفجأة تندفع كشلالٍ ربما استجابة لدعائي، عادت تبطئ حتى مرَّت دقيقة وكأنها ثانية، وسمعت مناديًا يُنادي عليَّ بأقذع الألفاظ لتأخري في الاستحمام، خرجت عاريًا أبحث عن لباسي لأستر نفسي، محتفظًا بابتسامة رضا على النعمة التي أنا فيها، بعد ما كاد جسدي يتيبس مع الوقت ويتحول إلى قطعة عفنة من خشب بسبب حرماني من الماء منذ بداية الشتاء. استكملت تجفيف جسدي بالعنبر، تشممت ملابس السجن وتأففت، لم أغيرها منذ شهور ولم أعد أتذكر لونها، كادت دمعة تفر من عيني رغمًا عني وأنا أحشر جسدي فيها، دهستني الحياة بكل قسوتها مثل قطار عبرت بالخطأ قضبانه وقت مروره، ربما لم يرَني سائقه، وربما رآني ولم يستطع التوقف، لكن بداخلي إحساس يتعاظم كل يوم بأنه دهسني عمدًا، وزاد من سرعته لمَّا لمحني وتلذذ بتناثر أشلائي بعدها.

دخل الصول مطاوع العنبر بغير ضوضاء حاملًا كوبين من الشاي، أشعل سيجارة ثم بدون مقدمات سألني عن تهمتي،

رغم مرور أعوام طويلة على وجودي هنا، ولم أعُد أعرف عددها سوى من ملامح ولدي الذي رأيته مؤخرًا.

ضحكت وأجبته:

- تهمتي قلب نظام الحكم، مع أني والله يا حضرة الصول تمنيت في سري استعداله فقط لكن...

قاطعني مطاوع بجديةٍ وبنبرة ناصحٍ أمين:

- طب يا سي فهمي ما بلاش تعدله ولا تقلبه،كنت تخليك في حالك وفي عيادتك وتعالج الناس، وتربط الحمار مطرح ما يعوز صاحبه.

- ما هي المشكلة إني صاحبه يا صول مطاوع، أنا واللي قاعد هناك، واللي عينه راحت، واللي انطرش من الضرب على صداغه، واللي بيعملها على نفسه كل ليلة من الخوف، واللي ماتوا منتا.. كلنا أصحاب الحمار.

سكت الصول وكأنه يقلب فكرة ما في رأسه، وبعدها سألني بدهشةٍ فاقت في كبرها طول أذنيه:

- أومال الحمار يبقى مين يا سي فهمي؟

سادت لحظات من الصمت المنطوي على ضحكات

مكتومة، حتى انفجرت إحداها رغمًا عني، وجلجلت أخريات هنا وهناك، وسرعان ما ضج العنبر كله بالضحك. ظل مطاوع يقاوم لفترة حتى انهارت شفتيه الغليظتين وانفرجتا عن صفَّي أسنان كبيرة، فبدا مبتسمًا رغمًا عنه.

***

«تفتح الإذاعات الأجنبية تسمع إن مصر فيها مجاعة.. هو إنتو جوعتوا؟ إحنا كل اللي عملناه حددنا الكمية، بدل ما نجيب لكم لحمة سبعة أيام

قُلنا نخليها أربعة، بتقولوا الأسعار غالية قُلنا لكم تقللوا الشاي والبُن والحاجات التانية وتستحملوا شوية، إنتم بتاكلوا لحمة من الصين والسودان والصومال والأرجنتين والإكوادور وأنا ماعنديش فلوس وأخدت من

جيوبكم علشان أبني لكم طرق وكباري ومدارس ومصانع ومستشفيات، وبعدين لقيت إنكم تعبتم وما استحملتوش، طيب يعني أجيب لكم منين؟ أروح للحاج عبد الناصر حسين أقوله هات ألف وخمسميت مليون؟ معندوش فلوس، وما حيلتوش حاجة، فأنا مضطر أجيب الفلوس

منكم إنتم ومن جيوبكم، معنديش حلول تانية»

شكري تاج الدين - 17

بعد مائة وسبعين يومًا في صحراء العباسية نسيت اللون الأخضر ومشهد جريان الماء ورائحة الزهور، زرعت عود نعناع وسقيته حتى نبت وأينع، واليوم جاءت جرادة وأكلته، بعدها ظهرت حرباء التهمت الجرادة، ثم حلَّق صقر في السماء وانقضَّ على الحرباء، فانتزعت بندقية حارسي بحركة مباغتة، وأطلقت صوبه رصاصة فأسقطته ميتًا قبل صعوده للسماء بفريسته، ومن بعدها شعرت بأنني سيد الموقف، وأن لا خشية عليَّ هنا حتى من الموت، وتأكدت أنني سأنول كل ما أريد بالصبر.

قرب الظهيرة أتى الضبع وأبلغني بدعوة الوالي على الغداء، تحججت بوعكة صحية أصابتني وأفقدتني قدرتي على مغادرة خيمتي، استلقيت على فراشي أفكر في ترتيبات القدر ومفاجآته التي تأتي في اللحظات الأخيرة، وضعت خطة بديلة وأخرى للانسحاب في حال فشل الثانية، كل ما تمنيته أن تتفق التوقيتات مع التوقعات، إذا ما نفذت أمينة ما قُلته لها حرفيًا ستفلح الخطة ولا شك، اليوزباشي أحمد الكومي الذي ستذهب إليه ينتمي للجماعة ولم يكشفه الأحرار بعد، وهو من أكفأ ضباط البحث الجنائي ولا تنقصه

الجرأة، والأهم أنه يدين لي بالكثير، ثم إنني أعفيته من الحرج وعقدت معه صفقة رابحة كي لا ينكشف أمره أمام رؤسائه، قدمت له رأس عبد الكبير الوالي، وبالغت في خطورته بحيازته لمحطة لاسلكي بعد ما أهديت الوالي محطة راديو حبشي القديمة بأكملها، وتقبلها مني عبد الكبير شاكرًا طامعًا في بيعها بجنيهات كثيرة، ولا يدرك أنها قنبلة ستنفجر في وجهه عندما يضبطونه بها متلبسًا، ووقتها ستتضاعف عقوبته، أو على أقل تقدير سيقضي عشرين عامًا في السجن لو أمد الله في عمره.

أغلقت عيني واستسلمت لغفوةٍ قصيرةٍ لكنها طالت حتى المغرب، بدأت أتوتر منذ السابعة مساءً حتى منتصف الليل موعد التنفيذ، الدقائق مرَّت ببطء. جاء الموعد المحدد ولم يحدث شيء، وعندما انقسمت الساعة إلى شطرين متساويين سمعت دويًا هائلًا أعقبه دفعات متتالية من رصاص بنادق آلية، لم تتوقف على مدار ربع الساعة أو يزيد، اختبأت أسفل فراشي وفقًا للخطة حتى لا تُصيبني رصاصة طائشة أو يقبض عليّ ضابط آخر بخلاف اليوزباشي الكومي. بعد ربع ساعة أخرى تبادل فيها حارسي إطلاق النيران مع قوات الشرطة سمعت آهات عالية ثم ساد السكون، أيقنت أنه لقي مصرعه، لكني لم أُبارح مكاني حتى انفتح باب

الخيمة، وسمعت صوت الضبع وآخرين ينادون عليَّ، ثم علا صوت يسب فيَّ ويتهمني بالخيانة، أعقبه دفعات رصاص من بندقية آلية وصراخ وعويل، وبعدها ساد الصمت مرة ثانية، حتى قطعه صوت أعرفه وكاد قلبي يرقص طربًا له:

- يا حضرة البكباشي كله تمام والوالي وقع في إيدينا هو وأغلب صبيانه ومحطة اللاسلكي كمان.

خرجت من أسفل فراشي بصعوبة وساعدني اليوزباشي الكومي حتى نهضت، تعانقنا وشد على يدي، سلمني بعض المال وتذكرة سفري للخارج التي طلبتها منه، ودَّعني بتحية عسكرية مؤكدًا أن الطريق الشرقي بات آمنًا ويمكنني المغادرة، سألته عن الضباط الذين معه فأخبرني بأن من بينهم ثلاثة تابعين للجماعة، ومثلهم من الجنود يدينون لنا بالولاء، أرسل بصحبتي اثنين منهم لحراستي من الذئاب المنتشرة بالمنطقة الصحراوية؛ لأننا سنقطع المسافة سيرًا على الأقدام. مع أول خيط نور وصلت إلى مشارف العباسية، بدَّلت ملابسي وأحرقت القديمة وودَّعت المجندين اللذين أدّيا لي تحية عسكرية، أعطيت لكلٍّ منهما خمسة جنيهات كمكافأة على إخلاصهما، وألقيت بنفسي في أقرب سيارة أجرة. نزلت في الشارع التالي للبيت خوفًا من وجود أي

مخبرين أو ضباط، ثم ترجَّلت المسافة عائدًا، قفزت من فوق السور بعد ما وجدت باب الحديقة القبلية مغلقًا، تسلقت الشجرة وهبطت من منتصفها وتسحبت حتى وقفت أسفل غرفة فهمي، بحثت عن حجر صغير وقذفتها به، أخرجت ورقة تركتها أمام الباب وذهبت إلى بيت الأمة أنتظر.. لكنه لم يأتِ.

***

كتلميذٍ خائبٍ جلست أمام أبي، لأول مرة يقسو عليَّ ويُحملني ما لاطاقة لي به، ليس ذنبي أنهم قبضوا على فهمي بسبب هروبي، جادلته بأنه لو لم يُقبض عليه لكنت أنا ببساطة مكانه، فهل كان سيلومني أيضًا؟ حمَّلني أبي تبعات قرار تحديد ملكيته الزراعية، فجادلته بأنني لو كنت في الحكم لفعلت ما فعلوه، ألقى بورقته الأخيرة، صدر قرار بتأميم مصنع محمود باشا سعادة والد أمينة وعينوه موظفًا به، لم يحتمل الرجل وغادر مصر إلى سوريا ليبدأ من جديد، وأبي ينفق الآن على أمينة وأطفالي الذين يعيشون في سراي سعادة كالفقراء، هززت رأسي في ضيق، عائلة سعادة تجار لن تعوزهم الحيلة لكن أبي موظف، حاولت طمأنته أن المال موجود ووفير وسأُدبر مبلغًا كبيرًا خلال ساعات،

ومؤكد أن فهمي سيخرج عندما يعرفون أنني غادرت مصر نهائيًّا، ثم قلت في حِدَّة كتمتها لسنوات:

- طول عمرك بتصرف علينا أنا وفهمي، طلبت منَّا نشتغل في الحكومة ولا نشغل نفسنا بمصاريف الدنيا، قُلت لنا المهم تسيبوا أثر والفلوس كتيرة وتفيض فوافقنا، كنت عاوز أشتغل بالتجارة لكن حضرتك رفضت، صحيح وفرت لنا كل حاجة لكن ما ينفعش تمِن علينا بيها، افترض إني ما دخلتش جماعة الإخوان وكنت لسة ظابط في البوليس، تفتكر مرتبي كان يكفيني أصرف على ست أطفال وأمهم؟

هزَّ أبي منشة الذباب عدة مرات في عصبية حول وجهه، لم يُجب عن سؤالي بطبيعة الحال، لكنه قال:

- وهو إنت كده سايب أثر؟ حضرتك هربان من الثوار مع المطاريد، وأخوك مرمي في السجن بسببك.

- لو كنَّا في الحكم كان زمان أخويا فهمي وزير عدل وأنا نائب رئيس الجمهورية، المسألة مسألة وقت فقط، وهُمَّا سبقونا بخطوة. لكن في الآخر كل شيء يُنال بالصبر.

تركت أبي يفكر في كلامي وجلست على مكتب فهمي، أخرجت ورقة وكتبت بها عنوان حبشي حتى لا أستعمل

الهاتف، فربما يكون مراقبًا بعد القبض على أخي. أرسلت السفرجي إلى حي السكاكيني وطلبت منه ألا يعود إلا وحبشي بصحبته، الوقت لم يعُد في صالحي ولا بد من مغادرة البيت قبل نهار الغد.

بعد ساعتين أتي حبشي مفزوعًا، لا يصدق أنني هربت من الجبل، خاصة أن نبأ ضبط عبد الكبير الوالي بدأ يتسرب وأذاعته الإذاعة المصرية عدة مرات، سألته عن التفاصيل فأخبرني بأن المعلومات قليلة ووزارة الداخلية سوف تُصدر بيانًا مفصلًا في الغد عن العملية التي وصفتها بأكبر ضربة لوكر الجريمة بشرق العاصمة، ثم همس:

- بيقولوا ضبطوا عنده محطة لاسلكي بموجة قصيرة، يظهر ابن الكلب ده كان جاسوس للإنجليز والحكومة بتاعتنا مش دريانة.

تظاهرت بالدهشة، وطلبت منه الذهاب إلى المحمدي بميدان الأوبرا لاستلام جواز سفري بالصورة الجديدة، أخبرت حبشي بكلمة سر مُتفق عليها مع المحمدي، بعد ما رتبت معه من خلال اليوزباشي الكومي كي يُعد لي جواز سفر عند الطلب وينتظر فقط وضع الصورة عليه.

هرش حبشي مقدمة رأسه وتساءل وهو يغمض عينه كأنه

يعتصر ذاكرته:

- موش ده اللي سعادتك بعتني له علشان يعمل لمعاليك بطاقة عن طريق أحمد بيه الكومي برضه؟

- أيوة هو وبطَّل غلبة وكُتر كلام.. مفيش وقت.

أنقدت حبشي مائة جنيه وصورة لي بلحية مدببة تركتها على حالها، وأكدت عليه أن يتسلم جواز السفر قبل حلول المساء. قلب حبشي المائة جنيه في يده وقال بتعجب:

- وهو المحمدي أفندي يلحق يعمل باسبور بالصورة الجديدة في يوم؟

- وحياتك ويخلصه كله في ساعتين.. ده ابن أبالسة.

خرج حبشي بعد ما التهم ثمرة يوسفي في طريقه، وجدت قشرتها مقطعة ومبعثرة في خط متعرج يمتد من بيت الأمة حتى باب الحديقة. قضيت بقية يومي مع أمي ونينة أنيسة اللتين لم تكُفَّا عن البكاء لغياب فهمي، لم أفلح في تطييب خاطرهما أو طمأنتهما، ولم تعوض عودتي المفاجئة فراق فهمي لهما، أخفيت عنهما نية هروبي خلال ساعات لمرة ثانية، وبعد المغرب تسللت من الحديقة في طريقي لسراي سعادة، سلكت طريقًا مختصرة ودخلت من الباب الخلفي،

كشف وصولي نباح كلبها، راح يهز ذيله في حبور، لمحتني من شرفتها، وسبقها أولادي، احتضنوني وأسقطوني أرضًا، كانوا يظنون أنني غبت في سفرة طويلة بالخارج فطالت فترة الترحيب بي.

لأول مرة منذ عشائي الأخير مع الرئيس أتخلى عن حذري وأنسى مواعيدي، أمضيت معهم ساعات طويلة حتى تنبهت إلى موعدي مع حبشي، انتحيت جانبًا بأمينة، أبلغتها بأنني سأُغادر البلاد بعد الفجر مستقلًّا باخرة من الإسكندرية، ومنها إلى بيروت، وبعدها يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ظلت تنظر لي مشدوهة، وقبل أن تسألني أجبت عن السؤال الذي يدور برأسها:

- أول ما أستقر حبعت لك إنتي والولاد علشان تحصلوني، أنا قررت كل حاجة، حخرج من مصر بجواز سفر سواق لصاحب مصنع لبناني وبتأشيرة عمل هناك، وفي بيروت حطلع جواز سفر جديد باسم رشيد عبد القادر وحسافر على سويسرا، احفظي الاسم ده كويس لأننا غالبًا حنعيش بيه فترة طويلة.

ودعتني بدموع صامتة، لم تعُد أمينة التي أعرفها، غابت السيدة القانعة بفطرتها، الوديعة التي يمتزج فيها الحب

بالخضوع، تغير فيها كل شيءٍ حتى نظرة عينيها، لكن لا وقت عندي للمراجعة والمحايلة، أشعر بأنني في سباق مع عقارب الساعة، وهي رغم حركتها البطيئة أسرع مني بكثير.

أوصلني حبشي لميناء الإسكندرية، ظل يرتعش طوال الطريق بعد معرفتنا من راديو السيارة بصدور حكم غيابي بإعدامي ظهر أمس لاتهامي بقلب نظام الحكم، لحسن حظي لم يشتبه فينا رجال البوليس الحربي المتمركزين في أول الطريق الصحراوي رغم لحيتي المدببة أسفل ذقني، والمثيرة للضحك.

ودَّعت حبشي وصعدت إلى السفينة قبل موعدي بساعتين، حتى أستريح من عناء الركض واللهاث على مدار أربع وعشرين ساعة أو يزيد من غير نوم. قرب نهاية السلم المؤدي للبهو والقمرات وقف ضابط يفحص جوازات سفر المسافرين، يفصلني عنه ثلاثة أشخاص، اقتربت أكثر، تعرفت على ملامحه، هذا الضابط دفعتي في البوليس، لكني لا أتذكر اسمه ولا شك عندي في أنه سيتعرف عليَّ مثلما عرفته، تلفتُّ خلفي فوجدت الطابور طويلًا ولو غيرت مكاني ولمحني سأثير شكوكه، وربما يكون هناك غيره يلحظني ووقتها لا مفر من البدلة الحمراء إذا ما قبضوا عليَّ.

شعرت بقلبي يتقافز بين ضلوعي يكاد يكسرها ويتدحرج أمام عيني، النبضة تسبق النبضة، صدري يعلو ويهبط، صوت أنفاسي يصم أذني، صرت ألهث وأنا واقف مكاني، الباقي من الطابور شخص واحد، ختم الضابط جواز سفر المسافر الذي يتقدمني وحَلَّ دوري، التقت عيناي بالضابط، مد يده ليلتقط الجواز مني، لوهلةٍ تشبثت به وكأنني أتراجع عن سفري، بداخلي مشاعر متباينة مرتبكة حتى لانت يدي.

قلب الضابط صفحات جواز السفر وتأكد من مطابقة الصورة لملامحي، أعاد البصر للجواز وفحص التأشيرة، وضع إصبعه بين صفحتين بينما عيناه تبحثان عن شخصٍ آخر، لا شك عندي الآن أن أمري قد انكشف وأنه يطلب معاونة من زملائه، التفت الضابط نحوي وقال كلمات كثيرة لم أسمعها بوضوح، وبعدها خُيل لي أنه نطق اسمي الحقيقي، ظل الاسم يتردد كصدى صوت، أحسست بدوارٍ خفيفٍ وغشاوةٍ على عيني، وسمعت دقات قلبي أعلى من ناقوس السفينة هذه المرة، وعندما وقعت عيني على وجه الضابط للمرة الأخيرة راودني إحساس يقترب من اليقين بأنه يُخفي في نفسه أمرًا، لست أدري إن كانت بداخله رغبة في القبض عليّ أم لحظة شهامة عابرة لمساعدتي والتستر عليّ، لكني شعرت بأنه يكتم ابتسامة حام طيفها حول ملامحه، وفجأة وأدها

حتى حِرت في تفسيرها.

***

«والآن أيها السادة ما زلنا في انتظار انفراج الستار لنستمع لكوكب الشرق السيدة أم كلثوم وهي تشدو بأغنية جديدة بمناسبة عيد الثورة، إن هذا التصفيق المدوي الذي تسمعونه الآن ليس بسبب رفع الستار، وإنما لوصول القائد العام المشير عبد الحكيم عامر، وها هو يصافح السيد الرئيس والسيد زكريا محيي الدين ويجلس على يمين الرئيس جمال عبد الناصر، لحظات قصيرة نحسبها طويلة قبل أن ينفرج الستار عن السيدة أم كلثوم التي ستشدو الليلة بأحدث ألحان الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب، ها هو الستار يهتز وينفرج، وربما لا تسمعوني جيدًا من دوي التصفيق»

أمينة سعادة - 8

لم أرَ يوما جميلًا في الجنة كما يسمونها، صادفني وجه شكري منذ لفحت النسائم الباردة وجهي هابطة سلم الطائرة إلى أرض مطار جنيف بعد ما قرر تحديد إقامتي معه هنا، سافرت مضطرة حتى لا يبتعد أطفالي عن أبيهم، وخوفًا من أن تسوء أحوالنا في مصر أكثر خاصة بعد هجرة أبي وأمي، ووضع فهمي في المعتقل ومصادرة غالبية أملاك والد شكري، عدا سراي جاردن سيتي التي سمحوا له بالعيش فيها مع مرتب شهري خمسين جنيهًا فقط.

اكتشفت بعد أيام قليلة أنني أعيش في بلد أشبه ببطاقة بريد ملونة، صماء بلا روح، لوحة رائعة لكنها جامدة، أفتقد متعة الخطأ ولذة التجربة والتمرد على القيود، الحياة منضبطة كالساعة التي يصنعونها، يومي يتكرر بصورة نمطية أصابتني بالبرود، وبعد فترة قصيرة أصبحت مجرد ترس في حياة فارغة، ربما لن يصدقني أحد إذا قلت بثقة إنني أستطيع تلخيص بضع سنوات هنا في خمس دقائق فقط. أصحو كل يوم في التاسعة لأتناول إفطاري متأخرة عن المدينة كلها، أتنزه على ضفاف بحيرة ليمان، أعبر كوبري صغيرًا لأتسكع على محلات الزهور والكرواسون، ألعب

اليانصيب وأتناول قهوتي الأولى على مقهى صغير يرفع علمًا عراقيًا فوق واجهته، فألتقط بعض الكلمات العربية التي تشتاق لها أذني، أدخل بعدها متجرًا ضخمًا بالقرب منه، أمر على طوابقه السبعة كأنني أطوف به كل يوم، لا أشتري شيئًا يُذكر، أنتظر موسم التخفيضات كما نصحتني بائعة تونسية تعمل هناك، أصعد الطابق السابع لتناول قهوتي الثانية في تراس واسع يطل على مدينة جنيف القديمة، بعدها أعود بالتروموای البرتقالي من باب التسلية، أتناول طعام الغداء بمفردي أو مع أولادي إذا كنّا في فترة الإجازة الصيفية التي لا تزيد على شهرين، وبعد السادسة مساءً يغمرني شعور قوي بأن هناك رجلًا يحمل مفتاح المدينة، يُحكم إغلاق أبوابها لينام السكان حتى صباح اليوم التالي.

تغير حال شكري هنا عن القاهرة، لا يزوره أحد في بيتنا، ولا نشاط حقيقي له بمدينة جنيف، رغم امتلاكه مكتبًا صغيرًا من المفترض أنه لأعمال المحاماة لكنه لا يباشرها على الإطلاق، كل يومين أو ثلاثة يستقل القطار إلى مقاطعة لوجانو أقصى الجنوب بالقرب من الحدود الإيطالية، ليلتقي بقيادات الجماعة كما أخبرني.

أيام الجمعة من كل أسبوع يختفي طوال النهار، حتى

اكتشفت بالصدفة أثناء عبثي بمحرك الراديو أنه يذيع بيانات من إذاعة مصر الحرة عقب الصلاة مباشرة، عرفته من صوته والبحة التي لم يستطع إخفاءها رغم محاولته التغلب عليها والتظاهر بأنه من أهل الشام، غلبني الفضول عن حقائب المال التي يأتي بها كل شهر كي نُنفق منها بلا حساب، شكري منذ بلغ الثالثة والثلاثين من عمره لا يعمل ولا يكسب قرشًا، حتى ثروة أبيه صادرتها الحكومة وأنفقتها فيما يبدو على رواتب موظفيها. لم أكن مرتاحة للمال السائب الذي لا أعرف له مصدرًا، لكنه يومها رد بكلمات زادت من فضولي ولم تُرحني، قال:

- التجارة يا أمينة.. تسعة أعشار الرزق في التجارة.

مع الوقت تبخر شكري ولم يتبقَّ منه إلا صورة كبيرة على جدار غرفة الاستقبال الرئيسية التي أجلس بها كل يوم لأشاهد التلفزيون أو أستمع للموسيقى، وبعد فترة أجريت تعديلات في الغرفة فأوليت شكري ظهري ولم أعُد أراه. عشت في منزل ريفي يبعد خمس دقائق فقط عن قلب المدينة، كوخ ضخم من الخشب يحوي ثماني غرف، ربما كانا كوخين وضمهما شكري لبعضهما، فلا يوجد بالمنطقة بيت كبير مثل بيتنا، مازحت شكري في مرة أننا نعيش حلم أخيه

فهمي، لكنه لم يُعلق ولم يبتسم. بعد أسبوعين من وصولي ألحق شكري أولادنا بمدرسة روز الداخلية، قال إنها الأفضل على مستوى العالم، في البداية تذمرت وأعلنت رفضي، ثم لانت مقاومتي حتى ضعفت، ثم اكتشفت أنني تخففت من أحمالي وبدأت أستعيد طاقتي لكنني لم أعرف فيمَ أصرفها. ظل حالي على هذه الوتيرة، مجرد ترس في آلة كبيرة لا لزوم له، شعرت مع الوقت بأن أولادي يبتعدون عني وبعضهم لم يعُد يتحدث بالعربية، ولمَّا شكوت هواجسي لشكري داعبني واحتضنني ولمعت عيناه حتى قرأت فيهما رغبته في إنجاب طفل آخر، فارتعدت مفاصلي ثم تخشبت. لكن بعد شهور كبر بطني بثمرةٍ جديدةٍ وأوشكت على طرحها، وتسرب شكري من حياتي بالتدريج وبعدها تبخر، ابتلعته شئون الجماعة وتاه في دهاليز السياسة، راح يردد كلمات الأستاذ البنا ويعيد صياغتها في كلمات قصيرة، يقولها بحماس كأنه يهتف في مظاهرة: «الجماعة دعوة سلفية، وحقيقة سُنِّية، ورِفاقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، وشركة اقتصادية، ومؤسسة اجتماعية»، وكلما سمعت الكلمات ضحكت، وتذكرت بائع الروبابيكيا الذي كان يمر أمام بيتنا بعد الثورة صائحًا: «نشتري كل حاجة قديمة بجنيه».

إلى يومنا هذا تراود شكري أحلام الوثوب على حكم مصر بعد سقوط نظام عبد الناصر، وفي المرات القليلة التي ألتقيه فيها كان يؤكد أن سقوط النظام بات وشيكًا وأن المسألة مسألة وقت، سمعتها بعد تأميم القناة، وأثناء حرب السويس، وبعد فشل الوحدة مع سوريا، وفي العام التالي لمَّا بدأت حربنا مع اليمن، وفي كل مرة يزداد عبد الناصر قوة وتترسخ أقدامه في مصر أكثر مثل ملوك الفراعنة، بينما لا يكف شكري عن إذاعة بياناته عبر إذاعة مصر الحرة للتنديد بالديكتاتور كما يُسميه، والإعلان عن قرب شروق شمس النور والحرية، مع أن كل ما نحن فيه يؤكد أنها مراسم الغروب، كما كان يصف فهمي كل شيءٍ يراه بعد الثورة، وربما قبلها بقليل.

***

يغمرني شعور بأنني مثل نبتة اقتُلعت من جذورها وزُرعت في أرض صلبة، تربة لا تناسبها، تمتصها لتذبل كل يوم، تربة قاسية لا تسمح إلا بموت بطيء، محملة بذنوب كثيرة أريد إعلانها على الملأ لأتطهر منها. الآن أرقص رقصة تانجو أخيرة على أنغام صفير الهواء المتسرب من النوافذ ودقات الرياح على الأبواب، أنتظر مَن لن يأتي، ويتجدد شغفي كل

يوم ليتراكم الإحباط بداخلي حتى امتلأت.

عشت ظلًّا لرجل مغامر طوال الوقت، هو مركز الكون كله، من هنا نبدأ وعنده ننتهي، لم أعُد أرغب في دورة جديدة بساقية حياة كرهت الدوران حولها، حتى تمنيت أن تجف أو أموت، ووقتها لن يشعر أحد كيف عشت. كنت مثل ظله طوال الوقت، فهل للظل حياة؟ أتعافى إذا تعافى شكري، وأنهض إذا نهض، وأهرب إذا هرب، أي شيءٍ يفعله عليّ أن أقوم به في اللحظة ذاتها بغير تفكير أو تباطؤ وإلا تلاشيت، فأنا مجرد ظل. الآن أريد الانعتاق بعد ما توارت شمس حبي لشكري وغاب الظل الذي كان يسير وراءه، أريد حرية من ماضٍ لم أختره بعقلي، لأتفرغ لحاضر مفروض عليّ بسبب رعونتي، ومستقبل ربما يختاره آخرون مرة ثانية بعد ما ماتت كل حواسي. اكتشفت متأخرة أنني كنت ضيفة شرف في كل مشاهد حياته، بينما إخوانه وأصدقاؤه، بل حتى أعداؤه، كانوا أصحاب البطولة المطلقة.

الآن أريد الراحة بعد ما حصل الآخرون على أحلامي لأنني لم أنَم جيدًا، أريد أن أستلقي وأُغمض عينَيّ وأنام بعمق، لأحلم وأتفرغ لتحقيق حلمي كلما استيقظت، الحقيقة الوحيدة التي أدركتها متأخرة أن شكري لم يحبني، إنما أحب

حبي وخضوعي له، أحبني بقرار وأبقاني بجواره بقرار؛ لأنه يريد امرأة مطيعة مستقلة عن أهلها، غيورة لكنها متفهمة لكل مشاغله، غافلة عن دنياها لكنها لطيفة ومجاملة، ناعمة لكنها قوية مع أطفاله الذين أهملهم وسايرته فيما فعله، باختصار يريد امرأة مصابة بانفصام مثله كما وصف توأمه علاقتنا، وغضبت منه يومها لكني أعذره الآن.

اليوم قررت التطهر من الخطيئة والتخلص من الذنب، اصطحبت نصف أطفالي الذين سجلهم شكري على جواز سفري، اخترتهم من أسفل لأعلى، وتركت البالغين لشكري مع خطاب قصير حتى لا يتهمني بالخيانة، وقفزت مع أطفالي في أقرب تاكسي، التفت السائق ناحيتي بعينين منزعجتين من أطفالي الذين احتلوا الأريكة الخلفية، ونقل بصره نحوي سائلًا عن وجهتنا.

- القنصلية المصرية.

دخلت بخطى واثقة وخلفي أطفالي، يسيرون في طابور متعرج بعد ما ظنوا أنني سأصطحبهم لنزهة فخابت آمالهم. اقتربت من المكتب الأمامي راسمة ابتسامة خفيفة قائلة:

- اسمي أمينة محمود سعادة، وعاوزة أقابل القنصل علشان يسمح لي بالرجوع لمصر مع أولادي.

سألني موظف الاستقبال بأدبٍ جم:

- هي تأشيرة خروج حضرتك من مصر انتهت؟

- أيوة من سنين طويلة.

طلب مني الموظف جواز السفر وهو يعدني بإنهاء الإجراءات خلال يوم أو اثنين دون حاجة للقاء القنصل، وبينما كان يقلب في جواز سفري سأل بدهشة:

- الاسم مش غريب عليَّا يا مدام، أظن إني سجلت أسماء الأولاد قبل كده، حضرتك حرم الأستاذ رشيد عبد القادر المحامي؟

قلت بهدوءٍ وأنا أبحث عن مقعد أرتاح عليه لأن جلستي ستدوم:

- لأ.. بيانات الزوج والأولاد والباسبورتات كلها مزورة، أنا حرم البكباشي شكري تاج الدين.

قرأت على ملامح موظف السفارة كل علامات التعجب والاستفهام، وكدت أستنبط كلمتي الإخوان المسلمين تحومان حول شفتيه وهو ينظر ناحيتي في دهشة ممزوجة بقلق. قبض بكفه على جواز سفري وكأنه نوى احتجازي

كرهينة حتى يظهر الهارب من الإعدام. فأغمضت عيني واحتضنت أطفالي مستسلمة لقدري.

***

«صوت العرب ينادي أمة العرب من قلب العروبة النابض..
من القاهرة، بدأت إسرائيل العدوان علينا في تمام الساعة التاسعة من صباح اليوم، وتصدى لها جيشنا العربي الباسل، وأسقطنا ستة وأربعين طائرة حتى ظهر اليوم، وبدأ الجيش العربي في الزحف إلى تل أبيب بعد ما توغلت قواتنا خلف خطوط جيش العدو، كلنا رجل واحد خلف القائد في المعركة»

فهمي تاج الدين - 17

«الخروج للنهار» اخترته عنوانًا لليوم الذي خرجت فيه من المعتقل تمهيدًا لتدوينها بدفتري، صدر فجأة قرار بالعفو عني من رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر. كان صباحًا مختلفًا، انقلب الحال بعيادة السجن، المأمور وضباطه وعساكره والصول مطاوع والصول خميس مصفوفين أمامي، يودعونني بتحيات حارة، يشدون على يدي كأنني حصلت على ترقية، أو كنت في ضيافة كريمة لسنوات عديدة لم أعد أعرف عددها منذ العام الثاني لدخولي بعد ما فقدت الإحساس بالزمن والمكان والأشخاص. خرجت دون وداع زملائي بالمعتقل، ولا أعرف كيف أنهوا الإجراءات بسرعة حتى وجدت نفسي في سيارة أبي، الذي ظل يلاحقني بالأسئلة طوال الطريق إلى بيتنا، مع أنه طوال عمره كان صموتًا لا مباليًا بأحوالي. قبل عبوري بوابة الحديقة وجدت لافتة كرتونية بخطٍّ رديءٍ تنبئ المارة أن الفيلا تحت الحراسة، أسفلها توقيع غير مقروء وختم أزرق باهت، التفت لأبي فاكتفى بهز كتفيه، وخُيل لي أن دموعًا تترقرق في عينيه لكنه نجح في حبسها.

كانت أمينة سعادة أول مَن استقبلني بالحديقة، بصحبتها

كلبها ولأول مرة لا أخاف منه، وجدتها ذابلة تنزف كآبة، بدت مثل امرأة أربعينية تخلت عن ربيعها مبكرًا، احتفظت بنظرة شديدة الحدة، ووجه نالت منه قسوة الأحداث ولعنة الاغتراب. تبادلنا نظرات تحمل الكثير من مسافات الغربة وكثرة الأقاويل وخريف المشاعر، اقتربت بابتسامة مكسورة وعانقتني في شوقٍ حقيقي، بادلتها الشعور نفسه ومسحت دموعها التي بللت وجنتيَّ وكتفي، قرأت في عينيها كلمة واحدة، تمنيتها من قبل، لكني الآن لا أستطيع حتى أن أردها لها.

سلخني من مشاعري ابني بركات مهرولًا نحوي، ألقى بنفسه في حضني، ربما لم يجده دافئًا، لا أعرف لماذا يوجد حاجز بيني وبينه، لم أشعر بأبوتي له ولم أفتقده بمحبسي رغم أنني رأيته مرتين، شعور غريب ينتابني نحوه، كأنه ابن شكري، ومع ذلك أخشى عليه من تكرار تجربته، وفي الوقت ذاته لا أفعل شيئًا لأجعله يحيد عنها.

أمضيت وقتًا طويلًا مع أمي، وقصيرًا للغاية صحبة جدتي أنيسة التي لم تعُد تتعرف على أحد ولا حتى أنا، شعرت بتأنيب ضمير عندما ظلمتها وظننت أنها أغلقت السماعة خوفًا لمّا اتصلت بها من عيادة السجن، ولم يدُر بخاطري أنها

فقدت كل ذاكرتها، وصارت تنظر للجميع نظرة واحدة ذاهلة وكأنها تقول بعينيها: «سامحوني لا أتذكركم».

- حتفضل معانا والا حترجع تحارب إسرائيل تاني؟

ابتسمت رغمًا عني لطفلي وهو يسألني بعفوية، واحتضنته حتى انسابت دموعي، تمتمت مؤكدًا بقائي وعدم دخولي معارك من أي نوع، حتى لو احتلت إسرائيل جاردن سيتي كلها.

اختليت بنفسي، وجدتني أنظر نحو المرآة في حذر، تفرست في ملامحي وتنهدت بعمق، واستدرت عائدًا لفراشي، الآن تأكدت أن الذي رأيت وجهه في المرآة ليس أنا.. تلك ليست صورتي، هذا رجل هزمته الحياة.

***

في مساء اليوم نفسه دق بابنا مأمور القسم، حيًا والدي بانحناءةٍ تليق بباشا ووزير سابق، وصافحني كصديق قديم، طاف بمخيلتي لوهلة أنهم يعتذرون عمًّا عانيته منهم وأرسلوا المأمور نيابة عنهم، استدعيت بالكاد سماحة وغفران من بين ضلوعي كي أُظهرها بعد ما ينتهي المأمور من كلمات اعتذاره، لكنه أخرج ورقة مطوية فردها برفق،

وتلا على مسامعي قرارًا بتحديد إقامتي في منزلي لأجلٍ غير مسمى، طلب مني التوقيع على نسخة منه وسلَّمني الأصل، وانصرف بانحناءة مماثلة للتي دخل علينا بها.

خرجت مني زفرة طويلة، للمرة الرابعة أقرأ عبارات القرار التي تصدرتها جملة «للصالح العام»، هذا والله قرار بدفني قبل بلوغ أجلي، ولا أعرف متى أولد من جديد، وإلى متى يظل بيتي قبري؟

جلست بشرفة السراي التي باتت ترى النيل بوضوح بعد إزالة بعض القصور، أتأمل مراسم الغروب التي لم يُجبني أحد عنها أبدًا، حتى جدي عندما سألته طلب مني تأمل الشمس وإغماض عيني ولم يزد، الآن ألحظ بدايات وميض النجوم الباهت ولحظات انكسار الشمس، واستناد شعاعها على حافة النيل ليخبئها وراءه في هدوء.

تذكرت مقولة شكري «السرعة القصوى صفر» وهززت رأسي متحيرًا، وكأن القدر اقتبسها منه وأعجبته اللعبة، المقولة انطبقت على الملك فاروق وهو يرى الأحرار يقتربون من عرشه ولم يحرك ساكنًا، وجماعة الإخوان ظنت أن عبد الناصر يبتسم لهم عندما رأوا أنيابه فالتهمهم وهم واقفون في أماكنهم وبعضهم ربما كان يصفق له قبلها بقليل، حتى

أنا الآن مجبر على السرعة صفر في بيتي بعد وضعي تحت الإقامة الجبرية. أغمضت عيني فوجدت أبواب الذكريات تنفتح لحكايات الحنين وأيام الاشتياق وسنوات الألم، سأظل في مكاني حتى تلمع خيوط فجر جديد تشق صفحة السماء، وإلى أن يحدث ستبقى مراسم الغروب في الذاكرة، لا تقوى بارقة أمل وحيدة على محوها من وجداني، وفيما يبدو أحتاج لمعجزة كي أنجو بعقلي.

خطر في ذهني بعد أيام تناول إفطاري في الحديقة قتلًا للملل، ففوجئت أن حديقتنا من المناطق المحظورة، دخلت في نقاش قصير مع الحارس الذي عينته الحكومة على باب مسكني، لكني لم أفلح في إقناعه، القرار لم تدوَّن به كلمة حديقة كما أخبرني، وبالتالي صارت مكانًا محظورًا لا يمكنني الوصول إليه، غُدت مدحورًا للصالون وراقبته من وراء زجاج، وجدته يستمتع بالحديقة بعد ما وضع كرسيًّا ومنضدة أمام بيت الأمة، احتل الحارس حديقتنا وربما كان يستحل ثمار أشجارها، التفتُّ ناحية أبي، وطلبت منه الاتصال بمعارفه ليسمحوا لي بالخروج إلى حديقتي، لكن الكلمات عادت لزوري، قرأت على وجهه ملامح رجل مهزوم بضربة قاضية ممتدة المفعول، ضربة أخذت في طريقها كل معارفه وقطعت اتصاله بالدنيا، حتى مكتب المحاماة عرفت

أنه أغلقه منذ عامين بعد ما انقطع عنه الموكلون.

جلست مهمومًا بجوار البيانو المغطى بأتربة بعد ما توقفت أمي عن العزف، كآبة الصمت هي الموسيقى اليومية لبيتنا، ونظرة الدهشة في عين ابني الصغير من حالي وبقائي بالمنزل بلا خروج هي المشهد الرئيسي. قطع شرودي صوت السفرجي وهو يقترب حاملًا باقة زهور حمراء ضخمة، وجدت بينها كارتًا صغيرًا خاليًا من البيانات، فقط كلمة رقيقة لتهنئتي بالإفراج الذي تأخر، وكأن صاحب الكارت يعتذر عنه، وتحتها توقيع «محيي» فقط، ابتسمت لأول مرة، الآن فهمت سبب سرعة إجراءات خروجي ومراسم الاحتفاء بي بالسجن، تفاءلت، فلا يزال هناك مَن يحافظ على إنسانيته ويتمسك بها حتى في أحلك الظروف، ولا شك أن الصاغ خالد محيي الدين من بينهم.

عندما دخلت الفيلا طرأت لي فكرة إهداء الزهور لجدتي، لطالما أهديتها زهورًا ولا بد أنها مستقرة في قاع ذاكرتها، اقتربت بخطى مترددة من غرفتها، بداخلي أمل أنها ستستجيب لقلبها وتتعرف عليّ يومًا ما، رغم حالها الذي يمزق أوصالي، وكلما أخبرتها بأنني فهمي تعيد اسمي ورائي ببطءٍ كطفلة تتعلم الكلام، ثم تدخل في نوبة صمت طويلة

وترمق الفراغ بنظرة شاردة وبعدها تبتسم في وداعة.

بعد ساعات طويلة جالسًا أمامها متحدثًا بلا جواب فقدت الأمل في أن تتذكرني وكادت زهوري تذبل، لمحتها تمد يدها إلى وردة وتقربها من فمها وهي تهم بأكلها، جذبتها منها برفق حتى بللت دموعي ورقاتها، غادرت باكيًا، ومع ذلك قررت ألا أتوقف عن محاولاتي اليائسة.

***

كبر أبي وزهد الحياة وصار يشبه جدي حتى في مشيته المنحنية، ووهنت أمي حتى جالست جدتي دون أن تقوى على مساعدتها، لم يعُد لديهما مخزون من أعصاب يحتمل شكواي من فراق زوجتي وابنتي، فقدت سارة كل أمل في خروجي وتخلت عن كل وعودها لي بعد حرب السويس، وكأنني أنا الذي أممت القناة وحاربت جيش فرنسا. ربما تكون سارة محقة في أفكارها عن الحرية والوطن، وقد تكون قاسية عندما اقتسمت أولادنا بيننا كما انقسمت آراء أبي وأمي وفي النهاية لاموني وحدي لأنني تزوجت دون علمهما، وعليّ إكمال الطريق إلى نهايته بمفردي، لكني أفتقد الشكوى وأريد الفضفضة ولا أنتظر حلولًا، لم يعُد أمامي سوى أمينة، حالها من حالي ونصف أطفالها ليسوا معها في

صفقة مشابهة، لكني عدلت عن فكرتي، حاجز شقيقي شكري لا يزال بيني وبينها، أوصاني عليها في غيابه، ولو اقتربت لن أضمن حياد مشاعري، صرت أضعف بكثير، أنا شبه إنسان، فاقد للأمل، حامل مصباح اليأس، باحث عن الشفقة، متلمس للرحمة، مضيت أكثر من نصف عمري أتسلق جبل الطموح وصولًا للقمة، معتقدًا أنني سأرى العالم من منظور أفضل، واكتشفت أن هناك مَن كان ينتظرني في نهاية الطريق ويطلب مني القفز، ولمَّا رفضت دفعني رغمًا عني فهويت.

«نصف أب.. نصف عاشق».. كتبتها بدفتري في محاولة بائسة لتلخيص حالي، ثم كشطتها ومزقت الورقة، قبعت وراء النافذة مراقبًا ابني، لا أعرف ما الذي يمكن قوله لطفل بعد ما حرمته من أمه وتخلت هي عنه بسهولة إلقاء عقب سيجارة، كيف خدعتني سارة ذات الملامح الطيبة والروح الودودة كل هذه السنين؟ أم إنني من البداية رأيتها أمينة كما تمنيت وغفلت عن حقيقتها.. لست أدري.

لوح لي الولد لمَّا تلاقت عينانا، رفعت ذراعي ببطءٍ كأنني أقاوم بث البهجة لمَن لا ذنب له، أعاقبه لمجرد أنه يذكرني بذنبي، أغمضت عيني حتى أحبس دموعًا لم أعُد أريدها تنساب لتجرح فؤادي. فجأة هبطت كف أبي على كتفي

وراحت تربِّتها برفق، وهمس في أذني مشيرًا ناحية ابني:

- على الأقل لا تجعل رأسه فارغًا فيملؤه غيرك. لا تكرر خطئي.

تركني وانصرف في هدوء، وبعدها لمحته ممسكًا بيد الصغير بركات في طريقهما لغرفة مكتب جدي ومكتبته، الصومعة كما كان يسميها، لا نزال نحتفظ بها على حالتها، وهي أفضل ما ورثناه في نظري.

ظللت شاردًا في ابني، ربما تبقى من عمري القليل لأعيشه، لكن لديَّ الكثير الذي أُخبره به قبل رحيلي. صار همي الوحيد نقش صفحة عقله البيضاء بمزيج من أفكاري وتراث جدي، لا أريده مثل شكري ولا بسلبية أبي ولا حتى نسخة مني.. أريده حرًّا قادرًا على الاختيار، متحملًا عواقبه، متقبلًا لحياته، لكني مع مرور الأيام شعرت بثقل المهمة، خاصة أنه لا يعرف اللغة العربية جيدًا بعد ما شوهتها أمه، ومع ذلك ما زلت أحاول، على الأقل هذه المرة هناك شرف للمحاولة.

***

توقف الفيل عن الهروب من بيته في كوابيسي، سعدت بالأمر في البداية رغم افتقادي لزياراته المسائية، لكني

أصبحت أرى كوابيس متفرقة تدور كلها بحديقة الحيوان، لأقفاص مدهوسة، وجثث متناثرة لحيوانات وحراس وزائرين.. لا فرق، وكلما حاولت إصلاح ما تهدم خربت القرود ما أصلحت، ومن بعيد لمحت شكري ينهرها، يُشير لها بإصبعه الصغيرة فتركع أمامه خانعة صامتة، يبتسم أخي ويمر بجواري ولا يحدثني، بينما يصيح حبشي عبر إذاعته العتيقة ليُنبه الغافلين، لكن لا حياة لمَن ينادي، أقترب وأهمس له أنهم ماتوا، وعليه أن يخبر المتواجدين خارج الحديقة فيتحجج بأن موجة الإرسال محدودة ولن تصل لهم، ألمح أمينة واقفة على مقربة، ترسم لوحة كبيرة أشبه بالقاهرة، لكن حولها سور كبير، في وسطها نقطة حمراء صغيرة أقرب ما تكون لجاردن سيتي، كتبت عليها بخط منمنم يشبه خط أخي إيَّاه .. «بيت الفيل».

«ولا ترغب الأفيال في العيش محبوسة، وربما يفسر لنا ذلك رحابة

بيوتها وانخفاض أسوارها بحدائق الحيوان»

يُخرجني من شرودي في تذكر كوابيسي صوت المذيع، وهو يُعلق على مشاهد برنامج عالم الحيوان، سلوتي الوحيدة الآن التلفزيون بجانب المجلات والراديو، وبعدها

جاءت خطابات شكري التي يوقعها باسم رشيد ويرسلها على عنوان جراج نابليون بحي السكاكيني، ويُحضرها حبشي معه كل مرة، لتحتل مكانة مميزة في نهاراتي الحزينة، وتضع كلمة النهاية على كل أحلامي، كل خطاب أشعر معه بأنه نام قبلي وسرق حلمي، خاصة عندما يحكي باستفاضة عن الكوخ السويسري الخشبي الذي يعيش فيه.

«خمسة.. ستة.. سبعة»..

أسمع صوت ابني الصغير يعلو وهو يتلو الأرقام ويمط الكلمات، دافسًا وجهه في الباب الأخضر بينما ابن شكري يتسلق بخفة قط شجرة الكافور القريبة، التاريخ يُعيد نفسه بإصرار لتعليم الأغبياء، لكنهم يفضلون العناد، أبتسم وأنا ألمح حبشي يدخل من باب الحديقة حاملًا كيسًا كرتونيًا، لا يزورني أحد سواه بعد منع أقاربي ومعارفي من الزيارة، وفي كل مرة لا يخلو كيسه من ثمار اليوسفي طوال الشتاء.

زياراته لي صارت شبه يومية، يجلس بالساعات يحكي، حتى يشعر بأنني اكتفيت فيسكت وينصرف، صار راديو حبشي كما كان في الماضي، ينقل لي أخبار القاهرة التي لا أسمعها في الراديو كل يوم.

هذا الصباح جلس حبشي أمامي وعلى وجهه ابتسامة

غائمة، هممت بوضع خمسة قوالب من السكر في فنجانه كالعادة، لكنه أمسك بيدي معلنًا أنه أُصيب بداء السكري، لا أعرف لماذا باغتُّه بسؤال يشغل بالي منذ فترة:

- إنت اتجوزت يا حبشي قبل كده؟

- أنا اتجوزت الراديو يا فهمي بيه.. لكن إن جيت للحق عمري ما سمعت خبر حلو.

أضحكتني دعابته واسترسلت قائلًا:

- قول لي يا حبشي.. إنت عايش إزاي؟ وأحوالك إيه؟

- أنا حي لكن لا أُرزق.

قالها وضحك ضحكة صافية راضية مردفًا:

- القرشين بتوع المعاش مع عزومة من معارف زمان عم مصطفى أو الأستاذ لمعي وأهي ماشية، نشكر ربنا.

شعرت بخجل بسبب أسئلتي، فغيرت دفة الحديث ونبرة صوتي معًا قائلًا:

- طب قول لي يا راجل يا عجوز.. هِيَّا الجوابات بتعدِّي إزاي من المخبرين؟ هو إنت بترشي اللي واقف على بوابة السراية كل مرة؟

ابتسم وقال بهدوء:

- ولا رشوة ولا يحزنون.. دي بركة العدرا، بيسمحولي بالزيارة من غير تفتيش علشان قبطي مفيش خوف مني، مع إنهم لو عرفوا أنا ساعدت الإخوان ولاد الكلب قد إيه زمان كانوا شنقوني.

شعرت رغم نبرة حديثه الهادئة بأن مرارة لا تزال عالقة بها، أشبه بسحابة خفيفة، فغيرت الموضوع لعلي أفلح في عدل مزاجه هذه المرة:

- إنت ليه ما كنتش بتزورنا زمان؟ أنا مش فاكر إني شُفتك خالص في السراية.

رد بنبرة حزينة:

- أنا مشيت من السراية لمَّا اتولدتم.. وعشت مع أبويا في إسكندرية وكملت المدرسة هناك، وبعدها رجعت شبرا وعشت مع أمي واشتغلت مع الخواجة بتاع محطة اللاسلكي والدنيا خدتني. يمكن جيت مرة ولا اتنين وإنتم عيال صغيرة.. لكن ماحصلش كلام بينَّا.

ثم لمعت عيناه ببريقٍ غريبٍ سرعان ما انطفأ كمَن تذكر شيئًا ضايقه وقال:

- على سيرة اللاسلكي.. تخيل إن محطة الإذاعة بتاعتي موجودة في شقة الصليبة من سنة اتنين وخمسين؟ ويا عالم عملوا فيها إيه؟ ولمَّا سألت البكباشي شكري عنها قال لي أكيد صادروها.

هززت كتفي نفيًا لمعرفتي أي معلومة عن محطة راديو حبشي، سكت الكلام بيننا كأنه انتهى فجأة، فتشت في ذاكرتي فلم أجد موضوعًا أفتحه ويكون أثره لطيفًا عليه فآثرت الصمت، كنت كل مرة أتعمد تجاهل سؤاله عن أيام الحرب وأمنع نفسي بالكاد، أشعر بأن لديه ما يقوله لكنه يكتمه عني، أعرف ما في رأسه من لمعة عينه، من دموعه المحبوسة، من نبرة صوته المجروحة، لكني أقاوم فضولي حتى تعينني أوهامي على استكمال الحياة.

فجأة سمعنا دقات متتالية على جرس البوابة، ثم علت أصوات متداخلة لرجال كثيرين، ميزت من بينها صوت السفرجي محروس، انفتح باب غرفتي لأجد أمامي ضابطًا وثلاثة عساكر وأكثر من عشرة مخبرين، اقتحموها بغير استئذان وراحوا يفتشون فيها، تبادلت نظرة حائرة مع حبشي، وسأل الضابط مَن مِنَّا فهمي تاج الدين، فأشار حبشي ناحيتي بكفٍّ مهتزة، التفت الضابط لي قائلًا بحدة:

- فين الجوابات اللي شكري أخوك بعتها لك من سويسرا بدل ما نقلب البيت كله؟

نظرت لحبشي مرة ثانية لكنه فضَّل الانحياز لجانب الصمت، حاولت التسويف لكن عدد المخبرين والعساكر ونظرة الضابط المتحفزة تشي بأن السراي ستنقلب رأسًا على عقب في أقل من ساعة، وفي النهاية سيجدون الخطابات، فكرت في أنها لا تحمل شيئًا سوى يومياته العادية، ربما أحيانًا تفلت منه عبارات ينتقد فيها الرئيس، لكنها لا ترقى لمرتبة الجريمة التي يفكرون فيها، فأشرت ناحية خزانة صغيرة بحجرتي وقُلت للضابط:

- الجوابات كلها هنا، لكن بعد إذنك أفتحها أنا لحضرتك؛ لأن فيها حاجات خاصة وبعدها فتش براحتك.

- لأ يا أستاذ فهمي أنا اللي حافتح الخزنة بنفسي.

اقترب الضابط من الخزانة وحاول إدارة مفتاحها فلم يستجب له، التفت سائلًا بنبرة مَن نفد صبره:

- هي كلمة السر حروف والا أرقام؟

ارتبكت قليلًا وقلت:

- حروف.

- إيه هي الحروف؟ إنطق ما تعطلناش.

أطرقت وظللت صامتًا، فعنفني مرة ثانية سائلًا عن الحروف، فاضطررت للرد بصوتٍ خفيضٍ وكلي خجل:

- أحه أحه لا تتنحى.

ظل الضابط ينظر لي مشدوهًا، بينما لاحت ابتسامات وهمهمات مكتومة من الحاضرين وأفلتت ضحكة مصحوبة بشخرة من حبشي، أدار الضابط المفتاح بعد وضع الحروف، مدَّ يده وأخرج خطابات كثيرة أحتفظ بها داخل الحصالة الخضراء، وضعها على سطح المكتب، راح يفرزها ويمسح سطورها بعينيه وهو لا يزال على دهشته، جنب كومة كبيرة منها على يمينه سائلًا بصوتٍ خفيضٍ أقرب للهمس:

- مين صاحبة السعادة اللي حضرتك بتكتب لها جوابات؟

تلعثمت وارتبكت حتى هداني تفكيري فقلت:

- دي واحدة جارتنا من زمان لكن ماحصلش نصيب، كنت بكتب لها جوابات وأحتفظ بيها لنفسي، الجوابات السبعة التانيين دول من شكري لو حضرتك بتدور عليهم، جوابات عادية، مجرد يوميات، مفيهاش سياسة وهو بيوقعها باسم رشيد عبد القادر، حضرتك ممكن تقراها أو تحتفظ بيها لو

عاوز. بالمناسبة هي أصلًا بتوصلني مفتوحة بمعرفتكم.

ظل الضابط ينظر لي بعينين متحجرتين، التفت لرجاله وأمرهم بانتظاره في الحديقة، بينما استبق حبشي الأمر وخرج قبلهم حتى لا يحرجه أحد، شعرت برغبة عارمة للكلام والفضفضة رغم أن روحي صارت خشنة مليئة بالتجاعيد، ما زال لديَّ أمل في ديمقراطية وحكم ليبرالي حر يستمر، هذا هو الزمن الجميل بالنسبة لي، لا يهمني مَن يحكم بقدر ما يهمني كيف يقود، لكن على مدار عقود تم تخديرنا بشعارات الديمقراطية والحرية حتى تم استئصالها بهدوء، وقالوا لنا بعد الإفاقة ها أنتم تستطيعون العيش بدونها، مع أنهم جعلونا موتى لا صوت لنا ولا رأي.

نظر لي الضابط بعد ما انتهيت من كلامي، وقال بنبرةٍ لا تخلو من شجن:

- أنا آسف يا فهمي بك، معاليك أكيد عارف الأوامر والتعليمات، لكن من بعد النكسة كلنا اتكسرنا، صحيح خسارة الحرب في سينا مصيبة كبيرة لكن صدقني المصيبة الأكبر إن إسرائيل تجبر عبد الناصر على التنحي، وفي ظني إن الناس علشان السبب ده نزلت الشارع، عمومًا أنا ححتفظ بجواب والا اتنين من جوابات شكري علشان نقفل المحضر

ومحدش يزعجك مرة تانية، بس ياريت ظني يكون في محله وكلامنا يفضل سر بينًا، اتمسى بالخير.

أومأت برأسي وتصافحنا في ودٍّ كصديقين قديمين، غادر الغرفة بهدوءٍ كنسمة عابرة، وتابعته من خلف نافذتي وهو يقطع الحديقة ويتوجَّه صوب سيارته، بعد ما استقر بالمقعد الأمامي بجوار السائق رفع عينيه ناحية غرفتي، ابتسم وأشار بكفه مودعًا. ظللت في مكاني لا أقدر على الحركة، تملكني إحساس بالعجز وأصابني شلل في تفكيري، جعلاني مثل جذع شجرة عجوز مخوخ لم يتبقَّ سوى بعض الريح لتقتلعه من جذوره. بالكاد نهضت وقبل أن أذهب لفراشي جلست إلى مكتبي، أمسكت ورقة وقلمًا وكتبت خطابًا لأول مرة إلى شكري:

«أخي العزيز.. إذا غبت قبلي فالدعاء وصية بيننا، وإذا عُدت بعد غيابي فوصيتي لك أن تترك ابني كما وجدته على حاله، لا تعبث بأفكاره ولا تُغير مساره مثلما فعل آخرون معك، اجعله يقرأ تاريخنا ويعرف حكايتنا ويفكر أولًا، وأنا واثق أنه لن يتبعك بعدها».

طويت الورقة ولاحظت رعشة بيدي، فتحت حصالة شكري الخضراء ووضعت فيها وصيتي، وتركتها بجوار فراشي..

وبعدها نمت راضيًا.

***

«سأبقى كما أمرني الشعب.. بهذه الكلمات المطمئنة أيها السادة والسيدات استجاب السيد الرئيس جمال عبد الناصر لإرادة الملايين من الشعب

وعدل عن استقالته وتنحيه عن رئاسة الجمهورية حتى نتمكن جميعًا من أن نزيل آثار العدوان، ولقد فوض مجلس الأمة صباح اليوم السيد الرئيس سلطات كاملة، وكانت الجماهير قد خرجت أمس عقب خطاب

الرئيس مباشرة في مظاهرات هائلة وسط الغارات الجوية غير عابئة،

مطالبة جمال عبد الناصر بالعدول عن قرار التنحي، والآن نقولها بكل ثقة: لقد انتصر الشعب، وعاد عبد الناصر»

أمينة سعادة - 9

فردت ذراعي إلى آخره وأخرجت الشكمجية الصغيرة، أحصيت ما تبقى من قطع ذهبية بعد ما بعت قطعتين مؤخرًا، تفحصت خاتمًا أهدته لي نينة أنيسة، وآخر كان هدية من أبي قبل هجرته الإجبارية، ووقعت عيني على قطعة ذهبية تحمل اسمي باللغة الهيروغليفية لا أعرف أين صنعها فهمي ولماذا اختار هذه اللغة، الحروف كثيرة لا تبدو لي اسمًا كما تشككت نائلة عندما رأتها، قالت «إنه كتب عبارات غزل بالذهب وأعطاها لكِ كي تظل فوق صدرك وقريبة من قلبك»، تذكرت أنه أهداني إيَّاها بعد زواجي، ربما نائلة محقة وربما مخرفة، لكنَّ الإجابتين تؤديان لطريق النسيان. تأملتها لفترة ووضعتها في علبة خصصتها للمقتنيات التي لن أفرط فيها أبدًا.

أرقدت طفلًا من أطفالي في فراشه بعد ما غلبه النوم بين ذراعي، وعلا صياح ثانٍ مطالبًا بطعامه بينما ظل ثالثهم الذي يُشبه عمه يقرأ في حجرته. وقعت عيني على صورتي بالمرآة، ابتسمت بالكاد، لا أحد يراني من داخلي، لا أحد يحتويني، أنا لم أُخطئ كما تتهمني صديقتي نائلة، أنا أقدمت على الانتحار مرات ومرات، وعشت بعدها ميتة في

انتظار الحياة لكنها لم تأتِ بعد.

اقتربت أكثر من المرآة وتأملت ملامحي بدقة، خلعت الإيشارب كي ينسدل شعري على كتفي لكنه لم يستجب، نسيت أني قصرته مؤخرًا «مثل الولد المجنون»، الآن لم تعُد تهمني الكلمات، وكلما قالت أمي فلتتزوجي رجلًا آخر غير شكري، دار برأسي السؤال الذي أعرف جوابه، مَن سيتزوج زهرة ذابلة صارت بانتظار سراب لا تراه حتى بوضوح كي تُصبر به نفسها. أشعر بأن دموعي لها صوت مدوٍّ وهي تنكسر على وجنتَيّ، بعد سنوات من الكر والفر تمزقت الخيوط التي تربطني بروحي، راحت تتآكل وتذوب، بدت كل كلماتي لنفسي مثل أعذار تافهة لا يتوقف عندها أحد، صرت أنكمش على ذاتي منذ عودتي من الغربة، روحي مهجورة، أتحول كل يوم إلى شيءٍ أكثر ضآلة عن ذي قبل، مجرد نَفَس لا يسمعه أحد، وبعض الأحيان تمتمة لا أفهم حتى معناها، ترهقني الكلمات التي لم أقُلها لنفسي من البداية، وتوجعني الحقيقة التي تتزين أمام عيني في مرآتي كل يوم، لا أصدق أنهم سمحوا لي بالعودة، صحيح خضعت لتحقيق مطول مع ضابط بالسفارة، ثم أتى آخر واستجوبني، أخبرتهم بأنني لا أعرف شيئًا عن نشاط شكري، كل معلوماتي أشبه بعناوين رئيسية، إنما التفاصيل لا يبوح بها أبدًا. في النهاية صدقوني

مضطرين وسمحوا لي بالعودة، على الأقل فازوا بمعلومة لم يكونوا يعرفونها أن المحامي رشيد عبد القادر هو شكري تاج الدين.

تكرر استجوابي عند عودتي إلى القاهرة وانتهوا إلى لا شيء، اتهموني بأنني مدينة لبلدي لتستري على مجرم هارب، رددت أنني مدينة فقط لأمومتي وروحي، ودائنة لحياتي بأكثر من أربعين عامًا من التعاسة، تمنيت البقاء بجوار شكري الذي عرفته لأحبه بما تبقى من قلبي، لكنه تبخر وجفت مشاعري ونضب حبي، لم يعُد لديَّ سوى بضع نبضات بالكاد تكفيني لأعيش.

في خطابي الأخير كتبت له أنني لا أريد طلاقًا ولم أعُد أُطيق زواجًا، واثقة أنه لن يعدم الحيلة ولن يعوزه المال، سيجد مَن يساعده في هروبه المستمر ولن يحتاجني هذه المرة، سيبدأ حلقة أخرى من حلقات الكر والفر التي أدمنها، ربما في بلدٍ جديد، شكري مغامر، ولديه استعداد للمقامرة بأي شيء، هارب من الأيام، عاش على هامش الحياة، وتلصص على الآخرين محاولًا تغيير مسارهم ليتبعوه ولم ييأس أبدًا، لكني الآن تطهرت.

***

صحوت نشيطة متفائلة مبتسمة، منذ شهور وأنا على هذه الحال بعد ما عُدت للرسم، انتهيت من بضع لوحات مؤخرًا أخرجت فيها كل طاقتي. أعددت إفطارًا خفيفًا وتوجهت لمرسمي، لمحت في طريقي فهمي جالسًا مع حارسه بالحديقة، وخُيل لي أنه لمحني بعد ما تلاقت عيوننا لكني تفاديت النظر للوراء كما عودت نفسي مؤخرًا. تمنيت لو فتح لي موضوع سارة، لأشاركه أحزانه وأبثه شجني لفراق أولادي، لكنه صار مثل جملٍ يجتر الأحزان ويمضي سائرًا بلا شكوى في صمت.

- لوحة جديدة؟

سألني فهمي عندما دخل ورائي المرسم متأملًا لوحتي، كانت تُجسد أطفالًا ثلاثة، ولدين وبنتًا، خلفيتها صاخبة بألوان صارخة وتموج بشخصيات عديدة بلا ملامح، تُحلق فوق رءوس الأطفال طيور سوداء ضخمة، تحتل مساحة كبيرة من اللوحة، وتفصل بينهم حواجز رقيقة لا تُرى، لكن لو اقترب المرء منها سيراها بوضوح، ويشعر بارتفاعها، تسبق البنت الولدين بخطوة، ويبدو الولدان أشبه بقضيبي قطار لا يلتقيان، لكن سيصلان بآخرين لنهاية محتومة.

اكتفيت بهز رأسي ردًا على سؤاله، عاد خطوة للوراء

وسألني مرة ثانية:

- تقصدي إيه باللوحة دي يا أمينة؟

شعرت بأنه يرغب في الكلام فكسرت بعض الثلج قائلة:

- محدش يسأل فنان عن قصده، فكر إنت وقول رأيك.. أحب أسمعك.

عاد فهمي لطبيعته، اكتفى بابتسامةٍ واقترب من جهاز البيك آب، قام بتغيير الأسطوانة ووضع إبرة التشغيل وانصرف، انبعثت موسيقى عبد الوهاب وانساب صوته شجيًا وهو يشدو..

لأ مش أنا اللي ابكي.. ولَّا أنا اللي اشكي.. لو جار عليًا هواك

ومُش أنا اللي اجري.. وأقول عشان خاطري.. وأنا ليَّا حق معاك

تبقى انت هاجرني وانت اللي ظالمني وفاكرني هاترجَّاك

أنا قُلتها كلمة.. وكل شيء قسمة.. ودي قسمتي ويَّاك

وكفاية قلبي انشغل.. على قلب خان الأمل

وعايزني أرجع تاني.. لا.. أرجع لك تاني.. لا

تدحرجت على وجنتي دمعة في غفلة من عقلي، قاومت وانشغلت بتثبيت فرخ الورق على الحامل الخشبي لأبدأ في رسم لوحة أخرى، هذه المرة اخترت تجسيد الفتاة الميتة التي كانت تخرج من جسدي كل ليلة في أحلامي على مدار سنين عمري، الآن لم أعُد أخشاها، سأرسمها كما أشاء، وأُعيد لها الحياة بريشتي، سأرسم كوابيسي هنا تباعًا ليراها الآخرون فلا يسلكون مسلكي، وإذا ما قُدِّر لهم يومًا أن يقتنوا لوحاتي، فالمؤكد أنهم سيتعاطفون معي كلما وقعت أبصارهم عليها، وحتمًا سيقدرون صعوبة رحلتي حتى وصلت إلى هنا.. إلى راحتي.. إلى خلاصي.

انتبهت إلى أن فهمي عاد للمرسم مرة ثانية، وقف أمام لوحة الأطفال الثلاثة عاقدًا ذراعيه حول صدره متأملًا فيها، فكرت لوهلة وضربت فرشاتي في الفرخ الذي أمامي، رسمت ظلالًا كثيرة، ربما أُخفيها إذا ما غاب صاحبها، لكن سيبقى هذه المرة صوتها، لا أعرف كيف يكون للظلال صوت، لكني واثقة من سماعه الآن بوضوح.

***

«وقع أمس حادث يدعو للأسف والألم، إذ أقدم المشير عامر على الانتحار بتناوله كمية كبيرة من مواد مخدرة وسامة نجم عنها وفاته، وقال بيان وزارة الإرشاد القومي إن الفريق أول محمد فوزي، والفريق عبد المنعم رياض،

قد توجها إلى بيت المشير عامر بالجيزة يدعوانه لسماع أقواله في التحقيقات العسكرية التي جرت أخيرًا، فدخل إلى حجرة نومه وابتلع مادة سامة،

وعندما بدت أعراض التسمم على المشير صحباه لمستشفى القوات المسلحة بالمعادي حيث جرى إسعافه، لكن بعدها حدث له انهيار مفاجئ صباح اليوم الخميس بعد تناوله مادة أخرى كان يحتفظ بها تحت شريط لاصق بفخذه، ووفق تقرير للطب الشرعي في التحقيقات التي يباشرها النائب العام ويُشرف عليها وزير العدل تبين أنها مادة الكوناتين السامة»

فايز حبشي - 7

كل الطرق تؤدي إلى الحرب، عناوين الصحف، نشرات الأخبار، الاستعراضات العسكرية، المعدات الحربية التي تجوب الشوارع كل يوم، مصر كلها تستعد لتناول العشاء في تل أبيب بعد هجومنا على إسرائيل.

على مدار أسبوعين أجلس في مكتبي بماسبيرو، أتأمل صفحة النيل الهادئة في حين يرج الصخب المبنى كزلزال، توقف برنامجي، وتحولت أغلب البرامج لنشر ات أخبار ونقاشات حوارية، نحشد الناس كأن الشعب هو الذي سيذهب للجبهة، صرت بلا عمل فني تقريبًا، أنقل ورقة من حجرة الى أخرى، أراجع صياغة كلمات بيان قبل بثه على الهواء، أقترح جُملًا حماسية وأحذف أخرى نمطية، لكن لا أحد يأخذ برأيي، فلا صوت يعلو على صوت المعركة.

علا فوق مكتبي تل من الجرائد والمجلات، انتقيت تلك التي نشرت صورًا للمجندات الإسرائيليات على شاطئ البحر بالمايوه، وصفت الجريدة الجيش الإسرائيلي بجيش العاهرات، خطر في ذهني أن ضباطنا وجنودنا سيعودون لنا بمئات الجواري بعد الانتصار، ولا بد أن للإعلاميين نصيبًا كبيرًا، نحن جنود الجبهة الداخلية كما وصفنا كبير المذيعين

أحمد سعيد، الذي يذيع البيانات التي ترد إلينا من مكتب المشير عامر ومكتب الرئيس بالتساوي، وكلما أرسلت جهة بيانًا ألحقه المكتب الثاني بما يؤكده أو يزيد عليه.

منعوا عبور السفن الإسرائيلية بقناة السويس وخليج العقبة، طردوا قوات حفظ السلام الدولية من سيناء. الحرب على الأبواب.. اليوم أو غدًا كما قيل لنا.

- وبعدين؟

سألني فهمي وهو يُشعل سيجارة من أخرى فاسترسلت في الحكي.. ظُهر يوم الرابع من يونيو غفوت في مكتبي، بعد ثلاثة أيام متصلة لم أُبارح فيها ماسبيرو منتظرًا الحرب التي لا تحدث، وما بين النوم واليقظة بسبب عشرات الفناجين من القهوة التي أتجرعها كل يوم، رأيت فيما يرى الحائر ضابطًا يقتحم مكتبي ويصرخ فيّ بنبرةٍ آمرة:

- اتحرك يا أفندي، خلال ساعة لازم تبقى في أنشاص.

فجأة انحدرت دموعي رغمًا عني وتوقفت عن الحكي، ناولني فهمي منديله لأُجففها، وأمر لي بكوبٍ آخر من الليمون، ظل ينظر نحوي في لهفة منتظرًا استكمال حكايتي، التي أرويها له بناءً على إلحاحه، رغم أنني حرصت على

إخفائها عنه منذ شهور. كنت أشعر بأنه يريد سؤالي ليُشبع فضوله، تتأرجح شجوني وينتابني شعور بالبكاء أكتمه بصعوبة، ويتراجع فهمي بدوره ويغير الموضوع، حتى استدعاني خصيصًا لأحكي له وقائع ما جرى، أو كما وصفه بدفتره..

«ما لم نقُله للشعب عبر الراديو».

استجمعت أعصابي وأكملت.. غادرت ماسبيرو بمنتهى الحماس، شرف ما بعده شرف، سأرافق الجنود على الجبهة بقاعدة أنشاص العسكرية وأُجري أول حوارات النصر. صاحبني حماسي من الطابق السابع الذي يضم مكتبي حتى البوابة الرئيسية للمبنى، وهناك سلمني لخيبة الأمل، أشاروا لي بالركوب مع فرقة الموسيقى الذهبية أو الماسية لا أتذكر الآن بالتحديد، وجدت عشرات الطبَّالين والزمَّارين بصحبتي، خجلت من السؤال، لكن الفضول قتلني ونحن على مهبط الطائرة بمطار ألماظة، مِلت على أذن ضابط مرافق لنا سائلًا عن طبيعة مهمتنا، أجابني بنبرةٍ جادةٍ أن تعليمات مكتب القائد العام صدرت بالترفيه عن الطيارين بقاعدة أنشاص العسكرية، وتقرر إقامة حفل ساهر كبير الليلة، ولمّا بدا عليّ عدم الفهم، جذبني أحد الزمارين وأسَرَّ في أذني أن الراقصة

زينات علوي ستُحيي الحفل.

وصلنا إلى قاعدة أنشاص في بلبيس واصطحبنا قائدها في جولة لتفقد المعدات الحربية، شاهدنا الصاروخ القاهر وأخاه الظافر الذي يدمر الهدف في نصف دقيقة، انبرى من الصف الأخير طبال من الطبالين قائلًا:

- على كده يا فندم الحرب مش حتاخد منَّا ساعة ونص بالكتير.. يعني أقل من مشوار إسكندرية.

انفجرت الضحكات في المعسكر كله ودوى تصفيق وهتاف للرئيس، أعقبه هتاف للمشير على الفور كأنهم يستغفرون ذنبهم، بعدها اصطحبونا لتناول مشروب الضيافة، تجمعنا حول حمَّام سباحة كبير نصبوا في أحد أركانه مسرحًا لتبدأ فقرات الحفل الساهر.

في البداية لم أفهم طبيعة دوري أو سبب مشاركتي، لكن الضابط المرافق أبلغني بالاستعداد للظهور بين الفقرات، خمنت على الفور أنني سأقدمها، لكني فوجئت به يخبرني باعتذار الفنان إسماعيل ياسين عن عدم الحضور بسبب وعكة صحية ألمَّت به، ودلتهم التحريات الدقيقة على أنني كنت ألقي نكاته ومونولوجاته بماسبيرو على زملائي، ويمكنني تأدية فقرته بدلًا منه. قاطعني فهمي مندهشًا لأول

مرة بصوتٍ متحشرج:

- يوم أربعة يونية كنتم بتقدموا حفلة وطبل وزمر ورقاصة على الجبهة؟

ترقرقت دمعة في عيني وأنا أومئ برأسي، ثم ترددت قليلًا في الحكي فبرقت عينا فهمي وهو يشجعني:

- كمِّل يا حبشي، إنت راديو مصر الحقيقي بالنسبة لي.. كمِّل.

استرسلت في الكلام، وأخبرته بأننا قبل أن تصعد الراقصة زينات علوي على المسرح فوجئنا بصفارة إنذار طويلة، وأضواء حمراء تتلألأ في السماء، بعد ثوانٍ من الجلبة المخلوطة بالفزع فهمنا أنها غارة جوية إسرائيلية، أنزلونا لمخبأ لمدة نصف الساعة ثم أخرجونا مبتسمين، مؤكدين أنهم أسقطوا طائرة وتمكنت أخريات من الفرار، هلل الطبالون والزمارون، وراحوا يعزفون النغمة الشهيرة «سلام مربع للجدعان»، واستأنفنا الحفل بعدها.

قرب الواحدة صباحًا صعدت للمرة الثالثة على المسرح منهكًا أُغالب نعاسي، لكن حماس الجمهور وتصفيقهم هذه المرة أنعشني، قُلت كل ما أحفظه نقلًا عن إسماعيل ياسين،

استقبلوني بحفاوة أدهشتني، ربما لو كان «سُمعة» مكاني لما حصل عليها، حتى إن كتيبة كاملة حضرت متأخرة عن موعد الحفل وطلبوا إعادة بعض المنولوجات.. ففعلت. انتهى الحفل بعد الفجر بساعتين، وفي السابعة والنصف صباحًا وصلنا إلى القاهرة، دخلت شقتي في السكاكيني أحلم بحمَّام بارد ونوم طويل، طالما الحرب مؤجلة لأجل غير مسمى.

قرب الواحدة ظهرًا حلمت أن الهاتف يدق وأفقت على صوته بالفعل، تلقيت اتصالًا من رئيسي في الإذاعة بضرورة حضوري فورًا، ولمَّا استفسرت عن سبب الاستعجال أجابني بصوت خفيض أقرب للهمس: «الحرب قامت».

لا أعرف إلى يومنا هذا لماذا كان رئيسي يهمس وهو يحدثني، العالم كله عرف أن إسرائيل وجَّهت لنا ضربة جوية بعد عودتنا من الحفل الساهر الكبير، والحمد لله أنني كنت نائمًا.

بعد ثلاثة أيام انزويت في مكتبي، لا أُكلم أحدًا ولا أُشارك حتى في مناولة ورقة، لاحظ رئيس الإذاعة انشغالي في أمرٍ ما فسألني عنه، تركت الورقة ورفعت القلم وتمتمت «لا شيء». اقترب وأمسك بورقتي رغم أنني حاولت جذبها قبله، تفحصها وسألني عن دلالة الأرقام التي أقوم بجمعها، أطرقت

وتحت إلحاحٍ منه أجبت:

- أنا حسبت عدد الطيارات اللي أحمد سعيد قال إننا أسقطناها من يوم خمسة يونيو لغاية النهارده لقيت إنها ضعف عدد طيارات مصر وإسرائيل مع بعض، فقررت أتوقف عن حساب أي حاجة.

لازمنا الوجوم منذ عرفنا الحقيقة من الإذاعة البريطانية، لم نعُد نذيع سوى أغانٍ وطنية على مدار اليوم، فجأة أخبرونا بسرعة نقل الكاميرات لبث خطاب مهم للرئيس من بيته، لم تستطع قدماي حملي، فاعتذرت وجلست مع المحبطين بماسبيرو أُشاهد الخطاب حتى أعلن عبد الناصر التنحي، وقبل أن ينتهي من خطابه كانت الجماهير تزأر في الشوارع لبقائه.

بكى المذيع الذي نقل حديث الرئيس في نهاية البث، فقطعنا عنه الإرسال المباشر وأذعنا مارشات عسكرية، هممت بالانصراف وفي ذهني تقديم طلب إجازة مفتوحة لترميم نفسي، لكن صدرت تعليمات للجميع بالبقاء في مكاتبنا، وأبلغونا بأن المشير عامر في طريقه لماسبيرو لإذاعة بيان عاجل. انزعج الجميع لكني حدثت نفسي قائلًا: ولِمَ لا؟ الرجل منذ البداية يتقاسم المسئولية مع الرئيس، ولا بد من

توزيع الخسائر مناصفة أيضًا.

بدا رئيس الإذاعة غير متحمس لحضور المشير أو إذاعته بيان على الهواء، الهزيمة ثقيلة والشوارع تغلي لتنحي عبد الناصر والفوضى واردة. عقدنا اجتماعًا انتهى الرأي فيه إلى استقبال المشير عامر وبث البيان من الأستديو بحيث يراه رجال المشير على الشاشة دون توصيل الهواء له فلا يُذاع للناس مباشرة.

طلبت الكلمة وتساءلت عن موقفنا أمام المشير ورجاله عند انكشاف الأمر وحتمًا سينكشف، ظللنا بأماكننا نفكر في إجابة حتى تدخل القدر بحلٍّ أراح جميع الأطراف، بما فيها الشعب المصري كله، تلقينا اتصالًا هاتفيًا من مكتب المشير بإلغاء حضوره أو إذاعة بيان مسجل من منزله. لا أعرف لماذا اعتذر المشير، ولا ما الذي كان ينوي إذاعته على الناس، ليته فعلها وعرفنا حقيقة ما جرى.

نظرت لفهمي لعله يقول رأيًا يريحني، أو حتى يعطيني أملًا فيما هو آت، لكنه ظل جالسًا كتمثال، فكرت في أنني أطلت في الكلام وأرهقته بحكايتي فاستأذنت في الانصراف، غادرت وهو لا يزال على وضعيته المتصلبة، قبل خروجي من الحديقة التفت ناحية الشرفة، وجدته في

مكانه ينظر في الفراغ، ولأول مرة أشعر بأن الهزيمة كسرت روحه وقتلت فيه حب الحياة، طوال الشهور الثلاثة الماضية كان يتظاهر بالتماسك حتى انهارت مقاومته، لم يفعلها فيه المعتقل ولا طرده من الوظيفة ولا فرض الإقامة الجبرية عليه، ولا حتى طلاقه لسارة وفقده ابنته، انهزم مثلي ومثل آلاف غيرنا بضربة قاضية أنهت ما تبقى منه، سلبته حكايات النكسة كبرياءه بالتدريج حتى تركته عاريًا، يتوق لكلمة واحدة تطمئنه وتستر ما تبقى من انتمائه.

في طريقي لسيارتي، سمعت جلبة ورائي بالحديقة، ولمحت ابن شكري الصغير يدفس وجهه بين مرفقيه مستندًا بهما على باب البدروم الأخضر الذي يسمونه «بيت الأمة»، رأيت بركات ابن فهمي يقف حائرًا وسط الحديقة، لا يدري أين يختبئ من ابن عمه، يتحرك في مكانه ولا يخطو خطوة في أي اتجاه بدا هدفًا مكشوفًا يسهل قنصه، هززت رأسي مبتسمًا ثم غادرت، وصوت ابن شكري يرن في أذني وهو يصيح بحماس غريب.. «ثمانية، تسعة، عشرة».

(تمت)

أشرف العشماوي

5 يونيو 2023